آية الله العظمى مكارم الشيرازي

نفحات الولاية

شرح عصري جامع لنهج البلاغة

الجزء الخامس

بسم الله الرحمن الرحیم

نفحات الولایه: شرح عصری جامع لنهج البلاغه

کاتب:

ناصرمکارم شیرازی

نشرت فی الطباعهٔ:

مدرسه الامام علی بن ابی طالب (علیه السلام)

رقمی الناشر:

مرکز القائمیهٔ باصفهان للتحریات الکمبیوتریهٔ

الفهرس

نفحات الولایة المجلد ۵

اشارة

عنوان و نام پدیدآور : نفحات الولایه: شرح عصری جامع لنهج‌البلاغه/ ناصرمکارم شیرازی، بمساعده مجموعه من‌الفضلاء؛ اعداد عبدالرحیم الحمدانی.

مشخصات نشر : قم : مدرسه‌الامام علی‌ابن‌ابی‌طالب (ع) ، ۱۴۲۶ق.-= ۱۳۸۴.

مشخصات ظاهری : ج.

شابک : ۳۰۰۰۰ ریال : دوره ۹۶۴-۸۱۳-۹۵۸-X: ؛ ج. ۱ ۹۶۴-۸۱۳-۹۰۷-۵ : ؛ ج. ۲ ۹۶۴-۸۱۳-۹۰۸-۳ : ؛ ج. ۳ ۹۶۴-۸۱۳-۹۱۷-۲ : ؛ ج. ۴ ۹۶۴-۸۱۳-۹۱۸-۰ : ؛ ج.۵ : ۹۶۴-۸۱۳-۹۴۱-۵ ؛ ۷۰۰۰۰ ریال: ج. ۶۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۰-۵ : ؛ ۷۰۰۰۰ ریال: ج. ۷۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۱-۲ : ؛ ۷۰۰۰۰ ریال: ج. ۸۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۲-۹ : ؛ ۷۰۰۰۰ ریال: ج. ۹۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۳-۶ : ؛ ۷۰۰۰۰ ریال: ج. ۱۰۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۴-۳ :

یادداشت : عربی.

یادداشت : ج ۱- ۵ (چاپ دوم: ۱۳۸۴).

یادداشت : ج. ۶- ۱۰ (چاپ اول: ۱۴۳۲ ق.= ۱۳۹۰).

یادداشت : کتابنامه.

مندرجات : .- ج. ۶. من خطبة ۱۵۱ الی ۱۸۰.- ج. ۷. من خطبة ۱۸۱ الی ۲۰۰.- ج. ۸. من خطبة ۲۰۱ الی ۲۴۱.- ج. ۹. من رسالة ۱ الی ۳۱.- ج. ۱۰. من رسالة ۳۲ الی ۵۳

موضوع : علی‌بن ابی‌طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق -- خطبه‌ها

موضوع : علی‌بن ابی‌طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق. -- کلمات قصار

موضوع : علی‌بن ابی‌طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق. -- نامه‌ها

موضوع : علی‌بن ابی‌طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق . نهج‌البلاغه -- نقد و تفسیر

شناسه افزوده : حمرانی، عبدالرحیم

شناسه افزوده : علی‌بن ابی‌طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق . نهج‌البلاغه. شرح

شناسه افزوده : مدرسة الامام علی بن ابی طالب (ع)

رده بندی کنگره : BP۳۸/۰۲ /م۷ ۱۳۸۴

رده بندی دیویی : ۲۹۷/۹۵۱۵

شماره کتابشناسی ملی : م‌۸۴-۴۰۳۴۷

الخطبة[1] المأة وإحدی عشرة

اشارة

وَمِنْ خُطْبِةٍ لَهُ علیه السلام

فِی ذَمِّ الدُّنیا

نظرة إلى الخطبة

تحدثت هذه الخطبة بصورة عامّة- كما ورد فى عنوانها عن ذمّ الدنيا، الدنيا التى تغرق الإنسان فى لذاتها وزخارفها الزائلة اللامشروعة، ومتعها الرخيصة، بحيث يتناسى اللّه والخلق ومصيره وعاقبته، الدنيا التى تغيب فيها معانى القيم والمثل ولا يعد فيها من مفهوم للحلال والحرام والظلم والعدل.

والخطبة التى نحن بصددها على أقسام:

القسم الأول: فيها يتعرض إلى خداع الدنيا وغرورها وزبرجها وظاهرها الأجوف الذى لا باطن له.

القسم الثانى: فيتناول تقلب أحوال الدنيا وعدم ثباتها، إلى جانب الحديث عن النعم التى قد تتبدل نقماً والنجاحات التى تتحول فشلًا.

القسم الثالث: خاض عليه السلام فى بيان فناء الدنيا وزوالها، حيث تضمّن عبارات رائعة مؤثرة

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۶

تكشف النقاب عن حقيقة هذا الأمر.

القسم الرابع: فكأنّه يأخذ بيد الناس ويغوص بهم فى أعماق تاريخ الماضيين، والعاقبة المريرة التى طالت الأقوام من ذات القوّة والسطوة لتهز عروشهم وتحيلهم أجساداً خاوية قبرت تحت التراب.

وأخيراً القسم الخامس: الذى تطرق إلى الموت والأموات الذين عاشوا دهراً بيننا بذلك النشاط والحيوية وقد ذاع صيتهم ليعمّ الأرجاء، والحال قد ذهبت تلك الحيوية أدراج الرياح وتبدل ذلك النشاط إلى خمول وضمور بعد أن أتاهم الموت وأحال أجسادهم تراباً.

هذا وقد أورد الإمام عليه السلام هذه الخطبة بعبارات لطيفة بالغة التأثر شأنها إيقاظ أسوأ الأفراد الذين يغطّون فى سبات الغفلة ونفث النور والأمل فى أوراحهم المظلمة البائسة.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۷

القسم الأول: الدنيا الغرارة!

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّى أُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّهَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، وَتَحَبَّبَتْ بِالْعَاجِلَةِ، وَرَاقَتْ بِالْقَلِيلِ، وَتَحَلَّتْ بِالْآمَالِ، وَتَزَيَّنَتْ بِالْغُرُورِ. لَا تَدُومُ حَبْرَتُهَا، وَلَا تُؤْمَنُ فَجْعَتُهَا. غَرَّارَةٌ ضَرَّارَةٌ، حَائِلَةٌ زَائِلَةٌ، نَافِدَةٌ بَائِدَةٌ، أَكَّالَةٌ غَوَّالَةٌ. لَا تَعْدُو- إِذَا تَنَاهَتْ إِلَى أُمْنِيَّةِ أَهْلِ الرَّغْبَةِ فِيهَا وَالرِّضَاءِ بِهَا- أَنْ تَكُونَ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى سُبْحَانَهُ: «كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً».

الشرح والتفسير

إستهل الإمام عليه السلام الخطبة بتحذير الجميع من هذه الدنيا الفانية والغرارة، ثم أماط اللثام عن ماهية واقعها وحقيقتها من خلال وصفها والتعرض لغرورها وخداعها بثمان عشرة عبارة، فقال عليه السلام أحذركم من هذه الدنيا ذات الظاهر اللطيف الذى إنطوى على اللذّات والشهوات، الأمر الذى يجعلها تشد إليها الأنظار بفعل عينيتها ومثولها للإنسان رغم ضحالة نعمها وتفاهتها، إلّاأنّها تحلّت بالآمال وتزيّنت بالغرور لتسوق إليها هذا الإنسان:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّى أُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّهَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، وَتَحَبَّبَتْ

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۸

بِالْعَاجِلَةِ، وَرَاقَتْ ۲] بِالْقَلِيلِ، وَتَحَلَّتْ بِالْآمَالِ، وَتَزَيَّنَتْ بِالْغُرُورِ».

فالإمام علیه السلام یری خداع الدنیا فی حلوّ ظاهرها المحفوف بالشهوات، فهی محببهٔ إلی النفوس کونها ماثلهٔ للعیان ملموسهٔ، وهذا هو المعنی المراد من العبارهٔ

«تَحَبَّبَتْ بِالْعَاجِلَهِٔ».

أمّا العبارهٔ

«رَاقَتْ بِالْقَلِیلِ»

، فهی إشارهٔ إلی أنّ الدنیا قد زینت متاعها القلیل بالشکل الذی جعلها تستقطب قلوب عبدهٔ الدنیا المتکالبین علی حطامها.

بینما أشارت العبارت

«تَحَلَّتْ بِالْآمَالِ»

إلی زیف هذه الزینهٔ التی تحلّت بها الدنیا، حیث تفتقر إلی الواقع، بل زینت مظهرها بالآمال والخیالات الفارغهٔ الزائفهٔ، وهذا هو المعنی الذی أکدته العبارهٔ

«تَزَیَّنَتْ بِالْغُرُورِ»

، فرصیدها الرئیسی الذی یشکل عنصر التزیین إنّما هو الغرور الخداع، ولعل الوقوف علی عمق هذا المعنی یتجسد من خلال النظر من بعید إلی قصور الملوک وسلطتهم الظاهریهٔ المرعبهٔ، وسعهٔ حجم أموالهم وثرواتهم، وأبههٔ وجلال مراکبهم وملابسهم النفیسهٔ الفاخرهٔ وسائر الوسائل والأدوات التی یعتمدونها فی حیاتهم ومعیشتهم التی تخطف الأبصار وتسحر القلوب، بینما الاقتراب منهم والغوص فی واقع حیاتهم لا یری سوی البؤس والشقاء وسبل المصاعب والمشاکل التی تلف حیاتهم ومدی القلق والاضطراب الذی یسودهم من جراء المؤامرات والدسائس التی یخطط لها أعداؤهم إلی جانب الحسد والطمع الذی تکنّه لهم بطانتهم وقرابتهم.

والواقع هو أنّ هذه العبارات إقتباس ممّا صرحت به بعض الآیات القرآنیهٔ، فقد جاء فی القرآن الکریم بشأن الحیاهٔ الدنیا:

«وَمَا الْحَیَاهُٔ الدُّنْیَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ...»[۳].

وجاء فی موضع آخر: «إِنَّ هَؤُلَاءِ یُحِبُّونَ الْعَاجِلَهَٔ ...»[۴].

کما جاء أیضاً: «زُیِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِینَ وَالْقَنَاطِیرِ الْمُقَنْطَرَهِٔ ...»[۵]

نفحات الولایهٔ، ج۵، ص: ۹

. وقال تعالی أیضاً: «ذَرْهُمْ یَأْکُلُوا وَیَتَمَتَّعُوا وَیُلْهِهِمْ الْأَمَلُ فَسَوْفَ یَعْلَمُونَ»[۶].

ثم واصل الإمام علیه السلام کلامه بأنّ نِعم الدنیا وسرورها إلی إنقطاع ولا دوام لها، ولیس هناک من شخص بمنأی عن مشاکلها وفجائعها، ورصیدها الخداع والغرور والضرر والخسران، معروفهٔ بالفناء والزوال وعاقبهٔ أمر سکانها وعمارها الهلاک والعدم:

«لَا تَدُومُ حَبْرَتُهَا[۷]، وَلَا تُؤْمَنُ فَجْعَتُهَا. غَرَّارَهٌٔ ضَرَّارَهٌٔ، حَائِلَهٌٔ[۸] زَائِلَهٌٔ، نَافِدَهٌٔ[۹] بَائِدَهٌٔ[۱۰]، أَکَّالَهٌٔ غَوَّالَهٌٔ[۱۱]».

نقد تناول الإمام علیه السلام الدنیا لیتحدث بهذه العبارات الرائعهٔ البیان عن تقلب أحوالها وعدم ثباتها، فلیس هنالک من دوام واستمرار لأیمن مفرداتها من قبیل حلاوتها وطلاوتها ونعمها وثرواتها وإمکاناتها وآمالها ورغباتها ونشاطها وعنفوان الشباب فیها، فکل هذه الامور محکومهٔ بالفناء والزوال، وبناءاً علی هذا فلا یرکن إلیها إلّاالجاهل الغافل.

ثم اختتم علیه السلام کلامه- فی هذا القسم من الخطبهٔ- بالقول:

«لَا تَعْدُو- إِذَا تَنَاهَتْ إِلَی أُمْنِیَّتِهِٔ أَهْلِ الرَّغْبَهِٔ فِیهَا وَالرِّضَاءِ بِهَا- أَنْ تَکُونَ کَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَی سُبْحَانَهُ: «کَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِیماً[۱۲] تَذْرُوهُ الرِّیَاحُ وَکَانَ اللَّهُ عَلَی کُلِّ شَیْءٍ مُقْتَدِراً»[۱۳]».

فقد عزز الإمام علیه السلام إثبات مراده من خلال التمسک والاستشهاد بالتشبیه الرائع الذی أورده القرآن فی سورهٔ الکهف بشأن الدنیا، وکأنّی به قد اصطحب المخاطب إلی حیث الصحراء

نفحات الولايهٔ، ج۵، ص: ۱۰

ليريهم صورهٔ الربيع والخريف واهتزاز الأرض وحيوتها من نزول المطر وخروج النباتات وتفتح البراعم والزهور وحمل الأشجار للفاكههٔ والثمار، غير أنّ هذه الامور لا يكتب لها الاستمرار والدوام، فلم تشهد هذه الحالهٔ سوى بضعهٔ شهور لتذبل تلك الأوراق وتنتهى تلك الثمار وتنقطع زقزقهٔ العصافير والطيور وتتبدل الخضرهٔ بيوسهٔ وجفافاً، وهذه بالضبط حقيقهٔ الحياهٔ الدنيا التى تعيشها البشريهٔ حيث يتّجه كل شىء فيها نحو الزوال فيا له من تشبيه رائع وعجيب!

نفحات الولايهٔ، ج۵، ص: ۱۱

القسم الثانى: الدنيا كل يوم بلباس

«لَمْ يَكُنِ امْرُؤٌ مِنْهَا فِی حَبْرَةٍ إِلَّا أَعْقَبَتْهُ بَعْدَهَا عَبْرَةٌ، وَلَمْ يَلْقَ فِی سَرَّائِهَا بَطْناً، إِلَّا مَنَحَتْهُ مِنْ ضَرَّائِهَا ظَهْراً؛ وَلَمْ تَطُلَّهُ فِيهَا دِيْمَةُ رَخَاءٍ، إِلَّا هَتَنَتْ عَلَيْهِ مُزْنَةُ بَلَاءٍ، وَحَرِیٌّ إِذَا أَصْبَحَتْ لَهُ مُنْتَصِرَةً أَنْ تُمْسِیَ لَهُ مُتَنَكِّرَةً، وَإِنْ جَانِبٌ مِنْهَا اعْذَوْذَبَ وَاحْلَوْلَى، أَمَرَّ مِنْهَا جَانِبٌ فَأَوْبَى! لَايَنَالُ امْرُؤٌ مِنْ غَضَارَتِهَا رَغَباً، إِلَّا أَرْهَقَتْهُ مِنْ نَوَائِبِهَا تَعَباً. وَلَا يُمْسِی مِنْهَا فِی جَنَاحِ أَمْنٍ، إِلَّا أَصْبَحَ عَلَى قَوَادِمِ خَوْفٍ. غَرَّارَةٌ، غُرُورٌ مَا فِيهَا، فَانِيَةٌ، فَانٍ مَنْ عَلَيْهَا، لَا خَيْرَ فِی شَیْءٍ مِنْ أَزْوَادِهَا إِلَّا التَّقْوَى. مَنْ أَقَلَّ مِنْهَا اسْتَكْثَرَ مِمَّا يُؤْمِنُهُ. وَمَنِ اسْتَكْثَرَ مِنْهَا اسْتَكْثَرَ مِمَّا يُوبِقُهُ، وَزَالَ عَمَّا قَلِيلٍ عَنْهُ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبهٔ مواصلهٔ لذمّ الحياهٔ المادیهٔ الدنيويهٔ إلى صفهٔ أخرى من صفاتها البارزهٔ الأخرى والمتمثلهٔ بسرعهٔ تغيّرها وتبدّلها، إلى جانب تبدّل نعمها ونقمها، فلم يصب أحد منها سروراً إلّاأتبعته حزناً وحسرهٔ، ولم يذق حلاوتها إلّااستشعر مرارتها:

«لَمْ يَكُنِ امْرُؤٌ مِنْهَا فِی حَبْرَةٍ إِلَّا أَعْقَبَتْهُ بَعْدَهَا عَبْرَةٌ، وَلَمْ يَلْقَ فِی سَرَّائِهَا بَطْناً، إِلَّا مَنَحَتْهُ ۱۴] مِنْ ضَرَّائِهَا ظَهْراً».

نفحات الولايهٔ، ج۵، ص: ۱۲

ثم أكّد عليه السلام هذا المعنى بأنّه لم يستشعر هبوب الرياح اللطيفهٔ والأمطار الملائمهٔ حتى يغرق فى سبيل من البلاء:

«وَلَمْ تَطُلَّهُ ۱۵] فِيهَا دِيْمَةُ[۱۶] رَخَاءٍ، إِلَّا هَتَنَتْ ۱۷] عَلَيْهِ مُزْنَةُ[۱۸] بَلَاءٍ».

ومن هنا فلا وجه للغرابهٔ والتعجب إذا انتصرت لأحد صباحاً تنكرت له مساءاً، وإن حملت بيد ظرفاً حلواً حملت بأخرى ظرفاً مرّاً:

«وَحَرِیٌّ إِذَا أَصْبَحَتْ لَهُ مُنْتَصِرَةً أَنْ تُمْسِیَ لَهُ مُتَنَكِّرَةً، وَإِنْ جَانِبٌ مِنْهَا اعْذَوْذَبَ ۱۹] وَاحْلَوْلَى ۲۰]، أَمَرَّ مِنْهَا جَانِبٌ فَأَوْبَى![۲۱]».

نعم، هذه هى طبيعهٔ الدنيا وستكون كذلك، حيث تستحيل حلاوتها مرارهٔ، ونصرها هزمهٔ، وحياتها موتاً، وليست هناك أيهٔ قدرهٔ يسعها الحيلولهٔ دون هذه الاستحالهٔ والتغيير.

ثم واصل عليه السلام تأكيد هذه الحقيقهٔ فى أنّ الإنسان لا يصيب منها لذّهٔ ونعمهٔ إلّاأتبعته غصّهٔ ورهقهٔ، ودفعت به إلى ما يتعبه من الشدائد والنوائب، فلا يكاد يتمتع بلذّهٔ الأمن حتى يزعجه ألم الخوف والخطر:

«لَايَنَالُ امْرُؤٌ مِنْ غَضَارَتِهَا[۲۲] رَغَباً، إِلَّا أَرْهَقَتْهُ ۲۳] مِنْ نَوَائِبِهَا تَعَباً، وَلَا يُمْسِی مِنْهَا فِی جَنَاحِ أَمْنٍ، إِلَّا أَصْبَحَ عَلَى قَوَادِمِ ۲۴] خَوْفٍ».

أجل، ليست هناك من فاصلهٔ يؤبه بها فى هذه الدنيا لا مكانيهٔ ولا زمانيهٔ بين السعادهٔ والشقاء، فقد تراه أحياناً جن عليه الليل وقد غرق فى لذاته وشهواته وهنيىء عيشه ودعته فى هالهٔ من فرحه وسروره، ولم يكد يطلع الصبح عليه حتى تتعالى الأصوت بالنحيب والبكاء تنعى فقده ومفارقته لهذه الدنيا، بل لعله يتجرع كأس المنون من يد أقرب مقربيه:

ثم استمر عليه السلام فى الحديث عن غرور الدنيا وزوالها فقال:

«غَرَّارَةٌ، غُرُورٌ مَا فِيهَا، فَانِيَةٌ، فَانٍ مَنْ عَلَيْهَا، لَا خَيْرَ فِی شَیْءٍ مِنْ أَزْوَادِهَا إِلَّا التَّقْوَى. مَنْ أَقَلَّ مِنْهَا اسْتَكْثَرَ مِمَّا يُؤْمِنُهُ. وَمَنِ

نفحات الولايهٔ، ج۵، ص: ۱۳

اسْتَكْثَرَ مِنْهَا اسْتَكْثَرَ مِمَّا يُوبِقُهُ ۲۵]، وَزَالَ عَمَّا قَلِيلٍ عَنْهُ».

وهكذا أورد الإمام عليه السلام هذه الصفات التى تصور تغير أحوال الدنيا وعدم ثباتها وأفول قدرتها وزوال موفقياتها ليخلص إلى نتيجهٔ مفادها ضرورهٔ قناعهٔ العاقل بالقليل منها (على قدر الكفاف) ليمهد السبل أمام أمنه واستقراره وراحهٔ باله، وذلك لأنّ من طلب المزيد فيها غامر بنفسه وقذف بها فى لهوات المخاطر، فيكون بذلك قد مهد السبيل أمام شقاء نفسه وبؤسها.

نفحات الولايهٔ، ج۵، ص: ۱۵

القسم الثالث: الدنيا سند هش خاوى!

«كَمْ مِنْ وَاثِقٍ بِهَا قَدْ فَجَعَتْهُ، وَذِى طُمَأْنِينَةٍ إِلَيْهَا قَدْ صَرَعَتْهُ. وَذِى أُبَّهَةٍ قَدْ جَعَلَتْهُ حَقِيراً، وَذِى نَخْوَةٍ قَدْ رَدَّتْهُ ذَلِيلًا سُلْطَانُهَا دُوَّلٌ وَعَيْشُهَا رَنِقٌ، وَعَذْبُهَا أُجَاجٌ، وَحُلْوُهَا صَبِرٌ، وَغِذَاؤُهَا سِمَامٌ، وَأَسْبَابُهَا رِمَامٌ. حَيُّهَا بِعَرَضِ مَوْتٍ، وَصَحِيحُهَا بِعَرَضِ سُقْمٍ. مُلْكُهَا مَسْلُوبٌ، وَعَزِيزُهَا مَغْلُوبٌ، وَمَوْفُورُهَا مَنْكُوبٌ. وَجَارُهَا مَحْرُوبٌ!»

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام- فى هذا المقطع من الخطبهٔ- إلى أمرين مهمين آخرين بشأن الحياهٔ الدنيا ووضاعهٔ متاعها المادية:

الأمر الأول: أنّ لا شىء فيها يمكن الاعتماد عليه والوثوق به، فقد قال عليه السلام بهذا الشأن كم من وثق بهذه الدنيا وسكن إليها فجرعته الألم والمعاناهٔ، وما أكثر الأفراد الذين اطمئنوا إليها فصرعتهم، وما أكثر الأفراد الذين كانوا من أهل السطوهٔ والشوكهٔ، فأذاقتهم لباس الذلّهٔ والمسكنهٔ:

«كَمْ مِنْ وَاثِقٍ بِهَا قَدْ فَجَعَتْهُ، وَذِى طُمَأْنِينَةٍ إِلَيْهَا قَدْ صَرَعَتْهُ. وَذِى أُبَّهَةٍ[۲۶] قَدْ جَعَلَتْهُ حَقِيراً، وَذِى نَخْوَةٍ قَدْ رَدَّتْهُ ذَلِيلًا».

نعم، ليس هنالك من فرد مهما كان مقامه، وموقعه بمأمن من الحوادث الخطيرهٔ والمكاره

نفحات الولايهٔ، ج۵، ص: ۱۶

التى تصيب الإنسان بغتهٔ، فعظام الملوك والسلاطين والأبطال الأشداء أصحاب رؤوس المال من أهل الجاه والسطوهٔ والشباب الذين يعيشون عنفوان النشاط والحيويهٔ والجمال، كل هؤلاء ومن شاكلهم إنّما يخضعون لهذه الحوادث التى تجرى عليهم وهم صاغرون، الحوادث التى تأتى على جميع النعم واللذات فتخطفها فى لحظهٔ وتذل الأعزّهٔ والجبابرهٔ وما التاريخ عنك ببعيد، فقد شحن بمثل هذه الحوادث، وقد ورد فى تاريخ الطبرى أنّ سليمان بن عبدالملك لبس ذات يوم لباساً فاخراً واعتم بعمهٔ خضراء وأخذ ينظر فى المرآهٔ (وهو يتلذذ بما يشاهد من نفسه فدفعه الفخر لأن) يقول: أنا ملك شاب سعيد الحظ، فلم يعمر بعد ذلك أكثر من سبعهٔ أيّام ۲۷].

الأمر الثانى: هو أنّ حلاوتها قد عجنت بالمرارهٔ وانتصاراتها بالهزائم:

«سُلْطَانُهَا دُوَّلٌ ۲۸] وَعَيْشُهَا رَنِقٌ ۲۹]، وَعَذْبُهَا أُجَاجٌ ۳۰]، وَحُلْوُهَا صَبِرٌ[۳۱]، وَغِذَاؤُهَا سِمَامٌ ۳۲]، وَأَسْبَابُهَا رِمَامٌ ۳۳]».

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى حال ساكن الدنيا من أنّ حياته معرّض للموت والسقم والمرض يتربص بعافيته وصحته، ملك هذه الدنيا يستبطن الزوال والفناء، وعزيزها آيل إلى الانكسار، ووفرهٔ نعمها تحمل معها مفردات النفاد والانقضاء:

«حَيُّهَا بِعَرَضِ مَوْتٍ، وَ صَحِيحُهَا بِعَرَضِ سُقْمٍ. مُلْكُهَا مَسْلُوبٌ، وَعَزِيزُهَا مَغْلُوبٌ، وَمَوْفُورُهَا[۳۴] مَنْكُوبٌ ۳۵]، وَجَارُهَا مَحْرُوبٌ![۳۶]».

نعم، فمتع الدنيا ولذاتها إن وجدت، فهى مشوبهٔ بأنواع المعاناهٔ والألم، والحكام فى ذوى القدرهٔ والسطوهٔ الذين نغبطهم على مدى قدرتهم وشدّهٔ شوكتهم وتربعهم على العرش نراهم

نفحات الولايهٔ، ج۵، ص: ۱۷

حين الاقتراب منهم أخوف ما يخافون حتى من مقربيهم، وأكثر الناس طاعهٔ لأوامرهم، بل هم فى غايهٔ القلق والاضطراب ممّا يخبىء

لهم الغد والمستقبل القريب.

ولعل هذا الأمر أشبه شيئاً بتلك القصّة التى تحدثت عن ذلك الفرد الذى كان يتمنى التربع على العرش السلطة ولو ليوم واحد، فحققوا له ما يريد، غير أنّهم عقلّوا على رأسه خنجراً حاداً ربطوه بشعرة، فكان يتوقع فى كل آن قطع تلك الشعرة ونزول ذلك الخنجر على هامته، فكان يرجو بفارغ الصبر انقضاء ذلك اليوم والخلاص من مسند العرش الذى انطوى على ذلك الخطر، فما أورع الصورة التى رسمها الإمام عليه السلام لهذه الدنيا الغرور حين قال:

«كَمْ مِنْ وَاثِقٍ بِهَا قَدْ فَجَعَتْهُ، وَذِى طُمَأْنِينَةٍ إِلَيْهَا قَدْ صَرَعَتْهُ».

فليس هنالك ما يوثق به منها ولا يعتمد عليه فيها.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۹

القسم الرابع: تأملوا الماضى قليلًا

«أَلَسْتُمْ فِى مَسَاكِنِ منْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَطْوَلَ أَعْمَاراً، وَأَبْقَى آثَاراً، وَأَبْعَدَ آمَالًا، وَأَعَدَّ عَدِيداً، وَأَكْثَفَ جُنُوداً! تَعَبَّدُوا لِلدُّنْيَا أَىَّ تَعَبُّدٍ، وَآثَرُوهَا أَىَّ إِيثَارٍ. ثُمَّ ظَعَنُوا عَنْهَا بِغَيْرِ زَادٍ مُبَلِّغٍ وَلَا ظَهْرٍ قَاطِعٍ. فَهَلْ بَلَغَكُمْ أَنَّ الدُّنْيَا سَخَتْ لَهُمْ نَفْساً بِفِدْيَةٍ، أَوْ أَعَانَتْهُمْ بِمَعُونَةٍ، أَوْ أَحْسَنَتْ لَهُمْ صُحْبَةً! بَلْ أَرْهَقَتْهُمْ بِالْقَوَادِحِ، وَأَوْهَقَتْهُمْ بِالْقَوَارِعِ، وَضَعْضَعَتْهُمْ بِالنَّوَائِبِ، وَعَفَّرَتْهُمْ لِلْمَنَاخِرِ، وَوَطِئَتْهُمْ بِالْمَنَاسِمِ، وَأَعَانَتْ عَلَيْهِمْ رَيْبَ الْمَنُونِ. فَقَدْ رَأَيْتُمْ تَنَكُّرَهَا لِمَنْ دَانَ لَهَا، وَآثَرَهَا وَأَخْلَدَ لَهَا، حِينَ ظَعَنُوا عَنْهَا لِفِرَاقِ الْأَبَدِ. وَهَلْ زَوَّدَتْهُمْ إِلَّا السَّغَبَ، أَوْ أَحَلَّتْهُمْ إِلَّا الضَّنْكَ، أَوْ نَوَّرَتْ لَهُمْ إِلَّا الظُّلْمَةَ، أَوْ أَعْقَبَتْهُمْ إِلَّا النَّدَامَةَ! أَفَهذِهِ تُؤْثِرُونَ، أَمْ إِلَيْهَا تَطْمَئِنُّونَ؟ أَمْ عَلَيْهَا تَحْرِصُونَ؟ فَبِئْسَتِ الدَّارُ لِمَنْ لَمْ يَتَّهِمْهَا، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا عَلَى وَجَلٍ مِنْهَا!»

الشرح والتفسير

واصل الإمام عليه السلام الخطبة التى أوردها فى ذم الدنيا وسرعة زوالها وخداعها وغرورها مصطحباً مخاطبيه هذه المرة ليغوص فى أعماق تاريخ الامم السالفة، ليصور من خلالها حياة أصحاب السلطة والقدرة ممن ملأ صيتهم الأرجاء وكانت تقوم الدنيا وتقعد بين أيديهم، وكذلك أصحاب الثروة والمال ليتساءل عليه السلام ألستم تحلون محلّ من كان قبلكم وتسكنون مساكنهم، ممن عمروا كثيراً وتركوا آثاراً وكانت لهم أمنياتهم وآمالهم ورغباتهم، وكانت لهم

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۰

جنودهم وحماتهم:

«أَلَسْتُمْ فِى مَسَاكِنِ منْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَطْوَلَ أَعْمَاراً، وَأَبْقَى آثَاراً، وَأَبْعَدَ آمَالًا، وَأَعَدَّ عَدِيداً[۳۷]، وَأَكْثَفَ [۳۸] جُنُوداً!».

فقد أشار الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة إلى خمس خصائص إمتازت بها الأقوام السابقة وهى: طول العمر، وبقاء الآثار والمخلفات، وطول الآمال، وكثرة السكان، وكثرة الجنود، فهى خصائص منحتهم التفوق على سائر من سواهم، وإلّا أنّ أى من هذه الامتيازات لم يحل دون زحف العدم والفناء لقصورهم وأديتهم، فكان مصيرهم أن تلاشوا وتساقطوا ركوعاً للموت تساقط أوراق الشجر فى فصل الخريف.

ثم أضاف عليه السلام مواصلًا كلامه بهذا الشأن: «تَعَبَّدُوا لِلدُّنْيَا أَىَّ تَعَبُّدٍ، وَآثَرُوهَا أَىَّ إِيثَارٍ. ثُمَّ ظَعَنُوا عَنْهَا بِغَيْرِ زَادٍ مُبَلِّغٍ وَلَا ظَهْرٍ قَاطِعٍ». نعم، فرغم كلّ سعيهم وجهدهم فى سبيل عبادة الدنيا والذوبان فيها وتجنيد كافة قواهم وطاقاتهم فى هذا الاتجاه، إلّاأنّهم لم يصيبوا أى شىء منها، ثم مشوا إلى حتوفهم وقد خلت جعبهم من الزاد والمتاع ودون حمل الورع والتقوى التى لا يجدى غيرها نفعاً هناك، فطريق الآخرة شاق طويل لا يجتازه إلّاأهل الورع والتقى.

ثم خاطب عليه السلام صحبه: هل بلغكم أنّ الدنيا قدمت لأحدهم فدية لتنجيه من الموت أو سكراته؟ أم هل أعانتهم بشىء فى هذا

السبیل؟ أم هل کانت علی الأقل صاحباً حسناً لهم:

«فَهَلْ بَلَغَکُمْ أَنَّ الدُّنْیا سَخَتْ ۳۹] لَهُمْ نَفْساً بِفِدْیَهٍ، أَوْ أَعَانَتْهُمْ بِمَعُونَهٍ، أَوْ أَحْسَنَتْ لَهُمْ صُحْبَهً!».

نعم، لم تقدم لهم أی عون ولم تنجیهم عن المکاره والأهاویل، أفلا یکون ذلک عبرة لم اعتبر من أبناء الدنیا!

ثمّ واصل الإمام علیه السلام کلامه بهذا الخصوص قائلًا:

«بَلْ أَرْهَقَتْهُم ۴۰] بِالْقَوَادِحِ ۴۱]، وَأَوْهَقَتْهُمْ ۴۲]

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۲۱

بِالْقَوَارِعِ ۴۳]، وَضَعْضَعَتْهُمْ ۴۴] بِالنَّوَائِبِ، وَعَفَّرَتْهُمْ ۴۵] لِلْمَنَاخِرِ، وَوَطِئَتْهُمْ بِالْمَنَاسِمِ ۴۶]، وَأَعَانَتْ عَلَیْهِمْ رَیْبَ الْمَنُونِ ۴۷]».

فهـذه العبارة المؤثرة تشیر إلی أنّ الـدنیا لیس فقط لم تقدم العون والمساعدة لعبادها وأصـحابها، بل سارعت بکل ما أوتیت من وقوة لتوجیه ضرباتها الماحقة إلیهم بغیة إبادتهم، وإستئصال شوکتهم، حتی جندت جمیع قواها وطاقاتها ضدهم.

والطریف فی بیان الإمام علیه السـلام هو أنّه بـدأ من المراحل الکبری نزولًا إلی الصـغری فی إطار تصویره لإعانـة الدنیا وما یمکنها أن تقـدمه من نصـرة ومساعـدة، بینمـا تـدرج فی أضـرارها الـتی تصـیب من تعلـق بهـا من المراحـل السـفلی إلی المراحـل العلیـا المتمثلة بالانقضاض علیهم وإزالتهم من صـحفة الوجود، ولعمری هذه قمة الفصاحة والبلاغة فی بیان الحقائق المریرة والألیمة ویکشف النقاب عن مدی وضاعة الدنیا وانحطاطها وتنکرها لمن أخلد إلیها واطمأن بها.

ثم خلص علیه السـلام إلی نتیجة ممّا سبق مفادها تنکر الدنیا لأصحابها ممن آثرها علی کلّ شیء وهو الأمر الذی رأوه بأم أعینهم (أو لعلهم طالعوه بشأن الامم التی سبقتهم) فقد سلمتهم للأقدار وساقتهم نحو الموت دون أن یعدّوا الزاد والمتاع لتلک الدار الآخرة:

«رَأَیْتُمْ تَنَکُّرَهَا لِمَنْ دَانَ لَهَا، وَآثَرَهَا وَأَخْلَدَ[۴۸] لَهَا، حِینَ ظَعَنُوا عَنْهَا لِفِرَاقِ الْأَبَدِ».

فهل أمدتهم هذه الدنیا بشیء سوی الجوع والفقر؟ وهل عرضتهم سوی للتعب والارهاق

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۲۲

والضـنک؟ وهل وهبتهم إلّاالظلمـة التی لیس معها نور؟ (أبداً، بل أودعتهم حفراً مظلمة موحشة تفیض رعباً وخشـیة)، وهل بقی لدیهم من شیء سوی الحسرة والندم:

«وَهَلْ زَوَّدَتْهُمْ إِلَّا السَّغَبَ، أَوْ أَحَلَّتْهُمْ إِلَّا الضَّنْکَ ۴۹]، أَوْ نَوَّرَتْ لَهُمْ إِلَّا الظُّلْمَهَ، أَوْ أَعْقَبَتْهُمْ إِلَّا النَّدَامَهَ!».

فکیف الوثوق بهذه الدنیا التی لا تضـمر لمن تعلق بها سوی البؤس والشقاء والهزیمة والفشل والظلمة، ولا تعقبه سوی الندم؟! أم کیف له التضحیة بالغالی والنفیس فی سبیل الحصول علی بعض حطام الدنیا وجعلها هدفاً فی حیاته؟!

ومن هنا تساءل الإمام علیه السلام مستنکراً:

«أَفَهذِهِ تُؤْثِرُونَ، أَمْ إِلَیْهَا تَطْمَئِنُّونَ؟ أَمْ عَلَیْهَا تَحْرِصُونَ؟ فَبِئْسَتِ الدَّارُ لِمَنْ لَمْ یَتَّهِمْهَا، وَلَمْ یَکُنْ فِیهَا عَلَی وَجَلٍ مِنْهَا!».

حقاً، لیست هناک من عبارات أوضـح وأفصح من هذه العبارات التی وردت بشأن تفاهة الدنیا والمصـیر والعاقبة المریرة التی تنتظر من تعلق بها وسـکن إلیها، وهـدف الإمام علیه السـلام من هـذه التأکیـدات المتواصـلة والعبارات المنبهة الشدیدة إلی الوقوف بوجه الریح الدنیویة العاتیة، وما إنطوت علیه من نعم جمّة أفرزتها قضـیة الفتوحات الإسـلامیة والتی إستهوت قطاعات واسعة من المسلمین لتقذف بهم فی أتون الرفاهیـة والراحة والدعة بما ینسـیهم القیم والمثل والمبادیء السـماویة الخالدة، ویجعلهم یغطّون فی سبات الغفلة، علّهم یفیقون إلی أنفسـهم ویعودون إلی رشدهم فیهبوا لإحیاء القیم الإسـلامیة المغیبة، إلی جانب محاولة الإمام علیه السـلام إعادة الامّة- لا سیما أولئک الأفراد الذین تکالبوا علی الدنیا وثرواتها إبان عهد عثمان- إلی المسار الإسلامی الصحیح.

وما أورع هذه المواعظ والنصائح البلیغة الواضـحة للمتکالبین علی الدنیا من أبناء عصرنا الراهن حیث یشهدون ذات الظروف، بل أسوأ منها والتی عصـفت بالمجتمع وجعلته یتعلق بالـدنیا، والحق لو لم یلتفتوا إلی هذا الأمر ویفکروا فی علاج وضـعهم فلا من دین ولا دنیا

معقولة يمكنهم أن يظفروا بها ويحصلوا عليها.

والعبارات تنسجم تماماً وما صرحت به الأحاديث النبوية الشريفة وروايات وكلمات

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۳

المعصومين عليهم السلام وبالتالى الآيات القرآنية، فقد صرّحت الآية ۹، من سورة الروم:

«أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ».

كما صرّحت الآية ۷- ۸ من سورة يونس:

«إِنَّ الَّذِينَ لَايَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ* أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ»

وورد فى الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«مَنْ زَهِدَ فِى الدُّنيا أثبَتَ اللَّهُ الحِكمَةَ فِى قَلْبِهِ وَأَنْطَقَ بِها لِسَانَهُ وَبَصَّرَهُ عُيُوبَ الدُّنيا دَاءَها وَدَواءَها وَأَخرَجَهُ مِنَ الدُّنيا سالِماً إلى دارِ السَّلام»[۵۰].

كما ورد عنه عليه السلام أنّه قال:

«مَن أَصبَحَ وَأَمسَى وَالدُّنيا أَكْبَرُ هَمِّهِ جَعَلَ اللَّهُ تَعالى الفَقرَ بَينَ عَينَيهِ وَشَتَّتَ أَمَرَهُ، وَلَم يَنَلْ مِنَ الدُّنيا إلّاما قَسَّمَ اللَّهُ لَهُ، مَن أَصبَحَ وَأَمسَى وَالآخِرَةُ أَكْبَرُ هَمِّهِ جَعَلَ اللَّهُ الغِنى فِى قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ أَمرَهُ».[۵۱]

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۵

القسم الخامس: الاعتبار بالموتى

اشارة

«فَاعْلَمُوا- وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ- بِأَنَّكُمْ تَارِكُوهَا وَظَاعِنُونَ عَنْهَا. وَاتَّعِظُوا فِيهَا بِالَّذِيْنَ قَالُوا: «مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً». حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ فَلا يُدْعَوْنَ رُكْبَاناً، وَأُنْزِلُوا الْأَجْدَاثَ فَلَا يُدْعَوْنَ ضِيفَاناً. وَجُعِلَ لَهُمْ مِنَ الصَّفِيحِ أَجْنَانٌ، وَمِنْ التُّرَابِ أَكْفَانٌ، وَمِنْ الرُّفَاتِ جِيرانٌ، فَهُمْ جِيرَةٌ لَا يُجِيبُونَ دَاعِياً، وَلَا يَمْنَعُونَ ضَيْماً، وَلَا يُبَالُونَ مَنْدَبَةً. إنْ جِيدُوا لَمْ يَفْرَحُوا، وإِنْ قُحِطُوا لَمْ يَقْنَطُوا.

جَمِيعٌ وَهُمْ آحَادٌ، وَجِيرَةٌ وَهُمْ أَبْعَادٌ. مُتَدَانُونَ لَا يَتَزَاوَرُونَ، وَقَرِيبُونَ لَا يَتَقَارَبُونَ. حُلَمَاءُ قَدْ ذَهَبَتْ أَضْغَانُهُمْ. وَجُهَلَاءُ قَدْ مَاتَت أَحْقَادُهُمْ، لَا يُخْشَى فَجْعُهُمْ، وَلَا يُرْجَى دَفْعُهُمْ، اسْتَبْدَلُوا بِظَهْرِ الْأَرْضِ بَطْنَاً، وَبِالسَّعَةِ ضِيقاً، وَبِالْأَهْلِ غُرْبَةً، وَبِالنُّورِ ظُلْمَةً. فَجَاءُوهَا كَمَا فَارَقُوهَا، حُفَاةً عُرَاةً، قَدْ ظَعَنُوا عَنْهَا بِأَعْمَالِهِمْ إِلَى الْحَيَاةِ الدَّائِمَةِ وَالدَّارِ الْبَاقِيَةِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

«كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ»».

الشرح والتفسير

إختتم الإمام عليه السلام خطبته بالحديث مرّة أخرى عن تقلب أحوال الدنيا وغدرها وتنكرها لمن تعلّق بها، إلى جانب الكلام عن المصير الحتمى الذى ينتظر كل إنسان والذى يتمثل بمفارقة الدنيا والرحيل إلى عالم الآخرة، فقال عليه السلام: «فَاعْلَمُوا- وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ- بِأَنَّكُمْ تَارِكُوهَا وَظَاعِنُونَ ۵۲] عَنْهَا».

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۶

نعم، فلابدّ لكل إنسان أن يذوق طعم الموت: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ...»[۵۳].

وقال تعالى: «كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ* يَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»[۵۴].

ولعل الإنسان يشك فى كل شىء، غير أنّه لا يشك فى حقيقة الموت: «واعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ اليَقِينُ»[۵۵].
ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بضرورة الاتعاظ بمن كان قبلهم من الامم ممن غرّتهم قواهم، فلم تنفعهم تلك القوّة شيئاً حتى حملوا راغمين إلى قبورهم، فلم يحلوا ضيوفاً على تلك القبور بعد أن ورد وهاقراً وإكراهاً دون أن يكون لهم أدنى إرادة واختيار: «وَاتَّعِظُوا فِيهَا بِالَّذِيْنَ قَالُوا: «مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً»[۵۶]. حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ فَلا يُدْعَوْنَ رُكْباناً[۵۷]، وَأُنْزِلُوا الْأَجْدَاثَ ۵۸] فَلَا يُدْعَوْنَ ضِيفَاناً».
ولعل العبارة إشارة لما ورد فى الآية ۱۵ من سورة فصلت القائلة: «فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ...».
فالمعروف أنّ قوم عاد كانوا ذوى جثث ضخمة وقصور وبيوت فارهة عملاقة ينحتونها وسط الجبال، الأمر الذى جعلهم يصابون بالكبر والغرور، فلمّا عتوا عن أمر اللّه وعصوه أرسل اللّه عليهم ريحاً عاتية فأحالت جثثهم الضخمة إلى ما يشبه أوراق الأشجار التى تتناثر على الأرض، حيث حدّث عنهم القرآن الكريم بهذا الشأن قائلًا: «إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ* تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ».[۵۹]

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۷

أمّا قوله عليه السلام

«فَلا يُدْعَوْنَ رُكْباناً»

والركبان جمع راكب وذلك لأنّ الراكب من يكون مختاراً، ولا اختيار لهؤلاء، وقوله عليه السلام

«فَلَا يُدْعَوْنَ ضِيفَاناً»

لأنّ الضيف يرد برغبته وإرادته إلى المكان الذى يستقبل فيه، وقد ورد مثل هذا المعنى فى الخطبة ۱۸۸ من نهج البلاغة إذ قال عليه السلام:

«حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ غَيْرَ رَاكِبِينَ، وَأُنْزِلُوا فِيهَا غَيْرَ نَازِلِينَ».

ثم قال الإمام عليه السلام مواصلة لوصفهم:

«وَجُعِلَ لَهُمْ مِنَ الصَّفِيحِ ۶۰] أَجْنَانٌ ۶۱]، وَمِنْ التُّرَابِ أَكْفَانٌ، وَمِنْ الرُّفَاتِ ۶۲] جِيرانٌ».

فالعبارة إشارة إلى أنّ قبورهم خالية من البناء والسقوف والأعمدة والأبواب والنوافذ، فهى ليست أكثر من قبضة من الحجر والتراب على وجه الأرض، والتعبير عن التراب بالكفن فذلك لأنّه يحيط ببدن الميت ويواريه كالكفن، وأمّا ذلك الكفن الذى يلف به الميت فهو مؤقت سرعان ما يبلى ويزول، ولا يبقى سوى الكفن الأصلى وهو التراب.
والجدير بالذكر هو أنّ الإمام عليه السلام واصل كلامه بالحديث عن هؤلاء الجيران وهم ليسوا أكثر من عظام نخرة، فيكشف النقاب عن حقيقة وضعهم بعبارات غاية فى الجمال والروعة، وبما يدعو للتأمل والاعتبار: «فَهُمْ جِيرَةٌ لَا يُجِيبُونَ دَاعِياً، وَلَا يَمْنَعُونَ ضَيْماً[۶۳]، وَلَا يُبَالُونَ مَنْدَبَةً[۶۴]».
أضف إلى ذلك فهم على درجة من عدم الإكتراث بأى شىء بحيث:
«إِنْ جِيدُوا[۶۵] لَمْ يَفْرَحُوا، وَإِنْ قُحِطُوا لَمْ يَقْنَطُوا. جَمِيعٌ وَهُمْ آحَادٌ، وَجِيرَةٌ[۶۶] وَهُمْ أَبْعَادٌ. مُتَدَانُونَ لَا يَتَزَاوَرُونَ، وَقَرِيبُونَ لَا يَتَقَارَبُونَ».
حقاً، أنّهم عبرة لمن اعتبر وأوضاعهم مدعاة إلى التأمل والنظر، فكل شأن من شؤونهم يختلفت ماماً وما عليه الحال بالنسبة لأهل الدنيا، فقد كانوا معاً حتى أمس القريب، ينجد

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۸

بعضهم البعض الآخر، يهرعون لاستقبال السنين التى تدر عليهم النعم والمنافع، بينما كانوا ينزعجون من القحط والجدب، كما كانوا يطوون المسافات القريبة والبعيدة لرؤية بعضهم البعض الآخر، لكن دون خبر عن أوضاعهم وما عليه أحوالهم، قبورهم متصلة متلاصقة مع بعضها، إلّاأنّ المسافة بينهما كأنّها ما بين المشرق والمغرب، ومن كان منهم يأن ليل نهار من عذاب البرزخ فلا يسمع أنينه أقرب

مقربيه من صحبه من أهل القبور، بل حتى لو سمع صراخه وألمه لما وسعه نجدته وتقديم العون له.

وما أروع ما كان يردده الإمام السجاد عليه السلام حين مناجاته باكياً وهو يجسد ما أورده الإمام على عليه السلام بهذا الشأن، إذ كان يقول:

وأضحَوا رِميماً فِي التُّرابِ وَاقفَرَتْمَجالِسُ مِنهُم عُطِّلَتْ وَمَقاصِرُ

وَحَلُّوا بِدارٍ لا تَزاورُ بَينَهُموَأنّى لِسُكانِ القُبُورِ تَزاوُرُ

فَما أن تَرى إلّاجُثيً قَدْ تَوَوا بِهامُسَنَّمَةً تَسفِى عَلَيهِ الأعاصِيرُ[۶۷]

ثم واصل الإمام عليه السلام حديثه عن أصحاب القبور بأنّهم عقلاء قد ذهبت عداوتهم وخصومتهم، وفى نفس الوقت هم جهّال قد طرحت أحقادهم وأضغانهم، فليس هناك ما يدعو للخشية من ضررهم وشرهم، كما لا يؤمل أن يدافعوا عن أنفسهم، فقد انسلخوا من ظاهر الأرض ليوطنوا باطنها، فاستبدلوا بتلك السعة ضيقاً وبالأهل والوطن والنور غربة وظلمة:

«حُلَمَاءُ قَدْ ذَهَبَتْ أَضْغَانُهُمْ. وَجُهَلَاءُ قَدْ مَاتَت أَحْقَادُهُمْ، لَا يُخْشَى فَجْعُهُمْ، وَلَا يُرْجَى دَفْعُهُمْ، اسْتَبْدَلُوا بِظَهْرِ الْأَرْضِ بَطْنَاً، وَبِالسَّعَةِ ضِيقاً، وَبِالْأَهْلِ غُرْبَةً، وَبِالنُّورِ ظُلْمَةً».

والعجيب فى الأمر أنّه يصفهم فى عبارة بالعقلاء، ثم يردفها بالعبارة التالية بوصفهم بالجهلاء، والواقع هو أنّهم جثث خاوية قد خلت من الأرواح، فهم ليسوا بعقلاء ولا جهلاء، بل وضعهم فى موضع جعلهم أشبه بالعقلاء حيث زالت العداوة بينهم، وفى موضع آخر تشبهوا بالجهلاء حيث ماتت بينهم روح الحسد ودوافعه، فقد تغييرت جميع مفرداتهم فى لحظة حيث استبدلوا بظاهر الأرض باطنها وبالدور الواسعة المنيرة المليئة بالأهل والعيال، القبور الضيقة

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۹

والمظلمة الموحشة الخالية من الصخب والضجيج.

ثم إختتم حديثه عليه السلام بالقول:

«فَجَاءُوهَا كَمَا فَارَقُوهَا، حُفَاةً عُرَاةً»[۶۸].

والعبارة مستوحاة من الآية القرآنية الشريفة: «مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى»[۶۹].

نعم كما خلق آدم عليه السلام من التراب، كذلك أولاده سيعودن حفاة عراة إلى هذه الأرض على غرار ولادتهم وقدومهم إليها، وإن حملوا معهم كفناً، فهو ليس كذلك فى الواقع، إذا سرعان ما يبلى ويزول ولا يعدّ له من وجود، بالتالى سيودع هذا الإنسان شاء أم أبى يوماً كل ما جمعه من أموال وأعدّ لنفسه من قصور ودور فارهة وحدائق ومراكب وإمكانات ووسائل، لينزل تلك الحفرة حافياً عرياناً وعليه أن يستعد لتلك الظلمة والوحشة.

نعم، الشيء الوحيد الذى يحمله معه هو عمله والذى قد يكون أحياناً وبالًا عليه وأعظم بلاء يصيبه، وهو الأمر الذى أكّده الإمام عليه السلام فقال:

«قَدْ ظَعَنُوا عَنْهَا بِأَعْمَالِهِمْ إِلَى الْحَيَاةِ الدَّائِمَةِ وَالدَّارِ الْبَاقِيَةِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ»[۷۰]».

فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام أشار فى ختام هذه الخطبة إلى نقطتين:

الأولى: عودة الإنسان إلى الأرض كما خلق منها.

والثانية: النشأة الجديدة فى الآخرة.

ثم استشهد عليه السلام بالآية القرآنية الكريمة: «كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ»، لكى لا يبقى أدنى مجال للشك

فى حقيقة عودة الإنسان إلى التراب الذى خلق منه فيرى هناك جزاء أعماله من ثواب أو عقاب.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۰

تأمّلان

۱- سبل مواجهة التعلق بالدنيا

إنّ حبّ الدنيا كما ورد فى الرواية هو رأس كل خطيئة وأساس جميع الذنوب والمعاصى، كما أنّ التعلّق بها والاغترار بزخارفها وحطامها يصد الإنسان عن ربّه وينسيه الآخرة والحساب يوم القيامة، ومن شأن هذه الغفلة والصدود أن تشكل أحد العوامل المهمّة التى تقذف بالإنسان فى وحل الخطايا والذنوب، وقد شهد عصر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام تنامى الأموال والثروات إثر التقدم السريع الذى أحرزه الإسلام والغنائم المتحصلة من الغزوات، وهو الأمر الذى لفت إنتباه طائفة عظيمة من المسلمين ليشدّه إلى الدنيا ويدفع بها إلى التكالب عليها، وأفضل شاهد على ذلك الفساد المالى العظيم الذى حصل على عهد عثمان، ومن هنا لم ينفك الإمام عليه السلام فى أغلب خطب نهج البلاغة من ذمّ الدنيا والتحذير من الانخداع بها والركون إليها والوثوق بها، وقد أورد عباراته بمنتهى الفصاحة والبلاغة وبالشكل الذى يجعلها تثير حساسية أهل الغفلة ممن نسوا أنفسهم وتعلّقوا بالدنيا، ولا سيّما فى هذه الخطبة التى مرّ علينا شرحها، فقد سارت مواكبة للقرآن الكريم فى ذمّه للدنيا، وقد سلك الإمام عليه السلام مختلف الطرق من أجل بيان هذه الحقيقة منها:

۱- تحدّث عليه السلام بادىء ذى بدء عن

«غدر الدنيا وعدم ثباتها»

وكيف استقطبت كل من تطلّع إليها بينما ولّت ظهرها وتنكرت له وقذفت به فى وحل البؤس والشقاء.

۲- تحدّث أحياناً عن

«تقلب الدنيا السريع»

حيث سرعان ما تتبدل القوّة ضعفاً، والانتصار هزيمة، والغنى فقراً، والعافية مرضاً.

۳- كما تحدّث أحياناً أخرى عن إختلاط النعم بالآلام، والمعافاة والعذوبة بالمرارة، فهنالك الاشواك حيث الأزهار، والأفاعى حيث الكنوز، بهدف عدم اغترار الناس بالدنيا والتعلّق بها والانخداع بزخارفها.

۴- كما يصحب عليه السلام مخاطبيه تارة أخرى ليوقفهم على نماذج عينية ملموسة للغدر وعدم الثبات الذى تنطوى عليه طبيعة الدنيا، فيقول لهم: إنظروا إلى الدنيا ماذا فعلت بمن كان أشدّ منكم قوّة وأكثر جمعاً للأموال وأعظم جنداً.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۱

۵- وأحياناً أخرى يكون على غرار الرسّام الماهر الذى أمسك بريشته وجعل يرسم على لوحته الحالات المرعبة للإنسان على أعتاب الموت، وإنفصاله عن الأهل والولد والمال والثروة والجاه والمنصب، فيضع تلك اللوحة أمام أعينهم ليروها عن قرب فيعتبروا ويفكروا فى مصيرهم.

۶- كما يعمد أحياناً أخرى لرسم لوحة صادقة معبّرة عن ضيق القبر وظلمته والذى يمثل آخر منازل الدنيا، فهو يحكى عن وحدة الإنسان وغربته وسط ما يجاوره من قبور صامتة، فليس هناك من تزاور بينهم قط، كما ليس لأحد منهم علم عن آخر، إلى جانب تصويره لانقطاع الإنسان عن زوجته وولده ومدى عجزه وحاجته.

والملفت للنظر هو أنّ جميع هذه المباحث والمضامين إنّما تتحرك فى ظلّ آيات القرآن الكريم، فأحياناً تشير صراحة إلى تلك

الآیات، وأخری تکون العبارات مستقاة من الآیات القرآنیة، وهذا ما یسبغ نوراً ولمسات روحیة، وجذبات معنویة علی کلمات الإمام علی علیه السلام وبالتالی مضاعفة مدی تأثیرها.

یالیت أهل الدنیا ممن اغتروا بها وخدعوا بحطامها وزیفها وتزینها أن یلتفتوا لأنفسهم ولو لحظة واحدة طیلة عمرهم فیطالعوا هذه الخطبة الموقظة ویتدبّروا عباراتها ومفاهیمها، بل ما أحرانا نحن أیضاً أن نتأمل هذه الخطبة وما شابهها من الخطب التی وردت فی نهج البلاغة لتتعمق معرفتنا بخصوص الدنیا والوقوف علی مدی ضحالتها وتفاهتها فتتجدد فینا روح الطاعة والابتعاد عن الخطیئة والمعصیة.

جدیر بالذکر أنّ العدید من الأدباء والشعراء قد انطلقوا أیضاً فی ظلّ الآیات القرآنیة والروایات الشریفة والمفاهیم الدینیة فانشدوا أشعاراً تهزّ الضمیر وتوقفه علی واقع الدنیا، من اولئک الشعراء الایرانیین هو الشاعر الکبیر والفرید «الحافظ الشیرازی» الذی أنشد أشعاراً کثیرة بشأن سرعة زوال نعم الدنیا وغدرها وأنّ حلاوتها قد مزجت بالمرارة وراحتها بالألم وسلامتها بالمرض والسقم، کما نظم قصائداً فی تقلب أحوال الدنیا وتغیرها المفاجیء وعدم استقرارها علی حال.

قصر الجدید إلی بلیوالوصل فی الدنیا انقطاعه

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۳۲

أی اجتماع لم یعدیتفرق منها اجتماعه

أم أی شعب ذی إلتئاملم یبدده انصداعه

أم أی منتفع بشیءثم تمّ له انتفاعه

یا بؤس للدهر الذیما زال مختلفاً طباعه

قد قیل فی مثل خلایکفیک من شر سماعه

ومن کلام الحکیم فی الدنیا: «إنا قد أصبحنا فی دار رابحها خاسر، ونائلها قاصر، وعزیزها ذلیل، وصحیحها علیل، والداخل إلیها مخرج، والمطمئن فیها مزعج، والذائق من شرابها سکران، والواثق بسرابها ظمآن، ظاهرها غرور، وباطنها شرور، وطالبها مکدود، وتارکها محمود».

۲- الردّ علی سؤال

حین نطالع ما أورده الإمام علیه السلام فی هذه الخطبة حول «أهل القبور» فی أنّهم جیرة لا یتزاورون وقریبون لا یتقاربون وما إلی ذلک، یتبادر إلی الأذهان هذا السؤال وهو أنّه وردت عدّة روایات صرّحت بعضها بأنّ أهل القبور یجتمعون أحیاناً مع بعضهم ویطلع کل منهم علی أوضاع الآخر وأنّ لهم مجالسهم وحلقاتهم، ومن ذلک ما ورد عن الإمام الصادق علیه السلام أنّه قال:

«کَأَنِّی بِهِم حِلَقٌ حِلَقٌ قُعُودٌ یَتَحَدَّثُونَ»[۷۱].

فکیف الجمع بین هذه الروایات وما ورد فی عبارات الخطبة المذکورة؟

ولعل الآجابة علی هذا السؤال تتضح من خلال الالتفات إلی أنّ الروایات المذکورة إنّما وردت بشأن المؤمنین وأصحاب الأعمال الصالحة، وأمّا ما جاء فی هذه الخطبة، فإنّما ورد بشأن أصحاب الدنیا من أهل الأعمال السیئة، وعلیه فلیس هنالک من تعارض بین هذه الخطبة وما صرّحت به الروایات.

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۳۳

الخطبة[۷۲] المأة و إثنتا عشرة

اشارة

وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عليه السلام
ذكر فيها ملك الموت وتوفيه النفس وعجز الخلق عن وصف اللَّه

نظرة إلى الخطبة

تفيد بعض القرائن أنّ هذه الخطبة جزء من خطبة مفصلة طويلة، وهى تهدف فى الواقع إلى بيان هذه الحقيقة التى تكمن فى عجز البشرية عن إدراك كنه الذات وصفات اللَّه سبحانه وتعالى، وذلك لأنّ الإنسان إن عجز عن معرفة ملك الموت وصفاته وطبيعة أعماله، فكيف يتوقع أن يقف على كنه الذات والصفات للخالق سبحانه كما هى عليه.
والذى يفهم من كتاب «تمام نهج البلاغة» أنّ هذه الخطبة هى جرء من الخطبة المعروفة بالأشباح والتى أوردها الإمام على عليه السلام بشأن عجز الإنسان عن إدراك كنه الذات والصفات الإلهيّة، والحق إنّ عبارة هذه الخطبة تنسجم تماماً وعبارات خطبة الأشباح، فاذا ما وضعت الخطبتان مع بعضهما لتوصلنا إلى أنّ الخطبة التى بين أيدينا هى جزء من تلك الخطبة[۷۳].
نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۵
«هَلْ تُحِسُّ بِهِ إذَا دَخَلَ مَنْزِلًا؟، أَمْ هَلْ تَرَاهُ إذَا تَوَفَّى أَحَداً؟ بَلْ كَيْفَ يَتَوَفَّى الْجَنِيْنَ فِى بَطْنِ أُمّهِ. أَيَلِجُ عَلَيْهِ مِنْ بَعْضِ جَوَارِحِهَا؟ أَمِ الرُّوحُ أَجابَتْهُ بِإِذْنِ رَبّهَا، أَمْ هُوَ سَاكِنٌ مَعَهُ فى أَحْشَائِهَا؟ كَيْفَ يَصِفُ إلهَهُ مَنْ يَعْجَزُ عَنْ صِفَةِ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ!».
الشرح والتفسير

أينما تكونوا يدرككم الموت

كما ورد سابقاً فانّ هذه الخطبة فى الواقع جزء من خطبة التى تصدت لبيان صفات اللَّه تعالى وعجز البشرية عن إدراك كنهه وصفاته سبحانه، وقد استدل الإمام عليه السلام بمثال فى هذه الخطبة يشخص الحقيقة المذكورة ويبيّن عجز الإنسان عن الوقوف على كنه ذات أغلب المخلوقات، وبناءاً على ما سبق فكيف يمكن توقع وقوف هذا الإنسان على كنه ذات وصفات الخالق المطلق بينما لا يسعه إدراك كنه مخلوق مثله؟
فقد قال عليه السلام:
«هَلْ تُحِسُّ بِهِ إذَا دَخَلَ مَنْزِلًا؟، أَمْ هَلْ تَرَاهُ إذَا تَوَفَّى أَحَداً؟».
قطعاً أنّ روح الإنسان تفصل عن جسده من قبل ملك الموت، كما صرحت بذلك العديد من الآيات القرآنية، والحال ليس لدينا أى علم بولوجه من أجل قبض الروح ولا خروجه، كما لا نراه حين يقبض الروح، رغم أنّه مخلوق من مخلوقات اللَّه سبحانه، وما أكثر من مثله من الملائكة الذين يتعذر علينا رؤيتهم.
ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالتطرق إلى مورد خاص بشأن قبض الروح والذى يتصف بالتعقيد والغموض، وهو قبض روح الجنين فى بطن امّه، فقال عليه السلام:
«بَلْ كَيْفَ يَتَوَفَّى الْجَنِيْنَ فِى بَطْنِ أُمّهِ. أَيَلِجُ عَلَيْهِ مِنْ بَعْضِ جَوَارِحِهَا؟ أَمِ الرُّوحُ أَجابَتْهُ بِإِذْنِ رَبّهَا، أَمْ هُوَ سَاكِنٌ مَعَهُ فى أَحْشَائِهَا؟».
نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۶
فمن البديهى أنّه يشق على كل عالم بانتقاء أى من الأجوبة الثلاث على سؤال المذكور، فليس هنالك دليل يثبت أى منها، وعليه فقضية قبض الروح بواسطة ملك الموت بحدّ ذاتها قضية شائكة غاية فى التعقيد يعجز عن إدراكها الإنسان فضلًا عن قبض روح

الجنين فى بطن امّه.

ثم يخلص الإمام عليه السلام من العبارات السابقة إلى هذه النتيجة:

«كَيْفَ يَصِفُ إِلهَهُ مَنْ يَعْجَزُ عَنْ صِفَةِ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ!».

نعم، فهناك الألوف المؤلفة من المخلوقات والكائنات التى عجز الإنسان عن إدراكها حتى بعد تطور العلوم وتقدمها، فما حقيقة الروح؟ وما كيفية إرتباطها بالجسد؟ كيف تنسلخ عن الجسد؟ وأين تتجه هذه الروح بعد انفصالها من البدن؟ ما حقيقة الحياة؟ لم استطاع العلماء جمع كافة العناصر الموجودة فى الخلية الحية فى مختبراتهم بصورة صناعية إلّاأنّهم عجزوا عن نفخ الروح فيها؟!

ما حقيقة الزمان والمكان؟ ما كيفية أمواج الجاذبية التى تربط شرق العالم بغربه؟ ومئات الأسئلة من هذا القبيل.

فاذا عجزنا عن وصف هذه المخلوقات التى نشترك معها فى كثير من الأمور، فكيف نتوقع إمكانية وصفنا للّهالذى لا يشترك معنا فى أى أمر؟! بلى، لدينا علم إجمالى بوجوده وصفاته سبحانه، حيث نعلم أنّه موجود وله الصفة الفلانية على سبيل الإجمال، إلّاأنّ الكل يعرب عن عجزه وفشله من اقتحام ميدان العلم التفصيلى، بما فيهم أنبياء اللّه سبحانه وتعالى.

تأمّلات

١- ملك الموت أم ملائكة الموت

هل ملك واحد أم جماعة؟ سؤال يتبادر إلى أذهان الكثيرين، فقد وردت بعض الآيات القرآنية التى نسبت إلى اللّه تعالى قبض الأرواح: «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ...»[۷۴].

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۷

بينما نسبت البعض الآخر منها قبض الروح إلى الملائكة، كما نسبته إلى ملك الموت الذى عبّرت عنه أيضاً بالملائكة، فقد صرحت الآية ۱۱ من سورة السجدة قائلة: «قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ...». وقالت الآية ۸ من سورة النحل: «الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ».

ويعلم أرباب التفسير وأهل التحقيق فى القرآن أن ليس هنالك أى تعارض بين الآيات الثلاثة المذكورة، وذلك لأنّ السنة الإلهيّة جرت فى تفويض الملائكة تدبير شؤون الخلق وأمور العالم، وعليه فالفعل المذكور هو فعل اللّه سبحانه من جانب حيث منه يصدر الأمر، وهو فعل الملائكة من جانب آخر كونها تباشر ذلك العمل، على سبيل المثال يقال الحاكم الفلانى جدد بناء المسجد الحرام فى التاريخ الفلانى، يعنى أنّه أصدر أوامره للمهندسين والمقاولين والبنائين بمباشرة ذلك البناء، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى: لملك الموت معنى الجنس، ونعلم أن الجنس يستعمل فى مفهوم العموم ومعنى الجمع أيضاً.

واستناداً لما مرّ معنا فانّ قبضة الأرواح هو طائفة من الملائكة يباشرنا ذلك العمل بأمر اللّه سبحانه وكبير هذه الملائكة هو «عزرائيل».

ويعتقد البعض بأنّ الملكين المأمورين بكتابة أعمال الإنسان هما اللذان يتوليان قبض روح الإنسان إذا انتهى أجله، ولعل العبارة الواردة فى الآية الشريفة: «وكّل بكم» أشارت إلى هذا المعنى.

ولما كان الصلحاء والاتقياء يتميزون بجميع خصائصهم عن الطلحاء والمتهتكين، فمن الممكن أن تختلف الملائكة التى تتولى قبض أرواحهم، ولقبض الروح الطاهرة لعظماء الناس كالنبى الأكرم صلى الله عليه و آله، فانّ شخص ملك عزرائيل عليه السلام هو الذى يتولى هذه المهمّة[۷۵].

٢- كيفية قبض الأرواح

تبدو قضية قبض الروح مبهمة وغامضة لدينا على غرار الابهام الذى يكتنف ولوج

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۸

الروح فى البدن، وكل الذى نعرفه بهذا الخصوص هو قطع الرابطة القائمة بين الروح والجسد حين قبض الروح، ولكن كيف يحصل ذلك وبأية صيغة؟ فهذا ما يكتنفه الغموض والابهام.

ويبدو أنّ كل ما ورد فى الروايات الإسلامية يكون من قبيل التلميحات والتشبيهات، وإلّا فليس لدينا سجناء عالم المادة من سبيل إلى مثل هذه الأمور المتعلّقة بعالم ما وراء الطبيعة.

فهل ملك الموت كائن فى موضع- كما ورد فى بعض الروايات- والدنيا لديه كالدرهم فى كف اليد يقلبه كيف يشاء بحيث يتوفى كل أحد إذا ما صدر أمر وفاته، فيقبض روحه، أم أنّ ملائكة الموت انتشروا فى كل مكان من العالم ويتجهون لقبض الأرواح إذا حان أجلها؟

لقد ذكرت ثلاثة احتمالات فى الخطبة بشأن الأطفال الذين تقبض أرواحهم وهم أجنة فى بطون أمهاتهم:

الأول: ورود ملك الموت فى أحشاء الام من بعض جوارحها.

والثانى: يدعو روح الجنين اليه وهو فى الخارج.

الثالث: كونه مع الجنين فى أحشاء الام منذ البداية، ولذا عدم ترجيح الامام عليه السلام أحد هذه الاحتمالات الثلاثة إشارة الى حقيقة أنَّ صعوبة إدراكنا لجزئيات هذه الأمور بفعل وجودنا فى عالم المادة.

وقد ركز بعض شرّاح نهج البلاغة على الاحتمال الثانى من بين الاحتمالات الثلاثة المذكورة، ولعل دليلهم فى ذلك ما روى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «قيل لملك الموت عليه السلام: كيف تقبض الأرواح وبعضها فى المغرب وبعضها فى المشرق فى ساعة واحدة؟

فقال: أدعوها فتجيبنى، قال: ثم قال ملك‌الموت: إنّ الدنيا بين يدى كالقصعة بين يدى أحدكم يتناول منها ما شاء»[۷۶].

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۹

الخطبة[۷۷] المأة ثلاثة عشرة

اشارة

مِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عليه السلام

فى ذمّ الدنيا

نظرة إلى الخطبة

تحدّث الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة عن عدّة مسائل مهمّة مرتبطة مع بعضها البعض الآخر.

فقد حذر عليه السلام فى القسم الأول من الخطبة من الدنيا، ثم ذكر عيوبها ومصائبها، حيث شبّهها بالدار الآيلة للسقوط فلا ينبغى الاغترار بها، ثم واصل فى القسم الثانى كلامه بهذا الخصوص موصياً بعدم نسيان الموت والزهد فى الدنيا من خلال عدم التعلّق بها.

وأخيراً إختتم الخطبة بالإشارة إلى تشتت المسلمين واختلافهم وإسناد ذلك إلى التهافت على الدنيا، وإنّ صلاح المجتمع فى الحذر منها.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۱

القسم الأول: التحذير من الدنيا

«وَأُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيا فَإِنَّهَا مَنْزِلُ قُلْعَةٍ. وَلَيْسَتْ بِدَارِ نُجْعَةٍ. قَدْ تَزَيَّنَتْ بِغُرُورِهَا، وَغَرَّتْ بِزِينَتِهَا. دَارٌ هَانَتْ عَلَى رَبِّهَا، فَخَلَطَ حَلَالَهَا بِحَرَامِهَا، وَخَيْرَهَا بِشَرِّهَا، وَحَيَاتَهَا بِمَوْتِهَا، وَحُلْوَهَا بِمُرِّهَا. لَمْ يُصْفِهَا اللَّهُ تَعَالَى لِأَوْلِيَائِهِ، وَلَمْ يَضِنَّ بِهَا عَلَى أَعْدَائِهِ. خَيْرُهَا زَهِيدٌ وَشَرُّهَا عَتِيدٌ. وَجَمْعُهَا يَنْفَدُ، وَمُلْكُهَا يُسْلَبُ، وَعَامِرُهَا يَخْرَبُ. فَمَا خَيْرُ دَارٍ تُنْقَضُ نَقْضَ الْبِنَاءِ، وَعُمُرٍ يَفْنَى فِيهَا فَنَاءَ الزَّادِ، وَمُدَّةٍ تَنْقَطِعُ انْقِطَاعَ السَّيْرِ! اجْعَلُوا مَا افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِنْ طَلَبِكُمْ، وَاسْأَلُوهُ مِنْ أَدَاءِ حَقِّهِ مَا سَأَلَكُمْ. وَأَسْمِعُوا دَعْوَةَ الْمَوْتِ آذَانَكُمْ قَبْلَ أَنْ يُدْعَى بِكُمْ».

الشرح والتفسير

إتّجه الإمام عليه السلام فى هذا القسم من الخطبة نحو ذمّ الدنيا وأصحابها المتكالبين عليها، ثم حقّرها وعدّد عيوبها بما يوقظ كل عاقل وينبهه إلى أنّ الدنيا لا يمكنها أن تكون سبيل للنجاة وأداة للسعادة.

فقد استهل عليه السلام الخطبة بتحذير مخاطبيه بما فيهم الناس آنذاك واليوم وسائر الأفراد فى كل العصور من الدنيا قائلًا:

«وَأُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيا فَإِنَّهَا مَنْزِلُ قُلْعَةٍ. وَلَيْسَتْ بِدَارِ نُجْعَةٍ».

«القلعة»

بضم القاف وسكون اللام المشتقة من مادة «قلع» الموضع غير المستوطن الذى يجب أن يرحل عنه الإنسان فى أى زمان.

و

«النجعة»

بضم النون عكس سابقتها فهى تعنى الموضع الذى عثر فيه الإنسان على الخير

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۲

والبركة، وقد عزم قطعاً على الاستقرار فيه، وعليه فمفهوم كلامه عليه السلام أنّ الدنيا منزل مؤقت عابر ولا قيمة لها لكى يتخذها الإنسان موضعاً للإقامة والاستقرار، ثم واصل عليه السلام الكلام بالإشارة إلى أدلّة المطلب السابق ليقول:

«قَدْ تَزَيَّنَتْ بِغُرُورِهَا، وَغَرَّتْ بِزِينَتِهَا. دَارٌ[۷۸] هَانَتْ

عَلَى رَبِّهَا، فَخَلَطَ حَلَالَهَا بِحَرَامِهَا، وَخَيْرَهَا بِشَرِّهَا، وَحَيَاتَهَا بِمَوْتِهَا، وَحُلْوَهَا بِمُرِّهَا».

إذا أردت الحصول على الرزق الحلال فانّ عليك أن تتحمل آلاف المصاعب والمعاناة وأن تتجاوز الطرق الوعرة والمطبات الشائكة، كما عليك أن تعد بدنك لوخز الأشواك كلما حاولت غرس الزهور، وإن إبتغيت العسل فما عليك إلّاأن تتوقع لدغ الزنابير، فالواقع هناك أفعى كامنة فى كل كنز ومرارة فى كل حلاوة، وعلى سبيل المثال فمن لم يرزقه اللَّه الولد عاش الهم والغم الذى يثقل كاهله ويكدّر روحه، ولكن ما إن يرزق الولد حتى يواجه سيل المشاكل التى تعقب ذلك، وهكذا سائر النعم التى يثير فقدانها الغم ووجودها التعب والإرهاق.

ثم أكّد عليه السلام ذلك الكلام على أنّه هو السبب الذى لم يجعل اللَّه سبحانه يرضها ثواباً لأوليائه ولم يمنعها عن أعدائه:

«لَمْ يُصْفِهَا[۷۹] اللَّهُ تَعَالَى لِأَوْلِيَائِهِ، وَلَمْ يَضِنَ ۸۰] بِهَا عَلَى أَعْدَائِهِ».

نعم، لو كان متاع الدنيا ثمين لخصّ بها الحق سبحانه أولياءه وزواها عن أعدائه، لكنّها لما كانت زهيدة لا قيمة لها، فهو يهبها لكل شخص.

ثم أضاف عليه السلام:

«خَيْرُهَا زَهِيدٌ وَشَرُّهَا عَتِيدٌ[۸۱]. وَجَمْعُهَا يَنْفَدُ، وَمُلْكُهَا يُسْلَبُ، وَعَامِرُهَا

يَخْرَبُ».

والعجيب ليس هناك من تدريج فى هذه التغييرات وزوال النعم وانهيار الحكومات وخراب المعمور، بل أحياناً يتغير كل شىء خلال

ساعة، بل فى برهة من الزمان والتاريخ مليىء بمثل هذه الحوادث المرعبة والتى تنطوى على العبر والدروس.

فكيف والحال هذه يتعلق بالدنيا عاقل؟ ويثق بنعمها؟ ويفرح باقبالها ويحزن لإدبارها؟

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۳

ثم واصل الإمام عليه السلام الكلام بهذا الخصوص من خلال طرحه على شكل سؤال، لينطلق الجواب عليه من باطن قلب المخاطب فيكون له أثره البالغ والعميق:

«فَمَا خَيْرُ دَارٍ تُنْقَضُ نَقْضَ الْبِنَاءِ، وَعُمُرٍ يَفْنَى فِيهَا فَنَاءَ الزَّادِ، وَمُدَّةٍ تَنْقَطِعُ انْقِطَاعَ السَّيْرِ!».

لقد استعمل الإمام عليه السلام قمّة الفصاحة والبلاغة فى هذه التشبيهات الثلاث، فقد شبّه بادىء الأمر الدنيا بدار خاوية بالية قد انفطرت جدرانها وأشرفت سقوطها على الانهيار، ثم شبّه عمر الإنسان بالأطعمة التى توضع على المائدة وتأخذ بالتناقص مع مرور الزمان إثر تناولها، وأخيراً شبّه فترة بقاء الإنسان فى هذا العالم بالأسفار القصيرة التى لا يكاد المسافر يحث خطاه فيها حتى ينقطع أمدها.

ثم إختتم عليه السلام هذا القسم من الخطبة بثلاث وصايا خاطب بها الجميع فقال:

«اجْعَلُوا مَا افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِنْ طَلَبِكُمْ، وَاسْأَلُوهُ مِنْ أَدَاءِ حَقِّهِ مَا سَأَلَكُمْ، وَأَسْمِعُوا دَعْوَةَ الْمَوْتِ آذَانَكُمْ قَبْلَ أَنْ يُدْعَى بِكُمْ».

فقد أوصى الناس فى العبارة الاولى أن يهتم الناس على الأقل بالفرائض الشرعية بقدر طلباتهم الشخصية فيجدوا ويجتهدوا فى هذا الأمر، لا أن يجعلوا الصدارة لحاجاتهم الدنيوية ويهمّشوا الفرائض الإلهيّة والواجبات الشرعية.

كما يحتمل أن يكون المراد اجعلوا التوفيق للإتيان بالفرائض والواجبات الشرعية من حاجاتكم وطلباتكم بين يدى اللّه تبارك وتعالى، غير أنّ المعنى الأول يبدو هو الأنسب وذلك للإشارة إلى هذا المعنى والتى وردت فى العبارة الثانية إذ قال:

«وَاسْأَلُوهُ مِنْ أَدَاءِ حَقِّهِ»

، وعليه سيكون تفسير الجملتين تكرار لمفهوم واحد.

وأخيراً أشارت العبارة الثالثة إلى التأهب والاستعداد لمواجهة الموت من خلال أداء حقوق الناس والتوبة من الذنوب وتدارك ما فرط، وبخلافه فانّ الموت سيباغت الإنسان ويقذف به فى عالم لم يعد العدّة لدخوله.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۵

القسم الثانى: صفات الزهّاد فى الدنيا

«إِنَّ الزَّاهِدِينَ فِى الدُّنْيَا تَبْكِى قُلُوبُهُمْ وَإِنْ ضَحِكُوا، وَيَشْتَدُّ حُزْنُهُمْ وَإِنْ فَرِحُوا، وَيَكْثُرُ مَقْتُهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَإِنِ اغْتُبِطُوا بِمَا رُزِقُوا. قَدْ غَابَ عَنْ قُلُوبِكُمْ ذِكْرُ الْآجَالِ، وَحَضَرَتْكُمْ كَوَاذِبُ الآمَالِ، فَصَارَتِ الدُّنْيَا أَمْلَكَ بِكُمْ مِنَ الآخِرَةِ، وَالعَاجِلَةُ أَذْهَبَ بِكُمْ مِنَ الآجِلَةِ، وَإِنَّمَا أَنْتُمْ إِخْوَانٌ عَلَى دِينِ اللَّهِ مَا فَرَّقَ بَيْنَكُمْ إِلَّا خُبْثُ السَّرَائِرِ، وَسُوءُ الضَّمَائِرِ. فَلَا تَوَازَرُونَ وَلَا تَنَاصَحُونَ، وَلَا تَبَاذَلُونَ وَلَا تَوَادُّونَ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة إلى ثلاث نقاط تكمل المقطع المذكور من الخطبة وتؤكّده، وهى مقدمة للقسم القادم من الخطبة.

فقد إتّجه أولًا إلى وصف الزهّاد فى الدنيا ليتضح وضع كل فرد من خلال مقارنة أحوال المخاطبين مع أحوال اولئك، فذكر ثلاث خصائص يتحلى بها الزهّاد قائلًا:

«إِنَّ الزَّاهِدِينَ فِى الدُّنْيَا تَبْكِى قُلُوبُهُمْ وَإِنْ ضَحِكُوا».

صفتهم الثانية تكمن فى شدّة حزنهم رغم فرحهم وسرورهم:

«وَيَشْتَدُّ حُزْنُهُمْ وَإِنْ فَرِحُوا».

وأمّا صفتهم الثالثة فهم ناقمون على أنفسهم ساخطون عليها (وهم ليسوا راضين عن أعمالهم وطاعاتهم) رغم شكرهم اللّه سبحانه وتعالى على موفور الرزق والنعمة:

«وَيَكْثُرُ مَقْتُهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَإِنِ اغْتُبِطُوا[۸۲] بِمَا رُزِقُوا».

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۴۶

نعم، فعيون قلوبهم باكية لما يرون فى أنفسهم من نقائص وعيوب وما يبتدر منهم من زلّات أحياناً، وإن عاشوا حالة من السرور والضحك على مستوى الآداب الاجتماعية والأخلاقية، إنّهم يأسفون على ماضيهم ويغتمون لما كانت فى أيديهم من فرص لم يستثمروها، رغم ما هم عليه ظاهرياً من الفرح والسرور، إلى جانب ذلك فانّ لسانهم يلهج بحمد اللّه وشكره على ما حباهم به من نعم مادية ومعنوية من جهة، ومن جهة أخرى فهم لا ينفكون عن مقتهم لأنفسهم وتوبيخها لشعورهم بالتقصير فى عدم استثمارها بالشكل الصحيح.

وخاصة القول فهم فى مقام النقد لأنفسهم وإصلاح نقائصهم ومعايبهم المعنوية وهذا هوالسبب فى حركتهم التكاملية نحو اللّه سبحانه، فهم لا يقنعون بوضعهم السائد قط ليكون ذلك مدعاة لتخلفهم وإنحطاطهم.

ثم شرح فى النقطة الثانية وضع مخاطبيه ليقارنوا أنفسهم بالزهّاد فيقفوا على عيوبهم، وقد بيّن لهم ثلاث صفات:

«قَدْ غَابَ عَنْ قُلُوبِكُمْ ذِكْرُ الْآجَالِ، وَحَضَرَتْكُمْ كَوَاذِبُ الآمَالِ، فَصَارَتِ الدُّنْيَا أَمْلَكَ بِكُمْ مِنَ الآخِرَةِ، وَالعَاجِلَةُ أَذْهَبَ بِكُمْ مِنَ الآجِلَةِ».

نعم، فالدنيا تستولى على عقل الإنسان وفكره وينسى الآخرة إذا ما غاب عن قلبه ذكر الموت وإنهمك فى هذه الدنيا العابرة واحاطة القلب بالأمانى الخيالية الكاذبة.

ثم إختتم عليه السلام هذا المقطع من الخطبة ببيان هذه النتيجة:

«وَإِنَّمَا أَنْتُمْ إِخْوَانٌ عَلَى دِينِ اللَّهِ مَا فَرَّقَ بَيْنَكُمْ إِلَّا خُبْثُ السَّرَائِرِ، وَسُوءُ الضَّمَائِرِ. فَلَا تَوَازَرُونَ ۸۳] وَلَا تَنَاصَحُونَ، وَلَا تَبَاذَلُونَ وَلَا تَوَادُّونَ».

فالعبارة تشير إلى توفر سبل الوحدة بينكم من خلال الإخاء الإسلامى وقد تصدعت هذه السبل بفعل الاختلافات التى تستند إلى التعصب والحقد والحسد وحبّ الدنيا وضيق الافق، فأدّى ذلك بالتبع إلى ضعف الأمن الداخلى والعجز أمام العدو الخارجى وبالنتيجة قطعت عنكم البركات الاجتماعية كالتعاون والموازرة وإسداء الخدمات المتبادلة أواصر المحبّة والصداقة.

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۴۷

فهذه العبارة تشير بوضوح إلى هذه الحقيقة، وهى أنّ حبّ الدنيا وخبث السريرة وسوء النيّة والأخلاق لا يفسد الآخرة فحسب، بل يحيل المجتمع البشرى إلى بؤرة للتوتر والنزاع والاصطدام بحيث تنعدم فيه مظاهر التعاون والمساعدة.

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۴۹

القسم الثالث: العود على ذمّ أصحاب الدنيا

«مَا بَالُكُمْ تَفْرَحُونَ بِالْيَسِيرِ مِنَ الدُّنْيَا تُدْرِكُونَهُ، وَلَا يَحْزُنُكُمُ الْكَثِيرُ مِنَ الآخِرَةِ تُحْرَمُونَهُ! وَيُقْلِقُكُمُ الْيَسِيرُ مِنَ الدُّنْيَا يَفُوتُكُمْ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ ذلِكَ فِى وُجُوهِكُمْ، وَقِلَّةِ صَبْرِكُمْ عَمَّا زُوِىَ مِنْهَا عَنْكُمْ! كَأَنَّهَا دَارُ مُقَامِكُمْ. وَكَأَنَّ مَتَاعَهَا بَاقٍ عَلَيْكُمْ. وَمَا يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ أَنْ يَسْتَقْبِلَ أَخَاهُ بِمَا يَخَافُ مِنْ عَيْبِهِ، إِلَّا مَخَافَةُ أَنْ يَسْتَقْبِلَهُ بِمِثْلِهِ. قَدْ تَصَافَيْتُمْ عَلَى رَفْضِ الآجِلِ وَحُبِّ الْعَاجِلِ، وَصَارَ دِينُ أَحَدِكُمْ لُعْقَةً عَلَى لِسَانِهِ. صَنِيعَ مَنْ قَدْ فَرَغَ مِنْ عَمَلِهِ وَأَحْرَزَ رِضَا سَيِّدِهِ».

الشرح والتفسير

خاطب الإمام علیه السلام- فی القسم من الخطبة والذی یمثل آخرها- أصحاب الدنیا وهو یسعی لإیقاظهم من سباتهم وغفلتهم من خلال الذم واللوم القائم علی أساس الدلیل والبرهان فقال:

«مَا بَالُکُمْ تَفْرَحُونَ بِالْیَسِیرِ مِنَ الدُّنْیا تُدْرِکُونَهُ، وَلَا یَحْزُنُکُمُ الْکَثِیرُ مِنَ الآخِرَةِ تُحْرَمُونَهُ! وَیُقْلِقُکُمُ الْیَسِیرُ مِنَ الدُّنْیا یَفُوتُکُمْ، حَتَّی یَتَبَیَّنَ ذلِکَ فِی وُجُوهِکُمْ، وَقِلَّةِ صَبْرِکُمْ عَمَّا زُوِیَ [۸۴] مِنْهَا عَنْکُمْ! کَأَنَّهَا دَارُ مُقَامِکُمْ. وَکَأَنَّ مَتَاعَهَا بَاقٍ عَلَیْکُمْ».

نعم، هذا حال أغلب أهل الدنیا الذین لا یحزنهم فوات الأمور المعنویة بینما تنقلب أحوالهم لأدنی ضرر مادی یحیق بهم، علی سبیل المثال لیس هناک ما یقلقهم إذا فاتتهم صلاة الفجر

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۵۰

لعدّة أیّام متتالیات، أو لا- یغتمون إن حرموا لسنوات من فیوضات التهجد وقیام اللیل، بینما یضجرهم خسران بضعة دارهم، فلا یتمالکون أنفسهم عن الزعیق بمن حولهم، ولعل هذا التفاوت الواضح والمخجل یستند إلی أحد أمرین: إمّا ضعف إیمانهم بالآخرة والوعد والوعید الإلهی، أو أنّهم مؤمنون بالآخرة والوعد والوعید غیر أنّ الهوی قد أحاط بقلوبهم واستولی علی أنفسهم وسیطرت علیهم الغفلة بحیث لم یعودوا یروا سوی الدنیا وحطامها ومتاعها الزائل.

ثم واصل علیه السلام کلامه بالحدیث عن نقطة ضعف أخری یمتاز بها طلّاب الدنیا والتی تتمثل بعدم قدرة أی أحد منهم علی التعرض لعیوب أخیه (بهدف الإصلاح والنهی عن المنکر) ما ذلک إلّاخشیة أنّ یجابهه بنفس ذلک العیب:

«وَمَا یَمْنَعُ أَحَدَکُمْ أَنْ یَسْتَقْبِلَ أَخَاهُ بِمَا یَخَافُ مِنْ عَیْبِهِ، إِلَّا مَخَافَةُ أَنْ یَسْتَقْبِلَهُ بِمِثْلِهِ».

فالعبارة تشیر إلی حرمانهم من إصلاح بعضهم البعض الآخر رغم إتصافهم بکل تلک العیوب الناشئة من حبّ الدنیا، وذلک لأنّه لا یجرأ أحد منهم أن یتصدی للإصلاح فهو یخشی الردّ من الآخرین الذین ینبرون له ویقولون: إنّ هذا العمل أو ذاک شیئاً فلم نفعله؟ وإن کنت طبیباً فهلّاً عالجت نفسک قبل أن تهم بعلاج الآخرین (طبیب یداوی الناس وهو علیل)؟

وهل یصح اطلاق الحجر ممن کان بیته من الزجاج؟!

ثم إختتم الإمام علیه السلام خطبته بالقول کأنّکم قد اتفقتم علی نبذ الآخرة والذوبان فی الدنیا وقد أصبح الدین لقلقة لسان، وأنّکم لأشبه بمن قام بعمله وأحرز رضی سیده ومولاه:

«قَدْ تَصَافَیْتُمْ عَلَی رَفْضِ الآجِلِ وَحُبِّ الْعَاجِلِ، وَصَارَ دِینُ أَحَدِکُمْ لُعْقَةً [۸۵] عَلَی لِسَانِهِ. صَنِیعَ مَنْ قَدْ فَرَغَ مِنْ عَمَلِهِ وَأَحْرَزَ رِضَا سَیِّدِهِ».

قد تحصل أحیاناً بعض الأفعال الشائنة بین الناس دون أن یکون هناک إتفاق مسبق علیها، إلّاأنّها علی درجة من التناغم والتنسیق والانسجام وکأنّهم حضروا عدّة جلسات مخططة ومبرمجة، وقد اتفقوا علی کل شیء، وما هذا إلّالتشابه الدوافع فی مثل هذه الامور،

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۵۱

وأحد مصادیقها الواضحة یتمثل بعدم المبالاة بالقضایا المرتبطة بالآخرة والخلود إلی الدنیا المادیة.

یمکن أن یکون مثل هؤلاء- الأفراد الطلّاب للدنیا من المتدینیین ظاهریاً، غیر أن تدینهم لا یتجاوز سلسلة من الشعارات والمزاعم والألفاظ وأحیاناً القلیل من العبادات، والمفردة «لعقة» تشیر إلی هذا المعنی، وقد یعیشون أحیاناً حالة من الرضی عن أنفسهم وکأنّهم عملوا بکل تکالیفهم الشرعیة ووظائفهم الإنسانیة وقد فازوا بمقام القرب الإلهی وبلوغ رضاه، والواقع هذا انحراف خطیر أشار الإمام علیه السلام إلیه فی آخر هذه الخطبة.

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۵۳

الخطبة [۸۶] المأة و أربة عشرة

اشارة

وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ علیه السلام

وفيها مواعظ للناس

نظرة إلى الخطبة

مزج الإمام علیه السـلام القسم الأول من هذه الخطبة حمد اللَّه والثناء عليه بعبارات تكشف معالم طريق معرفة اللَّه تعالى وتعلّم الإنسان اسلوب الشـهادة بالإخلاص، كما تبيّن أهميّـة الشـهادة بالوحدانيـة والنبوة وذلك بعبارات عميقة المعنى، وفى القسم الثانى من الخطبة دعى الجميع إلى التحلى بالورع والتقوى وتطرق إلى آثارها وبركاتها التى تنعكس على حياة الإنسان.

أمّا القسم الثالث فقد جرى فيه الحديث عن تقلب أحوال الدنيا وسرعة زوال النعم وعدم بلوغ الأمانى وقصر الحياة الدنيا، وأخيراً القسم الرابع الذى تضـمن مختلف النصائح والمواعظ البالغة حيث دعى الجميع إلى طاعة اللَّه سـبحانه وحذّرهم من نسـيان الآخرة والانغماس فى مخالب الغفلة والغرور بالحياة الدنيا، ولا يخفى على أحد الترابط الوثيق بين الأقسام الأربعة

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۵۴

وتبلورها فى عرض سلسلة من المواعظ المتسقة.

أمّا فصاحـة وبلاغـة هـذه الخطبـة ولطافـة وعذوبـة عباراتها ليتبيّن ممّا صـرّح به صاحب كتاب «الطراز» الإمام يحيى الزيدى (من علماء القرن الثامن) فى ختام هذه الخطبة إقال:

«لَو كَانَ كَلامٌ مِنْ كَلامِ البَشَرِ مُعْجِزَةً لَكَانَ هذا هُوَ الأَولُ وَلَو أَعْجَزَ شَىءٌ مِنَ الكَلامِ بَعْدَ كَلامِ اللَّهِ لَكَانَ هذا هُوَ الثّانِى»[۸۷].

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۵۵

القسم الأول: الثقة القيّمة

اشارة

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الوَاصِلِ الْحَمْدَ بِالنّعَمِ وَالنّعَمَ بِالشُّكْرِ. نَحْمَدُهُ عَلَى آلَائِهِ، كَمَا نَحْمَدُهُ عَلَى بَلائِهِ. وَنَسْتَعِينُهُ عَلَى هذِهِ النُّفوسِ الْبِطَاءِ عَمَّا أُمِرَتْ بِهِ، السِّرَاعِ إلَى مَا نُهِيَتْ عَنْهُ. وَنَسْتَغْفِرُهُ مِمَّا أَحَاطَ بِهِ عِلْمُهُ، وَأَحْصَاهُ كِتَابُهُ:

عِلْمٌ غَيْرُ قَاصِـرٍ، وَكِتَابٌ غَيْرُ مُغَادِرٍ، وَنُؤْمِنُ بِهِ إيمانَ مَنْ عَايَنَ الْغُيُوبَ وَوَقَفَ عَلَى الْمَوْعُودِ، إيمَاناً نَفَى إخْلاصُهُ الشِّرْكَ، وَيَقِينُهُ الشَّكَّ. وَنَشْـهَدُ أَنْ لَا إلهَ إلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَـرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً صـلى الله علیه و آله و سـلم عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، شَـهَادَتَيْنِ تُصْعِدَانِ الْقَوْلَ وَتَرْفَعَانِ الْعَمَلَ. لَا يَخِفُّ مِيزَانٌ تُوضَعَانِ فِيهِ، وَلَا يَثْقُلُ مِيزَانٌ تُرْفَعَانِ عَنْهُ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام علیه السـلام فى القسم الأول من هـذه الخطبـة إلى مسائل مهمّـة فى جانب حمد اللَّه والثناء عليه والاسـتعانة بذاته المقدّسـة والاستغفار من الذنوب والمعاصى، فقال بادىء ذى بدء:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الوَاصِلِ الْحَمْدَ بِالنّعَمِ وَالنّعَمَ بِالشُّكْرِ».

قرن الحمـد بالنعمـة يسـتند إلى أنّ حمـد اللَّه تعالى بنعمه وشـكره يجعل الإنسان جديراً بالنعم، فهذا الحمد يجعل العباد يتمتعون بنعمه وأفضاله، كما تعود علاقة النعمة بالشـكر إلى أنّ النعمة سـبب الشـكر، وذلك لأنّ العباد مكلّفون بشـكر كل نعمة، فالشكر واجب على كل نعمة (الواقع هو أنّ الحمد يشـكل السـبب التكوينى للنعم والنعم السـبب التشـريعى للشكر)، والشاهد على ذلك ما ورد فى الخطبة

۱۵۷ إذ قال:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی جَعَلَ الْحَمْدَ مِفْتَاحاً لِذِکْرِهِ، وَسَبَباً لِلْمَزِیدِ مِنْ فَضْلِهِ».

نفحات الولایهٔ، ج۵، ص: ۵۶

طبعاً یمکن أن تکون هناک عدّهٔ تفاسیر أخری للعبارتین المذکورتین من حیث تفاوت العلّهٔ والمعلول، غیر أنّ ما ورد هو أنسبها جمیعاً.

ثم قال علیه السلام فی المسألهٔ الثانیهٔ:

«نَحْمَدُهُ عَلَی آلَائِهِ، کَمَا نَحْمَدُهُ عَلَی بَلائِهِ».

فی إشارهٔ إلی أنّ البلاء الإلهی هو فی الواقع نوع من النعم، کما بیّنا ذلک فی بحثنا لفلسفهٔ الآفات والبلاء ضمن مباحث التوحید والعدل، فقد یکون البلاء سبباً للیقظهٔ والعودهٔ إلی اللّه تعالی وترک المعاصی أحیاناً، وقد یکون أحیاناً أخری بلاءاً ظاهراً، لکنّه نعمهٔ باطنیاً، غیر أننا لا نمیز ذلک، فربّما یکون البلاء کفّارهٔ للذنوب کما قد یکون وسیلهٔ لمعرفهٔ قدر النعم وذلک لأنّ الإنسان قد لا یعرف قیمهٔ النعم إلّاأن یفقدها ویتعرض إلی بعض الشدائد، وإلّا فالحکیم تبارک وتعالی لا یعرّض شخصاً للبلاء عبثاً، وعلیه فبلاؤه رحمهٔ وداؤه دواء.

ثم قال فی المسألهٔ الثالثهٔ:

«وَنَسْتَعِینُهُ عَلَی هذِهِ النُّفوسِ الْبِطَاءِ[۸۸] عَمَّا أُمِرَتْ بِهِ، السِّرَاعِ

إِلَی مَا نُهِیَتْ عَنْهُ».

إشارهٔ إلی النفوس البشریهٔ ما لم تبلغ المرحلهٔ المتکاملهٔ للنفس المطمئنهٔ فهی ضعیفهٔ فی الإتیان بالوظائف الشرعیهٔ وإمتثال الأوامر الإلهیّهٔ ومسارعهٔ فی مقارفهٔ الذنوب التی تنسجم والغرائز الحیوانیهٔ، ویتعذر تجاوز مرحلهٔ النفس الأمارهٔ وبلوغ مرحلهٔ النفس اللوامهٔ والوصول إلی النفس المطمئنهٔ ما لم تکن هناک نصرهٔ اللّه ومدده.

ثم قال علیه السلام:

«وَنَسْتَغْفِرُهُ مِمَّا أَحَاطَ بِهِ عِلْمُهُ، وَأَحْصَاهُ کِتَابُهُ: عِلْمٌ غَیْرُ قَاصِرٍ، وَکِتَابٌ غَیْرُ مُغَادِرٍ».

فالعبارهٔ تشیر إلی أننا إن لم نستغفر من الذنوب ولم نجل صدأ القلوب فسوف لن یسعنا التخلص من وساوس النفس والفوز بمقام القرب وبلوغ تلک المرحلهٔ من الإیمان التی سیأتی الحدیث عنها لاحقاً، والواقع هو أنّ الاستغفار تکمیل للبحث السابق ومقدمهٔ للبحث القادم.

أمّا القضیهٔ الأخیرهٔ فقد تناولت النتائج النهائیهٔ لهذا البحث فقال:

«وَنُؤْمِنُ بِهِ إیمانَ مَنْ عَایَنَ الْغُیُوبَ وَوَقَفَ عَلَی الْمَوْعُودِ، إِیمَاناً نَفَی إِخْلاصُهُ الشِّرْکَ، وَیَقِینُهُ الشَّکَّ».

نفحات الولایهٔ، ج۵، ص: ۵۷

إشارهٔ إلی خلاص الإنسان من وساوس النفس إذا ما مزج حمد اللّه تعالی والثناء علیه بشکر النعم، وخرج سالماً معافی من میدان الامتحان وتغلّب علی هواه ونزع عن ذنوبه وتاب من معاصیه آنذاک له أن یبلغ کمال الإیمان، الإیمان الذی یبلغ به درجهٔ الشهود، وکأنّه یری اللّه ببصیرته ویشاهد بام عینیه الجنّه والنار وثواب المحسنین وعقاب المسیئین، الإیمان المنزّه عن کافهٔ أشکال الشرک والیقین الذی لا یتطرق إلیه الشک.

نعم، فالیقین علی مراتب: المرتبهٔ الاولی وهی مرحلهٔ التی یتّجه إلیها الإنسان بواسطهٔ البرهان والاستدلال والتی یصطلح علیها باسم «علم الیقین»، والمرتبهٔ الثانیهٔ وهی المرحلهٔ التی یصلها الإنسان عن طریق الشهود وکأنّه یری من بعید الأنوار الإلهیّهٔ وعرصهٔ الحشر یوم الحساب، وهی المرحلهٔ المسمّاهٔ «عین الیقین» یلمس جمیع الأشیاء، فالأنوار الإلهیّهٔ تحیطه من کل جانب ونسیم الجنّهٔ المنعش یداعب

ظلال روحه ويتكدر لنيران جهنّم المحرقة، وهى المرحلة التى تدعى «حق اليقين»، وعلى هذا فالمراد بالعبارة عاين ووقف هو تلك المرحلة النهائية للإيمان واليقين والتى تبلغ فيها الإنسان مقام الشهود عن قرب وبالمعاينة.

وأخيراً يتّجه الإمام عليه السلام صوب الشهادة بالتوحيد والنبوة ليختتم به هذا المقطع من الخطبة، فقال:

«وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، شَهَادَتَيْنِ تُصْعِدَانِ الْقَوْلَ وَتَرْفَعَانِ الْعَمَلَ. لَا يَخِفُّ مِيزَانٌ تُوضَعَانِ فِيهِ، وَلَا يَثْقُلُ مِيزَانٌ تُرْفَعَانِ عَنْهُ».

فى إشارة إلى أنّ الشهادة بالوحدانية والنبوة إن انطلقت من أعماق النفس البشرية وظهرت أثارها على القول والعمل، فانّها على درجة من الطهر الاخلاص بحيث تشكل أثقل الأوزان فى ميزان الأعمال يوم القيامة حتى لا يخف ذلك الميزان بوجودها، والعكس صحيح لا ثقل لذلك الميزان مهما وضع فيه دونها.

ورد فى الحديث عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«أوحى اللَّهُ تَبارَكَ وَتَعالى إلى مُوسى بنِ عِمرانَ عليه السلام: يا موسى لَو أنّ السمواتِ وَعَامِرِيهِنَّ عِندِى، والأَرضِينَ السَّبعَ فِى كَفَّةٍ وَلا إلَهَ إلّااللَّهُ فى كَفَّةٍ، مالَتْ بِهِنَّ لاإلَهَ إلّااللَّهُ»[۸۹].

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۵۸

وبالطبع ليس المراد بالزنة هنا الأوزان وما يرتبط بها عن ميزان، بل المراد زنة القيم على ضوء المعايير العقلية والمعنوية.

تأمّل

اسس الموفقية والنجاة

بيّن الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة والذى يشكل فى الواقع مقدمة للقسم الثانى الذى يتحدث عن أهميّة التقوى وآثارها، حقيقة جذور الورع والتقوى والتى يكمن أهمّها فى الإيمان واليقين والمعرفة، والإيمان القوى والراسخ الذى يبلغ بصاحبه درجة تجعله كأنّه يرى اللَّه ويشاهد نعم الجنّة ونيران جهنّم، وممّا لا شك أنّ مثل هذا الإيمان هو مادة التقوى.

أضف إلى ذلك فقد أشار إلى الموانع الأصلية لهذا الأمر والتى تتمثل بالنفس الطائشة على أنّ الاستعانة باللطف الإلهى، هو سبيل النجاة منها وقد تطرق إلى ما ورد فى سورة يوسف وشأنه مع زليخا: «إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّى إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَحِيمٌ»[۹۰].

حيث استعان بعدّة وسائل من أجل بلوغ هذا الهدف ومن ذلك حمد اللَّه والثناء عليه وشكره على النعم والبلاء والحديث عن التوبة والاستغفار بصفته أحد العوامل المؤثرة فى التوفيق فى هذا المسير، وما أن يتمّ الانتهاء من هذا البرنامج الإلهى حتى يشرع بحث التقوى على أنّه من الأبحاث المداعبة للقلب والتى تختزن تعتبر غاية فى التأثير ولو استفاد المرّبون وأساتذة درس الأخلاق من هذا الطريق الذى علمناه الإمام عليه السلام لتحقيق هذا الهدف لما كان هناك من شك فى تأثير حديثهم ونفوذ كلامهم.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۵۹

القسم الثانى: أعظم الفضائل

«أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّتى هِىَ الزَّادُ وَبِهَا الْمَعَاذُ: زَادٌ مُبْلِغٌ، وَمَعَاذٌ مُنْجِحٌ. دَعَا إِلَيْهَا أَسْمَعُ دَاعٍ، وَوَعَاهَا خَيْرُ وَاعٍ. فَأَسْمَعَ دَاعِيهَا وَفَازَ وَاعِيهَا.

عِبَادَ اللَّهِ، إِنَّ تَقْوَى اللَّهِ حَمَتْ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ مَحَارِمَهُ. وَأَلْزَمَتْ قُلُوبَهُمْ مَخَافَتَهُ، حَتَّى أَسْهَرَتْ لَيَالِيَهُمْ، وَأَظْمَأَتْ هَوَاجِرَهُمْ. فَأَخَذُوا الرَّاحَةَ

بِالنَّصَبِ، وَالرِّىَّ بِالظَّمَإِ. وَاسْتَقْرَبُوا الْأَجَلَ فَبَادَرُوا الْعَمَلَ، وَكَذَّبُوا الْأَمَلَ فَلاحَظُوا الْأَجَلَ».

الشرح والتفسير

بعد أن فرغ الإمام عليه السلام عن تلك المقدمة الرصينة والوثيقة فى المقطع الأول من هذه الخطبة، إتجه إلى أهمّ فضيلة من الفضائل التى يكتسبها الإنسان وهى التقوى، فقد أشار فى البداية إلى آثارها الاخروية، فقال:

«أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّتِى هِىَ الزَّادُ وَبِهَا الْمَعَاذُ: زَادٌ مُبْلِغٌ، وَمَعَاذٌ مُنْجِحٌ».

من البديهى أنّ يحتاج الإنسان فى أسفاره الطويلة المليئة بالأخطار والمخاوف إلى شيئين:

الزاد والمتاع اللازم والمنازل والأماكن التى تحفظه من المخاطر، وهو ما صرّح به القرآن الكريم بقوله: «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ...»[۹۱].

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۶۰

وما اقتصه من خبر يوسف عليه السلام حين لاذ بالتقوى كسبيل للنجاة حين وقف على حافة خطر هاوية الذنب:

«قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ...»[۹۲].

حقاً إنّ التقوى كهف حصين وأمين وراسخ إزاء السيول الجارفة لأهواء النفس ووساوس الشيطان وحصن حصين للنجاة من نار جهنّم يوم القيامة وأفضل زاد ومتاع فى هذا السفر المليء بالخوف والخطر.

ثم واصل عليه السلام كلامه بالحديث عن أهميّة التقوى فى أنّ من دعا إليها أسمع داع نافذ الكلمة (إشارة اللَّه تبارك وتعالى، أو النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، أو جميع الأنبياء والأولياء) وقد وعى تلك الدعوة خير واع (إشارة إلى كافة التقاة وأتباع مدارس الأنبياء):

«دَعَا إِلَيْهَا أَسْمَعُ دَاعٍ، وَوَعَاهَا خَيْرُ وَاعٍ. فَأَسْمَعَ دَاعِيهَا وَفَازَ وَاعِيهَا».

ذهب البعض إلى أنّ المراد بالداع إلى التقوى قد يكون اللَّه سبحانه وتعالى أو شخص النبى صلى الله عليه و آله الذى ينطق عن اللَّه تعالى، والمقصود بواع التقوى هو على عليه السلام، ولا يبعد أن يكون لهما مفهوم عام يشمل جميع دعاة الحق ووعاته، على أنّ المنبع الأصلى هو الحق تبارك وتعالى والنبى صلى الله عليه و آله وإمام المتقين على بن أبى طالب عليه السلام.

ثم خاض عليه السلام فى الآثار القيّمة للتقوى فى خاصة عباد اللَّه فقال:

«عِبَادَ اللَّهِ، إِنَّ تَقْوَى اللَّهِ حَمَتْ ۹۳] أَوْلِيَاءَ اللَّهِ مَحارِمَهُ. وَأَلْزَمَتْ قُلُوبَهُمْ مَخَافَتَهُ، حَتَّى أَسْهَرَتْ لَيَالِيَهُمْ، وَأَظْمَأَتْ هَوَاجِرَهُمْ ۹۴]».

طبعاً العبارتان المذكورتان بشأن الليل والنهار هما تعبيران كنائيان لطيفان، حيث المراد أصحاب الليل الذين يفيقون فى جوف الليل، فيقومون للعبادة والتهجد وقد أحجموا عن النوم وانهمكوا بالدعاء والمناجاة، إلى جانب صومهم نهارهم وذكرهم اللَّه على كل حال، فالعبارة تشير إلى أنّ تقوى اللَّه هى مادة الحركة نحو جميع الفضائل والخيرات، وذلك لأنّ الإنسان حين يشعر بالمسؤولية ينطلق فى الحركة نحو إمتثال الطاعات واجتناب المعاصى

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۶۱

والمحرمات، وما إحياء الليل والصوم إلّاجانب من آثار خشية اللَّه تعالى التى تسمى بالتقوى.

ثم إختتم هذا المقطع من الخطبة بوصف طريقة عبوديتهم لربّهم بأنّهم آثروا المشقة والتعب على الراحة والكسل والعطش على الرىّ، وقد شعروا بقصر الدنيا ودنو الأجل وهذا ما دعاهم إلى المسارعة فى الخيرات ومبادرة الأعمال الصالحة، وعدم الخلود إلى الأمل بعد أن جعلوا الموت نصب أعينهم:

«فَأَخَذُوا الرَّاحَةَ بِالنَّصَبِ ۹۵]، وَالرِّىَّ ۹۶] بِالظَّمَإِ. وَاسْتَقْرَبُوا الْأَجَلَ فَبَادَرُوا الْعَمَلَ، وَكَذَّبُوا الْأَمَلَ فَلاحَظُوا الْأَجَلَ».

نعم، ففى الوقت الذى ينغمس فيه أهل الدعة والراحة فى مختلف الذنوب والأرجاس ترى هؤلاء يغضون الطرف عن الراحة بهدف

مجانبة الذنوب والإتيان بالصالحات، وهم ليسوا كأهل الدنيا الذين خدعوا بها فوقعوا فى حبائلها وآمالها الكاذبة.

والواقع هو أنّ العبارة «فبادروا» و «فلاحظوا» هى نتيجة ومعلول للعبارة «واستقربوا» و «كذبوا» يعنى من يرى قرب الأجل وسرعة العمر يبادر بالعمل، ومن يكذب الآمال يفكر بالموت ويراه أمام عينيه، والطبع فانّ تحمل مصاعب وشدائد هذا العالم يؤدّى إلى سكينتهم الخالدة واستقرارهم التام، وهو ما عبّر عنه الإمام عليه السلام فى موضع آخر بقوله:

«صَبَرُوا أَيّاماً قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً»[۹۷].

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۶۳

القسم الثالث: العبر والاعتبار

«ثُمَّ إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ فَنَاءٍ وَعَنَاءٍ، وَغِيَرٍ وَعِبَرٍ؛ فَمِنَ الْفَنَاءِ أَنَّ الدَّهْرَ مُوتِرٌ قَوْسَهُ، لَا تُخْطِىءُ سِهَامُهُ، وَلَا تُؤْسَى جِرَاحُهُ. يَرْمِى الْحَىَّ بِالْمَوْتِ وَالصَّحِيحَ بِالسَّقْمِ، وَالنَّاجِىَ بِالْعَطَبِ. آكِلٌ لَا يَشْبَعُ، وَشَارِبٌ لَا يَنْقَعُ. وَمِنَ الْعَنَاءِ أَنَّ الْمَرْءَ يَجْمَعُ مَا لَا يَأْكُلُ وَيَبْنِى مَالا يَسْكُنُ. ثُمَّ يَخْرُجُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لَا مَالًا حَمَلَ، وَلَا بِنَاءً نَقَلَ. وَمِنْ غِيَرِهَا أَنَّكَ تَرَى الْمَرْحُومَ مَغْبُوطاً، وَالْمَغْبُوطَ مَرْحُوماً؛ لَيْسَ ذلِكَ إِلَّا نَعِيماً زَلَّ، وَبُؤْساً نَزَلَ. وَمِنْ عِبَرِهَا أَنَّ الْمَرْءَ يُشْرِفُ عَلَى أَمَلِهِ فَيَقْتَطِعُهُ حُضُورُ أَجَلِهِ. فَلَا أَمَلٌ يُدْرَكُ وَلَا مُؤَمَّلٌ يُتْرَكُ، فَسُبْحَانَ اللَّهِ مَا أَعَزَّ سُرُورَهَا وَأَظْمَأَ رِيَّهَا وَأَضْحَى فَيْئَهَا، لَا جَاءٍ يُرَدُّ، وَلَا مَاضٍ يَرْتَدُّ. فَسُبْحَانَ اللَّهِ، مَا أَقْرَبَ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ لِلَحَاقِهِ بِهِ، وَأَبْعَدَ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ لِانْقِطَاعِهِ عَنْهُ!».

الشرح والتفسير

لما كان الانغماس فى الدنيا والتكالب عليها وفقدان النفس لتوازنها إزاء زخارف عالم المادة من أهم العوامل لعدم التقوى، فقد ورد الحديث هنا عن تفاهة الدنيا وتقلب أحوالها وما تنطوى عليه من شدائد ونوازل بهدف اجتثاث جذور التحلل وعدم استشعار الورع والتقوى فقال عليه السلام:

«ثُمَّ إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ فَنَاءٍ وَعَنَاءٍ، وَغِيَرٍ وَعِبَرٍ».

حيث تشير العبارة إلى أربع خصائص تمتاز بها الدنيا والتى يقود التفكير بها الإنسان إلى التعرف على الصورة الحقيقية للدنيا، ثم خاضت العبارات التالية فى شرحها الواحدة بعد

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۶۴

الاخرى مع التطرق إلى بعض التفاصيل الدقيقة لكل واحدة منها، فأشارت فى البداية إلى خاصية فناء الدنيا، حيث صورت بعض علامات هذا الفناء فى أنّ الدهر يشبه الرامى الماهر الذى يطلق سهامه دون أن تطيش وتخطىء الهدف، كما يتعذر علاج جروح من أصابته تلك السهام:

«فَمِنَ الْفَنَاءِ أَنَّ الدَّهْرَ مُوتِرٌ قَوْسَهُ، لَا تُخْطِىءُ سِهَامُهُ، وَلَا تُؤْسَى ۹۸] جِرَاحُهُ».

فلا خلاص لأحد من الموت والعجز والمشيب والمرض والألم والعناء، ولذلك قال الإمام عليه السلام فى شرحه لهذه العبارة:

«يَرْمِى الْحَىَّ بِالْمَوْتِ وَالصَّحِيحَ بِالسَّقْمِ، وَالنَّاجِىَ بِالْعَطَبِ».

فأقوى أفراد البشر يستسلم يوماً للموت، كما يمرض أصح الأصحاء ويهزم حتى الأبطال.

نعم، هذه طبيعة الحياة الدنيا، وهذا هو القانون الذى لا يعرف لاستثناء، والغريب فى الأمر أنّ الجميع يعرف ذلك ويرونه بأعينهم ورغم كل ذلك فهم يتعلّقون بالدنيا ويخلدون إليها ويغترّون بها.

ثم يختتم عليه السلام كلامه بشأن توضيح فناء الدنيا قائلًا:

«آكِلٌ لَا يَشْبَعُ، وَشَارِبٌ لَا يَنْقَعُ ۹۹]».

فقد كشف الإمام عليه السلام حقيقة فناء الدنيا من خلال العبارات الثمان التى أوردها فى وصف الدنيا، بحيث لا يشك من كان له أدنى عقل بفناء الدنيا وعدم دوامها.

ثم خاض عليه السلام فى شرح وتفسير عناء الدنيا ومن ذلك جمعه الأموال التى لا يستفيدها جميعاً والمبانى التى يشيّدها دون أن يسكنها وأخيراً يودع كل ذلك وينتقل إلى عالم آخر دون أن يحمل معه شيئاً من الأموال أو الدور:

«وَمِنَ الْعَنَاءِ أَنَّ الْمَرْءَ يَجْمَعُ مَا لَا يَأْكُلُ وَيَبْنِي مَالا يَسْكُنُ. ثُمَّ يَخْرُجُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لَا مَالًا حَمَلَ، وَلَا بِنَاءً نَقَلَ».

نعم، كثيرون هم الأفراد الذين يدّخرون أمولًا طائلة، إلّاأنّهم لا يستفيدون إلّامن جزء يسير منها وما أكثر اولئك الذين يبنون لأنفسهم أعظم القصور والدور فلا يقيمون فيها إلّا مدّة قليلة، بل قد لا يسكنونها حتى ليوم واحد، وقد رأينا بأم أعيننا إقامة مراسم العزاء على أرواحهم فى تلك القصور الفخمة، فهم يتركونها فى خاتمة المطاف ولا يحملون من مال الدنيا

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۶۵

سوى الكفن، بل ربّما لم يحملوا حتى ذلك الكفن، فتكون ثيابهم أكفانهم وبيوتهم قبورهم.

ورد فى البحار عن العلّامة المجلسى أنّ على عليه السلام قال:

«كَمْ مِنْ غافِلٍ يَنْسَجُ ثَوباً لِيَلْبَسَهُ وَإِنَّما هُوَ كَفَنُهُ وَيَبْنِى بَيَتاً لِيسكُنَهُ وَإِنَّما هُوَ مَوضِعُ قَبرِهِ»[۱۰۰].

ثم خاض الإمام عليه السلام فى شرح الصفة الثالثة للدنيا فقال:

«وَمِنْ غِيَرِهَا أَنَّكَ تَرَى الْمَرْحُومَ مَغْبُوطاً، وَالْمَغْبُوطَ مَرْحُوماً؛ لَيْسَ ذلِكَ إِلَّا نَعِيماً زَلَ ۱۰۱]، وَبُؤْساً نَزَلَ».

حيث رأينا كراراً ليس فى صفحات التاريخ فحسب، بل فى حياتنا اليومية عدّة أفراد كانوا من أهل السطوة وقمة القدرة حتى يتمنى الجميع الحصول على شيء من قدرتهم، لكنّهم هووا فى مستنقع السقوط بما جعل الكل يترحم عليهم، وبالعكس فإننا نعرف بعض الأفراد ممن يشعر من يراهم بالأسى والحزن لصعوبة أوضاعهم ومعاناتهم، بينما تسلقوا فجأة سلّم القدرة ليحظوا باعجاب الجميع وغبطتهم.

نعم، لم يكن «قارون» لوحده الذى استعرض يوماً كل تلك القدرة و الثروة التى خطفت أبصار قصار النظر من بنى اسرائيل الذين اعتراهم الحسد والأمل، فتمنوا الحصول على تلك الثروة بدله، ولم تمض مدّة حتى شقت الأرض لتبتلع كل كنوزه وثرواته، ممّا دفع من تمنى تلك الثروة إلى شكر اللَّه أن لم يجعلهم بدلًا منه ولم يغدق عليهم الثروة والسطوة، أجل لقد تكررت هذه الصورة مراراً فى التاريخ ثم قال عليه السلام فى الصفة الرابعة للدنيا والتى تختص بكونها عبرة:

«وَمِنْ عِبَرِهَا أَنَّ الْمَرْءَ يُشْرِفُ عَلَى أَمَلِهِ فَيَقْتَطِعُهُ حُضُورُ أَجَلِهِ. فَلَا أَمَلٌ يُدْرَكُ وَلَا مُؤَمَّلٌ يُتْرَكُ».

فأحياناً يعدّ الإنسان عدّة مقدمات بغية الحصول على المال والثروة أو الجاه والمنزلة ولا يكاد يقترب من الوصول إلى أهدافه حتى يتخطفه الموت فيقضى على جميع طموحاته ورغباته ويحول دون تحقيقها، بل لا يدوم له حتى المال الذى يجنيه والمنصب الذى يشغله.

ثم يعرب الإمام عليه السلام فى آخر كلامه عن وحشته لمن يغترّ بمثل هذه الدنيا المليئة بالفناء والعناء والموصوفة بالغير والعبر:

«فَسُبْحَانَ اللَّهِ مَا أَعَزَّ سُرُورَهَا وَأَظْمَأَ رِيَّها[۱۰۲] وَأَضْحَى

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۶۶

فَيْئَهَا، لَا جاءٍ يُرَدُّ، وَلَا مَاضٍ يَرْتَدُّ».

نعم، عابرة جدّاً لحظات الفرح والسرور وهى أشبه بلحظات الإرتواء من النعم وزوال الفييء والظل.

يمكن أن تكون العبارة

«لا جاء يرد ولا ماض يرتد»

نفحات الولایهٔ ؛ ج۵ ؛ ص۶۶

ارهٔ إلی الناس حیث تأتی طائفهٔ لا یقدر أحد علی صدها، کما تنتقل طائفهٔ من هذا العالم ولیس لأحد من قدرهٔ علی إعادتها، کما یمکن أن تکون إشارهٔ إلی حوادث الدهر شرّها وخیرها والتی لا یسع أحد الحیلولهٔ دون وقوعها إن أبرمت وأصبحت قطعیهٔ حتمیهٔ، کما لا یمکن عودهٔ ما تولی من أمور ودهور، فلا عودهٔ للطفولهٔ فی الشباب ولا الشباب فی المشیب.

ثمّ إختتم علیه السلام هذا المقطع من الخطبهٔ بهذه العبارهٔ التی تکمل سابقتها من العبارات قائلًا:

«فَسُبْحَانَ اللَّهِ، مَا أَقْرَبَ الْحَیَّ مِنَ الْمَیِّتِ لِلَحَاقِهِ بِهِ، وَأَبْعَدَ الْمَیِّتَ مِنَ الْحَیّ لِانْقِطَاعِهِ عَنْهُ!».

نعم، فالفاصلهٔ بین الموت والحیاهٔ قصیرهٔ جدّاً حتی صورتها الروایات بأنّها تکاد تکون کطرفهٔ العین، ومن ما ورد فی الحدیث عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله أنّه قال:

«وَالّذِی نَفسُ مُحمِّدٍ بِیَدِهِ مَا طَرَفْتْ عَینَای إلّاظَنَنتُ أَنَّ سَفَری لا یَلْتَقِیانِ حَتّی یَقْبِضَ اللَّهُ رُوحِی وَلا رَفَعْتُ طَرفِی وظَنَنْتُ أَنِّی حافِضُهُ حَتّی اقبَضَ وَلا تَلَقَّنُ لُقْمَهً إلّاظَنَنْتُ أَنِّی لا اسِیغُها حَتّی اعَضَّ بِها مِنَ المَوتِ»[۱۰۳].

إنّ من له أدنی إلمام ببنیهٔ جسم الإنسان لیعلم بمدی قرب هذه الفاصلهٔ، فیکفی تخثر مقدار قلیل من الدم لیغلق منافذ شرایین الفاصلهٔ أوالدماغ فیؤدّی بحیاهٔ الإنسان، بل یکفی نفوذ جزء یسیر من الطعام إلی لسان المزمار بدلًا من إتجاهه إلی المعدهٔ لیختنق الإنسان ویموت من فوره، کما تکفی صدمهٔ طبیعیهٔ لهذا الإنسان قد توقف قلبه عن الدق وإلی الأبد.

أمّا بالنسبهٔ للحوادث الخارجیهٔ فبمجرّد اهتزاز الأرض للحظهٔ قد تنقلب مدینهٔ رأساً علی عقب، کما قد تأتی عاصفهٔ أو سیل علی کل شیء فتحیله خراباً لا حرکهٔ فیه ولا حیاهٔ، بل لصاعقهٔ من السماء أن تحیل کل شیء إلی رماد.

نفحات الولایهٔ، ج۵، ص: ۶۷

إلی جانب ذلک هنالک الحوادث الیومیهٔ فی حیاتنا المعاصرهٔ من قبیل الاصطدامات وسقوط الطائرات والحرائق والانفجارات التی تنهی حیاهٔ الأفراد خلال لحظات، نعم، تکاد تکون معدومهٔ هی الفاصلهٔ بین الحیاهٔ والموت، ولکن من جانب آخر فانّ هذه الفاصلهٔ قد تکون فی غایهٔ البعد، فلو اجتمع کافهٔ الأطباء وأعدّوا مختلف الوسائل الطبیهٔ، فلیس لهم أن یهبوا الحیاهٔ للأموات، علی غرار الولید الذی لا یسعه الرجوع إلی بطون امه و الثمار التی لا تعود ثانیهٔ إلی الأشجار بعد سقوطها.

نختتم الکلام بما ورد عن الإمام الصادق علیه السلام أنّه قال:

«ثَلاثَهُ أَشیاءٍ لایَنبَغِی لِلعاقِلِ أن یَنساهُنَّ عَلی کُلِّ حالٍ، فَناءُ الدُّنیا وَتصَرُّفُ الأَحوالِ والآفاتُ الَّتی لاأمانَ لَها»[۱۰۴].

نفحات الولایهٔ، ج۵، ص: ۶۹

القسم الرابع: الحرص علی الدنیا

اشارهٔ

«إِنَّهُ لَیسَ شَیْءٌ بِشَرّ مِنَ الشَّرّ إِلَّا عِقَابُهُ، وَلَیْسَ شَیٌ بِخَیْرٍ مِنَ الْخَیْرِ إِلَّا ثَوَابُهُ. وَکُلُّ شَیْءٍ مِنَ الدُّنْیا سَمَاعُهُ أَعْظَمُ مِنْ عِیَانِهِ. وَکُلُّ شَیءٍ مِنَ الْآخِرَهِ عِیَانُهُ أَعْظَمُ مِنْ سَمَاعِهِ. فَلْیَکْفِکُمْ مِنَ الْعِیَانِ السَّمَاعُ، وَمِنَ الْغَیْبِ الْخَبَرُ.

وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا نَقَصَ مِنَ الدُّنْیا وَزَادَ فِی الآخِرَهِ خَیْرٌ مِمَّا نَقَصَ مِنَ الآخِرَهِ وَزَادَ فی الدُّنْیا. فَکَمْ مِنْ مَنْقُوصٍ رَابِحٍ وَمَزِیدٍ خَاسِرٍ! إِنَّ الَّذِی أُمِرْتُمْ بِهِ أَوْسَعُ مِنَ الَّذِی نُهِیتُمْ عَنْهُ وَمَا أُحِلَّ لَکُمْ أَکْثَرُ مِمَّا حُرّمَ عَلَیْکُمْ. فَذَرُوا مَا قَلَّ لِمَا کَثُرَ، وَمَا ضَاقَ لِمَا اتَّسَعَ. قَدْ تَکَفَّلَ لَکُمْ بِالرِّزْقِ وَأُمِرْتُمْ بِالْعَمَلِ فَلا یَکُونَنَّ الْمَضْمُونُ لَکُمْ طَلَبُهُ أَوْلَی بِکُمْ مِنَ الْمَفْرُوضِ عَلَیْکُمْ عَمَلُهُ، مَعَ أَنَّهُ وَاللَّهِ لَقَدِ اعْتَرَضَ الشَّکُّ وَدَخِلَ الْیَقِینُ،

حَتَّى كَأَنَّ الَّذِی ضُـمِنَ لَکَمْ قَدْ فُرِضَ عَلَیْکَمْ، وَکَأَنَّ الَّذِی قَدْ فُرِضَ عَلَیْکَمْ قَدْ وُضِعَ عَنْکَمْ. فَبَادِرُوا الْعَمَلَ، وَخَافُوا بَغْتَةَ الْأَجَلِ، فَإِنَّهُ لَا یُرْجَی مِنْ رَجْعَةِ الْعُمُرِ مَا یُرْجَی مِنْ رَجْعَةِ الرِّزْقِ. مَا فَاتَ الْیَوْمَ مِنَ الرِّزْقِ رُجِیَ غَداً زِیَادَتُهُ. وَمَا فَاتَ أَمْسِ مِنَ الْعُمُرِ لَمْ یُرْجَ الْیَوْمَ رَجْعَتُهُ. الرَّجَاءُ مَعَ الْجَائِی، وَالْیَأْسُ مَعَ الْمَاضِی. فَاتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ، وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ».

الشرح والتفسير

بيّن الإمام عليه السـلام سلسلة من النصائح والمواعظ فى هذا المقطع من الخطبة والذى يمثل آخرها بهدف إعداد المخاطبين بحيث لو تأملها الإنسان وفكر فيها وسعه تحقيق السعادة والنجاة فقال:

نفحات الولايۀ، ج۵، ص: ۷۰

«إِنَّهُ لَیْسَ شَیْءٌ بِشَرٍّ مِنَ الشَّرِّ إِلَّا عِقَابُهُ، وَلَیْسَ شَیٌ بِخَیْرٍ مِنَ الْخَیْرِ إِلَّا ثَوَابُهُ».

فالإنسان بصورة عامّة يهرب من السوء والشـر ويجنح نحو الخير، وقد جبل على السعى نحو جنى منفعة ودفع الضـرر، فقد اعتمد الإمام عليه السـلام هذا الأمر الفطرى ليدعو الناس إلى طاعة اللَّه تعالى والابتعاد عن المعصية والذنب فقال إنّ الأسوأ من السوء هو عقاب اللَّه تعالى ومؤاخـذته على الـذنوب والأفضـل من الخير هو جزاء اللَّه تعالى وثوابه على الطاعـة والاحسان، من الواضـح أنّ المراد من الشر والخير (بقرينة الثواب والعقاب) هو المعصـية والطاعة، بينما يتسع معنى الشر والخير إن توسعنا فى معنى العقاب والثواب ليشمل العقاب والثواب التكوينى (أى جزاء وبركات الأعمال فى الدنيا).

وقد أورد الإمام عليه السلام مثل هذه العبارة فى موضع آخر حيث قال:

«فَاعِلُ الْخَیْرِ خَیْرٌ مِنْهُ، وَفَاعِلُ الشَّرِّ شَرٌّ مِنْهُ»[۱۰۵].

فقد إهتم الإمام فى النظرة الاولى إلى النتائج ومن ثم إلى الأسباب والعلل، حقّاً إنّ الذى يضـمره فاعل الخير والشـر أعظم ممّا يقوم به من عمـل، لأنّه لا يرى توفر أرضـيته وأسـبابه، من جانب آخر فانّ نتائـج الأعمال خالـدة بينما تزول الأعمال وهـذا بحـدّ ذاته دليل على أفضلية النتائج على نفس الأعمال.

ثم أضاف الإمام عليه السلام نقطة مهمّة أخرى بهذا الخصوص فقال:

«وَکُلُّ شَیْءٍ مِنَ الدُّنْیا سَمَاعُهُ أَعْظَمُ مِنْ عِیَانِهِ. وَکُلُّ شَیءٍ مِنَ الآخِرَةِ عِیَانُهُ أَعْظَمُ مِنْ سَمَاعِهِ»،

هـذه حقيقـة فى أنّ المتع المادية كالسـراب له منظر خاص من بعيد، ولكن لا يبدو شـيئاً يذكر حين يصـله الإنسان، فللقصور والثروات والقدرات واللذات والمتع ظاهر أنيق من بعيد، ولكن ما أن يقترب منها الإنسان حتى يرى سـيل المشاكل والمصائب، فيتمنى أحياناً أنّه لم يبلغها ويحصل عليها، فى حين ورد بشأن النعم الإلهيّة الجمّة فى الآخرة:

«أَعْدَدْتُ لِعبادِی ما لاعَینٌ رأَتْ ولا اذنٌ سَمِعَتْ وَلا خَطَرَ عَل قَلبِ بَشَرٍ»[۱۰۶].

بل ليشعر الإنسان بالعجز عن وصف اللذة التى يعيشها فى هذه الدنيا حين مناجاته للَّه

نفحات الولايۀ، ج۵، ص: ۷۱

وإحساسه بالقرب منه والفوز برضاه.

ثم واصل الإمام عليه السـلام كلامه بأنّ الأمر إذا كان كـذلك لابدّ أن يغنيكم سـماع الحقائق المرتبطة بالآخرة بواسـطة الأنبياء وأولياء اللَّه سبحانه وتعالى عن رؤيتها:

«فَلْیَکْفِکُمْ مِنَ الْعِیَانِ السَّمَاعُ، وَمِنَ الْغَیْبِ الْخَبَرُ»،

من البـديهى أن يعجز الإنسان عن العالم الخارجى مادامه فى زنزانـة الجسـد وفى دار الـدنيا الظلماء الضـيقة، فلا سبيل لإدراك أوضاع الآخرة وتفاصيلها سوى ما يوصله له هؤلاء العظام من أخبار يكتفى بها.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى أمرين منطقيين بهدف التشجيع على الإتيان بالصالحات وإجتناب السيئات فقال:

«وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا نَقَصَ مِنَ الدُّنْيَا وَزَادَ فِي الآخِرَةِ خَيْرٌ مِمَّا نَقَصَ مِنَ الآخِرَةِ وَزَادَ فى الدُّنْيَا. فَكَمْ مِنْ مَنْقُوصٍ رَابِحٍ وَمَزِيدٍ خَاسِرٍ!»،
وهذا هو الأمر الذى أشار إليه القرآن الكريم بوضوح إذ قال: «مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ ...»[۱۰۷].
وكما قال فى موضع آخر: «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ ...»[۱۰۸].

وبناءاً على هذا فالأموال والأعمار والإمكانات التى توظف فى مسار الآخرة إن قللت فى الظاهر شيئاً من الدنيا، ولكن فى الواقع قد تضيف أحياناً مئة ضعف إلى ثواب الآخرة، وبالعكس فانّ الإنسان يدفع الثمن باهضاً إن أخلّ بشىء من آخرته وتنازل عن دينه وإيمانه وإنهمك بدنياه لينال شيئاً من حطامها، قال القرآن الكريم بهذا الخصوص: «إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلًا أُوْلَئِكَ لَاخَلَاقَ لَهُمْ فِى الْآخِرَةِ ...»[۱۰۹].

فهل هناك من عاقل مستعد لمعاوضة الصفقة الاولى المربحة بالثانية الخاسرة؟!

ثم قال الإمام عليه السلام فى الأمر الثانى:

«إِنَّ الَّذِى أُمِرْتُمْ بِهِ أَوْسَعُ مِنَ الَّذِى نُهِيْتُمْ عَنْهُ وَمَا أُحِلَّ لَكُمْ أَكْثَرُ مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ. فَذَرُوا مَا قَلَّ لِمَا كَثُرَ».

المراد من «ما أمرتم به» هنا الأمر فى مقابل الحظر، يعنى ما أجيز لكم بالنسبة إلى الذنوب

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۷۲

هو أوسع وأشمل، وترك الذنب لا يؤدّى بكم إلى الضيق والعسر، بل أمامكم مسار واسع وشامل بهدف الحصول على الدين والدنيا، قطعاً إننا نصل إلى عدد محدود حين نحصى الذنوب ولا سيّما الكبائر، بينما نواجه دائرة واسعة جدّاً إن أردنا إحصاء ما أجازه الشرع المقدس، ويصدق هذا الأمر على الحلال والحرام، فما أكثر الأغذية الحلال بالنسبه للطعام الحرام، وما أكثر معاملات الحلال قياساً بمعاملات الحرام، كما أنّ النساء اللاتى يحلّ الزواج منهن أكثر بكثير من تلك اللاتى يحرم الزواج منهن ۱۱۰]، وعليه فطاعة أوامر اللَّه تعالى ورعاية الحلال والحرام لا- تجعل الإنسان فى حرج، وهذا فى والواقع ردّ قاطع على اولئك الذين يرون دين اللَّه سلسلة من المحظورات والممنوعات، وهكذا يحث الإمام عليه السلام الجميع على ترك الذنوب والمعاصى والمحرمات، وهكذا والمحدودة والحركة باتجاه السبيل الرحب للحلال والمباح، فليست هنالك من مشكلة فى حياتهم المادية ولا المعنوية.

والواقع هو أنّ هذه العبارة إشارة لما ورد فى القرآن الكريم: «وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ...»[۱۱۱].

وجاء فى الحديث النبوى الشريف:

«بَعَثَنِى بِالحَنَفِيةِ السَّمحَةِ»[۱۱۲].

كما صرّح القرآن الكريم قائلًا: «فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ* إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ...»[۱۱۳].

ولما كان السعى من أجل المعاش والحرص لنيل الرزق يشكل أحد العوامل المهمّة للغفلة والكسل عن الإتيان بالفرائض الإلهيّة والخوض فى تهذيب النفس وتزكيتها، فانّ الإمام عليه السلام أشار إلى مسألة دقيقة، وهى ضرورة علمهم بأنّ اللَّه قد ضمن أرزاقهم وأمرهم بالقيام

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۷۳

بالواجبات، وعليه فلا ينبغى لهم منح الأولوية لما ضمن والغفلة عمّا يجب عليهم الإتيان به فقال:

«قَدْ تَكَفَّلَ لَكُمْ بِالرِّزْقِ وَأُمِرْتُمْ بِالْعَمَلِ فَلا يَكُونَنَّ الْمَضْمُونُ لَكُمْ طَلَبُهُ أَوْلَى بِكُمْ مِنَ الْمَفْرُوضِ عَلَيْكُمْ عَمَلُهُ»[۱۱۴].

وبعبارة أخرى فانّ لدينا شيئين: الأول تحصيل الرزق والثانى القيام بالفرائض الإلهيّة، وقد تكفّل اللَّه تعالى بضمان الأول وقلدنا مسؤولية الأمر الثانى، ومن هنا لابدّ أن نبذل ما فى وسعنا بالأمر الثانى، والحال القضية على العكس فى أنّ أغلب الناس يركزون جهودهم ويبذلون قصارى سعيهم ويشغلون فكرهم من أجل تحصيل الرزق والمعاش ويولون ظهورهم ليتناسوا الواجبات والفرائض

الملقاة على عاتقهم.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلًا:

«مَعَ أَنَّهُ وَاللّهِ لَقَدِ اعْتَرَضَ الشَّكُّ وَدَخِلَ ۱۱۵] الْيَقِينُ، حَتّى

كَأَنَّ الَّذِى ضُمِنَ لَكُمْ قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمْ، وَكَأَنَّ الَّذِى قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمْ قَدْ وُضِعَ عَنْكُمْ».

ويبدو أنّ هذه العبارة تشبه ما ورد عن أمير المؤمنين على عليه السلام فى مقارنته لطلب العلم بطلب المال حيث قال:

«أَيُّها النّاسُ اعلَمُوا أَنَّ كَمالَ الدِّينِ طَلَبُ العِلمِ وَالعَمَلُ بِهِ، ألا وَإنَّ طَلَبَ العِلمِ أَوجَبُ عَلَيكُم مِنْ طَلَبِ المالِ إنَّ المالَ مَقسُومٌ مَضمُونٌ لَكُم قَدْ قَسَّمَهُ عادِلٌ بَينَكُم وَضَمِنَهُ وَسَيَفِى لَكُم وَالعِلمُ مخْزُونٌ عِندَ أَهلِهِ وَقَدْ أُرتُم بِطَلَبِهِ مِنْ أَهلِهِ فَاطْلُبُوهُ»[۱۱۶].

لا شك أنّ المقصود بالعبارات المذكورة ليس إيقاف الناس لأنشطتهم الاقتصادية الإيجابية ويتخلون عن مساعيهم من أجل ضمان الحياة المشرفة، بل الهدف هو الحدّ من الحرص

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۷۴

والتكالب على الدنيا والجنوح نحو الشره الذى يصد الإنسان عن العلم والمعرفة والأمور المعنوية.

ثم خلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة:

«فَبادِرُوا الْعَمَلَ، وَخَافُوا بَغْتَةَ[۱۱۷] الْأَجَلِ، فَإِنَّهُ لَا

يُرْجى مِنْ رَجْعَةِ الْعُمُرِ مَا يُرْجى مِنْ رَجْعَةِ الرِّزْقِ. مَا فَاتَ الْيَوْمَ مِنَ الرِّزْقِ رُجِىَ غَداً زِيَادَتُهُ. وَمَا فَاتَ أَمْسِ مِنَ الْعُمُرِ لَمْ يُرْجَ الْيَوْمَ رَجْعَتُهُ»

، نعم،

«الرَّجاءُ مَعَ الجَائِى وَاليأسُ مَعَ المَاضِى».

حقاً إنّه منطق بليغ واضح فى عدم إمكانية عودة ساعات العمر بأى شكل من الأشكال، فى حين يمكن استعادة متع الدنيا وفى كل الظروف وتداركها، بناءاً على هذا فالذى يقوله العقل لابدّ من الحزم والحساسية تجاه الأمور التى يمكن عودتها، لا الأمور التى إن فقدت اليوم أمكن الحصول عليها بالغد، والحال أنّ أغلب الناس يتصرفون على العكس من هذا الأمر، فأصواتهم ترتفع بالصراخ إلى عنان السماء لمجرّد فقدانهم لشىء من حطام الدنيا، بينما لا يأبهون لتصرم الأيام والأسابيع والأشهر والسنوات، وهذا يدعو إلى الدهشة والعجب، وهذا ما دفع بالإمام عليه السلام للتأكيد على هذا المطلب وشبهه فى هذه الخطبة وسائر الخطب.

ورد فى الخبر أنّ شخصاً أتى إلى الإمام السجاد عليه السلام وقد شكى إليه وضعه وكأنّه كان يعانى من قلّة الرزق فرد عليه الإمام عليه السلام أنّ بنى آدم عليه السلام مساكين يشهدون ثلاث مصائب كل يوم ولا- يعتبرون بها ولو اعتبروا بها لهانت عليهم المصائب، المصيبة الأولى: كل يوم يمر عليهم يذهب من عمرهم (لكنهم لا- يأسفون على ذلك) لكنهم يحزنون إن قلّ مالهم، والحال هناك خلف للدنيار والدرهم بينما ليس للعمر من عودة قط، المصيبة الثانية: هو أنّ الإنسان يرتزق كل يوم فان كان رزقه حلالًا كان فيه حساب وإن كان من الحرام فيه عقاب، المصيبة الثالثة وهى أعظمها جميعاً:

«مَا مِنْ يَوم يُمسِى إلّاوَقَدْ دَنا مِنَ الآخرَةِ مَرحَلَةً لايَدرِى عَلَى الجَنَّةِ أم عَلى النَّارِ»[۱۱۸].

وفى ختام الخطبة نصح الناس من خلال الوعظ بالآيات القرآنية فقال: «فاتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ».

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۷۵

والقول مستوحى من قوله تبارك وتعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فاتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ»[۱۱۹].

تأمّلات

۱– غرور عن بعد ورعب من قرب

إنّ المتع الدنيوية المادية والبهرجة لهذا العالم تبدو خلّابة ساحرة من بعيد، لكن ما إن يبلغها الإنسان حتى يراها غاية فى الصغر والضحالة، بل تكون مقلقة ومرعبة أحياناً، مثلًا يرى الإنسان من بعيد حياة الملوك فيظن لو إعتلى يوماً عرش السلطة، فقد سيطر على العالم بأسره وقد نال السعادة والموفقية، ولكنّه ما إن يبلغ ذلك حتى يشعر أنّه فقد على الأقل ثلاثة أشياء من ركائز الحياة:

الأول: الأمن فهو يشعر فى ذلك المنصب بالخوف من أقرب مقربيه، فهو مطالب بالحذر من بطانته دائماً حتى فى قصره وغرفة نومه فلا أمن ولا أمان، فما أكثر السلاطين الذين قتلوا على يد مقربيهم.

الثانى: الحرية، على سبيل المثال لا يستطيع ممارسة حياته كالأفراد العاديين من قبيل الخروج فى نزهة مع زوجته وأولاده أو الحضور بحرية فى المجالس والحفلات التى يقيمها الأصدقاء والأقرباء.

الثالث: راحة البال، فهو مشغول على الدوام ولا يهدأ أبداً، فما زلنا نذكر بعض رؤوسا الجمهويات الذين صرّحوا علنا بأنّهم لم يذوقوا طعم النوم الهادىء طيلة ليالى حكومتهم وأن حاشيتهم كانوا يوقظونهم من نومهم ليطلعوهم على الحوادث التى تقع هنا هناك من العالم، نعم لم يذوقوا طعم النوم إلّابعد أن تمت مدّة حكومتهم.

ومثال آخر لما ذكرنا آفاق حياة الأثرياء من بعيد فيظن الناظر أنّها مفعمة بالسعادة والرفاه، ولكن إن قدّر له أن يعيش ذلك الثراء فسيشعر أنّ بحاجة إلى جزء يسير من هذه

الثروة فى حياته بينما تثقل باقى الثروة كاهله، فالحرص على حفظ هذه الثروة وصيانتها من الأعمال الشاقة، والعداوة والبغض الحسد الذى يعانيه من الآخرين والذى يمثل كابوساً مرعباً يقض مضجعه، ومن هنا عبّر الإمام عليه السلام بتلك العبارة الرائعة التى أوردها فى هذه الخطبة فى أنّ كل شىء فى الدنيا سماعه أعظم من عيانه، وبالعكس بالنسبة للآخرة فانّ كل شىء فيها عيانه أعظم من سماعه، فهل لعاقل بعد كل هذا أن يؤثر الدنيا على الآخرة.

نعم، إن نشد الإنسان المقامات المادية وثروات هذا العالم من أجل خدمة خلق اللّه تعالى، على حدّ تعبير القرآن الكريم فى إطار خطابه لقارون: «وَابْتَغِ فِيمَا آتَاکَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ...»[۱۲۰].

وتحمل كل ما يترتب على ذلك من مشاكل وصعاب فذلك له حساب آخر، فقد ورد فى الخبر إنّ أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام شكى إليه طلب الدنيا والتعلق بها، فقال له عليه السلام لم تطلب الدنيا؟ قال: لأصل بها رحمى وأنفق على عيالى وأعطى وأحج وأعتمر، فقال:

«لَيسَ هذا طَلَبُ الدُّنيا، هذا طَلَبُ الآخرة».[۱۲۱]

۲– الدنيا وآراء الناس

الكل يعلم أنّ هذه الدنيا والحياة فى هذا العالم لا تدوم لأحد، فهم يرون بأم أعينهم مراحل انتقال الطفولة إلى الشباب ومنه إلى الكهولة ثم العالم الآخر تطالعنا صفحات النعى فى الصحف المسائية كل يوم بالإعلان عن موت بعض الأعزة الذين يثكل بهم الأقرباء والأهل، ولاـ سيّما فى عصرنا الراهن الذى أصبح فيه الموت والحياة قريب جدّاً من الإنسان مقارنة الأزمنة الماضية ومتوسط عمر الإنسان، فقد نسمع بسقوط مفاجىء لطائرة فتتناثر أجساد ركابّها فى الهواء لتقع هنا هناك، والحوادث الاخرى التى تزيد من عدد الوفيات كل يوم وفى مختلف الأماكن، حتى أنّ ضحايا الوسائل النقلية فى المناطق والمدن لتفوق ضحايا الحروب، وبغض

النظر عما سبق فانّ هذه الحياة القصيرة مليئة بأنواع المعاناة والألم والمشاق، ويكفى فى ذلك أن نلقى نظرة عابرة على مستشفى لنرى مختلف الأمراض التى يعانى منها الأطفال والشباب والكهول، أو نتطلع أحد السجون ونشاهد عن كثب الأفراد الذين زجت بهم المظالم والشهوات والأخطاء والنزوات فى ذلك المكان، ولكن مع ذلك أغلب الناس يتناسون كل هذه المسائل ليحصلوا على استقرار كاذب مزّيف، والاستقرار الذى يشبه ذلك الذى يشعر به الحيوان الذى يخفى جسده فى الرمال مخافة الصيّاد، والحال يراه الصياد ويسارع إلى افتراسه.

ومن هنا فانّ الإمام عليه السلام يورد وصاياه فى أغلب مواضع نهج البلاغة بهدف التنبيه إلى تلك الغفلة والنسيان المميت وايقاظ الضمير البشرى الذى يغط فى سبات عميق، وقد اتبع الإمام مختلف الأساليب من أجل تحقيق هذا الغرض فتارة يذكر الدنيا على أنّها دار عناء وفناء وغير وعبر وأخرى يذكر إنزوائها على أنواع الشدائد والمشاكل، كما يتطرق إلى قصر المسافة بين الحياة والموت، إلى جانب ذلك يلفت الانتباه إلى هذه الحقيقة فى عدم إمكانية عودة ما يتصرم من ساعات العمر، فى حين يمكن تدارك كافة سائر النعم المادية، والحق لو تأمل كل إنسان مرّة واحدة فى الاسبوع هذه الخطبة لما عانى من الغفلة قط.

۳- كيف نبحث عن سعادة الآخرة فى الدنيا؟

ربّما يطلب الإنسان الدنيا من أجل إشباع أهوائه ورغباته إلى جانب الامتياز على الآخرين واستغلالهم واستعمارهم، كما قد يطلبها بهدف الحصول على الرفاه المتوازن، وأحياناً ينشدها بغية وفرة الإمكانات لخدمة الآخرين، أخيراً قد يريدها لترسيخ دعائم اقتصاد المجتمع الإسلامى وتحقيق مجده وعظمته ورفعته وإبعاده عن كافة أشكال التبعية للآخرين، ومن البديهى أنّ هذه الأهداف تتفاوت فيما بينها تفاوتاً تاماً.

فعلى ضوء الهدف الأول يتصف بأبشع الصفات الرذيلة، والثانى يتّجه نحو الأهداف

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۷۸

المباحة والاستفادة من النعم الإلهيّة، والثالث يمارس أرفع عبادة وأخيراً الرابع يسدى أعظم الخدمات الإنسانية والإسلامية، وكل ما ورد من ذمّ فى هذه الخطبة وسائر الأخبار والروايات عن أئمة العصمة عليه السلام وكذلك القرآن الكريم إنّما يشير فى والواقع إلى الطائفة الأولى من الناس وهو الموصوف برأس كل خطيئة ومصدر جميع الذنوب، ولا عاقبة له سوى جهنّم وبئس المصير.

ومن هنا فلا ينبغى تفسير ذمّ الدنيا والمتكالبين عليها بأنّ الإسلام يرتضى للمجتمع حالة الفقر والحرمان ويوصى بذلك، قد ورد هذا المضمون فى الروايات الإسلامية، فقد قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله:

«مَلعُونٌ مَلعُونٌ مَن عَبدَ الدِّينار والدّرهم»[۱۲۲].

وقال المرحوم الشيخ الصدوق فى تفسير هذا الحديث: «يعنى به من يمنع زكاة ماله ويبخل بمواساة إخوانه، فيكون قد آثر عبادة الدينار والدرهم على عبادة خالقه»[۱۲۳].

وجاء فى الخبر أنّ علياً عليه السلام يفخر برفاه أهل الكوفة خلال مدّة حكومته رغم ما هو عليه من الزهد والعزوف عن الدنيا فقال:

«ما أَصبَحَ بِالكُوفَةِ أَحَدٌ إلّاناعِماً، إنَّ أَدناهُم مَنزِلَةً لَيَأكُلُ البُرَّ وَيَجلِسُ فِى الظِّلِّ وَيَشرَبُ مِن ماءِ الفُراتِ»[۱۲۴]

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۷۹

الخطبة[۱۲۵] المأة و خمسه عشرة

اشارة

وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ علیه السلام

فی الاستسقاء

نظرة إلى الخطبة

کما ورد فی عنوان الخطبة فانّها دعاء فی الاستسقاء، وقد أوردها الإمام فی عصر حکومته حین أصاب الناس الجفاف، حیث أشار علیه السلام فی البدایة إلى الأسباب التی تدعو إلى حبس المطر وشیاع الجفاف فی أنّ أغلب الحوادث من هذا القبیل معلولة لمعاصی الناس وذنوبهم وسوء أعمالهم، ثم یبتهل إلى اللّه تعالى بالدعاء بعبارات رصینة عمیقة المعنى سائلًا الحق تبارک وتعالى التلطف بنزول المطر، حتى أنّ عباراته لتخترق شغاف القلب وتملأه بالمعنویات والشد للّه سبحانه.

وما أحرانا بالتوسل بهذه العبارات والمضامین الواردة فی هذ الخطبة من أجل الاستسقاء.

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۸۱

القسم الاوّل: الأمل باللّه فی القحط والجفاف

«اللَّهُمَّ قَدِ انْصَاحَتْ جِبَالُنَا، وَاغبَرَّتْ أَرْضُنَا، وَهَامَتْ دَوَابُّنَا. وَتَحَیَّرَتْ فی مَرَابِضِهَا، وَعَجَّتْ عَجِیجَ الثَّکَالَی عَلَی أَوْلادِهَا، وَمَلَّتِ التَّرَدُّدَ فِی مَرَاتِعِهَا، وَالْحَنِینَ إِلَی مَوَارِدِهَا! اللَّهُمَّ فَارْحَمْ أَنِینَ الْآنَّةِ، وَحَنِینَ الْحَانَّةِ! اللَّهُمَّ فَارْحَمْ حَیْرَتَهَا فِی مَذَاهِبِهَا، وَانِینَهَا فِی مَوَالِجِهَا! اللَّهُمَّ خَرَجْنَا إِلَیْکَ حِین اعْتَکَرَتْ عَلَیْنَا حَدَابِیرُ السِّنِینَ، وَأَخْلَفَتْنَا مَخَایِلُ الْجَوْدِ. فَکُنْتَ الرَّجَاءَ لِلْمُبْتَئِسِ، وَالْبَلَاغَ لِلْمُلْتَمِسِ. نَدْعُوکَ حِینَ قَنَطَ الْأَنَامُ، وَمُنِعَ الْغَمَامُ، وَهَلَکَ السَّوَامُ، أَنْ لَا تُؤَاخِذَنَا بِأَعْمَالِنَا، وَلَا تَأْخُذَنَا بِذُنُوبِنَا. وَانْشُرْ عَلَیْنَا رَحْمَتَکَ بِالسَّحابِ الْمُنْبَعِقِ، وَالرَّبِیعِ الْمُغْدِقِ، وَالنَّبَاتِ الْمُونِقِ. سَحًّا وَابِلًا، تُحْیِی بِهِ مَا قَدْ مَاتَ، وَتَرُدُّ بِهِ مَا قَدْ فَاتَ».

الشرح والتفسیر

بیّن الإمام علیه السلام فی بدایة هذه الخطبة الوضع المأساوی الذی أصاب الناس إثر الجفاف ومع السماء بعبارات رائعة بعیدة المعنى، حیث استهلها بستة جمل قائلًا:

«اللَّهُمَّ قَدِ انْصَاحَتْ ۱۲۶]

جِبَالُنَا، وَاغبَرَّتْ ۱۲۷] أَرْضُنَا، وَهَامَتْ ۱۲۸] دَوَابُّنَا. وَتَحَیَّرَتْ فی مَرَابِضِهَا[۱۲۹]، وَعَجَّتْ ۱۳۰] عَجِیجَ

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۸۲

الثَّکَالَی ۱۳۱] عَلَی أَوْلادِهَا، وَمَلَّتِ التَّرَدُّدَ فِی مَرَاتِعِهَا، وَالْحَنِینَ إِلَی مَوَارِدِهَا!».

فقد رسم الإمام علیه السلام صورة واضحة بعبارات فصیحة عن الجفاف الشدید الذی أصاب الناس فی ذلک الزمان، وکشف النقاب عن وضع الجبال والأراضی والمراتع والدواب، ثم رفع یدیه بالدعاء مبتهلًا إلى اللّه:

«اللَّهُمَّ فَارْحَمْ أَنِینَ الْآنَّةِ[۱۳۲]، وَحَنِینَ الْحَانَّةِ![۱۳۳]».

کما شکى شدّة عطش الدواب وجوعها وصراخها فی أماکنها:

«اللَّهُمَّ فَارْحَمْ حَیْرَتَهَا فِی مَذَاهِبِهَا، وَانِینَهَا فِی مَوَالِجِهَا![۱۳۴]».

وأردف قائلًا:

«اللَّهُمَّ خَرَجْنَا إِلَیْکَ حِین اعْتَکَرَتْ ۱۳۵] عَلَیْنَا حَدَابِیرُ السِّنِینَ ۱۳۶]، وَأَخْلَفَتْنَا[۱۳۷]

مَخَایِلُ ۱۳۸] الْجَوْدِ[۱۳۹]».

إنّ دقّة العبارات التی استخدمها الإمام علیه السلام فی هذا الدعاء تشیر إلى مدى حرقة الإمام علیه السلام والناس من جانب، ومن

جانب آخر تستبطن تصويراً عميقاً لتلك الحادثة، فحدابير جمع حدبار تستخدم بشأن الجمل الذى تبين عظام سنامه وقد حز لحمه بصورة تامة إثر شدّة الضعف (بسبب الجوع أو كثرة المشى).

فقد شبّه الإمام عليه السلام الجفاف المتواصل بهذا الجمل، ومن الطبيعى أن يدعو منظره إلى الأسى والحزن، كما أنّ ركوبه يبدو متعذراً شاقاً.

أمّا العبارة التى تضمنت «آنّة» و «حانّة» التى تستخدم كله منهما بشأ تألم الحيوان حيث

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۸۳

تشير الاولى إلى الشاة والثانية إلى الجمل، فانّما تشير إلى حالة الألم التى كانت تعيشها جميع الحيوانات فى ذلك القى الشديد، وبالالتفات إلى أنّ القسم الأعظم من أراضى العراق تقع بين النهرين العظيمين دجلة والفرات المروفان بوفرة المياههما مقارنة بأنهار المنطقة يتبيّن أنّ القحط تلك السنوات على درجة من الشدّة بحيث ضيّق على أهل العراق حتى فى تلبية الحاجات الأولية للحيوانات (تشير القرائن إلى أنّ الإمام عليه السلام ألقى هذه الخطبة بعد صلاة الاستسقاء حين كان فى الكوفة).

ثم ابتهل إلى اللّه سبحانه وتعالى فى أنّك الأمل والرجاء لكل بائس وحلّال مشاكل كل طالب حاجة وقد سيطر اليأس على الناس وقد منعت السماء بركاتها والغيوم مياهها وأشرفت الحيوانات على الهلكة فنسألك ألّا تؤاخذنا بسيئات أعمالنا ولا بوائق ذنوبنا:

«فَكُنْتَ الرَّجَاءَ لِلْمُبْتَئِسِ ۱۴۰]، وَالْبَلَاغَ ۱۴۱] لِلْمُلْتَمِسِ. نَدْعُوكَ حِينَ قَنَطَ الْأَنَامُ، وَمُنِعَ الْغَمَامُ، وَهَلَكَ السَّوَامُ ۱۴۲]، أَنْ لَا تُؤَاخِذَنَا بِأَعْمَالِنَا، وَلَا تَأْخُذَنَا بِذُنُوبِنَا».

تفيد هذه العبارة أنّ أغلب الآفات والبلاء والشدّة معلولة لذنوب الناس، ولا تزال مشاكلهم قائمة مستعصية ما لم يتوبوا إلى اللّه ويسألوه العفو والمغفرة، والعبارة تشبه الشكوى التى بثها نبى اللّه نوح عليه السلام إلى ربّه بشأن قومه: «فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً* يُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً»[۱۴۳]

كما ورد فى سورة الأعراف قوله: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ»[۱۴۴].

ثم طرح الإمام طلبته الأصلية على الحق تبارك وتعالى قائلًا: «وَانْشُرْ عَلَيْنَا رَحْمَتَكَ

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۸۴

بِالسَّحابِ الْمُنْبَعِقِ ۱۴۵]، وَالرَّبِيعِ الْمُغْدِقِ ۱۴۶]، وَالنَّبَاتِ الْمُونِقِ ۱۴۷]. سَحًّا[۱۴۸] وَابِلًا[۱۴۹]، تُحْيِي بِهِ مَا قَدْ مَاتَ، وَتَرُدُّ بِهِ مَا قَدْ فَاتَ».

فما ورد فى عبارات الإمام عليه السلام إنعكاس تام لما عاناه الناس من قحط شديد ومصائب عضال من جهة، ومن جهة أخرى تضمنت طلباً للغيوم الملبدة بالأمطار، وكذلك ربيعاً مباركاً ونباتات طرية جميلة وأخيراً تتجه صوب نتيجة نهائية هى الأمطار التى تحيى الأرض وتستعيد كل ما فقد؟ ولا تكون تلك السنة سنة عامرة بالبركة فحسب، بل سنة تتلافى سنوات الجفاف السابقة.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۸۵

القسم الثانى: اللّهم أمطرنا بوابل رحمتك

اشارة

«اللّهُمَّ سُقْيَا مِنْكَ مُحْيِيَةً مُرْوِيَةً، تَامَّةً عَامَّةً، طَيِّبَةً مُبَارَكَةً، هَنِيئَةً مَرِيعَةً.

زَاكِياً نَبْتُهَا، ثَامِراً فَرْعُهَا، نَاضِراً وَرَقُهَا، تُنْعِشُ بِهَا الضَّعِيفَ مِنْ عِبَادِكَ، وَتُحْيِي بِهَا الْمَيِّتَ مِنْ بِلَادِكَ! اللّهُمَّ سُقْيَا مِنْكَ تُعْشِبُ بِهَا

نِجَادُنـا، وَتَجْرِی بِهَا وِهَادُنَا وَيُخْصِبُ بِهَا جَنَابُنَا، وَتُقْبِلُ بِهَا ثِمارُنَا، وَتَعِيشُ بِهَا مَوَاشِـينا، وَتَنْـدَى بِهَا أَقَاصِـينَا، وَتَسْـتَعِينُ بِهَا ضَوَاحِينَا. مِنْ بَرَكاتِکَ الْوَاسِـعَهِ، وَعَطَايَاکَ الْجَزِيلَـهِ عَلَى بَرِيَّتِکَ الْمُرْمِلَهِ، وَوَحْشِکَ الْمُهْمَلَهِ. وَأَنْزِلْ عَلَيْنَا سَـمَاءً مُخْضِـلَهً، مِدْرَاراً هَاطِلَهً، يُدَافِعُ الْوَدْقُ مِنْهَا الْوَدْقَ، وَيَحْفِزُ الْقَطْرُ مِنْهَا الْقَطْرَ، غَيْرَ خُلَّبٍ بَرْقُهَا، وَلَاجَهَامٍ عَارِضُـهَا، وَلَـا قَزَعٍ رَبَابُهَـا، وَلَـا شَـفَّانٍ ذِهَابُهَـا، حَتَّى يُخْصِبَ لِإِمْرَاعِهَا الْمُجْدِبُونَ، وَيَحْيَا بِبَرَكَتِهَا الْمُسْنِتُونَ، فَإِنَّکَ تُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا، وَتَنْشُرُ رَحْمَتَکَ وَأَنْتَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ».

الشرح والتفسير

طرح الإمام عليه السـلام فى هذا المقطع من الخطبهٔ طلبه وصحبه الرئيسی والذی يتمثل بنزول المطر المبارک فسأل اللّه سبحانه وتعالى مطراً ذات عشـرين صـفهٔ تشـير كل واحـدهٔ منها إلى قضـيهٔ رائعـهٔ، وما أورع أن يذكر الإمام كل هذه الأوصاف للمطر المطلوب، وهى الأوصاف التى تجعل الإنسان يتواضع ويشـعر بالخضوع أمام عظمـهٔ الخلاق، كما تفهم السامع عمق الآثار والبركات التى تختزنها هـذه القطرات من المطر:

«اللَّهُمَّ سُقْيَا مِنْکَ مُحْيِيَهً مُرْوِيَهً، تَامَّهً عَامَّهً،

نفحات الولايهٔ، ج۵، ص: ۸۶

طَيِّبَهً مُبَارَكَهً، هَنِيئَهً مَرِيعَهً[۱۵۰]. زَاكياً نَبْتُهَا، ثَامِراً[۱۵۱] فَرْعُهَا، نَاضِراً[۱۵۲] وَرَقُهَا، تُنْعِشُ ۱۵۳] بِهَا الضَّعِيفَ مِنْ عِبَادِکَ، وَتُحْيِی بِهَا الْمَيِّتَ مِنْ بِلادِکَ!».

الواقع هو أنّ الإمـام عليه السـلام سـأل اللّه تعـالى مطرا تتوفر فيه الشـرائط وبعيـداً عن كـل الموانع، فقـد لوحظ فى أغلب الأحيان نزول الأمطار على شـكل سـيول، لكنّها تحطم كل شـيء تأتى عليه، أو إنّها تتركز فى نقطهٔ معينهٔ ليست لها منفعهٔ عامهٔ، أو أنّها مصحوبهٔ ببرد شديد قارس لا تخفى آثاره السـلبيهٔ، أو يكون مصـحوباً ببعض الموانع من قبيل الرياح الحارهٔ والعواصف الشديدهٔ والآفات التى تصيب النباتـات كـالجراد والحشـرات المؤذيـهٔ وأمثال ذلک التى تقضـى على أثار الأمطار، فالإمام عليه السـلام يأخـذ جميع هـذه الأمور بنظر الاعتبار فيسأل اللّه تعالى اجتماع كافهٔ الشرائط ودفع جميع الموانع.

ثم واصل الإمام عليه السلام الدعاء بذكر سبعهٔ أوصاف أخرى ليكتمل عدد الصفات عشرين صفهٔ فقال:

«اللَّهُمَّ سُقْيَا مِنْکَ تُعْشِبُ بِهَا نِجَادُنَا[۱۵۴]، وَتَجْرِی بِهَا وِهَادُنَا[۱۵۵] وَيُخْصِبُ ۱۵۶] بِهَا جَنَابُنَا[۱۵۷]، وَتُقْبِلُ بِهَا ثِمارُنَا، وَتَعِيشُ بِهَا مَوَاشِينا، وَتَنْدَى ۱۵۸] بِهَا أَقَاصِينَا[۱۵۹]، وَتَسْتَعِينُ بِهَا ضَوَاحِينَا[۱۶۰]. مِنْ بَرَكاتِکَ الْوَاسِعَهِ، وَعَطَايَاکَ الْجَزِيلَهِ عَلَى بَرِيَّتِکَ الْمُرْمِلَهِ[۱۶۱]، وَوَحْشِکَ

نفحات الولايهٔ، ج۵، ص: ۸۷

الْمُهْمَلَهِ».

فقـد كشف الإمام عليه السـلام النقاب بهذا الدعاء عن سـعهٔ صدره وعمق نظره وعموميهٔ شـفقته ورحمته، ذلک لأنّه أخذ بنظر الاعتبار المناطق القاصـيهٔ والدانيهٔ ولم يهمل الدواب حتى حيوانات الصحراء الوحشيهٔ، فدعاءه يشمل الجميع وسؤاله يهدف حاجهٔ الجميع وهذا هو معنى لطف إمام المسلمين ورحمته العامّهٔ.

وأضاف الإمام عليه السلام فى معرض مواصلهٔ لطلب الماء ونزول المطر الذی يفيض بالخير والبركهٔ قائلًا:

«وَأَنْزِلْ عَلَيْنَا سَمَاءً مُخْضِلَهً[۱۶۲]، مِدْرَاراً هَاطِلَهً[۱۶۳]، يُدَافِعُ الْوَدْقُ مِنْهَا الْوَدْقَ ۱۶۴]، وَيَحْفِزُ[۱۶۵] الْقَطْرُ مِنْهَا الْقَطْرَ».

كما واصل عليه السلام وصف الأمطار:

«غَيْرَ خُلَّبٍ ۱۶۶] بَرْقُهَا، وَلَا جَهَامٍ ۱۶۷] عَارِضُهَا، وَلَا قَزَعٍ ۱۶۸] رَبَابُهَا[۱۶۹]، وَلَا شَفَّانٍ ۱۷۰] ذِهَابُهَا[۱۷۱]».

ثم واصل الإمام عليه السلام الدعاء قائلًا:

«حَتَّى يُخْصِبَ لِإِمْرَاعِهَا[۱۷۲] الْمُجْدِبُونَ ۱۷۳]، وَيَحْيَا

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۸۸

بِبَرَكَتِهَا الْمُسْنِتُونَ ۱۷۴]، فَإِنَّكَ تُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا، وَتَنْشُرُ رَحْمَتَكَ وَأَنْتَ الْوَلِيُ الْحَمِيدُ[۱۷۵]».

فقد بيّن الإمام فى هذه العبارة تسع أوصاف أخرى للأمطار المفيدة النافعة ذات الخير والبركة، حيث يبلغ عدد الصفات مع ذكر سابقاً ۲۹ صفة، حقّاً إنّه لمن دواعى العجب والدهشة أن يستسقى الإمام عليه السلام ويوصف المطر بتسع وعشرين صفة بينما يصف ذلك الطالبون عادة بصفة، أو صفتين فيبتهلون إلى اللّه سبحانه وتعالى أن أسقنا الغيث المبارك، ومن هنا لا يشعر الإنسان سوى بالحيرة والذهول حين يتأمل عبارات أمير المؤمنين على عليه السلام، لقد استفرغ الإمام أقصى فصاحته وبلاغته فى هذه الخطبة وشرح طلبه إلى اللّه تعالى بما يعرّف الناس بلطف اللّه تعالى وفضله ورحمته ويفهمهم أنّ مسار النعمة مليىء بكثير من الموانع بحيث لا يسعهم بلوغ الكمال المنشود ما لم تشملهم رعاية اللّه ورحمته، والحق يتعذر مثل هذا المنطق على من لم يكن مؤيداً من عند اللّه ويؤيد بروح القدس.

تفسير ما فى هذه الخطبة من الغريب

نقرأ فى ختام هذه الخطبة:

«قَالَ السَّيدُ الشَّرِيفُ رِضىَ اللَّهُ عَنْهُ قَولِهِ: (انصَاحَتْ جِبالُنَا) أى تَشَقَّقَتْ مَنَ الَمحولِ يُقالُ: لنصاحَ الثّوبُ إذا انْشَقَّ وَيُقالُ أيضاً: انصَاحَ النَّبتُ وَصَاحَ وَصَوّحَ إذا جَفَّ وَيَبِسَ كُلُّهُ وَقولُهُ (وُزهامَتْ دَوَابّنا) أى عَطِشَتْ وَالهُيَامُ: العَطَشُ، وَقولُهُ (حَدَابِيرُ السّنِينَ) جمع حِدبار، وهىَ النّاقَةُ الّتِى أنضاهَا السّيرُ، فَشَبَّهُ بِها السنَّة الّتى فَشا فِيها الجَدبُ، قَالَ ذو الرّمّةِ:

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۸۹

حِدابَيرُ مَا تَنْفَّكُ إلّامُناخَةًعَلَى الخَسفِ أو نَرمِى بها بَلَداً قَفْراً

وَقَولُهُ: (ولَا قَزَع رَبابَها) القَزَع: القَطعُ الصّغارُ المُتَفَرّقَةُ مِنَ السّحاب.

وَقَولُهُ: (وَلَا شَفَّانٍ ذِهَابُها) فانِّ تَقديرَهِ: ولَا ذَاتَ شَفّان ذَهابُها، والشَفّان:

الرّيحُ البارِدَةُ، والذّهابُ: الأَمطارُ اللّيّنهُ، فَخَذَفَ (ذات) لِعلمِ السامِعِ بِهِ».

تأمّلان

۱- صلاة الاستسقاء

صلاة الاستسقاء واحدة من التعاليم الإسلامية القيمة والتى ذكرها عامّة فقهاء المسلمين من الفريقين فى كتبهم الفقهية، ومن جملة الآداب التى أوردتها مصادر أتباع أهل البيت عليهم السلام بشأن هذه الصلاة أن يصوم الناس ثلاثة أيّام ويتجهون فى اليوم الثالث وهم صيام إلى خارج المدينة، ويأتون بركعتين على غرار ركعتى عيد الفطر والأضحى حيث تشتمل الركعة الأولى على خمس قنوتات والثانية على أربع قنوتات، ولكن يقنتون بالأدعية الواردة بشأن الاستسقاء ونزول الرحمة والمغفرة بدلًا من الدعاء المأثور المختص بالعيد، فيصلون على النبى وآله قبل كل دعاء، فان فرغ الإمام من الصلاة قلّب العباء رجاء نزول المطر واستقبل القبلة وكبر بأعلى صوته

مئة مرّة (ويكبر النـاس معه) ثم يلتفت إلى الناس ويتّجه يميناً ويسبّح اللّه سبحانه بصوت عال مئة مرّة ثم يلتفت شمالًا ويهلل بصوت عال مئة مرّة، ثم يستقبل الناس ويحمد اللّه مئة مرّة ويردد الناس من بعده، آنذاك يرفع يديه إلى السماء ويتضرع مع الناس إلى اللّه سبحانه وتعالى يسأله الرحمة ويؤمن الناس على دعائه.

وقد ورد فى بعض الروايات التصريح بأن يحملوا معهم إلى الصحراء الشيوخ و النساء والأطفال وحتى الحيوانات الجائعة العطشى وأن يفرّق بين الآباء وأولادهم بهدف التأثير على الناس حين يتّجهون إلى اللّه فى الدعاء[۱۷۶].

فانّ تعذر عليهم القيام بكل هذه الأمور تابوا إلى اللّه واستغفروه من ذنوبهم ورفعوا أيديهم

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۹۰

بالدعاء جمعة سائلين اللّه سبحانه العفو الرحمة.

حقّاً إنّها لمراسم ذات آثار عجيبة أدناها حالة التضرع والخشوع التى يعيشها الداعى إلى اللّه تعالى، فهى تربط الفرد بالذات الإلهيّة المقدّسة للّهسبحانه الرحمن الرحيم وتؤدّى إلى نزول الرحمة وشموله بها.

أضف إلى ذلك فانّ لهذه الصلاة أثارها الكبيرة فى تربية النفوس والتوبة من الذنوب والعودة إلى الطهر والعفاف، والذى يستتبع أحياناً نزول المطر الذى يعود على الجميع بالخير والبركة ويستفاد من الروايات أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله كان يدعو بدعاء الاستسقاء حين يشكو إليه الناس من القحط والجدب، فكانت تنزل الأمطار بما يجعل الناس يطلبون توقفها[۱۷۷].

وتفيد القرائن أنّ أمير المؤمنين عليه السلام أورد هذه الخطبة بعد صلاة الاستسقاء حيث جاء فى بعض الروايات التى نقلت هذه الخطبة بصورة تامة العبارة:

«اللّهُمّ إنّا خَرجنا إِلَيک»

التى تكشف اتجاهه عليه السلام مع الناس إلى الصحراء ويختص هذا العمل عادة بصلاة الاستسقاء، وورد فى بعض الروايات أنّ علياً عليه السلام بكى آخر هذه الخطبة وقد سأل اللّه سبحانه وتعالى بعبارات تفيض لوعة وحرقة.

وسيأتى تفاصيل ذلک حين شرحنا للخطبة ۱۴۳ من نهج البلاغة الواردة بشأن صلاة الاستسقاء.

۲- الذنب وزوال البركة

وردت عدّة أبحاث فى الكتب الفلسفية والكلامية والتفسيرية بشأن فلسفة الآفات والبلاء، فالذى يستفاد من القرآن الكريم هو تشديد البلاء على الامم حين ظهور الأنبياء بغية إيقاظهم، حيث صرّح القرآن الكريم قائلًا: «وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ»[۱۷۸].

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۹۱

فالآية تشير إلى أنّ هذا القانون عام ودائمى يهدف إلى الاستعداد لتقبل دعوة الأنبياء، فكانت تقع الحوادث الأليمة من جانب اللّه طيلة تاريخ الامم وحين بروز الغفلة وذلک بهدف القضاء على تلک الغفلة وايقاظ تلک الامم، وربّما تكون هذه الحوادث الأليمة والمفجعة نتيجة لذنوب الناس، والهدف أيضاً الفساد والإنابة والعودة إلى اللّه، فقد جاء فى الآية القرآنية:

«ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ»[۱۷۹].

وهكذا يتضح أنّ أحد طرق التربية الإلهيّة هو هذه الحوادث الأليمة الطبيعية أو الاجتماعية، والقحط يمكن أن يكون أحد هذه الحوادث، كما أشار الإمام عليه السلام إلى ذلک فى الخطبة المذكورة، حيث قال فى هذه الخطبة:

«نَدْعُوکَ حِينَ قَنَطَ الْأَنَامُ، وَمُنِعَ الْغَمَامُ، وَهَلَکَ السَّوَامُ، أنْ لَا تُؤَاخِذَنَا بِأَعْمَالِنَا، وَلَا تَأْخُذَنَا بِذُنُوبِنَا».

وقد ورد هذا المطلب بصورة أوضح فى الخطبة ۱۴۳، حيث حذر فيه الناس حين القحط بالنزوع عن المعاصى والاحتراز من الذنوب

والإنابة إلى اللَّه سبحانه وتعالى، واستشهد عليه السلام بآيات من سورة نوح بهذا الخصوص وهذا ما سيرد ذكره إن شاء اللَّه فى محلّه.

ونختتم هذا الكلام بما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«إذا فَشَتْ أَربَعةٌ ظَهَرَتْ أَبَعَةٌ فَشَتْ لزِّنا ظَهَرَتْ الزَّلازِلُ وَإذا أَمسَكَتْ الزَّكاهُ هَلَكَتْ المَاشِيَةُ وإذا جارِ الحُكّامُ فِى القَضاءِ أَمسَكَ القَطَرُ مِنَ السَّماءِ وإذا خَفَرتْ الذِّمَّةُ نَصرَ المُشرِكُونَ عَلَى المُسلِمِينَ»[۱۸۰].

وورد فى الحديث المعتبر والمعروف عن أبى ولّاد أنّ الإمام الصادق عليه السلام لما سمع الفتاوى غير الصحيحة لأبى حنيفة فى بعض المسائل الفقهية قال:

«فِى مِثلِ هذا القَضاءِ وَشِبهِهِ تَحبِسُ السَّماءُ ماءَها وَتَمنَعُ الأَرضُ بَركاتَها»[۱۸۱].

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۹۳

الخطبة[۱۸۲] المأة و سادسة عشرة

اشارة

مِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عليه السلام

وفيها ينصح أصحابه

نظرة إلى الخطبة

تتألف هذ الخطبة فى الواقع من عدّة أقسام:

القسم الأول: وصف بليغ للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله وجهاده العظيم فى إبلاغ الرسالة ودعوة الناس إلى الإسلام.

القسم الثانى: التوجه إلى الناس بالوعظ والإرشاد والنصيحة، المواعظ المؤثرة والبالغة.

القسم الثالث: الشكوى من الأصحاب ورجاء اللَّه فى مفارقتهم وإلحاقه بصنوه من الأفراد.

القسم الرابع والأخير: الذى يختص بالإخبار عن فتنة طاغ واستعراض جانب من جناياته وجرائمه أملًا فى ايقاظ الناس والوقوف بوجه هذه الجرائم من خلال التوبة إلى اللّه سبحانه والعودة إلى وحدة ونبذ الخلافات والفرقة.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۹۵

القسم الاوّل: عدم التوانى فى الجهاد

«أَرْسَلَهُ دَاعِياً إِلَى الْحَقّ وَشَاهِداً عَلَى الْخَلْقِ. فَبَلَّغَ رِسَالاتِ رَبّهِ غَيْرَ وَانٍ وَلَا مُقَصّرٍ، وَجَاهَدَ فِى اللَّهِ أَعْدَاءَهُ غَيْرَ وَاهِنٍ وَلَا مُعَذّرٍ. إِمَامُ مَنِ اتَّقَى. وَبَصَرُ مَنِ اهْتَدَى».

الشرح والتفسير

كما صرّح البعض من شرّاح نهج البلاغة يبدو أنّ هذه الخطبة جزء من خطبة طويلة حيث تطرق الإمام عليه السلام فيها إلى تشجيع صحبه على الجهاد والوقوف بوجه بغاة الشام وبين الأخطار التى تتهددهم فى حالة الضعف وترك الجهاد ومقاتلة العدو فأتم الحجّة عليهم.

ففى القسم الأول من هذه الخطبة أشار إلى الجهود الجبارة التى بذلها رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى إبلاغ الوحى ونشر الرسالة من أجل ترقيق قلوب المخاطبين فيتعرفوا على أهميّة هذا الميراث العظيم ولا يتوانوا فى الدفاع عنه والتصدى لهجمات خصوم الدعوة، فقال

عليه السلام:

«أَرْسَلَهُ دَاعِياً إِلَى الْحَقّ وَشَاهِداً عَلَى الْخَلْقِ».

فالواقع أخلص الإمام عليه السلام الرسالة الإسلامية التى نهض بها النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى هاتين العبارتين، قد دعى إلى الحق وإبلاغ الأحكام الشرعية من جانب، وأشرف على حسن تطبيقها من جانب آخر، أمّا شهادة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فقد قيل المراد بها الشهادة على أعمال الناس أو الشهادة على الأنبياء فى يوم القيامة حيث ورد فى القرآن الكريم: «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً»[۱۸۳].

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۹۶

لكن ظاهر كلام الإمام عليه السلام يشير إلى أنّ المراد بالشهادة إطلاع النبى صلى الله عليه و آله على أعمال الناس من أجل إمتثال الأوامر الإلهيّة فى هذه الدنيا، وبعبارة أخرى فانّ وظيفة النبى صلى الله عليه و آله لا تقتصر على إبلاغ الدعوة إلى الحق، بل تتبع إجراء وتطبيق تلك الدعوة وهذا هو معنى إمامته وولايته التشريعية، ولا مانع طبعاً من الجمع بين المعنيين فى أنّه شاهد على الأعمال فى هذا العالم وكذلك شاهد عليها فى العالم الآخر. ثم خاض فى بيان أوصاف نبى الإسلام صلى الله عليه و آله ليذكر ست صفات آخر فقال: صلى الله عليه و سلم

فَبَلَّغَ رِسَالاتِ رَبِّهِ غَيْرَ وَانٍ ۱۸۴] وَلَا مُقَصِّرٍ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ أَعْدَاءَهُ غَيْرَ وَاهِنٍ وَلَا مُعَذِّرٍ[۱۸۵]. إِمَامُ مَنِ اتَّقَى. وَبَصَرُ مَنِ اهْتَدَى».

فقد تضمنت هذه العبارة القصيرة جميع الخصائص التى ينبغى توفرها فى القائد الشجاع المقتدر، عدم الضعف والوهن والتقصير ومجاهدة العدو وعدم الاعتذار والتذرع، ومن جانب آخر فانّه عدّ النبى صلى الله عليه و آله إمام المتقين ووسيلة هداية المبصرين، حيث يذود عنه الأفراد من المفسدين ويقصى المضلين المعاندين.

نعم، الكثيرون هم الأفراد الذين يخلقون الذرائع والحجج الواهية بهدف التغطية على تقصيرهم وعدم جدّهم واجتهادهم، ويستبعد ذلك من زعيم شجاع ومدير مدبّر فلا يتّجه صوب الحجج والذرائع.

فالعبارات المذكورة تشير فى الواقع إلى مدى ضعف أهل الكوفة ووهنهم وتركهم للجهاد وتشبثهم بالذرائع من أجل الفرار من المسؤوليات، فالإمام صلى الله عليه و آله يذكرهم بأنّ نبيّكم لم يكن كذلك فما بالكم تقيمون على هذا الحال.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۹۷

القسم الثانى: الآفات المظلمة من ورائكم

اشارة

و منها: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ مِمَّا طُوِيَ عَنْكُمْ غَيْبُهُ، إذاً لَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَبْكُونَ عَلَى أَعْمَالِكُمْ، وَتَلْتَدِمُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَتَرَكْتُمْ أَمْوَالَكُمْ لَا حَارِسَ لَهَا وَلَا خَالِفَ عَلَيْهَا، وَلَهَمَّتْ كُلَّ امْرِىءٍ مِنْكُمْ نَفْسُهُ، لَا يَلْتَفِتُ إِلَى غَيْرِهَا. وَلكِنَّكُمْ نَسِيتُمْ مَا ذُكّرْتُمْ، وَأَمِنْتُمْ مَا حُذّرْتُمْ، فَتَاهَ عَنْكُمْ رَأْيُكُمْ، وَتَشَتَّتَ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ. وَلَوَدِدْتُ أَنَّ اللَّهَ فَرَّقَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَأَلْحَقَنِي بِمَنْ هُوَ أَحَقُّ بِي مِنْكُمْ. قَوْمٌ وَاللَّهِ مَيَامِينُ الرَّأيِ، مَرَاجِيحُ الْحِلْمِ، مَقَاوِيلُ بِالْحَقّ، مَتَارِيكُ لِلْبَغْيِ. مَضَوْا قُدُماً عَلَى الطَّرِيقَةِ وَأَوْجَفُوا عَلَى المَحَجَّةِ، فَظَفِرُوا بِالْعُقْبَى الدَّائِمَةِ، وَالْكَرَامَةِ الْبَارِدَةِ».

الشرح والتفسير

يحذر الإمام صلى الله عليه و آله فى هذا المقطع من الخطبة كافة الأفراد الذين يبدون الضعف فى مجاهدة العدو الغادر والغاشم، ويتهربون من المسؤولية من خلال اللجوء إلى بعض الحجج والأعذار، فى أنّ الآفاق المعتمة إنّما تكمن أمامكم، والمستقبل المظلم

الذى يتسلط فيه العدو عليكم ويهيمن على مقدراتكم وسيصبون عليكم جام غضبهم بما يجعلكم تفقدون صوابكم وعقلكم:

«لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ مِمَّا طُوِىَ ۱۸۶] عَنْكُمْ غَيْبُهُ، إذاً لَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ ۱۸۷] تَبْكُونَ عَلَى أَعْمَالِكُمْ، وَتَلْتَدِمُونَ ۱۸۸] عَلَى أَنْفُسِكُمْ».

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۹۸

بل قد لا تكتفون بذلك:

«وَلَتَرَكْتُمْ أَمْوَالَكُمْ لَا حَارِسَ لَهَا وَلَا خَالِفَ ۱۸۹] عَلَيْهَا، وَلَهَمَّتْ كُلَّ امْرِىءٍ مِنْكُمْ نَفْسُهُ، لَا يَلْتَفِتُ إِلَى غَيْرِهَا».

فهذه العبارات تجسد حال الشخص الذى يبتلى بمصائب عظمية بحيث ينسى كل شىء سوى إنقاذ نفسه، فقد إتّجه صوب الصحراء ويتابع لطم وجهه ورأسه يسكب دموعه ويتعالى صراخه، كما يسعى إلى التخلى عن أموال رغم مالها من أهمّية لديه ومدى الجهود التى بذلها من أجل الحفاظ عليها، إلى جانب ذلك فهو لا يعير أهمّية لمن خلفه حتى أنّه لينسى أعزّته وبطانته.

ويرى بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ هذه العبارات ترتبط بأهوال يوم القيامة والتى وردت فى مختلف الآيات القرآنية، لكن بالنظر إلى ذيل الخطبة الذى يتحدث عن جرائم الحجاج وسبب الخطبة الذى يفيد ضعف أهل الكوفة فى جهاد العدو، فانّ المعنى المذكور يبدو بعيداً، والظاهر أنّها ناظرة إلى سلطة بنى امية والجرائم المروعة التى إرتكبها الحجاج وأمثاله.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالإشارة إلى المصدر الرئيسى الذى انبثقت منه هذه الحوادث:

«وَلَكِنَّكُم نَسِيتُم مَا ذُكِّرْتُم، وَأَمِنْتُمْ مَا حُذِّرْتُم، فَتَاهَ ۱۹۰] عَنْكُمْ رَأْيُكُم، وَتَشَتَّتَ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ».

لاـ ينبغى لكم أن تتصوروا أبداً بأنّ الحوادث الأليمة التى تنتظركم إنّما تأتيكم بغتة، كلا ليس الأمر كذلك، فقد حذرتكم مراراً، وأدّيت لكم حق الوعظ والنصح، وكشفت لكم المستور، ثم أنذرتكم، لكن للأسف لم تعيروا وعظى ونصحى آذانا صاغية، فقد نسيتم كل ما ذكرته لكم وتجاهلتم كل الإرشاد، ومن هنا لم تمارسوا ما ينبغى عليكم فى موقعه وأوانه ولم تعدوا الخطط اللازمة للوقوف بوجه الأعداء فلم تكن نتيجة ذلك الذى لا مثيل له فى التاريخ.

ثم قال الإمام عليه السلام:

«وَلَوَدِدْتُ أَنَّ اللَّهَ فَرَّقَ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ، وَأَلْحَقَنِى بِمَنْ هُوَ أَحَقُّ بِى مِنْكُمْ».

إشارة إلى أنّه طالما تعذر إصلاحكم فيا ليتنى فارقتكم، وليت القدر الإلهى أذن بالتحاقى

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۹۹

بمن ينسجم معى فى الأفكار والتطلعات.

ثم خاض عليه السلام فى شرح خصائص القوم الذين يراهم ينسجمون وأفكاره وتوجهاته:

«قَوْمٌ وَاللَّهِ مَيَامِينُ ۱۹۱] الرَّأىِ، مَرَاجِيحُ ۱۹۲] الْحِلْمِ، مَقَاوِيلُ بِالْحَقِّ، مَتَارِيكُ ۱۹۳] لِلْبَغْىِ. مَضَوْا قُدُماً[۱۹۴] عَلَى الطَّرِيقَةِ وَأَوْجَفُوا عَلَى الَمحَجَّةِ، فَظَفِرُوا بِالْعُقْبَى الدَّائِمَةِ، وَالْكَرَامَةِ الْبَارِدَةِ».

فهذه العبارات إشارة واضحة إلى النبى صلى الله عليه و آله وطائفة من صحبه ممن يتصف بالخصائص المذكورة الست، صفتان فى برامج الحياة (نصرة الحق ومصارعة الظلم) وصفتان فى العمل (الانطلاق باتجاه الحق والسرعة من أجل بلوغ الهدف) وصفتان فى الفكر (التحلى بالفكر الناضج والعقل التام)، فبيّن أيضاً نتيجة هذه الصفات والتى تتمثل بالسعادة المطلقة والحياة الحرّة الكريمة.

مظلومية أمير المؤمنين على عليه السلام

لا تقتصر المظلومية على أن يقتل الإنسان من قبل فئة ظالمة جبارة ناقضة للعهود وغادرة فى معركة ليست متكافئة فحسب، بل من أسوأ نماذج المظلومية أن يرى الإنسان الكفوء والمدير الناجح والآمر المقتدر والخبير الماهر والسياسى اليقظ والواعى نفسه وسط طائفة لا

تنسجم وأفكاره وكفاءته ولا يسعها الحركة باتجاهه، فهى تفعل على العكس من كل ما يقول ولا تتحرك خلفه مهما حذرها وأنذرها، فهى فرقة مشتتة وجاهلة وضعيفة وهنة مسلوبة الإرادة، فابتلاء مثل هذا الزعيم بمثل هؤلاء الأتباع يؤدّى إلى ضياع القيم وتناسى الأفكار، بل أبعد من ذلك يذهب بعض الجهّال إلى إتهام هذا الزعيم بعدم القدرة على إدارة الأمور.

هذا هو أحد نماذج المظلومية والذى عاشه أمير المؤمنين عليه السلام فى عصره، وقد أشار إلى ذلك

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۰۰

الإمام نفسه عليه السلام فى أكثر من خطبة من خطب نهج البلاغة، فتارة يقول عليه السلام:

«لَوَدِدْتُ وَاللَّهِ أنّ مُعَاوِيَةَ صَارَفَنى بِكُمْ صَرْفَ الدّينَارِ بِالدّرْهَمِ، فَأَخَذَ مِنّى عَشَرَةً مِنْكُمْ وَأَعْطَانِى رَجُلًا مِنْهُمْ»[۱۹۵].

وأخرى يقول:

«مَلَكَتْنى عَيْنِى وَأَنَا جَالِسٌ، فَسَنَحَ لِىَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه و آله و سلم، فَقُلْتُ: يَا رَسولَ اللَّهِ، مَاذَا لَقِيتُ مِنْ أُمَّتِكَ مِنَ الْأَوَدِ وَاللَّدَدِ؟ فَقَالَ: «ادْعُ عَلَيْهِمْ» فَقُلْتُ: أَبْدَلَنى اللَّهُ بِهِمْ خَيْراً مِنْهُمْ، وَأبْدَلَهُمْ بِى شَرًّا لَهُمْ مِنّى»[۱۹۶].

ويقول فى الثالثة:

«يا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ وَلَا رِجَالَ! حُلُومُ الْأَطْفَالِ، وَعُقُولُ رَبَّاتِ الْحِجَالِ، لَوَدِدْتُ أَنّى لَمْ أَرَكُمْ»[۱۹۷].

والحق لعلنا لا- نعثر طيلة التاريخ على زعيم وولى من أولياء اللَّه قد واجه فى مدّة قصيرة من حكومته بكل هذه العداوة والبغضاء والقسوة والجلادة والعنف والطغوى، وهذا أبشع أنواع المظلومية، ومن هنا قيل: «على عليه السلام أول مظلوم فى العالم».

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۰۱

القسم الثالث: الانتقام الإلهى

اشارة

«أَمَا وَاللَّهِ لَيُسَلَّطَنَّ عَلَيْكُمْ غُلَامُ ثَقِيفٍ الذَّيَّالُ الْمَيَّالُ. يَأْكُلُ خَضِرَتَكُمْ وَيُذِيبُ شَحْمَتَكُمْ إِيهٍ أَبا وَذَحَةَ!».

الشرح والتفسير

إختتم الإمام عليه السلام الخطبة باستعراض صريح لا لبس فيه للإخبار عن المصير الأسود الذى ينتظر أهل الكوفة فقال:

«أَمَا وَاللَّهِ لَيُسَلَّطَنَّ عَلَيْكُمْ غُلَامُ ثَقِيفٍ الذَّيَّالُ ۱۹۸] الْمَيَّالُ ۱۹۹]. يَأْكُلُ خَضِرَتَكُمْ وَيُذِيبُ شَحْمَتَكُمْ».

ثم أردفها بالقول:

«إِيهٍ أَبا وَذَحَةَ![۲۰۰]».

أجمع شرّاح نهج البلاغة على أنّ المراد بغلام ثقيف هو الحجاج بن يوسف الثقفى الذى ينسب إلى قبيلة بنى ثقيف والذى ولّى الكوفة على عهد عبدالملك بن مروان، كان مشهوراً بقسوته وتعطشه للدماء وقد إختاره عبدالملك بن مروان للانتقام من أهل الكوفة وإخماد الثورة ضد حكومة بنى امية، وكما أخبر الإمام عليه السلام فى هذا الكلام، فهو لم يرحم أحد وقد نهب أموال الامة وسفك دماءها، وقد صور الإمام أوضاع الناس على عهده بقوله:

«يَأْكُلُ خَضِرَتَكُمْ وَيُذِيبُ شَحْمَتَكُمْ».

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۰۲

لابدّ من الالتفات إلى أنّ «خضرة» وإن كانت بمعنى محصول الحقول والأراضى الزارعية، لكنها هنا تشير إلى كافة الأموال التى نهبها الحجاج والعبارة يذيب شحمتكم كناية عن شدة الضغط الذى يتعرض له الناس فيصبحوا على درجة من الضعف، وكأنّه لم يبق لهم

سوی الجلد والعظم، وهذا هو مصیر الأفراد الذین یتمردون علی القائد الفذ والشفیق الرؤوف بالامة العادل معها کعلی علیه السلام. والمفردة «أیه» بالکسر والتنوین حسب تصریح أغلب أرباب اللغة تستخدم حین یراد تشجیع الشخص علی مواصلة الکلام أو العمل وایها بتنوین الفتح تستعمل حین یراد دعوة شخص للسکوت أوالامتناع عن العمل، بالنظر إلی أنّ «ایه» وردت فی نسخ نهج البلاغة بتنوین مکسور فالمفهوم ضاعف یا حجاج من ضغوطک علی الأفراد الطلحاء وضعفاء الإیمان جاحدی الحق الطغاة الذین یتمردون علی إمامهم العادل! وبعبارة أخری فانّ هذه المفردة کنایة فی أنّ اولئک الأفراد یستحقون ما یحل بهم من عذاب إلهی، لا یعنی ذلک رضی الإمام علیه السلام بأی مقدار من ظلم الحجاج.

فالکلام أشبه بما نقوله لشخص إنّ هذا الدواء وإن کان مرّاً لکنه العلاج الذی یشفیک فلا یصغی لما یقال له، فان اشتدّ ألمه وتعالی صراخه وارتفع صوته نقول له: تألم أکثر! فهذه نتیجة عملک، فمن البدیهی أنّ مفهوم ذلک لیس رضانا بألمه ووجعه، بل معناه أنّ تلک هی النتیجة الطبیعیة لعدم إمتثاله لأوامر الأطباء والحکماء، وهذا الکلام شبیه ما أورده الإمام علیه السلام فی الخطبة ۲۸ حیث قال: «أَلَا وَإِنَّهُ مَن لا یَنْفَعُهُ الْحَقُّ یَضْرُّهُ الْبَاطِلُ، وَمَنْ لَا یَسْتَقِیمُ بِهِ الْهُدَی، یَجُرُّ بِهِ الضَّلَالُ إِلَی الرَّدَی».

وأمّا وذحة فقد صرحت أغلب المصادر اللغویة من قبیل (لسان العرب، مجمع البحرین، أقرب الموارد)، أنّها تعنی الخنفساء، وقال البعض کصاحب القاموس والخلیل بن أحمد فی کتاب «العین» أنّها تعنی بعرة الحیوان بوله الذی یلتصف بصوفه.

وأمّا بشأن انتخاب کنیة «أبا وذحة» للحجاج فقد وردت فیها عدّة أراء ذکرتها التواریخ وشروح نهج البلاغة، أنسبها أنّ الحجاج رأی یوماً خنفساء قرب موضع صلاته فدفعها عنه، فأتته ثانیة فدفعها، فلما أتته ثالثة أمسکها بیده وعصرها فعضته فورمت یده فأدی به الورم إلی الموت، وکأنّ اللّه تعالی أراد أن یری هذا السفّاح مدی قدرته حیث قضی علیه وبواسطة

أحقر مخلوقاته، علی غرار النمرود ذلک الطاغیة المعروف والذی ولجت أنفه بعوضة قضت علیه.

وقال البعض أنّ الحجاج کان یتنفر من الخنفساء فلم تکد تقع عینیه علیها حتی یأمر غلمانه بدفعها، ومن هنا إصطلحت علیه الناس أبا وذحة، ولا یبدو مناسباً أن نذکر هنا سائر ما ورد فی هذا الشأن وخلاصته أنّ الحجاج کان یشکو من مرض جنسی، فکان یعالج مرضه بالخنفساء، وقد صرّح ابن أبی الحدید بعد ذکره لهذه الروایات أنّ الإمام علیه السلام إختار هذه الکنیة للحجاج لأنّ عادة العرب جرت علی ذکر الفرد بکنیته حین الاحترام وذلک للعظمة، وإن أرادواتحقیره ذکروه بالکنیة أیضاً من قبیل کنیة عبدالملک بن مروان بأبی الذبّان، حیث کان الذباب یتجمع علی فمه لخبث رائحته (أو کان حتی الذباب ینفر منه کما صرّح بذلک البعض)، وکذلک کنیة یزید بن معاویة بأبی زنة[۲۰۱].

قال الشریف الرضی آخر هذه الخطبة: «الوذحة الخنفساء» وهذا القول یؤمی به إلی الحجاج وله مع الوذحة حدیث لیس هذا موضع ذکره.

من هو الحجاج؟

الحجاج من أبشع الطغاة الذین عرفهم التاریخ البشری، وقد ألفت مختلف القصص التی تعنی بجرائمه وجنایاته والتی یصعق لها کل من طیع علیها، کان والی عبدالملک بن مروان علی الکوفة، وعبدالملک خامس الخلفاء بنی امیة، وقیل فی صفة الحجاج أنّه کان دمیم الخلقة کریه المنظر قصیر القامة ضعیف أعوج الرجلین أبرص ولعل سفکه للدماء وولعه بها ناشیء من تلک العقدة والشعور بالحقارة، وقد ذکر المؤرخ المعروف المسعودی فی «مروج الذهب»: «بأنّه کان یعترف بأنّ أعظم لذته فی سفک الدماء والإتیان بالأفعال التی لا یقوم بها الآخرون»[۲۰۲].

تولى إمارة الحجاز «مكة والمدينة» من قبل عبدالملك بن مروان لسنتين فارتكب أبشع الفضائع ومنها قصفه الكعبة بالمنجنيق، ثم وضع النار على طائفة من صحابة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله المعروفين مثل جابر بن عبداللَّه الإنصارى، وأنس بن مالك، وسهل بن الساعدى على أنّهم اشتركوا فى قتل عثمان، ثم وجهه عبدالملك إلى العراق وولاه البصرة والكوفة، حكم الحجاج مدّة عشرين سنة وبلغ من قتلهم الحجاج مئة الف وعشرين من غير الذين قتلوا على يديه وأعوانه فى الحروب، كان فى سجنه حين مات خمسون ألف رجل ثلاثين ألف وإمرأة ستة عشر ألف منهم عراة، وكان يضع النساء مع الرجال ولم يكن لسجنه سقف فكانوا يعانون من شدّة الحرارة فى الصيف والبرودة فى الشتاء.

وقال ابن الجورى: أنّ حرس السجن كانوا يرمون السجين بالحجر إن لاذ بالجدار من شدّة حرارة الشمس، وكان طعامهم قليلًا من الخبز المخلوط بالملح والرماد، فكان يسود وجه من يدخل السجن بحيث لا تعرفه امه حين تأتى لرؤيته.

ولعل أبلغ كلام قيل فى الحجاج ما ذكره الشعبى حين قال: «لو أخرجت كل امة خبيثها وفاسقها وأخرجنا الحجاج بمقابلتهم لغلبناهم».

وكان موته ذا عبرة أيضاً حيث أصيب بمرض شديد فكان يصرخ بشدّة من الألم حيث كانت تسيطر عليه برودة شديدة فيضعون قربه ظروفاً مملوءة بالنار حتى كان يحترق جلده وهو يرتعش من البرد.

نعم، لقد احترق بنار الدنيا قبل نار الآخرة، توفى فى الرابعة والخمسين من عمره عام ۹۵ ه فإلى جهنّم وبئس المصير.[۲۰۳]

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۰۵

الخطبة[۲۰۴] المأة و سبعة عشرة

اشارة

وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عليه السلام

يُوبّخ البخلاء بالمال والنفس

نظرة إلى الخطبة

يبدوا أنّ هذه الخطبة القصيرة هى جزء من خطبة طويلة فصلها المرحوم السيد الرضى، ومن هنا لم يتضح سبب ورودها ولا أقسامها الأولى: والآخرة، مع ذلك فهى تشتمل على عبارات مؤثرة ومعبّرة رغم قصرها.

ويستفاد من بعض المصادر[۲۰۵] أنّ الإمام عليه السلام أورد هذه العبارات ضمن خطبة فى نهاية معركة صفين فهى تناسب تلك الأجواء تماماً.

على كل حال فانّ الإمام عليه السلام عرض بالذم المخاطبيه الذين يسحّون فى بذل الأموال والأنفس فى سبيل اللَّه سبحانه وتعالى فقال لهم اعتبروا بتاريخ أسلافكم واتعظوا بحياتهم كيف تركوا كل شيء وارتحلوا عنه.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۰۷

«فَلَا أَمْوَالَ بَذَلْتُمُوهَا لِلَّذِى رَزَقَهَا، وَلَا أَنْفُسَ خَاطَرْتُمْ بِهَا لِلَّذِى خَلَقَهَا.

تَكْرُمُونَ بِاللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَلا تُكْرِمُونَ اللَّهَ فِى عِبَادِهِ! فَاعْتَبِرُوا بِنُزُولِكُمْ مَنَازِلَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَانْقِطَاعِكُمْ عَنْ أَوْصَلِ إِخْوَانِكُمْ».

الشرح والتفسير

الفكر والاعتبار

إستهل الإمام عليه السلام هذه الخطبة بذمّ طائفة من أصحابه وهو يعتب غليهم ويوبخهم فقال:
«فَلَا أَمْوَالَ بَذَلْتُمُوهَا لِلَّذِى رَزَقَهَا، وَلَا أَنْفُسَ خَاطَرْتُمْ بِهَا لِلَّذِى خَلَقَهَا».
فالواقع هو أنّ اللّه تبارك وتعالى خالق الأنفس هو المالك الأصلى لهذه الأموال، وهذه الأموال والأنفس أمانة استودعها اللّه سبحانه الناس مدّة من الزمان، وإلّا أنّكم أخلدتم إليها وإلتصقتم بها وكأنّكم أنتم المالك الأصلى والخالق لها، وهذا قمة الجهل بالواقع، فالعبارة تبدو متناسبة تماماً وإلقاء هذا الكلام بعد معركة صفين، حيث كانت هناك فئة فى جيش الإمام عليه السلام لم تكن مستعدة للمخاطرة بأرواحها دفاعاً عن الحق ولم تكن حاضرة لبذل ما فى أيديها من أموال لتجهيز جند الإسلام.
ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلًا:
«تَكْرُمُونَ ۲۰۶] بِاللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَلا تُكْرِمُونَ اللَّهَ فِى عِبَادِهِ!».
حقاً إنّ هذا الإزدواج لشىء عجيب فى أن يتوقع الإنسان أن يعزّه ويكرمه الناس على أنّه عبد من عباد اللّه، بينما لا يكرم أى من عبيد اللّه سبحانه، فهو لا ينفق شيئاً من ماله ولا يضحى
نفحات الولايه، ج۵، ص: ۱۰۸
بنفسه من أجل الوقوف بوجه الظالم ونصرة المظلوم.
ثم يختتم الإمام عليه السلام كلامه بتحذيرهم وضرورة الاعتبار بمن سبقهم حيث سيجرى عليهم نفس الحكم، وإن كانوا رحلوا فسترحلون ويأتى قوم آخرين يسكنون مساكنكم كما سكنتم منازل من كان قبلكم كما عليهم الإتعاظ بانفصام عرى القرابة حتى مع أقرب إخوانكم، فقد رأيتم بأعينكم ذهاب بعض أعزتكم وقريباً ما تلحقون بهم:
«فَاعْتَبِرُوا بِنُزُولِكُمْ مَنَازِلَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَانْقِطَاعِكُمْ عَنْ أَوْصَلِ إِخْوَانِكُمْ».
فهذا دليل آخر على أنّ كافة الأموال والأنفس ودائع وهى مخلوقة جميعاً للّه، وأنّه سبحانه يداول هذه الأموال والمساكن والمناصب بين الناس إلى أجل مسمى، والتاريخ أعظم شاهد على هذا الأمر.
فلسنا أول من وطأنا هذا العالم، ولسنا بأخر من يغادره، إننا حلقة صغيرة ضمن هذه السلسلة الطويلة الممتدة منذ بداية الخليقة حتى نهاية العالم، فمن الغفلة ألا نرى الحلقات السابقة واللاحقة، فلا نعرف موقعنا فى هذا العالم ونرى هذه الدنيا خالدة دائمة لنا.
وزبدة الكلام فانّ الإمام عليه السلام كشف النقاب عن المكنون بهذه العبارات بما يوقظ النائم الغافل ويقض مضجع من يشهد سكر المال والمقام والجاه.
نفحات الولايه، ج۵، ص: ۱۰۹

الخطبة[۲۰۷] المأة و ثامنة عشرة

اشارة

وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عليه السلام
فى الصالحين من أصحابه

نظرة إلى الخطبة

كما ذكر فى سند هذه الخطبة فقد صرّح بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ الإمام عليه السلام أورد هذا الكلام بعد معركة الجمل، حيث كان أصحاب الإمام عليه السلام وحدة واحدة وصفوف متراصة مطيعة لأوامره وتوجيهاته فحققوا نصراً سريعاً باهراً بعد أن قضوا بكل

شجاعة وبسالة على فلول العدو وأخمدوا نار الفتنة.

فقد أثنى الإمام عليه السلام عليهم بهذه العبارات البليغة القصيرة، ثم أوصاهم بمواصلة السير على هذا النهج، وأخيراً إختتم خطبته بإشارة عابرة إلى مقام ولايته

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۱۱

«أَنْتُمُ الْأَنْصارُ عَلَى الْحَقّ، وَالْإِخْوَانُ فِى الدّينِ، وَالْجُنَنُ يَوْمَ الْبَأْسِ، وَالْبِطَانَةُ دُونَ النَّاسِ. بِكُمْ أَضْرِبُ الْمُدْبِرَ، وَأَرْجُو طَاعَةَ الْمُقْبِلِ. فَأَعِينُونِى بِمُنَاصَحَةٍ خَلِيَّةٍ مِنَ الْغِشّ، سَلِيمَةٍ مِنَ الرَّيْبِ. فَوَاللَّهِ إِنّى لَأَوْلَى النَّاسِ بِالنَّاسِ!».

الشرح والتفسير

الأصحاب الأوفياء

شحنت أغلب خطب نهج البلاغة بالذم الشديد بالنسبة لطائفة من أصحاب الإمام عليه السلام خاصة بعد معركة صفين على ما أبدوه من ضعف وفرقة وغدر فى ميدان المعركة، لكن فى هذه الخطبة التى وردت بعد معركة الجمل، فانّ الإمام عليه السلام يعرض بالمدح والثناء البليغ على أصحابه الأوفياء، ويدل هذا بوضوح على أنّ الإمام عليه السلام كان على الدوام يحث المحسنين من أصحابه ويرغبهم فى الأعمال الصالحة، كما كان يذم المسيئين منهم، ليخلص الفريق الأول فى عمله ويلتصق به، ويرعوى الفريق الثانى ويهم بإصلاح نفسه، فقد خاطب الإمام الصالحين من صحبه بأربع عبارات:

«أَنْتُمُ الْأَنْصَارُ عَلَى الْحَقّ، وَالْإِخْوَانُ فِى الدّينِ، وَالْجُنَنُ ۲۰۸] يَوْمَ الْبَأْسِ، وَالْبِطَانَةُ[۲۰۹] دُونَ النَّاسِ».

نعم، أنتم إخوانى فى الدين وقد أثبتم عدم تقصيركم فى نصرة الحق، تقفون بكل شموخ فى ميادين القتل بوجه الأعداء، إلى جانب ذلك فأنتم ثقة فى حفظ الأسرار المتعلقة بالحرب والسلام.

ثم قال عليه السلام:

«بِكُمْ أَضْرِبُ الْمُدْبِرَ، وَأَرْجُو طَاعَةَ الْمُقْبِلِ».

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۱۲

إشارة إلى أنّ الناس على صنفين: صنف أدار ظهره للحق وهبّ لمقارعته ولا سبيل هناك سوى التصدى له والوقوف بوجهه، وأنتم الأنصار فى هذا القتال، وصنف آخر أقبل على الحق ولكن لا يتمتع بالمعرفة اللازمة والطاعة الكافية، وسأعمل على تربيتهم بواسطتكم لكى ينقادوا للّهويطيعوه.

والخلاصة: فأنتم أنصارى فى مقاتلة العدو وكذلك فى المجال الفكرى تجاه الصديق، ثم نصح عليه السلام صحبه الأوفياء بعبارتين عميقتين المعنى فقال:

«فَأَعِينُونِى بِمُنَاصَحَةٍ خَلِيَّةٍ مِنَ الْغِشّ، سَلِيمَةٍ مِنَ الرَّيْبِ».

ففى العبارة إشارة إلى نقطة مهمّة وهى أنّ بطانة الأمراء ومشاورى الحكّام غالباً ما يقدمون مصالحهم الشخصية أو منافع قرابتهم ومن لهم علاقة بهم، ثم يعرضونها للحكام على أساس إرادة الخير والخدمة، بل أحياناً يطرحون بعض الاقتراحات التى لا ـ يقتنعون بها أنفسهم وهذا ما يؤدّى بدوره إلى الإحباط والفشل فى أغلب الخطط، فالإمام عليه السلام يؤكد على أصحابه الإخلاص فيما يطرحونه من أراء واقتراحات وابعادها عن كل ما يشوبها وعدم الأخذ بنظر الاعتبار سوى الخير وصلاح دين الحق وعباد اللّه.

وأخيراً يختتم خطبته بهذه العبارة:

«فَوَاللَّهِ إِنّى لَأَوْلَى النَّاسِ بِالنَّاسِ!».

ولعل هذه العبارة دليل على العبارات السابقة، أى إنّىإن توقعت نصرتكم ووقوفكم إلى جانبى فذلك كونى ولى أمر الناس باذن اللّه،

بل إنّی أولی بهم حتی من أنفسهم، وهذا ما ینبغی أن یجعلکم تشعرون بالرضی والسرور علی إنّکم تسیرون خلف مثل هذا الإمام وتطیعون أوامره.

الثناء علی الأصحاب

أثنی الإمام علیه السلام ثناءاً بلیغاً علی أصحابه بعد معرکهٔ الجمل، حیث استطاعوا بمدّهٔ قیاسیهٔ ومن خلال إتحادهم وصمودهم وقوّهٔ إیمانهم من القضاء علی قدرات العدو وإخماد نار الفتنهٔ فی تلک المنطقهٔ الإسلامیهٔ الحساسهٔ (البصرهٔ).

نفحات الولایهٔ، ج۵، ص: ۱۱۳

بینما توالت الخطب التی تعرض بالذمّ لطائفهٔ أخری من أصحابه، وذلک بعد معرکهٔ صفین التی انتهت بفشلهم بفعل اختلاف کلمتهم وضعفهم فی عقیدتهم وإرادتهم وعدم طاعتهم وإمتثالهم للأوامر، ولم یکن ذیک سوی فی اللحظات الأخیرهٔ التی أوشک النصر فیها علیالتحقق والرسوخ، فذلک الثناء وهذا الذم یفید أن کل ذلک یتمّ علی أساس حساب تخطیط ولیس هناک من تناقض فی الأمر، کما لم تطلق کلمهٔ فی هذا المجال تتعارض والحکمهٔ والمصلحهٔ، الأمر الذی ربّما یلتبس علی البعض الذین لا یعلمون بشأن وورد هذه الخطبهٔ.

النقطهٔ الأخری هی أنّ الإمام علیه السلام عین فی هذا الکلام القصیر وظیفهٔ الامهٔ تجاه الحکومهٔ، فیجب علیها من جانب الوقوف من أجل استقطاب الأوفیاء ودفع الحاقدین، ومن جانب آخر التمعن فی کافهٔ الأنشطهٔ السیاسیهٔ والاجتماعیهٔ والعسکریهٔ وإبداء المقترحات النافعهٔ والانتقادات البناءهٔ بهذا الخصوص.

ثم یشیر فی آخر عبارهٔ من هذه الخطبهٔ إلی نقطهٔ مهمّهٔ وهی مسألهٔ الولایهٔ الإلهیّهٔ، وهو الأمر الذی أکدّه النبی الأکرم صلی الله علیه و آله فی خطبهٔ الغدیر حیث قال:

«أَلَستُ أَولی بِکُم مِنْ أَنفُسِکُم»

، فردّ المسلمون: بلی یا رسول اللّه، ثمّ قال صلی الله علیه و آله:

«مَنْ کُنتُ مَولاهُ فَهذا عَلِیٌّ مولُا»

.. هکذا قطع رسول اللّه صلی الله علیه و آله الأعذار علی جمیع من یتشبث بالحجج الواهیهٔ ویختلق الذرائع لیقول الولی هنا بمعنی الصدیق.

والطریف فی الأمر أنّ العلّامهٔ الأمینی صاحب کتاب الغدیر قد نقل العبارهٔ:

«أَلَستُ أَولی بِکُم مِنْ أَنفُسِکُم»

من أربعهٔ وستین محدّثاً ومؤرخاً إسلامیاً، وهذا ما یؤکد إتفاق الجمیع علی هذه العبارهٔ[۲۱۰]، فالإمام علیه السلام ذکر هذه النقطهٔ فی الخطبهٔ وأقسم قائلًا:

«فَواللَّهِ إِنّی لَأَوْلَی النَّاسِ بِالنَّاسِ!».

من الواضح أنّ المراد من هذ العبارهٔ هو أنّ أوامر الإمام المعصوم کأوامر اللّه تبارک وتعالی مقدمهٔ علی رغبات الناس، وإن کانت هذه الأوامر تصبّ فی طریق مصالح المجتمع ومنافعه.

نفحات الولایهٔ، ج۵، ص: ۱۱۵

الخطبهٔ[۲۱۱] المأهٔ و تاسعه عشرهٔ

اشارهٔ

وَمِنْ كَلام لَهُ عليه السلام

وقد جمع الناس وحضهم على الجهاد فسكتوا مليّاً

نظرة إلى الخطبة

كما ورد فى سند الخطبة فانّ الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبة إثر إحدى حملات معاوية وجيش الشام على أطراف العراق، فيعرض الإمام عليه السلام بالنقد اللاذع فى هذه الخطبة لذلك الصمت السلبى وعدم الإكتراث من قبل الناس تجاه تلك الأحداث المؤذية التى تضعف معنويات جند الإسلام وروحياتهم، وحين ردّ البعض على الإمام عليه السلام إن سرت سرنا معك، شدد الإمام عليه السلام من ذمّهم وتوبيخهم على أنّ وظيفة الإمام وزعيم الجماعة ليست فى أن يدفع بشخصه لإخماد أى تمرّد ومطاردة عدو وترك مركز الحكومة الإسلامية والتخلى عن مختلف وظائفه، فالإمام لابدّ أن يقوم بهذا العمل فى الأحداث الغاية فى الأهميّة ويترك لبعض الأمراء الصغار ممن دونه التعامل مع سائر الأحداث، فهذا أحد الاصول المسلمة للإدارة والإمرة وللأسف لم يكن أهل الكوفة على علم بذلك أو أنّهم لم يريدوا العلم بذلك.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۱۷

القسم الأول: المخلّفون الضعفاء والجهّال

«فَقَالَ عليه السلام: مَا بَالُكُمْ أَمُخْرَسُونَ أَنْتُمْ؟

فَقَالَ قَوْمٌ مِنْهُمْ: يَا أَمِيرَالْمُؤْمِنِينَ، إنْ سِرْتَ سِرْنَا مَعَکَ.

فَقَالَ عليه السلام: مَا بَالُكُمْ! لَا سُدِّدْتُمْ لِرُشْدٍ! وَلَا هُدِيتُمْ لِقَصْدٍ! أَفِى مِثْلِ هذَا يَنْبَغِى لِى أَنْ أَخْرُجَ؟ وَإِنَّمَا يَخْرُجُ فِى مِثْلِ هذَا رَجُلُ مِمَّنْ أَرْضَاهُ مِنْ شُجْعَانِكُمْ وَذَوِى بَأْسِكُمْ، وَلَا يَنْبَغِى لِى أَنْ أَدَعَ الْجُنْدَ وَالْمِصْرَ وَبَيْتَ الْمَالِ وَجِبَايَةَ الْأَرْضِ، وَالْقَضَاءَ بَيْنَ الْمُسْلِمِيْنَ، وَالنَّظَرَ فِى حُقُوقِ الْمُطَالِبِينَ، ثُمَّ أَخْرُجَ فِى كَتِيبَةٍ أَتْبَعُ أُخْرَى، أَتَقَلْقَلُ تَقَلْقُلَ الْقِدْحِ فِى الْجَفِيرِ الْفَارِغِ، وَإِنَّمَا أَنَا قُطْبُ الرَّحَى، تَدُورُ عَلَيَّ وَأَنَا بِمَكَانِى، فَإِذَا فَارَقْتُهُ اسْتَحَارَ مَدَارُهَا، وَاضْطَرَبَ ثِفَالُهَا. هذَا لَعَمْرُ اللَّهِ الرَّأْىُ السُّوءُ!».

الشرح والتفسير

حين بلغ الإمام عليه السلام هجوم أعوان معاوية على بعض المناطق الحدودية، جمع الناس وأمرهم بالحركة إلى الجهاد، لكن وكما ورد فى الخطبة المذكورة سكت الناس ولم يجيبوه، فامتعظ الإمام عليه السلام وتأثر شديداً فقال:

فَقَالَ عليه السلام: «مَا بَالُكُمْ أَمُخْرَسُونَ أَنْتُمْ؟

فَقَالَ قَوْمٌ مِنْهُمْ: يَا أَمِيرَالْمُؤْمِنِينَ، إنْ سِرْتَ سِرْنَا مَعَکَ».

فردّ عليهم الإمام بعنف بعدم التوفيق وبلوغ الهدف ۲۱۲]، فلا ينبغى للإمام الحركة فى مثل تلك

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۱۸

الظروف:

«فَقَالَ عليه السلام: مَا بَالُكُمْ! لَا سُدّدْتُمْ ۲۱۳] لِرُشْدٍ! وَلَا هُدِيتُمْ لِقَصْدٍ! أَفِى مِثْلِ هذَا يَنْبَغِى لِى أَنْ أَخْرُجَ؟ وَإِنَّمَا يَخْرُجُ فِى مِثْلِ هذَا رَجُلُ مِمَّنْ أَرْضَاهُ مِنْ شُجْعَانِكُمْ وَذَوِى بَأْسِكُمْ».

فلم يكم متعارفاً فى أى مكان من الدنيا ولا عصر من العصور أن ينهض زعيم فرقة أو رئيس دولة بشخصه للتدخل فى حادثة صغيرة وبلبلة معينة، بل عادة ما يوجه لها أحد آمريه برفقة مجموعة من العناصر الشجاعة والوفية من أجل إخماد الفتنة وحل النزاع، وذلك لأنّ التخلى عن مركز الحكومة من شأنه أن يقود إلى عدّة مخاطر جانبية، ومن هنا واصل الإمام كلامه قائلًا:

«وَلَمَا يَنْبَغِى لِى أَنْ أَدَعَ الْجُنْدَ وَالْمِصْرَ وَبَيْتَ الْمَالِ وَجِبَايَةَ الْأَرْضِ، وَالْقَضَاءَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَالنَّظَرَ فِى حُقُوقِ الْمُطَالِبِينَ، ثُمَّ أَخْرُجَ فِى كَتِيبَةٍ[۲۱۴] أَتْبَعُ أُخْرَى، أَتَقَلْقَلُ تَقَلْقُلَ ۲۱۵] الْقِدْحِ ۲۱۶] فِى الْجَفِيرِ[۲۱۷] الْفَارِغِ ۲۱۸]».

فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارة إلى ستة جوانب تتضمن الوظائف المهمّة لرئيس الدولة يمكنها الإنهيار جميعاً فيما إذا شغر مركز الحكومة من ذلك الرئيس، وهى الاشراف على الجند وأمور العسكر والجيش والحفاظ على مركز الدولة وحفظ بين مال المسلمين وجباية الخراج والضرائب والقضاء بينهم والدفاع عن حقوق عنهم.

فمن البديهى يمكن لرئيس الدولة أن يشخص بنفسه للتعامل مع الحوادث الضحمة ويهب لمواجهة العدو، أمّا فى غيرها من الحوادث ذات الطبيعة العادية، فيمكن لغيره التعامل معها، وتشير سيرة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه كان يشخص بنفسه الشريفة فى الغزوات المهمّة المصيرية، فيتزعم الجند، وكان ينصب بعض الأفراد فى الغزوات العادية فيسلمه الراية

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۱۹

ويوصيه ببعض التعاليم كما يوصى الجيش بطاعة أوامره، وهكذا كانت تحصل أغلب الغزوات فى تاريخ الإسلام والتى يصطلح عليها عادة بالسرية، غاية ما فى الأمر أنّ صحابة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله كانوا يأتمرون بأوامره بحيث يطيعونه فى كل ما يقول ولم يكن يرد عليه أحد بأن سرت سرنا معك.

نعم، صحيح لكل قسم مسؤول على أساس تقسيم وتنظيم شؤون البلاد، لكن لا يخفى الدور الحيوى الذى يلعبه الرئيس المشرف على اولئك المسؤولين فى تقدم الأعمال والنهوض بها قدماً، هذا الأمر واضح تماماً، بل هو من البديهيات، لكن اولئك المتقاعسون المسلوبون الإرادة والضعاف الذين يتذرعون بمختلف الذرائع من أجل إجتناب مواجهة العدو فيشترطون شرطاً غاية فى البعد عن المنطق لخروجهم، وبعبارة أخرى شرطهم هو تعليق على المحال، ويواصل الإمام عليه السلام كلامه من خلال تشبيه رائع لشخصه بقطب الرحا ومحورها والذى يفيد ضرورة بقائه فى موضعه (بحيث تدور كل الأمور من خلاله) فان إبتعد هذا المحور عن مركزه اختلت حركة جميع الأشياء:

«وَإِنَّمَا أَنا قُطْبُ الرَّحَى، تَدُورُ عَلَىَّ وَأَنَا بِمَكَانِى، فَإِذَا فَارَقْتُهُ اسْتَحَارَ[۲۱۹] مَدَارُهَا، وَاضْطَرَبَ ثِفَالُهَا».

فقد جرت العادة سابقاً على الاستفادة من الرحى اليدوية أو المائية والهوائية من أجل طحن الحنطة والشعير، وكانت بنية هذه الآليات بسيطة وواضحة، فقد كانت هناك حجرة ثابتة فى الأسفل وأخرى تتحرك فى الأمام بواسطة حركة اليد أو ضغط الماء الذى يعبر من تحتها أو الرياح، وكان وسط الحجرين قطب يدور حول محوره الحجر لو كسر القطب لخرج الحجر عن مساره ووقع جانباً إلى جانب ذلك كان هناك جلد كبير أو قطعة من القماش تبسط تحت الرحا لجمع الدقيق بسهولة، حيث إذا خرج الدقيق من وسط الحجرين وقع عليه، ولو زال ذلك القطب والمحور الأصلى لوقفت الرحا عن الحركة ووقع الحجر على تلك القطعة من القماش أو الجلد وإضطراب.

هذا ما أشار إليه الإمام بقوله:

«اسْتَحَارَ مَدَارُهَا، وَاضْطَرَبَ ثِفَالُهَا»

، إضافة إلى ذلك فانّ

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۲۰

الشىء الذى يحرك الحجر فى الرحا هو ذلك الواقع فى وسط الحجر والذى يتصل من الأسفل بمحور أكبر يصب عليه الماء من جانب ويحركه، وهكذا يكون القطب عامل حركة وعامل تنظيم، وهذه هى منزلة الإمام والقائد.

وأخير يخلص الإمام إلى النتيجة صريحة بأنّ ذلك الاقتراح مرفوض تماماً فى أنّ يشخص بنفسه لإطفاء كل فتنة هنا وهناك تاركاً لمركز الحكومة:

«هذَا لَعَمْرُ اللَّهِ الرَّأْيُ السُّوءُ!».

حقاً أنّه لإقتراح فاشل بشهادة كل مدير ومسؤول له علم بهذه الأمور فى أنّ القائد لا يفارق موقعه ومركز ثقله ومهامه سوى فى الحوادث المهمّة.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۲۱

القسم الثانى: لولا رجآء الشهادة

اشارة

«وَاللَّهِ لَوْلَا رَجَائِى الشَّهَادَةَ عِنْدَ لِقَائِى الْعَدُوَّ- وَلَوْ قَدْ حُمَّ لِى لِقَاؤُهُ- لَقَرَّبْتُ رِكابِى ثُمَّ شَخَصْتُ عَنْكُمْ فَلا أَطْلُبُكُمْ مَا اخْتَلَفَ جَنُوبٌ وَشَمَالٌ؛ طَعَّانِينَ عَيَّابِينَ، حَيَّادِينَ رَوَّاغِينَ. إِنَّهُ لَاغَنَاءَ فِى كَثْرَةِ عَدَدِكُمْ مَعَ قِلَّةِ اجْتِماعِ قُلُوبِكُمْ لَقَدْ حَمَلْتُكُمْ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ الَّتى لَا يَهْلِكُ عَلَيْهَا إِلَّا هَالِكٌ، مَنِ اسْتَقَامَ فَإِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ زَلَّ فَإِلَى النَّارِ».

الشرح والتفسير

شدد الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة من ذمّه وتوبيخه لأهل الكوفة وعين نقاط ضعفهم وأعرب عن يأسه وعدم أمله فى مستقبلهم وعاقبة أمرهم، فقال:

«وَاللَّهِ لَوْ لَا رَجَائِى الشَّهَادَةَ عِنْدَ لِقَائِى الْعَدُوَّ- وَلَوْ قَدْ حُمَ ۲۲۰] لِى لِقَاؤُهُ- لَقَرَّبْتُ رِكابِى ثُمَّ شَخَصْتُ عَنْكُمْ فَلا أَطْلُبُكُمْ مَا اخْتَلَفَ جَنُوبٌ وَشَمَالٌ».

العبارة

«مَا اخْتَلَفَ جَنُوبٌ وَشَمَالٌ»

، إشارة إلى مراده أننى لم آتى إليكم أبداً، فالعبارة أشبه بما ورد فى إحدى كلماته عليه السلام حين أقترح عليه عدم التسوية فى العطاء من بيت مال المسلمين، فقال عليه السلام:

«أَتَأْمُرُونِّى أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ! وَاللَّهِ لَاأَطُورُ بِهِ مَا سَمَرَ سَمِيرٌ، وَمَا أَمَّ نَجْمٌ فِى السَّمَاءِ نَجْماً!»[۲۲۱].

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۲۲

تطالعنا هنا ثلاثة أسئلة تطرح نفسها:

الأول: كيف قال الإمام عليه السلام لولا رجائى الشهادة لما مكثت بينكم ولتركتكم، بينما ذكر سابقاً لا ينبغى لى أن أدع الجند والمصر وبيت المال وجباية الأرض والقضاء بين المسلمين والنظر فى حقوق المطالبين، فكيف يمكن التوفيق بين هذين الأمرين؟

الثانى أنّ الإمام عليه السلام قد سمع بشارة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله له بالشهادة وكان يعلم أنّه سيقتل على يدى أشقى الآخرين عبدالرحمن بن ملجم، فكيف قال لولا رجائى الشهادة عند لقائى العدو؟

الثالث: كيف يستطيع الإمام عليه السلام التخلى عن إمامته وزعامته ويخرج من الناس؟

وللإجابة على السؤال الأول لابدّ من القول أن نيل فيض الشهادة كان يشكل أحد الأهداف المقدّسة للإمام عليه السلام فى بقائه وسط تلك الفئة ولا مانع من أن يكون له أهداف أخرى، حيث بين ائر تلك الأهداف فلم تعد هناك من حاجة لديه لذكرها هنا[۲۲۲].

ونقول فى الردّ على السؤال الثانى إنّ لقاء العدو يشتمل على مفهوم غاية فى السعة وإن بدى فى الوهلة الاولى يجسد مواجهة الخصم فى ساحة المعركة والذى يمثل حزءاً من ذلك اللقاء، ونعلم أنّ شهادة الإمام عليه السلام كانت أحد مصاديق ذلك.

وامّا السؤال الثالث: فيمكن الإجابة عليه بالقول بأنّ ترك فئة فاسدة لا يمكن إصلاحها لا يعنى التخلى عن وظائف الإمامة أبداً، بل

يمكن للإمام عليه السلام أن يتّجه صوب جماعة أعظم إستعداداً، على غرار ما فعله رسول اللّه صلى الله عليه و آله حين هاجر من مكة إلى المدينة.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بذكر الأدلّة التى تدعوه إلى عدم الإرتياح منهم ويبيّن لهم نقاط ضعفهم على أمل الإلتفات إلى أنفسهم فيهموا باصلاحها فقال:

«طَعَّانِينَ عَيَّابِينَ، حَيَّادِينَ ۲۲۳]

رَوَّاغِينَ ۲۲۴]».

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۲۳

فهذه الصفات الأربعة على درجة من القبح والبشاعة بحيث يكفى وجود واحدة منها فى فرد لتدعو للنفرة منه والابتعاد عنه، فضلًا عن اجتماعها جميعاً فيه، أى أنّ جلّ همّه الالتفات إلى المعايب والمثالب، بل يعطيها حجماً أكثر من واقعها فهو لا ينفك عن طرحها وتكرارها حتى شعر المقابل باليأس، فلا يرى الحق حتى يولى له ظهراً فتختلط حياته بالمكر والأسى، فكيف لرجل صالح أن يعيش وسط مثل هذه الفئة فضلًا عن الإمام المعصوم عليه السلام الزعيم للخلق والذى ليست أمامه من نتيجة لهذا الوضع المأساوى سوى الحزن والمعاناة، ومن هنا يرجو الإمام عليه السلام مفارقتهم والانفصال عنهم.

ثم أضاف الإمام عليه السلام بأنّه إلى جانب تلك العيوب الشخصية هناك عيب اجتماعى كبير فيهم والذى يتمثل بعدم جدوى كثرة عددهم مع قلّة اجتماع أفكارهم:

«إِنَّهُ لَاغَنَاءَ فِى كَثْرَةِ عَدَدِكُمْ مَعَ قِلَّةِ اجْتَماعِ قُلُوبِكُمْ».

صحيح أنّ عددكم يبدو كثيراً فى الظاهر، ولكن حيث تغيب الوحدة التى ينبغى أن تجمع قلوبكم وتوحدها وحيث ينفرد كل بإرادته وقراره، فلم يعد هناك من خير يؤمل فيكم، أو بعبارة أخرى فانّ اجتماعكم الموتى وتجمعكم تجمع الوحشة.

ثم إختتم الإمام عليه السلام الخطبة بقوله أنّى قمت بوظيفتى تجاهكم:

«لَقَدْ حَمَلْتُكُمْ عَلَى الطَّرِيقِ الْواضِحِ الَّتى لَايَهْلِكُ عَلَيْهَا إِلَّا هَالِكٌ، مَنِ اسْتَقَامَ فَإِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ زَلَّ فَإِلَى النَّارِ».

فالإمام عليه السلام أوضح بهذه العبارة حقيقة مفادها أنّى قلت لكم كل ما ينبغى قوله وأتممت عليكم الحجة وإن تمنيت الخروج عنكم ومفارقتكم فذلك لا- يعنى أنّى قصرت فى مقام بوظيفتى تجاهكم، ولكن لأسف إنّكم لستم بالأفراد للائقين الذين يسعكم الاستفادة من البرامج التربوية التى يطرحها مرشد ربّانى شفيق عليكم.

القلوب الواعية

أورد مؤرخ القرن الثالث المعروف أبو اسحاق الثقفى فى كتاب «الغارات» فى ذيل هذه الخطبة حين خطب الإمام عليه السلام هذه الخطبة قام

«جارية بن قدامة السعدى»

فقال:

«يا أَمِيرَالمُؤمِنِينَ لاأَعدَمَنا اللَّهُ نَفْسَكَ وَلا أَرانَا فِرَاقَكَ أَنَا لِهؤلاء القَومِ فَسَرِّحنِى إِلَيهِم».

نفحات الولاية ؛ ج۵ ؛ ص۱۲۴

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۲۴

فسّر الإمام عليه السلام لكلامه وأثنى عليه، من جانب آخر قام إليه

«وهب بن مسعود الخثعمى»

فقال:

«أَنَا لَهُم».

فأمر الإمام عليه السلام جارية أن يسير بألفين إلى البصرة والخثعمى بألفين إلى الكوفة، ثم أمرهما بتتبع بسر بن أبى ارطاة أينما وجدوه [۲۲۵].

والذى يستفاد من هذا البحث التاريخى:

أولًا: إنّ شدّة كلمات الإمام عليه السلام كان لها فى خاتمة المطاف الأثر البالغ فى بعض القلوب الواعية فاستعد أصحابها لمواجهة الأعداء.

ثانياً: يتضح أنّ هذه الخطبة قد وردت قبل المرحوم الرضى فى كتاب «الغارات».

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۲۵

الخطبة[۲۲۶] المأة و عشرون

اشارة

وَمِنْ كَلامٍ لهُ عليه السلام

يذكر فضله ويعظ الناس

نظرة إلى الخطبة

بداية الكلمات إشارة إلى وجود أبواب الحكم وكنوز العلم لدى أهل البيت عليهم السلام الذين تعلموا من رسول اللّه صلى الله عليه و آله تبليغ الرسالة وتفسير كلمات اللّه سبحانه وتعالى، ثم خاض الإمام فى إسداء مواعظه ونصائحه النافعة وحذر الناس فى ضرورة الاعتبار بالآخرين والخوف من نار جهنّم وأن يعملوا ما يجعل الناس يذكرونهم بكل خير بعد إيمانهم، فالسمعة الحسنة أفضل من الأموال تلحق الإنسان بعد وفاته، الأموال التى قد لا يعرف الورثة عادة قيمتها ولا يشكرون جامعها.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۲۷

«تَاللَّهِ لَقَدْ عُلِّمْتُ تَبْلِيغَ الرِّسَالاتِ، وَإِتْمَامَ الْعِدَاتِ، وَتَمَامَ الْكَلِمَاتِ.

وَعِنْدَنَا- أَهْلَ الْبَيْتِ- أَبْوَابُ الْحُكْمِ وَضِيَاءُ الْأَمْرِ. أَلَا وَإِنَّ شَرَائِعَ الدِّينِ وَاحِدَةٌ، وَسُبُلَهُ قَاصِدَةٌ. مَنْ أَخَذَبها لَحِقَ وَغَنِمَ، وَمَنْ وَقَفَ عَنْهَا ضَلَّ وَنَدِمَ.

إِعْمَلُوا لِيَوْمٍ تُذْخَرُ لَهُ الذَّخَائِرُ، وَتُبْلَى فِيهِ السَّرَائِرُ. وَمَنْ لَا يَنْفَعُهُ حَاضِرُ لُبِّهِ فَعَازِبُهُ عَنْهُ أَعْجَزُ، وَغَائِبُهُ أَعْوَزُ. وَاتَّقُوا ناراً حَرُّهَا شَدِيدٌ، وَقَعْرُهَا بَعِيدٌ، وَحِلْيَتُهَا حَدِيدٌ، وَشَرَابُهَا صَدِيدٌ. أَلَا وَإِنَّ اللِّسَانَ الصَّالِحَ يَجْعَلُهُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمَرْءِ فِي النَّاسِ؛ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْمَالِ يُورِثُهُ مَنْ لَا يَحْمَدُهُ».

الشرح والتفسير

المواعظ القيمة

إستهل الإمام عليه السلام خطبته بالحديث عن العلوم التى تعلمها من رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقال:

«تَاللَّهِ لَقَدْ عُلِّمْتُ تَبْلِيغَ الرِّسَالاتِ، وَإِتْمَامَ الْعِدَاتِ، وَتَمَامَ الْكَلِمَاتِ».

المراد بتبليغ الرسالات أساليب نشر المعارف الإسلامية وأحكام الدين بمختلف الطرق وايصالها إلى الناس، إشارة إلى أنّى لم أتعلم الرسالات الإلهيّة فحسب، بل تعلمت من رسول اللّه صلى الله عليه و آله طرق التبليغ، فكنت لا أنثنى فى هذا السبيل.

والمراد باتمام العدات «الوفاء بالعهود» تلك وعود اللّه تبارك وتعالى بصورة عامّة بالنسبة لجميع المؤمنين والوعود بصورة خاصة بالنسبة له عليه السلام، كما ورد فى القرآن الكريم: «مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا»[٢٢٧].

نفحات الولاية، ج۵، ص: ١٢٨

يمكن أن يكون هذا الوعد الإلهى هو الوعد بالشهادة فى سبيل اللّه، أو سائر الوعود من قبيل مقاتلة الناكثين والقاسطين والمارقين، أو غير ذلك.

والمراد بتمام الكلمات يمكن أن يكون إشارة إلى تفسير آيات القرآن وتفسير كلمات النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، وتبيان وإكمال كافة الكلمات التى وصلت من الكتاب والسنّة.

كما يحتمل أن يكون المراد الإمام صلى الله عليه و آله أنّى أولى من جميع الأفراد بخلافة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، وذلك لأنّى تعلمت طريق تبليغ الرسالة وتحقيق وعوده صلى الله عليه و آله وتفسير وتكميل كلماته، وعليه فإنّى أستطيع النهوض لمسؤولية الخلافة، وقد ورد فى الحديث النبوى الشريف أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال لعلى عليه السلام:

«أَنْتَ وَصِى وَأَخِى فِى الدُّنيا وَالآخِرةِ وَتَقضِى دَينِى وَتُنجِزُ عِداتِى»[٢٢٨].

الاحتمال الآخر الذى يمكن ذكره بالنسبة لهذه العبارة هو أنّ الإمام عليه السلام أراد أن يقول أنا أولى بالخلافة، لأنّى أقدر على تبليغ جميع رسالات اللّه سبحانه، كما أستطيع العمل بالوعود التى أقطعها وكذلك أتم ما أورده من كلمات وأحاديث.

ثم واصل عليه السلام كلامه بالقول:

«وَعِنْدَنَا- أَهْلَ الْبَيْتِ- أَبْوَابُ الْحُكْمِ وَضِيَاءُ الْأَمْرِ».

والحكم بضم الحاء بمعنى الحكومةو القضاء، بناءاً على هذا فالمراد بالعبارة عندنا أهل البيت طرق تدبير الحكومة وإقامة العدل وبسط الأمن، والحكم بكسر الحاء وفتح الكاف جمع الحكمة بمعنى العلوم والمعارف، ولا شك ولا ريب أنّ لدى أهل البيت عليهم السلام أبواب الحكمة وكنوز العلم والمعرفة، كما قرنهم رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقال فى حديث الثقلين المعروف:

«إنِّى تارِكٌ فيكُم الثَّقَلَينِ كِتابَ اللّهِ وَعِترَتِى»[٢٢٩].

ثم أورد الإمام عليه السلام خمس نصائح من شأنها نجاة العباد فى الدنيا والآخرة، وكأن العبارات الاولى لهذه الخطبة قد وردت لإعداد القلوب من أجل تقبل هذه النصائح ليقول أنّ كلامى يستند إلى علم عميق ودقيق بتعاليم الإسلام وتعاليم النبى صلى الله عليه و آله، فكانت النصحية الاولى مسألة الإتحاد ووحدة الكلمة وذلك لأنّ الاختلاف آفات سعادة الإنسان، فقال:

«أَلَا وَإِنَ

نفحات الولاية، ج۵، ص: ١٢٩

شَرَائِعَ الدّينِ وَاحِدَةٌ، وَسُبُلَهُ قاصِدَةٌ. مَنْ أَخَذَبِها لَحِقَ وَغَنِمَ، وَمَنْ وَقَفَ عَنْهَا ضَلَّ وَنَدِمَ».

المقصود بشرائع الدين كافة التعليمات التى صرّح بها الدين الحنيف بما فيها المعارف والعقائد والقوانين والوصايا والأمور الأخلاقية، فجذروها واحدة فى جميع الأديان السماوية وإن إقتضت الظروف الزمانية والتطور البشرى أن يكون هناك بعض الاختلاف شرحها وتفصيلها وتنوع فروعها.

كما يحتمل أن يكون المراد بشرائع الدين مختلف الطرق إلى اللّه سبحانه فى الدين الإسلامى والتى تنتهى جميعاً إلى طريق رئيسى واحد وهو القرب إلى اللّه والسعادة المطلقة للبشر، فالصلاة الصوم والجهاد والحج والزكاة وكافة مثل هذه التعليمات إلى جانب

التعاليم العقائدية والأخلاقية تتصل وتنتهى بنقطة واحدة ويؤكد عليه السلام على أنّ بلوغ السبيل سهل وواضح وقريب، وعليه فانّ الفرقة والاختلاف إنّها تحصل من مزج الأفكار الباطلة والأهواء ووساوس النفس والشيطان بشرائع الدين، فقال تعالى فى كتابه العزيز: «شَرَعَ لَكُمْ مِنْ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ...»[۲۳۰].

وقال عليه السلام فى الموعظة الثانية:

«إِعْمَلُوا لِيَوْمٍ تُذْخَرُ لَهُ الذَّخَائِرُ، وَتُبْلَى فِيهِ السَّرَائِرُ».

العبارة الاولى إشارة إلى الآية الشريفة: «مَا عِنْدَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ...»[۲۳۱].

والعبارة الثانية إشارة إلى الآية القرآنية:

«يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ»[۲۳۲].

من البديهى أنّ للإنسان قدرة محدودة ينبغى توظيفها فى أفضل سبيل، فالعقل يقول: لم تستهلك طاقتك فى طريق لا يدوم أكثر من أيّام، لم لا ـ تستهلكها فى سبيل يرافقك على الدوام ويخلد فيه معك، أضف إلى ذلك يوم تبلى فيه السرائر وكافة أعمال الإنسان الخفية، فهو يوم عصيب وفضيحة بالنسبة للطالحين.

وقال عليه السلام: فى عظته الثالثة:

«وَمَنْ لَا يَنْفَعُهُ حَاضِرُ لُبِّهِ فَعَازِبُهُ ۲۳۳] عَنْهُ أَعْجَزُ، وَغَائِبُهُ أَعْوَزُ[۲۳۴]».

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۳۰

فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام أراد بهذه العبارة مزج الأدلة العقلية بالنقلية وتعبئة الجميع من أجل متابعة سبيل الحق، وقد قال الإمام عليه السلام هنا ثلاثة أنواع لعقل هى: العقل الحاضر والبعيد والغائب، يمكن أن يكون الأول إشارة إلى المسائل العقلية الواضحة، والثانى إلى المطالب النظرية التى يبلغها الإنسان من خلال الطرق الاستدلالية الواضحة، و الأخير إشارة إلى المواضع المعقدة التى يتعذر التوصل إليها من خلال الدليل والبرهان، فمن البديهى أن يتعذر إدراك المطالب النظرية والمعقدة والبعيدة عن الفكر على من لا يستفيد من المسائل الفكرية البسيطة.

ففى المسائل النظرية تتضح تماماً معرفة اللّه يوم القيامة (بالمبدأ والمعاد)، وذلك لأنّ آياته قد ملأت جميع العالم، والقيامة التى تمثل محكمته العادلة ثابتة بحكم العقل، وفى المسائل العلمية فانّ حسن العدل وقبح الظلم ومدح الصدق والوفاء والعفة والورع والتقوى مسلم للجميع، ولكن قد يحول التعصب الأعمى وأهواء الإنسان دون الوقوف على هذه الأمور الواضحة، فأنى لمثل هذا الفرد أن يبدى رأيه فى المسائل النظرية والمعقدة ويبلغ الهدف المطلوب.

ثم خاطب الإمام عليه السلام الناس فى المواعظة الرابعة بصفته منذر عالم فقال:

«وَاتَّقُوا ناراً حَرُّهَا شَدِيدٌ، وَقَعْرُهَا بَعِيدٌ، وَحِلْيَتُهَا حَدِيدٌ، وَشَرَابُهَا صَدِيدٌ[۲۳۵]».

والعبارات البليغة التى أوردها الإمام عليه السلام بشأن نار جهنم والتى تكفى كل واحدة منها لصد الإنسان عن الذنب إنّما اقتبست من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، فقد جاء فى الآية:

«قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً ...»[۲۳۶].

وجاء فى أخرى: «يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلْ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ...»[۲۳۷].

يعنى أنّها على قدر من الكبر والسعة بحيث لا تمتلىء بسهولة، وجاء فى أية أخرى: (خُذُوهُ فَغُلُّوهُ* ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ* ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ»[۲۳۸].

وجاء فى آية أخرى: «مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ»[۲۳۹]، قطعاً من يؤمن

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۱۳۱

بالآخرة ومحکمة العدل الإلهی وشیء من العذاب الألیم، فانّه یتحکم ویسیطر علی أهوائه ویجتنب الظلم والجور ولا یقارف الذنب والمعصیة، أمّا اولئک الذین لیس لهم من إیمان بهذه الأمور ولا یعتقدون بالحساب والکتاب والثواب والعقاب، فلیس هناک ما یدعوه إلی السیطرة علی أهواءه وکفّ الأذی عن الآخرین وعدم التعرض لحقوقهم.

نعم، یمکن للضمیر أن یجد من هوس الأفراد إلی حدود معینة، لکن من الیقین أن لیس لذلک من بعد عمومی وشامل، وتأثیره یبقی متواضعاً، أضف إلی ذلک فانّ نبتة الضمیر تذبل وتجف وتموت ما لم تسق بماء تعالیم الأنبیاء علیهم السلام.

أمّا الموعظة الأخیرة والخامسة فقد أشار إلی نقطة مهمّة جدّاً فقال:

«أَلَا وَإِنَّ اللّسانِ الصّالِحِ یَجعَلُهُ اللَّهُ تَعلی لِلمرءِ فِی النّاسِ، خَیرٌ لَهُ مِنَ المَالِ یُرِثُهُ مَنْ لَایَحْمَدُهُ».

إنّ أغلب الناس وبدافع حبّهم لأولادهم وأزواجهم یبذلون قصاری جهدهم من أجل ضمان مستقبلهم ویفنون جانب عظمیاً من أعمارهم فی هذا المجال حتی أنّهم یخلطون أحیاناً الحلال بالحرام، لکنّهم یغفلون عن قضیة مهمّة دلّت علیها التجربة أنّه قلّما نجد وارثاً یحمد من ورثه علی ما خلفه لهم من میراث، بل غالباً ما تکون الأموال الموروثة مصدراً للشقاق والاختلاف والنزاع، ولا غرو فکل فرد یسعی لأن یحصل لنفسه علی السهم الأوفی، حتی قیل موت الغنی بدایة قتال الفقیر.

بل قد یتجاوز الأمر ذلک لنشهد سبّ الوارث والتشنیع علیه والتعرض له بالذم من جراء ما خلفه من مشاکل بسبب الارث.

والحال لو تجاوز الإنسان وهو علی قید الحیاة ذاته وأنفق قسماً من أمواله کصدقة جاریة وخدمة إنسانیة وثقافیة یسدیها إلی المجتمع لبقی ذکره الطیب بین النایس فلن ینسوه أبداً، ویثنون علیه دائماً ویسألون اللّه له المغفرة والرحمة، فهذا هو ثوابه فی الدنیا ولثواب الآخرة أعظم.

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۱۳۳

الخطبة[۲۴۰] المأة والحادی العشرون

اشارة

مِنْ خُطْبَةٍ لَهُ علیه السلام

بعد لیلة الهریر

وَقَدْ قَامَ إِلَیْهِ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: الْأَمْرَیْنِ أَرْشَدُ؟ فَصَفَّقَ علیه السلام إِحْدَی یَدَیْهِ عَلَی الْأُخْرَی ثُمَّ قَالَ:

نظرة إلی الخطبة

لابدّ من الالتفات إلی مناسبة وورد الخطبة من أجل الوقوف علی عمق محتواها ومضمونها، فهذا الکلام یرتبط بمعرکة صفین حین نهی الإمام علیه السلام الناس عن قبول التسلیم للتحکیم، ثم دعاهم إلی قبوله، والمعروف بهذا الشأن أنّ عمرو بن العاص فکر بخدعة حین شارف جیش الشام علی الهزیمة، فأمر برفع المصاحف ووضعها علی أسنة الرماح، ثم دعی أصحاب علی علیه السلام إلی تحکیم القرآن، فانخدع لذلک الکثیر من السذج من أصحاب علی علیه السلام فکفوا عن القتال واستجابوا لطلب أهل الشام، ثم أصروا علی تحکیم القرآن بشأن مصیر

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۱۳۴

المعرکة فی أن ینهض حکم من جیش الإمام علیه السلام وآخر من جیش معاویة، وبلغ بهم الأمر أن هددوا الإمام قائلین: «إن لم تفعل

قتلناك كما قتلنا عثمان».

الإمام كان يعلم بأنّ تلك مصيدة خطيرة كمنت فى طريقهم ورغم مخالفته لهذا العمل، وإصراره على مواصلة القتال، غير أنّه اجبر على التسليم للتحكيم، وهذا ما دفع بالبعض للإعتراض على الإمام على عليه السلام، وفحوى اعتراضهم إنّك نهيتنا عن التحكيم، واليوم تأمرنا به؟

فالخطبة ردّ على هذا الاعتراض وقد أشار الإمام عليه السلام إلى عدّة أمور فى إطار الجواب فقال أولًا: هذه نتيجة طبيعية لفعلكم وعدم تبعيتكم لإمامكم، فلو عملتم بما أمرتكم به وواصلتم القتال لما أصبحتم اليوم تعانون من هذه المشكلة، ثم بيّن الإمام نقاط ضعفهم التى أدّت إلى هذه المشكلة الكبيرة وفى المرحلة الثالثة ذكر طائفة من أوائل المسلمين فى صدر الإسلام كانت تهب مسرعة لتلبية نداء الجهاد ومواجهة العدو بفعل قوّة إيمانها، فكانت تنتصر دائماً (إشارة إلى أن طريق النصر ما سلكوه، لا ما أنتم عليه).

وأخيراً يعرض لهم بالنصح ثانية فى مراقبة أنفسهم والحذر من مصائد الشيطان.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۳۵

القسم الأول: الداء وليس الدواء

«هـذَا جَزَاءُ مَن تَرَكَ الْعُقْدَةَ! أَمَا وَاللَّهِ لَوْ أَنِّى حِينَ أَمَرْتُكُمْ بِهِ حَمَلْتُكُمْ عَلَى الْمَكْرُوهِ الَّذِى يَجْعَلُ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً، فَإِنِ اسْتَقَمْتُمْ هَدَيْتُكُمْ، وَإِنِ اعْوَجَجْتُمْ قَوَّمْتُكُمْ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ تَدَارَكْتُكُمْ، لَكَانَتِ الْوُثْقَى وَلكِنْ بِمَنْ وَإِلَى مَنْ؟ أُرِيدُ أَنْ أُدَاوِىَ بِكُمْ وَأَنْتُمْ دَائِى، كَنَاقِشِ الشَّوْكَةِ بِالشَّوْكَةِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ ضَلْعَهَا مَعَهَا! اللَّهُمَّ قَدْ مَلَّتْ أَطِبَّاءُ هذَا الدَّاءِ الدَّوِىِّ، وَكَلَّتِ النَّزَعَةُ بِأَشْطَانِ الرَّكِىِّ!».

الشرح والتفسير

ردّ الإمام عليه السلام بجواب قاطع على من اعترض عليه فى أنّ هذه المصيبة التى عصفت بكم إنّما أفرزها التحكيم وهذا جزاء من ترك الرأى السليم:

«هذَا جَزَاءُ مَن تَرَكَ الْعُقْدَةَ[۲۴۱]!».

لقد صرخت بكم أن واصلوا القتال ولا تتركوه فى هذه المرحلة الحساسة فالنصر قريب، لكنكم وليتم ظهوركم واستسلمتم لخدعة عمرو بن العاص، فأبيتم إلّاالتحكيم، كان مكر ابن العاص فى رفع المصاحف خدعة ظاهرها الإيمان وباطنها الكفر والنفاق على ضوء ما أخبر به الإمام عليه السلام فى الخطبة القادمة.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه وقد أقسم باللّه لو أجبرتكم على الجهاد- والذى لم يكن يروق لكم بينما فيه الخير الكثير- حين أمرتكم بقبول التحكيم (بفعل الاضطرار واصرار الجهّال) لكان خيراً لكم، فان سلكتم سبيل الحق هديتكم وإن انحرفتم أعدتكم إلى الصواب، ولو

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۳۶

تخلفت طائفة منكم لاستبدلتها بأخرى (على كل حال لو أطعتمونى فى مواصلة القتال) وهذا هو الحق الذى ليس بعده إلّاالضلال، لكن من المؤسف إنّكم لم تجيبونى، فبمن استظهر على العدو وبمن أثق؟

«أَمَا وَاللَّهِ لَوْ أَنِّى حِينَ أَمَرْتُكُم بِهِ حَمَلْتُكُمْ عَلَى الْمَكْرُوهِ الَّذِى يَجْعَلُ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً، فَإِنِ اسْتَقَمْتُمْ هَدَيْتُكُمْ، وَإِنِ اعْوَجَجْتُمْ قَوَّمْتُكُمْ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ تَدَارَكْتُكُمْ، لَكَانَتِ الْوُثْقَى وَلكِنْ بِمَنْ وَإِلَى مَنْ؟».

فالإمام عليه السلام قد بيّن بهذا الردّ القاطع حقيقة فى أنّ تيتى مواصلة الجهاد حتى تحقيق النصر، سيّما أننا على أعتاب النصر، وكنت مستعداً لمواصلة هذا الطريق بكل قوّة وعزم، ولذلك نهيتكم عن التحكيم، لكنكم أفراد ضعاف لا إرادة لكم وطغاة عصاة لستم مستعدين للقيام بهذا العمل، وعليه فلم يكن لى من سبيل سوى قبول التحكيم، والحال رجعتم الآن عن رأيكم وسوّلت لكم أنفسكم

الاعتراض عليّ.

ثم أعرب الإمام عليه السلام عن دهشته فقال:

«أُرِيدُ أَنْ أُدَاوِيَ بِكُمْ وَأَنْتُمْ دَائِی، كَنَاقِشِ الشَّوْكَةِ بِالشَّوْكَةِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ ضَلْعَهَا[۲۴۲] مَعَهَا!».

فالتشبيه المأخوذ من المثل المعروف تشبيه غايـة فی الدقـة والبلاغـة، فعادة ما يخرجون الشوكة التی تغوص فی الرجل بإبرة أو منقاش، فان اريد سلّها بشوكة أخرى احتمل أن تغوص الثانية فیالرجل أيضاً، فيزيد الطين بلّة حتى أصبح الأمر بصيغة مثل تعارف عند العرب حيث يقول:

«كَنَاقِشِ الشَّوْكَةِ بِالشَّوْكَةِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ ضَلْعَهَا مَعَهَا».

فالمثل يصرب لمن يحكم آخر لرفع الاختلاف بينه وبين شخص آخر والحال يرغب ذلك الفرد بزيادة العداوة والنزاع، فمراد الإمام عليه السلام إنّی اريد أن أدفع بكم عصاة الشام بينما أنتم العصاة الذين يجب تأديبهم، على كل حال، فانّ هذه العبارات التی تفيض معاناة تفيد مدى الوضع العصيب الذی شهده الإمام عليه السلام، فانّ أمرهم بالهجوم ومواصلة القتال خالفوه وقالوا:

عليك بالنزول لحكم القرآن، وإن طرح عليهم قضية التحكيم اعترضوا عليه بالقول: لم تسلّم لمنطق العدو؟ فلكل هواه ورأيه، ولكل فكره ونهجه، بحيث انتهى بهم الأمر إلى إتهام أعظم

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۳۷

إمام خلف رسول اللَّه صلى الله عليه و آله على أنّه ضعيف فیالتدبير، وليس ذلك إلّابسبب وجود فئة سيئة من الأتباع الضعاف، لم وكيف أصبح الأمر كذلك؟ كأنّ الحق سبحانه أراد امتحان الجميع بهذا الزعيم الفذ.

وأخيراً شكى الإمام وعرض حاجته إلى اللَّه سبحانه فقال: «اللَّهُمَّ قَدْ مَلَّتْ أَطِبَّاءُ هذَا الدَّاءِ[۲۴۳] الدَّوِیِّ، وَكَلَّتِ ۲۴۴] النَّزَعَةُ[۲۴۵] بِأَشْطَانِ ۲۴۶] الرَّكِی ۲۴۷]!».

ياله من تعبير بليغ وموجع فی نفس الوقت، فان أصيب شخص بمرض عضال ولم يجد معه نفعاً كل علاج يقدمه الطبيب المختص، فلا يشعر مثل هذا الطبيب سوى بالملل والإرهاق، على غرار الفلّاح الذی يجهد نفسه فی استخراج الماء من البئر ليسقى به الأرض المالحة فلا تخرج بالنبات، وهذا بالضبط حال الإمام على عليه السلام حين إبتلى بتلك العصابة من الجهّال المسلوبة الإيمان والإرادة لا خير يرتجى فيهم.

ورد فی الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ عيسى بن مريم عليه السلام قال:

«دَاوَيتُ المَرضى فَشَفَيتُهُم بِإذن اللَّهِ وأبرأتُ الأكمَهَ والأبرصَ بإذنِ اللَّهِ وعالَجتُ المَوتى فأحييتُهم بإذن اللَّهُ وَعَالَجتُ الأحمَقَ فَلَم أقدَرْ عَلَى إصلاحِهِ»[۲۴۸].

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۳۹

القسم الثانی: إخوتی فی الجهاد

«أَيْنَ الْقَوْمُ الَّذِينَ دُعُوا إِلَى الْإِسْلَامِ فَقَبِلُوهُ، وَقَرَءُوا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وَهِيجُوا إِلَى الْجِهَادِ فَوَلِهُوا وَلَهَ اللِّقَاحِ إِلَى أَوْلَادِهَا، وَسَلَبُوا السُّيُوفَ أَغْمَادَهَا، وَأَخَذُوا بِأَطْرَافِ الْأَرْضِ زَحْفاً زَحْفاً، وَصَفّاً صَفّاً. بَعْضٌ هَلَكَ، وَبَعْضٌ نَجَا. لَايُبَشَّرُونَ بِالْأَحْيَاءِ، وَلَا يُعَزَّوْنَ عَنِ الْمَوْتَى القتلى. مُرْهُ الْعُيُونِ مِنَ الْبُكَاءِ، خُمْصُ الْبُطُونِ مِنَ الصِّيَامِ، ذُبُلُ الشِّفَاهِ مِنَ الدُّعَاءِ، صُفْرُ الْأَلْوَانِ مِنَ السَّهَرِ. عَلَى وُجُوهِهِمْ غَبَرَةُ الْخَاشِعِينَ. أُولئِكَ إِخْوَانِی الذَّاهِبُونَ. فَحَقَّ لَنَا أَنْ نَظْمَأَ إِلَيْهِمْ، وَنَعَضَّ الْأَيْدِیَ عَلَى فِرَاقِهِمْ».

الشرح والتفسير

ذكر الإمام عليه السلام فی هذا المقطع من الخطبة أصحابه الشجعان من أهل الإيمان بهدف إثارة قدراتهم وقواهم وحثّهم على

الجهاد، کما ذمّهم علی ضعفهم وتقصیرهم، أصحابه الذین تألقوا فی ساحات الحرب حین قتالهم للأعداء وکذلک فی میدان الطاعة والعبودیة حیث کانوا سبّاقین فی هذه المیادین فقد قال:

«أَیْنَ الْقَوْمُ الَّذِینَ دُعُوا إِلَی الْإِسْلَامِ فَقَبِلُوهُ، وَقَرَءُوا الْقُرْآنَ فَأَحْکَمُوهُ، وَهِیجُوا[۲۴۹] إِلَی الْجِهَادِ فَوَلِهُوا[۲۵۰] وَلَهَ اللِّقَاحِ ۲۵۱] إِلَی أَوْلَادِهَا، وَسَلَبُوا السُّیُوفَ أَغْمَادَهَا[۲۵۲]، وَأَخَذُوا بِأَطْرَافِ الْأَرْضِ زَحْفاً زَحْفاً[۲۵۳]، وَصَفّاً صَفّاً. بَعْضٌ هَلَکَ، وَبَعْضٌ نَجَا».

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۱۴۰

دقیقة هی الأوصاف التی أوردها الإمام علیه السلام فی هذه العبارة لهم، فقد إبتدأها بالإیمان بالإسلام والفهم والإدراک الصحیح للقرآن والعمل به والذی الدافع الرئیسی للحرکة نحو الجهاد، ومن ثم عشقهم للجهاد الذی یشبه بعشق الام لولدها وولهها إلیه، ویثنی علی شجاعتهم حیث لم یفکروا قط فی إغماد سیوفهم والتراجع عن الجهاد، وأخیراً مدح مدی حرکتهم الجماعیة- والذین کانوا یحضرون فی المیدان فی أی موضع کانوا- والحق من یتحلی بهذه الصفات، فهو منتصر علی الدوام.

ثم واصل الکلام بالحدیث عن سائر صفاتهم حیث یکشف النقاب عن علوّ معنویاتهم ومدی زهدهم وخضوعهم وخشوعهم للّه‌تبارک وتعالی فقال: «لَا یُبَشَّرُونَ بِالْأَحْیَاءِ، وَلَا یُعَزَّوْنَ عَنِ الْمَوْتَی .

وهذه علامة علو روحیتهم حیث لم یکونوا بفکر قیود الحیاة المادیة، بحیث ینزعجون لفقد الأحبة أو یهنی أحدهم الآخر علی البقاء علی قید الحیاة، إنّهم یفخرون بالشهادة فی سبیل اللّه سبحانه ویرونها حلمهم فی نیل السعادة الاخرویة، ومن صفاتهم أیضاً:

«مُرْهُ ۲۵۴] الْعُیُونِ مِنَ الْبُکَاءِ، خُمْصُ ۲۵۵] الْبُطُونِ مِنَ الصِّیَامِ، ذُبُلُ ۲۵۶] الشِّفَاهِ مِنَ الدُّعَاءِ، صُفْرُ[۲۵۷] الْأَلْوَانِ مِنَ السَّهَرِ[۲۵۸]. عَلَی وُجُوهِهِمْ غَبَرَةُ الْخَاشِعِینَ».

نعم، فهم فی ساحات المعارک یزأرون کالأسد، وإن جن علیهم اللیل ارتفعت أصواتهم بالنحیب والبکاء وجرت دموعهم علی خدهم، هکذا هم فی الحالین.

ثم خلص الإمام علیه السلام بعد ذلک إلی الدرس والعبرة التی ینبغی الاحتذاء بها فقال:

«أُولئِکَ إِخْوَانِی الذَّاهِبُونَ. فَحَقَّ لَنَا أَنْ نَظْمَأَ إِلَیْهِمْ، وَنَعَضَّ الْأَیْدِیَ عَلَی فِرَاقِهِمْ».

لقد جرت عادة أرباب التربیة علی الاستشهاد بالنماذج البارزة القیّمة من أجل تهذیب الأفراد المطلوب تربیتهم لیتمکنوا من مقارنة أنفسهم بتلک النماذج فیحذو حذوهم، یقفون

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۱۴۱

علی أخطائهم فیهمون بتدارکها وإصلاح أنفسهم، وهذا هو الاسلوب الذی إعتمده الإمام علیه السلام فی إطار تربیته للأفراد، ولکن وللأسف لم یکن اولئک الأفراد آنذاک مستعدین لتقبل نصائحه ووصایاه وبرامجه التربویة، وبالطبع لا فائدة لأیمربّ ومعلم مهما کان بصیراً ومشفقاً ونموذجاً ما لم یکن هناک من إستعداد فی الطرف المقابل لتقبل أفکاره والاستجابة لها، فالأمطار المفعمة بالحیاة والخیر والبرکة تنزل علی کل مکان، ولکن لا تخرج الأرض المالحة إلّا الخبث ولا یسعها الاستفادة من تلک الأمطار، والشمس هی الأخری تضییء لکل ذی عینین، ولکن ماذا یسع الأعمی أن یری منها، والریاح المنعشة تهب فی کل مکان ولکن لا تنتفع بها قبور الموتی.

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۱۴۳

القسم الثالث: الحذار من وساوس الشیطان

«إِنَّ الشَّیْطَانَ یُسَنِّی لَکُمْ طُرُقَهُ، وَیُرِیدُ أَنْ یَحُلَّ دِینَکُمْ عُقْدَةً عُقْدَةً، وَیُعْطِیَکُمْ بِالْجَمَاعَةِ الْفُرْقَةَ، وَبِالْفُرْقَةِ الْفِتْنَةَ. فَاصْدِفُوا عَنْ نَزَغَاتِهِ وَنَفَثَاتِهِ، وَاقْبَلُوا النَّصِیحَةَ مِمَّنْ أَهْدَاهَا إِلَیْکُمْ، وَاعْقِلُوهَا عَلَی أَنْفُسِکُمْ».

الشرح والتفسير

إختتم الإمام عليه السلام خطبته بالحديث عن الشيطان كون وساوسه تمثل مصدر البؤس والشقاء، حيث حذر صحبه ومخاطبيه من هذا المكر وضرورة مراقبة الشيطان والإلتفات إلى طرق نفوذه، وقد بيّن ذلك على شكل خلاصة بأربع عبارات فقال:

«إِنَّ الشَّيْطَانَ يُسَنِّى ۲۵۹] لَكُمْ طُرُقَهُ».

ولما كان الشيطان يتبع الأساليب السياسية شيئاً فشيئاً فانّه يسعى لتقويض جموح الدين والقضاء على العقائد والأعمال الواحدة بعد الأخرى:

«وَيُرِيدُ أَنْ يَحُلَّ دِينَكُمْ عُقْدَةً عُقْدَةً»

، من ضمن برامجه وخططه أيضاً إيجاد الفرقة بدلًا من الإتحاد:

«وَيُعْطِيَكُمْ بِالْجَمَاعَةِ الْفُرْقَةَ»

، فيثير الفتن بواسطة هذه الفرقة:

«وَبِالْفُرْقَةِ الْفِتْنَةَ».

أجل أول برنامج للشيطان أن يبدى الطرق الوعرة والخطيرة معبدة سهلة فى نظر الإنسان، فيستقطب إليه الجميع من خلال المرونة والتساهل وتصوير طريق الطاعة على أنّه معقد خطير وصعب، فانّ سلك سبيله واتّبعه قاده كل يوم إلى ترك قانون من قوانين الشرع وعهد

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۴۴

من عهوده المقدّسة، وهو الأمر الذى أكده القرآن الكريم أربع مرّات محذراً من اتّباع الشيطان:

«وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ...»[۲۶۰].

وقال تعالى: «وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ...»[۲۶۱].

فان جعل الإنسان غير مكترث للأحكام الإلهيّة وسادت المجتمع الأهواء، آنذاك يستفيد من تضارب المصالح المادية والتعصبات الجاهلية ليدعو الناس إلى الفرقة، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم: «إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِى الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ...»[۲۶۲].

ومن الطبيعى إن اشتعلت نيران الفرقة والاختلاف والنفاق فى المجتمع استتبع ذلك ظهور الفتن، وممّا لا شك فيه فانّ دين الأفراد ودنياهم تتحطم بفعل تلك الفتن، ولعل هذا هو الأمر الذى أجراه الشيطان فى أحدث معركة صفين، فقد لقنهم الشيطان بادىء الأمر أن قبول التحكيم هو أسهل الطرق لبلوغ الصلح والاستقرار، ثم دعاهم للتمرد على أوامر المحكم أميرالمؤمنين على عليه السلام فى مجال الجهاد، آنذاك بث بذور الفرقة والنفاق بين صفوف الجيش حتى انتهى الأمر إلى فتنة عمرو بن العاص وأثرها فتنة الخوارج.

ثم قال الإمام عليه السلام بغية عدم سقوط أصحابه فى شباك الشيطان:

«فَاصْدِقُوا[۲۶۳] عَنْ نَزَغَاتِهِ ۲۶۴] وَنَفَثَاتِهِ ۲۶۵]، وَاقْبَلُوا النَّصِيحَةَ مِمَّنْ أَهْدَاهَا إِلَيْكُمْ، وَاعْقِلُوهَا[۲۶۶] عَلَى أَنْفُسِكُمْ».

ويصدق هذا الأمر فى عصرنا وزماننا، فالشيطان يرى طرقه المنحرفة سهلة وبسيطة بادىء الأمر، ويسحب الناس إليه، ثم يسلبهم القيم الإسلامية الواحدة بعد الأخرى، ثم يبث بينهم بذور الفرقة والخلاف، وأخيراً تقود الفرقة إلى اشتعال نيران الفتن السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۴۵

الخطبة[۲۶۷] والثانية والعشرون

اشارة

وَمِنْ كَلامٍ لهُ عليه السلام

قاله للخوارج، وقد خرج إلى معسكرهم و هم مقيمون

على إنكار الحكومة، فقال عليه السلام:

نظرة إلى الخطبة

كما ورد أعلاه فانّ هـذه الخطبة جانب من حديث الإمام عليه السـلام قبل معركة النهروان، ذكره الإمام حجّة عليهم، فكان لكلامه بالغ التأثير بحيث تاب أغلب الخوارج وتراجعوا عن القتال، فقـد قسـمهم الإمام عليه السـلام بادىء الأمر إلى فئتين، وقد فرق بين صـفوقهم، فئة شـهدت صـفين وأخرى لم تشـهدها، وفى القسم الثانى ذكّر أصـحاب الصـفين بأنّكم أنتم من فرضـتم علىَّ مسألة التحكيم، والحال كنت شديد المخالفة لذلك الأمر، وقد أمرتكم بمواصلة الجهاد حتى تحقيق النصر.

وفى القسم الثالث أشار إلى مسألة وهى إننا كنّا فى صدر الإسـلام نقاتل قرابتنا حين كانوا فى معسـكر الكفر من أجل نصر الدين، وأمّا الآن فالذى يقف فى المعسكر المقابل إخوتنا من

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۴۶

المسلمين الذين أخطأوا الطريق وقد اختلفت الظروف الشرائط، وعليه فانّ علينا أن ندفع الشبهة عنهم لتحل المشكلة.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۴۷

القسم الأول: كيف وقعتم فى فخ العدو

اشارة

«أَكُلُّكُمْ شَهِدَ مَعَنَا صِفِّينَ؟ فَقَالُوا: مِنَّا مَنْ شَهِدَ وَمِنَّا مَنْ لَمْ يَشْهَدْ. قَالَ:

فَامْتَازُوا فِرْقَتَيْنِ، فَلْيَكُنْ مَنْ شَهِدَ صِفِّينَ فِرْقَةً، وَمَنْ لَم يَشْهَدْهَا فِرْقَةً، حَتَّى أُكَلِّمَ كُلًّا مِنْكُمْ بِكَلَامِهِ. وَنَادَى النَّاسَ، فَقَالَ:

أَمْسِكُوا عَنِ الْكَلَام، وَأَنْصِتُوا لِقَوْلِى، وَأَقْبِلُوا بِأَفْئِدَتِكُمْ إِلَىَّ، فَمَنْ نَشَدْنَاهُ شَهَادَةً فَلْيَقُلْ بِعِلْمِهِ فِيهَا.

ثُمَّ كَلَّمَهُمْ عليه السلام بِكَلَامٍ طَوِيلٍ، مِنْ جُمْلَتِهِ أنْ قَالَ عليه السلام:

أَلَمْ تَقُولُوا عِنْـدَ رَفْعِهِمُ الْمَصَـاحِفَ حِيلَـةً وَغِيلَـةً، وَمَكْراً وَخَدِيعَـةً: إِخْوَانُنَـا وَأَهْـلُ دَعْوَتِنَا، اسْـتَقَالُونَا وَاسْتَرَاحُوا إِلَى كِتَـابِ اللَّهِ سُـبْحَانَهُ، فَالرَّأْىُ الْقَبُولُ مِنْهُمْ وَالتَّنْفِيسُ عَنْهُمْ؟ فَقُلْتُ لَكُمْ: هـذَا أَمْرٌ ظَاهِرُهُ إِيمَانٌ، وَبَاطِنُهُ عُـدْوَانٌ، وَأَوَّلُهُ رَحْمَـةٌ، وَآخِرُهُ نَدَامَةٌ. فَأَقِيمُوا عَلَى شَأْنِكُمْ، وَالْزَمُوا طَرِيقَتَكُمْ، وَعَضُّوا عَلَى الْجِهَـادِ بِنَوَاجِـذِكُمْ، وَلَا تَلْتَفِتُوا إِلَى نَاعِقٍ نَعَقَ: إِنْ أُجِيبَ أَضَلَّ، وَإِن تُـرِكَ ذَلَّ. وَقَـدْ كَانَـتْ هـذِهِ الفَعْلَـةُ، وَقَدْ رَأَيْتُكُمْ أَعْطَيْتُمُوهَـا. وَاللَّهِ لَئِنْ أَبَيْتُهَـا مَـا وَجَبَتْ عَلَىَّ فَرِيضَـتُهَا، وَلَـا حَمَّلَنِىَ اللَّهُ ذَنْبَهَـا. وَوَاللَّهِ إنْ جِئْتُهَا إِنِّى لَلْمُحِقُّ الَّذِى يُتَّبَعُ؛ وَإِنَّ الْكِتَابَ لَمَعِى، مَا فَارَقْتُهُ مُذْ صَحِبْتُهُ.»

الشرح والتفسير

كما ذكرنا سابقاً فانّ المخاطب بهـذه الخطبـة هم خوارج النهروان الـذين كلمهم الإمام عليه السـلام بهـذا الكلام لإتمام الحجّـة عليهم وهداية وإرشاد الفئة الضالة المنخدعة، فقال بادىء الأمر من

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۴۸

أجل إعدادهم:

«أَكُلُّكُمْ شَهِدَ مَعَنَا صِفِّينَ؟ فَقَالُوا: مِنَّا مَنْ شَهِدَ وَمِنَّا مَنْ لَمْ يَشْهَدْ».

رغم أنّ المدّة بين معركة صفين ومقاتلة خوارج النهروان لم تكن طويلة، لكن لا يعلم كيف اتصلت الفئة الثانية التى لم تشهد صفين بالفئة الأولى الباغية، وربّما أثرت عليها وساوس الفئة الأولى سمومها التى بثّتها بين أهل الكوفة فجعلتها تلتحق بها وتقف معها فى مواقفها الفاسدة.

ثم قال عليه السلام:

«فَامْتَازُوا فِرْقَتَيْنِ، فَلْيَكُنْ مَنْ شَهِدَ صِفِّينَ فِرْقَةً، وَمَنْ لَمْ يَشْهَدْهَا فِرْقَةً، حَتَّى أُكَلِّمَ كُلًّا مِنْكُمْ بِكَلَامِهِ».

فالعبارة تفيد أنّ المخاطبين بحديث مهم إن لم يكونوا على مستوى واحد فانّ الفصاحة والبلاغة تقتضى تمييزهم عن بعضهم والتحدث لكل بما يتناسب ووضعه، ليكون للكلام أثره المرجو والمطلوب، ومن هنا سلك الإمام عليه السلام هذا النهج:

«وَنَادَى النَّاسَ، فَقَالَ: أَمْسِكُوا عَنِ الْكَلَامِ، وَأَنْصِتُوا لِقَوْلِي، وَأَقْبِلُوا بِأَفْئِدَتِكُمْ إِلَيَّ، فَمَنْ نَشَدْنَاهُ ۲۶۸] شَهَادَةً فَلْيَقُلْ بِعِلْمِهِ فِيهَا».

فالذى يستفاد من هذه العبارة أنّ الخوارج أو جيش الإمام عليه السلام ممن حضر هناك، أو كلاهما، أنّهم كانوا مشغولين بالكلام مع بعضهم البعض الآخر، فقد دعاهم الإمام عليه السلام إلى الصمت والاستماع لما يقول والاقبال عليه بقلوبهم ليستعدوا للتفاعل مع الكلام، كما إختار من جمعهم بعض الشهود:

«ثُمَّ كَلَّمَهُمْ عليه السلام بِكَلَامٍ طَوِيلٍ، مِنْ جُمْلَتِهِ أنْ قَالَ عليه السلام:»[۲۶۹].

فقد أخذ الإمام عليه السلام أيديهم إلى الماضى القريب وذكّرهم بكبر أخطائهم وعظم معصيتهم وتمردهم، ثم خاطب الفرقة التى شهدت صفين:

«أَلَمْ تَقُولُوا عِنْدَ رَفْعِهِمُ الْمَصَاحِفَ حِيلَةً وَغِيلَةً[۲۷۰]، وَمَكْراً وَخَدِيعَةً: إِخْوَانُنَا وَأَهْلُ دَعْوَتِنَا، اسْتَقَالُونَا[۲۷۱] وَاسْتَرَاحُوا إِلَى كِتَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَالرَّأْيُ الْقَبُولُ مِنْهُمْ وَالتَّنْفِيسُ ۲۷۲] عَنْهُمْ؟».

بعد ذلك طرح الإمام عليه السلام ردّه على تلك الخدعة:

«فَقُلْتُ لَكُمْ: هذَاأَمْرٌ ظَاهِرُهُ إِيمَانٌ،

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۴۹

وَبَاطِنُهُ عُدْوَانٌ، وَأَوَّلُهُ رَحْمَةٌ، وَآخِرُهُ نَدَامَةٌ».

وعليه:

«فَأَقِيمُوا عَلَى شَأْنِكُمْ، وَالْزَمُوا طَرِيقَتَكُمْ، وَعَضُّوا عَلَى الْجِهَادِ بِنَوَاجِذِكُمْ، وَلَا تَلْتَفِتُوا إِلَى نَاعِقٍ نَعَقَ: إِنْ أُجِيبَ أَضَلَّ، وَإِن تُرِكَ ذَلَّ».

لكن مع الأسف فقد وقعت هذه الفتنة (التحكيم) ورأيتكم استجبتم لها، والآن قد ارتفع صوتكم بعد أن سقطتم فى الفتنة:

«وَقَدْ كَانَتْ هذِهِ الْفَعْلَةُ، وَقَدْ رَأَيْتُكُمْ أَعْطَيْتُمُوهَا».

حقّاً، إنّه لمن دواعى العجب! فقد عرضوا الإمام لأشد الضغوط فى اللحظات الأخيرة لتلك المعركة المصيرية والتى أشرفت على تحقيق النصر النهائى حتى فرضوا عليه الاستجابة لخدعه عمرو بن العاص وقبول التحكيم، بل أبعد من ذلك هددوه بالقتل إن لم يصدر أمره لمالك الأشتر بالانسحاب والفّ عن القتال، ولما زالت الحجب وتكشفت الأمور وبانت الخدعة توجهوا باللوم إلى الإمام عليه السلام لم قبلت التحكيم، بدلًا من العودة إلى نفوسهم والاعتذار والهم بإصلاح ما بدر منهم من أخطاء).

الجدير بالذكر فى هذا الأمر أنّ الإمام عليه السلام ميز الخوارج فى بداية الأمر إلى فرقتين، فرقة شهدت صفين وأخرى لم تشهدها، لتتضح قضية وهى إن تمرّت الفرقة الثانية بفعل جهلها وعدم إحاطتها بأحداث صفين، فما بالكم أنتم الذين شهدتم صفين وتابعتم الأحداث؟ فما المنطق والاسس التى دفعتكم للقدوم إلى النهروان؟ كيف تتهمونى بمسؤولية التحكيم؟

وهكذا أتمّ الحجّة عليهم وعلى اولئك الفريق الثانى الذى خدع بالفريق الأول ورافقه إلى الميدان، وليس هنالك أسوأ ممن لا يصغى

لكلام الناصح الأمين المشفق، فان أصابته مصيبة بما قدمت يداه نسب التقصير فيها إلى ذلك الناصح وجابهه بالإعتراض، نعم، هذا هو دين الأفراد البعيدين عن الانصاف والذين ينسون ما يصدر منهم من أفعال.

ثم أوضح الإمام عليه السلام حقيقة الموقف بصورة أخرى ليقسم بأنّه لو لم يقبل التحكيم لما كان عليه من مسؤولية فى الالتزام بلوازمها ولا يحملها اللّه سبحانه ذنبها ووزرها:

«وَاللَّهِ لَئِنْ أَبَيْتُهَا مَا وَجَبَتْ عَلَيَّ فَرِيضَتُهَا، وَلَا حَمَّلَنِيَ اللَّهُ ذَنْبَهَا».

إشارة إلى مراده: إن خالفت بشدّة مسألة التحكيم فى بداية الأمر فذلك لكى لا أكون مسؤولًا تجاه لوازمها ولا يلحقنى وزرها؛ لأنّ قضية التحكيم أدّت إلى تقوية حكومة

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۵۰

طواغيت الشام وذهبت بدماء شهداء صفين أدراج الرياح، فذلت دعاة الحق وأشعرتهم باليأس.

ثم قال عليه السلام إثر ذلك:

«وَوَاللَّهِ إنْ جِئْتُهَا إِنِّی لَلْمُحِقُّ الَّذِی يُتَّبَعُ؛ وَإِنَّ الْكِتَابَ لَمَعِي، مَا فَارَقْتُهُ مُذْ صَحِبْتُهُ».

إشارة إلى أنّه حين رأيت ما وقع بينكم من شقاق فى مسألة التحكيم يتطلب أن أمنعه، وبخلافه لنازع أحدكم الآخر وشهر السيف فى وجه صاحبه ولقاد ذلك الأمر إلى فضيحة كبرى، وهنا شعرت بالاضطرار لقبول التحكيم.

أضف إلى ذلك فلو فوضتم التحكيم إلى من هو عالم به ولا- يفارقه ومحيط بمضمونه ولم تتجهوا صوب فرد بسيط وجاهل كأبى موسى الأشعرى، لفشلت تلك المؤامرة وخمدت الفتنة، وإن كان فيها من ضرر فهو جزئى محدود، لكنكم فرضتم علىَّ التحكيم وكذلك أجبرتمونى على تحكيم أبى موسى الأشعرى، فسقطتم فى هذه الفتنة وتكبدتم كل هذه الأضرار فما تقولون بهذا الخصوص؟ فهل علىَّ أن أتحمل مسؤولية تقصيركم؟ وأدفع ثمن جريمتكم؟ والذى نخلص إليه مّا مرّ معنا من كلام:

۱- أنّ الإمام عليه السلام أقسم مرّتين فى هذا المقطع من كلامه، سيّما فى القسم الثانى الذى أردفه بالتوكيد ليبيّن بعده كل البعد عن أدنى تقصير.

۲- ما بيّنه الإمام عليه السلام فى القسمين المذكورين ليس فيه ما يدلّ على ترديده فى مسألة للتحكيم، بل إشارة إلى حالتين مختلفتين، فقد كان مخالفاً بشدّة فى البداية، لأنّه كان يعتبرها مكر وحيلة خطيرة، ولما اختلف جيشه وصحبه، وأبى الأعم الأغلب منهم إلّاالتحكيم، استجاب للتحكيم دفعاً للفتنة وإبعاداً للفرقة والشقاق، وعليه فقد كانت مخالفته فى بداية الأمر وموافقته تستند إلى الحكمة، وبغض النظر عمّا سبق لو لم يصرّ ذلك الفريق الجاهل على تحكيم ذلك العنصر الفاسد كأبى موسى الأشعرى لما كانت المشاكل بذلك الحجم، فذلك الإصرار الفض هو الذى أدّى إلى عقم نتائج معركة صفين والامتياز الذى حصل عليه أعداء الإسلام، وبناءاً على هذا فانّ هذه الفئة المتعصبة أخذت تفقد مواضعها الواحد بعد الآخر حتى انتهت إلى ذلك المصير الأسود، والعجيب أنّهم استجيب للتحكيم؟!

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۵۱

لكن وعلى كل حال، فانّ منطق الإمام عليه السلام بهذا الخصوص قد أتى أكله فعادت طائفة عظيمة من الخوارج إلى نفسها فتابت وكفت عن القتال، حتى صرّحت كتب التاريخ بأنّ الأغلبية الساحقة من الخوارج قد تابت ووقفت على عظيم زلّتها.

نبذة عن شخصية معاوية

إنّ الأعمال التى مارسها معاوية طيلة تاريخ حياته ولا سيما فى مدّة حكومته لتكشف حقيقة واضحة لكل فرد منصف فى أنّه لم يفكر بارساء العدل بين المسلمين، ولم يكن يهمّ بنشر الإسلام، بل كان جلّ همّه ترسيخ دعائم حكومته المتزلزلة، ومن هنا فقد اعتمد كافة

الأساليب التى يلجأ إليها جبابرة الـدنيا من أجل ترسيخ حكوماتهم، وأبسط نموذج يمكن الإشارة إليه فى هذا المجال إنّما يتمثل برفعه لقميص عثمـان فى الشـام وذرف دموع التماسيح على الخليفـة المقتول ظلمـاً بهـدف إثـارة النـاس للتمرد على أميرالمؤمنين على عليه السـلام وسـفك دماء المسـلمين، إلى جانب إغـداق الرشاوى الضـخمة على زعماء القبائل، بل حتى بعض قواد جيش الإمام على عليه السلام وإيجاد الفرقة والخلاف بينهم وبين سائر الناس.

وكـذلك توجيه الأـراذل إلى مختلف نواحى البلاـد الإسـلامية لنهب الثروات وإشاعـة أجواء التوتر القلق. ولعل قضـية رفع المصاحف وحملها على أسنة الرماح تعدّ واحدة من تلك الأساليب، فمعاوية لم يكن مستعداً لقبول حكم القرآن الكريم، كما لم يكن مهتماً بهذا الأمر، وكل ما يفكر فيه هو الحكومة، كما ذكر شـرّاح نهج البلاغة أنّ معاوية قام بوجه أميرالمؤمنين على عليه السـلام فى البداية تحت شعار الطلب بـدم عثمان، إلّاأنّه لم يصـطدم قط بقتلـة عثمان بعـد ظهوره عليهم، فقـد كان يقول أحياناً، ألست من قتلـة عثمان؟ وأحياناً أخرى كـان يسـكت، ويغـدق عليهم العطاء (هـذا ما نقله العقاد فى كتاب «معاويـة» ونقل عبـدالكريم الخطيب عن كتاب «على بن أبى طالب عليه السلام» أنّ عائشة بنت عثمان طالبت معاوية بالقصاص من قتلة أبيها.

فأجابها معاوية:

«لأنْ تَكُونِى إِبنَةُ عَمٍّ أَمِير المُؤمِنِينَ خَيرٌ مِنْ أنْ تَكونِى امرأَةٌ مِنْ عَرضِ النّاسِ»

مراده أنّ قضية الطلب بَدِمِ عثمان قد انتهت، وكان الهدف منها الاستيلاء على

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۵۲

حكومـة وقـد حصل هـذا الأمر، ولعل المطالبـة بـدم عثمان تهدد كياننا، وما عليك إلّاالإكتفاء والقناعة بأنّك ابنة عمى، ابنة عم حاكم المسلمين طبعاً، يمكن التعرف على شخصية معاوية من خلال مقربيه، فقد ذكر العقاد، أنّ عمرو بن العاص قال يوماً لمعاوية:

«أتَرى أَننا خالَفنا عَلِياً لِفَضلِنا؟ لاوَاللَّهِ إنْ هِى إلّا الدُّنيا نَتَكَالَبُ عَلَيها»

، أى ولم يكن الحديث عن الإسلام والقرآن سوى الذريعة.

وذكر ابن الأثير أن سعد بن أبى وقاص قال لمعاوية:

«السَّلامُ عَلَيكَ أَيُّها المَلِك».

فقال معاوية:

«لِمَ لَم تُسَلِّم عَلَىَّ بأمير المؤمِنينَ».

فأجاب سعد قائلًا:

«وَاللَّهِ إنِّى ما أُحِبُّ إن وَلَّيتُها بِما وَلَّيتَها».

ومراده أنّك ولّيتها بالمكر والحيلة[۲۷۳].

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۵۳

القسم الثانى: بذلنا ما فى‌الوسع من أجل الوحدة

«فَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَإِنَّ الْقَتْلَ لَيَدُورُ عَلَى الْآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ وَالْإِخْوَانِ وَالقَرَابَاتِ الأقرباء، فَمَا نَزْدَادُ عَلَى كُلِّ مُصِيبَةٍ وَشِدَّةٍ إلَّا إيمَاناً، وَمُضِيّاً عَلَى الحَقِّ، وَتَسْلِيماً لِلْأَمْرِ، وَصَبْراً عَلَى مَضَضِ الجِرَاح. وَلكِنَّا إِنَّمَا أَصْبَحْنَا نُقَاتِلُ إِخْوَانَنَا فِى الْإِسْلَامِ عَلَى مَا دَخَلَ فِيهِ مِنَ الزَّيْغِ وَالاعْوِجَاجِ، وَالشُّبْهَةِ وَالتَّأْوِيلِ. فَإِذَا طَمِعْنَا فِى خَصْلَةٍ يَلُمُّ اللَّهُ بِهَا شَعَثَنَا، وَنَتَدَانَى بِهَا إِلَى الْبَقِيَّةِ فِيمَا بَيْنَنَا، رَغِبْنَا فِيهَا، وَأَمْسَكْنَا عَمَّا سِوَاهَا».

الشرح والتفسير

يختتم الإمام عليه السلام خطبته بالإجابة المنطقية لأصحاب الخوارج، فقد قالوا: لِمَ استجاب الإمام عليه السلام إلى التحكيم؟ لَم لا نقاتل الأعداء إلى آخر نفس على غرار ما فعله المسلمون من صحابة النبى صلى الله عليه و آله فى صدر الإسلام؟ هل أذعن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله لمسألة التحكيم؟ فقد أوضح الإمام عليه السلام حقيقة فى إجابته على اولئك بأنّ زماننا يختلف تماماً عن زمان النبى صلى الله عليه و آله، ومن نقاتلهم الآن طائفة من المسلمين المخدوعين، والحال كان أعداؤنا فى صدر الإسلام هم الكفّار والمشركون الذين وقفوا بوجه الإسلام.

فقد قال عليه السلام:

«فَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَإِنَّ الْقَتْلَ لَيَدُورُ عَلَى الْآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ وَالْإِخْوَانِ وَالقَرَابَاتِ الأقرباء، فَمَا نَزْدَادُ عَلَى كُلِّ مُصِيبَةٍ وَشِدَّةٍ إِلَّا

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۱۵۴

إِيمَاناً، وَمُضِيّاً عَلَى الحَقِّ، وَتَسْلِيماً لِلْأَمْرِ، وَصَبْراً عَلَى مَضَضِ ۲۷۴] الجِرَاحِ».

نعم، لقد كنّا نهجم بشدّة آنذاك على العدو، وإن كان فيهم إخواننا وقرابتنا، فالمصاب وإن عظم علينا، لكن حيث كان ذلك يأمر فقد كنّا نزداد إيماناً، ولم نجابه كل مصائب المعارك وجراحاتها إلّابالصبر والشكر:

«وَلكِنَّا إِنَّمَا أَصْبَحْنَا نُقَاتِلُ إِخْوَانَنَا فِى الْإِسْلَام عَلَى مَا دَخَلَ فِيهِ مِنَ الزَّيْغِ وَالاعْوِجَاجِ، وَالشُّبْهَةِ وَالتَّأْوِيلِ. فَإِذَا طَمِعْنَا فِى خَصْلَةٍ يَلُمُ ۲۷۵] اللَّهُ بِهَا شَعَثَنَا[۲۷۶]، وَنَتَدَانَى بِهَا إِلَى الْبَقِيَّةِ فِيما بَيْنَنَا، رَغِبْنَا فِيهَا، وَأَمْسَكْنَا عَمَّا سِوَاهَا».

فقد أشار الإمام عليه السلام فى هذه العبارة إلى أن قياس زمانه بزمان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله هو قياس مع الفارق، وذلك لأنّ القتال ذلك الزمان كان يدور مع العدو الخارجى، بينما أصبح زمان الإمام عليه السلام ضد الأصدقاء المخدوعين والمنحرفين من الداخل، فالواقع يستند موقف الإمام عليه السلام فى قبول التحكيم إلى الآية الشريفة: «وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى حَتَّى تَفِىءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ»[۲۷۷].

صحيح أنّ أصل مسألة التحكيم خدعة ولم يكن أمراء جيش الشام يعتقدون بالقرآن، ولهذا السبب كان الإمام شديد المخالفة فى بادىء الأمر، لكنّه استجاب لذلك الأمر بعد ذلك الضغط الشديد الذى مارسه السواد الأعظم المخدوع من جيشه مع ذلك كان بالإمكان أن تتمخض مسألة التحكيم عن نتائج مرضية لو خضعت لقيادة سليمة، ولكن كما نعلم فانّ ضغوط الجهّال قد دفعوا التحكيم إلى مسار لا يجر عليهم سوى الضرر والخسارة.

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۱۵۵

الخطبة[۲۷۸] المائة والثالثة والعشرون

اشارة

وَمِنْ كَلامٍ لهُ عليه السلام

قاله لأصحابه فى ساحة ساعة الحرب «بصفِّين»

نظرة إلى الخطبة

هذه الخطبة جزء من خطبه طويلة إقتطف المرحوم السيد الرضى بعضها، وقد تضمنت إشارة إلى بعض النقاط المهمّة، وهى:

۱- يجب على الأفراد الذين يتمتعون بقدرات فائقة فى القتال أن يدافعوا ويشدوا من أزر الضعاف.

۲- إنّ الأفراد الذين يهربون من الجهاد خشية الموت هم على خطأ، لأنّه لا يمكن الفرار من الموت الذى يدرك الجميع أينا كانوا.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۵۶

۳- لا موت أشرف وأكرم من الشهادة، فألف ضربة بالسيف خير من ميتة على الفراش.

۴- إخبار عن هوان أهل الكوفة وذلّهم فى المستقبل بسبب وهنهم وضعفهم فى مواجهة الظلمة.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۵۷

القسم اول: شكر القدرة

اشارة

«وَأَىُّ امْرِئً مِنْكُمْ أَحَسَّ مِنْ نَفْسِهِ رَبَاطَةَ جَأْشٍ عِنْدَ اللِّقَاءِ، وَرَأَى مِنْ أَحَدٍ مِنْ إِخْوَانِهِ فَشَلًا، فَلْيَذُبَّ عَنْ أَخِيهِ بِفَضْلِ نَجْدَتِهِ الَّتِى فُضِّلَ بِهَا عَلَيْهِ كَمَا يَذُبُّ عَنْ نَفْسِهِ، فَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُ مِثْلَهُ. إِنَّ الْمَوْتَ طَالِبٌ حَثِيثٌ لَايَفُوتُهُ الْمُقِيمُ، وَلَا يُعْجِزُهُ الْهَارِبُ. إِنَّ أَكْرَمَ الْمَوْتِ الْقَتْلُ! وَالَّذِى نَفْسُ ابْنِ أَبِى طَالِبٍ بِيَدِهِ، لَأَلْفُ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ أَهْوَنُ عَلَىَّ مِنْ مِيتَةٍ عَلَى الْفِرَاشِ فِى غَيْرِ طَاعَةِ اللَّهِ!».

الشرح والتفسير

يشتمل هذا الكلام- سواء أورده الإمام عليه السلام على أعتاب معركة الصفين كما ورد آنفاً أو حسبما صرّح به بعض المحققين على هامش معركة الجمل بعد ضجة معسكر عائشة، أو فى المعركتين وذلك لأنّه يتناسب مع كل مهما- على نقاط مهمّة وردت ثلاث منها فى هذا القسم من الخطبة:

الاولى: لزوم التنسيق بين أفراد الجيش بحيث يتولى الأقوياء الدفاع عن الضعفاء للحدّ من جسامة الخسائر، فقد قال عليه السلام:

«وَأَىُّ امْرِئً مِنْكُمْ أَحَسَّ مِنْ نَفْسِهِ رَبَاطَةَ[۲۷۹] جَأْشٍ عِنْدَ

اللِّقَاءِ، وَرَأَى مِنْ أَحَدٍ مِنْ إِخْوَانِهِ فَشَلًا، فَلْيَذُبَّ عَنْ أَخِيهِ بِفَضْلِ نَجْدَتِهِ ۲۸۰] الَّتِى فُضِّلَ بِهَا

عَلَيْهِ كَمَا يَذُبُّ عَنْ نَفْسِهِ».

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۵۸

ثم أضاف عليه السلام:

«فَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُ مِثْلَهُ».

فان وهبه القوّة والصلابة فقد وجب عليه الشكر، والمراد أنّ أفعال اللَّه وإن استندت إلى الحكمة جميعاً، مع ذلك فمن تمتع بنعم كثيرة وجب عليه الشكر بافاضتها على الآخرين ليؤدّى بذلك الشكر العملى للنعمة.

والثانية: لو لم يكن هناك من تنسيق بين العسكر فانّ ذلك يؤدّى إلى إحباط الجميع، وذلك لأنّ العدو إنّما يهجم على الجانب الذى يشعر بضعفه، فانّ اخترقه وقضى عليه، إلتفّ ليحاصر باقى العسكر، وعليه وإضافة لمسألة الشكر فانّ فنون القتال وسياسة المعركة تتطلب من الأجنحة القوية من العسكر شد ظهور الأجنحة الضعيفة وعدم التوانى فى الدفاع عنها، بحيث لا تسدد إليها ضربات العدو، ولا سيّما إذا استطاع العدو أن يشلّ حركة طائفة من الجيش، فانّه سيتمكن من تحطيم معنويات الجميع.

ثم إتجه الإمام عليه السلام صوب نقطة مهمّة أخرى وهى ضرورة ألا يتصور أحد أنّه يستطيع الفرار من مخالف الموت، فهو يدرك المقيم والمنتظر والهارب:

«إِنَّ الْمَوْتَ طَالِبٌ حَثِيثٌ لَايَفُوتُهُ الْمُقِيمُ، وَلَا يُعْجِزُهُ الْهَارِبُ».

وهنا يطرح هذا السؤال نفسه: الموت على نوعين: موت حتمى، وموت معلّق أو مشروط، والذى لا يمكن تغييره هو الموت الحتمى، أمّا الموت المشروط، فهو قابل للتغيير على ضوء تغير الظروف والشرائط، ولعل الموت فى ساحة القتال ليس من الموت الحتمى فكيف إستدل الإمام عليه السلام بهذه المسألة وقال بشأن الموت لا يفوته المقيم ولا يعجزه الهارب.

ويمكن الإجابة عن هذا السؤال بوجهين:

الأول: هو أنّ الإمام عليه السلام ناظر للموت الحتمى فقط سواء فى ساحة القتال أو غير ساحة القتال فلا يمكن إجتنابه.

والثانى: على فرض أنّ الإنسان يستطيع الهروب من مخالب الموت المشروط أو المعلّق، ولكن ما جدوى ذلك؟ فالموت الحتمى بالتالى سيدرك جميع الأفراد دون استثناء، فلا ينبغى للإنسان أن يستسلم للظلمة فى مقابل البقاء عدّة أيّام ٢٨١].

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۵۹

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطة مهمّة وقيّمة فقال:

«إِنَّ أَكْرَمَ الْمَوْتِ الْقَتْلُ! وَالَّذِى نَفْسُ ابْنِ أَبِى طَالِبٍ بِيَدِهِ، لَأَلْفُ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ أَهْوَنُ عَلَىَّ مِنْ مِيتَةٍ[٢٨٢] عَلَى الْفِرَاشِ فِى غَيْرِ طَاعَةِ اللَّهِ!».

فالعبارة تفيد عظمة مقام الشهداء إلى درجة أنّ الإمام عليه السلام يعرب عن إستعداده لتحمل ألف ضربة بالسيف يؤثرها على ميتة الفراش الطبيعية، وهذا هو لسان حال أو قال جميع المؤمنين المخلصين والشجعان الذين يعشقون طريق الحق، طبعاً لا تعنى العبارة أنّى لا أشعر بألم ضربات السيف- كما ذهب إلى لذلك بعض شرّاح نهج البلاغة- بل المراد أنّ الأولى بالإنسان من حيث الجانب المعنوى أن يفتح صدره لتحمل أقسى الضربات بدلًا من الموت الطبيعى على الفراش، لأنّ وسام الشهادة يجعل الإنسان يتحمل الألم والمعاناة، ولا ننسى هنا الروايات التى صرّحت بأنّ الإنسان بحكم الشهيد إن مات على الفراش على سلامة من دينه، وهو الأمر الذى أشار إليه الإمام عليه السلام فى آخر العبارة.

الشهادة عرس الأبطال

الشهادة من القيم السامية التى تضمنتها الثقافة الإسلامية، والشهيد يمثل قمة المرتبة الإنسانية، وأولياء اللّه كما أورد الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة يفكرون دائماً بالشهادة ويأبون الموت طبيعياً على الفراش، ويرون الشهادة أفضل ألف مرّة من ميتة على فراش، وكانوا مستعدين لتلقى آلاف الضربات والفوز بالشهادة دون الموت على الفراش، وذلك لأنّ روح الإنسان أعظم هدية إلهيّة، وما أروع أن تبذل هذه الهدية فى سبيل اللّه سبحانه، لا أنّ تذهب هدراً فى الموت.

ويكفى فى فضل الشهادة ما ورد فى حيث النبى الأكرم صلى الله عليه و آله حين شاهد فرداً يدعو اللّه تعالى قائلًا:

«اللّهُمّ إِنِّى أسأَلُكَ خَيرَ ما تُسأَلُ فَاعطِنِى أَفضلَ ما تُعطِى».

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۶۰

فقال صلى الله عليه و آله:

«إنْ استُجِيبَ لَکَ اهرِيقَ دَمُکَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ»[۲۸۳].

كما ورد فى حديث آخر عنه صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«ما مِنْ أَحَدٍ يَدخُلُ الجَنَّةَ فَيتَمنّى أنْ يَخْرُجَ مَنها إلّا الشَّهِيدُ فَإِنَّهُ يَتمنّى أنْ يَرجَعَ فَيُقتَلَ عَشْرَ مَرّلتٍ مِمّا يَرى مِنْ كَرامَةَ اللَّهِ»[۲۸۴].

نعم، مقام الشهداء رفيع جدّاً فى التعاليم الإسلامية، وهم الذين حفظوا الإسلام حين الخطر، ولولا تضحيات الشهداء كشهداء بدر واحد وشهداء كربلاء لما بقى من الإسلام اليوم شيئاً سوى اسمه، ويعيش أعداء الإسلام اليوم حالة من الرعب إزاء الشهادة وفلسفتها فى الإسلام، وذلك لأنّ الشهيد قد يبدد فى لحظات مخططات الأعداء وبرامجهم التى تستوعب تكاليفاً باهضة.

أضف إلى ذلك فهم لا ـ يمتلكون أى سلاح يمكنهم من مواجهة هذا السلاح، سمع أخيراً أنّ الدوائر الصيهوينة وإثر عجزها عن مواجهة انتفاضة الشعب الفلسطينى، قد أكدت على ضرورة إجتثاث جذور ثقافة التفكير بالشهادة، لابدّ من اسقاط مفردة الشهادة من كتاب الدراسة المتوسطة والثانوية، كما لابدّ من إزالة الآيات القرآنية المتعلقة بالشهادة من الكتب الدينية، ومن المؤكد أنّ البلدان الإسلامية العميلة وما أكثرهم قد ساروا على هذا النهج، وقد اصطلحوا على الشهادة بالإنتحار والشهيد بالإرهابى لتشويه هذه المفردة الطيبة، لكن ولحسن الحظ فانّ هذه الثقافة قد إتسعت وترسخت بحيث لا يسع هذه الدعايات الوقوف بوجهها، حتى سارع إليها العديد من الشباب والشابات، وهذا ما يشكل أعطم خطر على أعداء الإسلام، نأمل أن يتعرف المسلمون أكثر فأكثر على هذه القيمة السامية التى تدعو إلى الفخر والاعتزاز.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۶۱

القسم الثانى: عاقبة السوء

و منه: «وَكَأَنِّى أَنْظُرُ إِلَيْكُم تَكِشُّونَ كَشِيشَ الضِّبَابِ: لَاتَأْخُذُونَ حَقّاً، وَلَا تَمْنَعُونَ ضَيْماً. قَدْ خُلِّيتُمْ وَالطَّرِيقَ، فَالنَّجَاةُ لِلْمُقْتَحِمِ، وَالْهَلَكَةُ لِلْمُتَلَوِّمِ».

الشرح والتفسير

يرى البعض من شرّاح نهج البلاغة أنّ هذا الكلام مستقل، ومن هنا ذكره بصورة مستقلة، بينما يراه البعض الآخر استمرار للكلام السباق، فمن ذكره بصورة مستقلة استدلّ بعدم وجود إرتباط بين هذا المقطع والمقطع السابق، حيث حث الإمام عليه السلام أصحابه فى المقطع السابق على الجهاد والقتال ببسالة، بينما جرى الكلام فى هذا المقطع عن الهزيمة والفرار، وليس هنالك من إنسجام بين هذين المقطعين، ولكن بالنظر إلى أنّ هذا المقطع يخبر عن المستقبل، وهو المستقبل الذى لا ـ يكون فيه الإمام عليه السلام بين ظهرانيهم ويشهدون حالة من الفرقة والتشتت والضعف والهوان والذلّة، وعليه يمكن تصور إرتباط بين هذا المقطع وسابقه.

ولكن على حال سواء كان هذا المقطع مستقل أم مرتبطاً، فهو كلام الإمام عليه السلام ويخبر عن المصير المرير لأفراد يوثرون العافية والدعة على الجهاد، فقال:

«وَكَأَنِّى أَنْظُرُ إِلَيْكُمْ تَكِشُّونَ كَشِيشَ الضِّبَابِ ۲۸۵]».

فالعبارة يمكن أن تكون إشارة إلى الحيوانات المعروفة الضباب جمع ضب بالكسر والتى إن تحركت بصورة جماعية اضطربت وإحتك بعضها بالبعض الآخر فيظهر من هذا الاحتكاك

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۶۲

صوتاً، والمراد أنّكم اضطربتم حين الفرار، بحيث إندك بعضكم بالبعض الآخر وقد انبعث صوت اضطرابكم.

ثم قال عليه السلام:

«لَا تَأْخُذُونَ حَقّاً، وَلَا تَمْنَعُونَ ضَيْماً[۲۸۶]».

أى حال أسوأ من أن يصبح الإنسان على درجة من الضعف والعجز بحيث لا يستطيع الدفاع عن حقّه أو عن صحبه وقرابته وإخوته فى الدين، كما لا يستطيع الوقوف بوجه الظلم الذى يوجه إليه وإلى الآخرين، حقّاً إنّها لحالة مؤلمة مهينة.

ثم إختتم خطبته بالقول:

«قَدْ خُلِّيتُمْ وَالطَّرِيقَ، فَالنَّجَاةُ لِلْمُقْتَحِمِ، وَالْهَلَكَةُ لِلْمُتَلَوِّمِ ۲۸۷]».

فالعبارة قد خليتم والطريق تشير إلى إتمام الحجة الكاملة، فقد بيّن الطريق إلى الهدف بكل وضوح من قبل زعيم عالم، وقد زالت الموانع التى تحول دون سلوكه، وعليه فلن تعد هناك من حجة لمن يقصّر فى هذا الطريق، ولذلك بشر سالكين هذا الطريق بالسعادة،

بینما هدد المتباطیء بالهلکة.

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۱۶۳

الخطبة[۲۸۸] المأة و الرابعه والعشرون

اشارة

ومِنْ کَلام لهُ علیه السلام

فی حث أَصحابه علی القتال

نظرة إلی الخطبة

وردت هـذه الخطبة کما یفهم من عنوانها بشأن حث الإمام علیه السـلام لأصـحابه علی الجهاد، وذلک لأنّه حسب تصـریح شـرّاح نهج البلاغة أنّها وردت قبل معرکة صفین، ومن هنا تضمنت إشارة إلی بعض الأمور المهمّة:

۱- ذکر الإمام علیه السـلام فی هذه الخطبة مطالب دقیقة بخصوص فنون القتال وانتخاب أفضل السـبل فی مجابهة العدو، بحیث یمکن التوصل إلی النتائج بأقلّ الخسائر.

۲- حـذر أصـحابه فی المقطع الآخر من الخطبـة وضـمن مدحه لمقاتلیه من الفرار الذی یسـتتبع الفضـیحة والعار، کما یتطرق إلی ذکر مقامات الشهداء.

۳- یلعن فی المقطع الثالث أعدائه ویقوی عن هذا الطریق عزائم أصحابه المجاهدین.

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۱۶۵

القسم الأول: سبع وصایا فی فنون القتال

«فَقَدِّمُوا الـدَّارِعَ، وَأَخِّرُوا الْحَاسِـرَ، وَعَضُّوا عَلَی الْأَضْـرَاسِ، فَـإِنَّهُ أَنْبَی لِلسُّیُوفِ عَنِ الْهَـامِ؛ وَالْتَوُوا فِی أَطْرَافِ الرِّمَـاحِ، فَإِنَّهُ أَمْوَرُ لِلْأَسِـنَّهِٔ؛ وَغُضُّوا الْأَبْصَـارَ، فَإِنَّهُ أَرْبَطُ لِلْجَأْشِ، وَأَسْـکَنُ لِلْقُلُوبِ؛ وَأَمِیتُوا الْأَصْوَاتَ، فَإِنَّهُ أَطْرَدُ لِلْفَشَلِ. وَرَایَتَکُمْ فَلَا تُمِیلُوهَا وَلَا تُخِلُّوهَا، وَلَا تَجْعَلُوهَا إِلَّا بِأَیْدِی شُـجْعَانِکُمْ، وَالْمَـانِعِینَ الـذِّمَارَ مِنْکُـمْ، فَـإِنَّ الصَّابِرِینَ عَلَی نُزُولِ الْحَقَـائِقِ هُمُ الَّذِینَ یَحُفُّونَ بِرَایَـاتِهِمْ، وَیَکْتَنِفُونَهَـا: حِفَافَیْهَـا، وَوَرَاءَهَا وَأَمَامَهَا؛ لَا یَتَأَخَّرُونَ عَنْهَا فَیُسْـلِمُوهَا، وَلَا یَتَقَدَّمُونَ عَلَیْهَا فَیُفْرِدُوهَا. أَجْزَأَ امْرُؤٌ قِرْنَهُ، وَآسَی أَخَاهُ بِنَفْسِهِ، وَلَمْ یَکِلْ قِرْنَهُ إِلَی أَخِیهِ، فَیَجْتَمِعَ عَلَیْهِ قِرْنُهُ وَقِرْنُ أَخِیهِ».

الشرح والتفسیر

یری بعض کبار المحدثین أنّ هذه الخطبة تبتدأ کالآتی:

«إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجـلَّ دَلَّکُم عَلَی تِجـارَهٍٔ تُنجِیکُم مِنْ عَـذابٍ أَلِیم وَتُشـفِی بِکُم عَلَی الخَیرِ الإِیمـانُ بِـاللَّهِ وَالجِهادُ فِی سَبِیلِ اللَّهِ وَجَعَلَ ثَوابَهُ مَغفِرَهًٔ لِلـذَنْب وَمَساکِنَ طَیِّبَهًٔ فِی جَنَّاتِ عَدْنٍ وَقَالَ عَزَّ وَجلَّ: «إِنَّ اللَّهَ یُحِبُّ الَّذِینَ یُقَاتِلُونَ فِی سَبِیلِهِ صَـفّاً کَأَنَّهُمْ بُنیَانٌ مَرْصُوصٌ»[۲۸۹] فَقَدِّمُوا الدَّارِعَ ...»[۲۹۰].

ثم أشار فی مواصلته لهذا الکلام إلی سبع وصایا هامّهٔ فی فنون تحقیق النصر، فقال فی

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۱۶۶

وصیّته الاولی بهذا الشأن: «فَقَدِّمُوا الدَّارِعَ ۲۹۱]، وَأَخِّرُوا الْحَاسِرَ[۲۹۲]».

فمن الطبيعى أن يكون قليلًا هو الضـرر الذى يتعرض له من يلبس الدرع بفعل السـهام والسيوف، ومن هنا لا يسع العدو السيطرة عليهم، ومن لم يتدرع يمكنه أن يواصل قتاله وهجماته من خلفهم، والذى يستفاد من هذه العبارة وجود فئة فى ميدان القتال لم ترتدى الدرع، وذلك إمّا يعود إلى الأزمات والمشاكل التى يعيشـها المجتمع الإسـلامى، أو أنّ إرتداء الدرع كان يثقل على البعض ويعيق حركته فى ميدان القتال، ولذلك كان الأشداء من المقاتلين هم الذين يتدرعون.

وقال عليه السلام فى وصيّة الثانية:

«وَعَضُّوا عَلَى الْأَضْرَاسِ ۲۹۳]، فَإِنَّهُ أَنْبَى ۲۹۴] لِلسُّيُوفِ عَنِ الْهَامِ ۲۹۵]».

وكما ذكرنا فى شـرح الخطبـة الحادية عشـرة أنّ لهذه الخطبة فائدتان، الاولى إزالة الخوف والرعب، أو الحدّ من هذا الخوف إلى أقلّ درجـة، ومن هنا فانّ الإنسان يعمد إلى إطباق أسـنانه على بعضـها حين الخوف بهدف إزالته، والأخرى تبقى على صـلابة عظام الرأس فلا تتأثر كثيراً بضربات السيف.

وقال فى الوصيّة الثالثة:

«وَالْتَوُوا[۲۹۶] فِى أَطْرَافِ الرِّمَاحِ، فَإِنَّهُ أَمْوَرُ[۲۹۷] لِلْأَسِنَّةِ».

والوصـيّة أشبه بما يقال اليوم، إن أراد أحد أن يرميك تحرك يميناً وشمالًا، أى عليك بتغيير موضعك باستمرار حتى لا يتمكن العدو من التصويب باتجاهك.

جدير بالذكر أنّ بعض شرّاح نهج البلاغة أشار أنّ المراد بالانعطاف والانحناء حين الهجوم بالحربة على العدو، فانّ ذلك يضاعف من دقّة الحربة لمواجهة ضد جسد العدو، لكن

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۶۷

بالإلتفـات إلى الوصايـا السابقـة واللاحقـة لهـذه الوصـية والتى تبيّن فنون الـدفاع، فـانّ المعنى الأـول يبـدو هو الأنسب، لا سـيّما التعبير بالحرف فى لا يتناسب والمعنى الثانى، بينما يتناسب ما إخترناه حتى التعبير الأمور المأخوذ من مادة مور والذى يعنى الاضطراب.

وقال فى الوصيّة الرابعة بعض النظر (وعدم النظر إلى كثرة العدو وآخره) فذلك أسكن للقلب:

«وَغُضُّوا الْأَبْصَارَ، فَإِنَّهُ أَرْبَطُ لِلْجَأْشِ ۲۹۸]، وَأَسْكَنُ لِلْقُلُوبِ».

تختلف هذه الوصـيّة عن سابقاتها لاشتمالها على بعد نفسى ونعلم جميعاً أنّ روحية الجنود كلما كانت مرتفعة كان الأمل بالنصر أكثر، ومن هنا أكّد الإمام عليه السلام هذا المعنى مراراً وقد مرّ علينا نموذج ذلك فى الخطبة ۱۱ و ۶۶.

وقال فى الوصية الخامسة:

«وَأَمِيتُوا الْأَصْوَاتَ، فَإِنَّهُ أَطْرَدُ لِلْفَشَلِ».

من الطبيعى أنّ الإنسان حين ينشـغل بالحـديث فانّه يسـتهلك جانباً من قواه الفكريـة وكذلك جانباً من طاقته البدنية ويحد من تركيزه الفكرى والالتفات إلى حملات العدو المبرمجة، ومن هنا فانّ العدو الصامت البعيد عن الضوضاء والضجيج يبدو أخطر من غيره.

ولذلك ورد بشأن معركة بدر أنّ قريش تعجبت من قلّة عدد جيش الإسـلام وتصورت أنّ عدد المسلمين أكثر ممّاترى ولعلهم إختفوا خلف التلـة حيث يردون ميـدان القتال فى الوقت المناسب، فبعثوا بعمير بن وهب لينظر أطراف الميدان، فركب فرسه وجعل ينظر حول الصـحرا ولم ير شـيئاً، فعاد وقال: عـدد المسـلمين يقارب الثلاثمائة، إلّاأنّى رأيتهم مستعدين للقتال ولا يقوى أحد على مواجهتهم، أمّا ترونهم خرسا لا يتكلمون، يتلمـذون تلمـذ الأفاعى ما لهم ملجأ إلّاسيوفهم وما أراهم يولون حتى يقتلوا ولا يقتلون حتى يقتلوا بعددهم ۲۹۹].

وقال فى الوصيّة السادسة:

«وَرَايَتَكُمْ فَلَا تُمِيلُوهَا وَلَا تُخِلُّوهَا[۳۰۰] وَلَا تَجْعَلُوهَا إِلَّا بِأَيْدِى شُجْعَانِكُمْ، وَالْمَانِعِينَ الذِّمَارَ[۳۰۱] مِنْكُمْ».

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۶۸

ثم أتمّ كلامه باستدلال منطقى قائلًا:

«فَإِنَّ الصَّابِرِينَ عَلَى نُزُولِ الْحَقَائِقِ ۳۰۲] هُمُ الَّذِينَ يَحُفُّونَ بِرَايَاتِهِمْ، وَيَكْتَنِفُونَهَا: حِفَافَيْهَا[۳۰۳]، وَوَرَاءَهَا وَأَمَامَهَا؛ لَايَتَأَخَّرُونَ عَنْهَا فَيُسْلِمُوهَا، وَلَا يَتَقَدَّمُونَ عَلَيْهَا فَيُفْرِدُوهَا».

كان للراية أهميّة خاصة فى ميدان القتال فى الأزمنة الماضية، وذلك لدورها فى إرتباط الصفوف والتحامها، وحين كان ينهمك المقاتلون وسط الميدان وجوانبه بالقتال، كانوا يلتفون حين الضرورة حول الراية لإعادة تنظيم صفوفهم وشن الحملات من جديد، وإن سقطت الراية اضطرب العسكر وأحياناً كان ينهار، ولذلك ترى العدو يسعى جاهداً للإحاطة بالراية، بينما يحاول الطرف الآخر الابقاء على الراية مرفوعة وهو يدافع عنها بكلّ ما اوتى من قوّة، فقد كان سقوطها يعنى الهزيمة، وزبدة الكلام فانّ انتصاب الراية دليل على القدرة وسبب قوّة وعزيمة المقاتلين وحلقة اتصالهم مع بعضهم، ولهذا ما انفك الإمام عليه السلام عن التأكيد وصاياه بحفظ الراية، حيث أكد من جهة ضرورة ثبوت موضع الراية وأنّ حماتها من أشجع الأفراد، ومن جهة اخرى يوصى حملة الراية بعدم التخلى عنها ومراقبتها من جميع الجهات، لا أنّ يتخلفوا عنها ولا يتقدمواعليها، ويضحوا بالغالى والنفيس من أجل حفظها بفضلها علامة الاقتدار والشموخ وورد فى شأن غزوة خيبر التى. لف الفريقان بخصوصها عشرات الروايات أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله أعطى الراية فى اليوم الأول إلى أبى بكر فلم يتمكن من فتح قلاعها، وفى اليوم الثانى أعطاها عمر بن الخطاب، فلم يفلح، فقال صلى الله عليه و آله:

«لَأُعطِيَنَ الرايةَ غَداً رَجُلًا يُحِبُّ اللّهَ وَرَسُولَهُ ويُحِبُّهُ اللّهُ وَرَسُولُهُ كَرّارٌ غَيرُ فَرّارٍ يَفتَحِ اللّهُ عَلَيهِ»[۳۰۴].

فامتدت الأعناق فى اليوم التالى ليروا من هو ذلك الرجل، وقد تمنى كل فرد (شجاع) أن

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۶۹

يكون هو المعنى فيعطيه رسول اللّه صلى الله عليه و آله الراية، نادى رسول اللّه صلى الله عليه و آله علياً عليه السلام وسلّمه الراية فلم يرجع إلّابعد أن فتح خيبر واستسلم له أهلها، هذه دلالة على الأهميّة الفائقة للراية وحاملها فى ذلك الزمان، وقد تكرر نفس هذا المعنى فى عصر على صلى الله عليه و آله مالك الأشتر النخعى وقال له علمت بوقوفك فى القتال وشجاعتك ولولا ذلك لدفعت الراية إلى غيرك، فردّ عليه بالقول:

«لأسرنّك اليوم يا مالك أو اقتل شهيداً»[۳۰۵].

ثم أشار الإمام عليه السلام فى وصيّته السابعة والأخيرة إلى قضية أخرى من تكتيكات الحرب أنذاك فقال:

«أَجْزَأَ امْرُؤٌ قِرْنَهُ ۳۰۶]، وَآسَى ۳۰۷] أَخَاهُ بِنَفْسِهِ، وَلَمْ يَكِلْ قِرْنَهُ إِلَى أَخِيهِ، فَيَجْتَمِعَ

عَلَيْهِ قِرْنُهُ وَقِرْنُ أَخِيهِ».

يتضح المفهوم الدقيق لهذا الكلام فيما لو دققنا بصورة صحيحة على وضع الحروب فى ذلك الزمان، فقد كانت للمعركة فى ذلك الوقت ثالث صور (وأحياناً كانت تتحقق الصور الثلاث فى نفس المعركة):

الأولى: أن يتقدم أحد الشجعان وسط الميدان ويدعو شجاعاً آخر من العدو لمبارزته، فيتبارزان حتى يهلك أحدهما.

الثانية: أن يتقدم الميدان عدّة أفراد ليقف كل واحد منهم أمام خصمه فيبدأ بينهم القتال.

الثالثة: أن تدور المعركة بين المعسكرين بأكملهما طبعاً هناك صورة رابعة تكون المعركة فيها غادرة كأن تنهال طائفة على فرد فتنزل عليه ضرباتها من كل جانب، ويبدو أنّ العبارة تشير إلى هذه الصورة الثانية التى يبرز فيها عدّة أفراد إلى أمثالهم، وفى هذه الحالة لا ينبغى لأحد أن يترك خصمه لآخر، بل يبارز كل واحد خصمه فيراعى المساواة والمواساة وتقف من خلال هذه الوصايا على مدى خبرة الإمام عليه السلام بفنون القتال حيث يعرّف أصحابه على أدق تفاصيل القتال قبل البدء فيه.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۷۱

القسم الثانی: الجنّة تحت ظلال السيوف

«وَايْمُ اللَّهِ لَئِنْ فَرَرْتُمْ مِنْ سَيْفِ الْعاجِلَةِ، لَاتَسْلَمُوا مِنْ سَيْفِ الْآخِرَةِ، وَأَنْتُمْ لَهَامِيمُ الْعَرَبِ، وَالسَّنَامُ الْأَعْظَمُ. إنَّ فِی الْفِرارِ مَوْجِدَةَ اللَّهِ، وَالذُّلَّ اللَّازِمَ، وَالْعَارَ الْبَاقِیَ. وَإِنَّ الْفَارَّ لَغَيْرُ مَزِيدٍ فِی عُمُرِهِ، وَلَا مَحْجُوزٍ [محجوب بَيْنَهُ وَبَيْنَ يَوْمِهِ. [مَنِ الرَّائِحُ إِلَى اللَّهِ كَالظَّمْآنِ يَرِدُ الْمَاءَ؟

الْجَنَّةُ تَحْتَ أَطْرَافِ الْعَوَالِی! الْيَوْمَ تُبْلى الْأَخْبَارُ! وَاللَّهِ لَأَنَا أَشْوَقُ إِلَى لِقَائِهِمْ مِنْهُمْ إِلَى دِيَارِهِمْ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام فی هذا المقطع من الخطبة إلی ثلاثة أمور بهدف إعداد الأصحاب فی ميدان القتال، فأحياناً يهددهم إن هم فروا من القتال، وأخری يمدحهم ويتعرض لما يتحلون به من نقاط إيجابية يراها فيهم، وأخيراً يشجعهم ويحثهم علی الثواب والأجر الاخروی، وعليه يمكن إيجاز هذا المقطع من الخطبة فی ثلاثه محاور هی: التهديد، والتشجيع، والتمجيد، فقد قال علی مستوی المحور الأول:

«وَايْمُ اللَّهِ لَئِنْ فَرَرْتُمْ مِنْ سَيْفِ الْعَاجِلَةِ، لَاتَسْلَمُوا مِنْ سَيْفِ الْآخِرَةِ».

فالعبارة سيف الآخرة إشارة إلی عذاب اللّه الذی يشمل الفارّين من ميدان الجهاد، ولا شك أنّ الفرار من الزحف من الكبائر، وذلك لأنّ فرار عدّة أفراد يؤدّی إلی هزيمة عسكر جرّار ويقود حضارة عريقة إلی السقوط والإنيهار، أو يجعل العدو يسدد ضرباته الموجعة إلی

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۷۲

الإسلام، ثم قال علی مستوی المحور الثانی، أی المدح والثناء:

«وَأَنْتُمْ لَهَامِيمُ ۳۰۸] الْعَرَبِ، وَالسَّنَامُ ۳۰۹] الْأَعْظَمُ. إنَّ فِی الْفِرارِ مَوْجِدَةَ[۳۱۰] اللَّهِ، وَالذُّلَّ اللَّازِمَ، وَالْعَارَ الْبَاقِیَ. وَإِنَّ الْفَارَّ لَغَيْرُ مَزِيدٍ فِی عُمُرِهِ، وَلَا مَحْجُوزٍ[۳۱۱] بَيْنَهُ وَبَيْنَ يَوْمِهِ».

فهو يعدهم من جانب بصفتهم مبرزی شخصيات العرب التی تشد نحوها الأنظار، من جانب آخر يذكرهم بمساویء عار الفرار وهی الغضب الإلهی والذل الدائم والهوان والفضيحة الأبدية، علی صعيد آخر ذكرّهم بهذه النقطة وهی إن كان الهدف من الفرار هو التمتع بعمر أطول فانّ هذا الهدف لا يحصل بالفرار، ذلك لأنّه لا محيص من الممات واليوم الذی قدرّ فيه فلا يدفعه دافع.

نعم، قد يتصور الإنسان أنّه يحصل علی عمر أطول عن طريق الفرار، ولو فرض أنّ الأمر كذلك فما قيمة هذا العمر وهو يتضمن العواقب الثلاث متمثلة بغضب اللّه والذل والهوان الأبدی، وقد خاطب القرآن الكريم اولئك الذين يشعرون بالقلق من تواجدهم فی جبهات القتال قائلًا:

«قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِی بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمْ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ...».[۳۱۲]

ثم إختتم الإمام عليه السلام كلامه بعبارة قصيرة عميقة المعنی تهدف حثهم علی جهاد العدو فقال:

«مَنِ الرَّائِحُ ۳۱۳] إِلَى اللَّهِ كَالظَّمْآنِ يَرِدُ الْمَاءَ؟ الْجَنَّةُ تَحْتَ أَطْرَافِ الْعَوَالِی ۳۱۴]!».

وأخيراً قال عليه السلام بأنّ اليوم تبلی أخبار وأعمال كلّ فرد ويتميز فيها الغث من السمين:

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۷۳

«الْيَوْمَ تُبْلى الْأَخْبَارُ!».

العبارة من الرائح إلی اللّه سبحانه إشارة إلی الأفراد الذين يقبلون بكلّ شوق ورغبة وعشق الشهادة، كعشق العطشان إلی الماء الزلال.

وقد أورد الإمام عليه السلام شبيه هذا المعنی فی وصيّته قبل الشهادة وبعد ضربته حيث قال:

«وَمَا كُنْتُ إِلَّا كَقَارِبٍ وَرَدَ، وَطَالِبٍ وَجَدَ ...»[۳۱۵]

. والعبارة اليوم تبلى الأخبار هى فى الواقع إقتباس من الآية ۳۱ من سورة محمد صلى الله عليه و آله:

«وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ».

والفردة أخبار إمّا تعنى الأعمال أوالكلام والزعم والتى تبلى جميعاً فى ميدان الجهاد، والعبارة:

«الْجَنَّةُ تَحْتَ أَطْرَافِ الْعَوَالِى!»

. تشبه العبارة التى أوردها رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى ميدان معركة أحد، حيث قال:

«الجَنَّةُ تَحتَ ظِلالِ السُّيُوفِ».

الجدير بالذكر أنّ أحد الأنصار سمع هذا القول من رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وفى يده تميرات يلوكها، فقال: بخ بخ! ليس بينى وبين الجنّة إلّاهذه التميرات، ثم قذفها من يده وكسر جفن سيفه وحمل على قريش فقاتل حتى قُتل ۳۱۶].

ثم قال فى العبارة الأخيرة من أجل حث صحبه على الجهاد:

«وَاللَّهِ لَأَنَا أَشْوَقُ إِلَى لِقَائِهِمْ مِنْهُمْ إِلَى دِيَارِهِمْ».

بمعنى لا دافع عندهم للجهاد وهم يحرصون على العودة إلى بيوتهم، بينما أحرص على جهاد عدو الحق والعدالة، فالمراد هلموا لكل رغبة لميدان الجهاد واعلموا أنّ النصر حليفكم حين تقاتلون عدواً لا دافع له.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۷۵

القسم الثالث: القضاء على آخر معاقل العدو

«اللَّهُمَّ فَإِنْ رَدُّوا الْحَقَّ فَافْضُضْ جَمَاعَتَهُمْ، وَشَتِّتْ كَلِمَتَهُمْ، وَأَبْسِلْهُمْ بِخَطَايَاهُمْ. إِنَّهُمْ لَنْ يَزُولُوا عَنْ مَوَاقِفِهِمْ دُونَ طَعْنٍ دِرَاكٍ، يَخْرُجُ مِنْهُمُ

[مِنْهُ]

النَّسِيمُ، وَضَرْبٍ يَفْلِقُ الْهَامَ، وَيُطِيحُ الْعِظَامَ، وَيُنْدِرُ السَّوَاعِدَ وَالْأَقْدَامَ؛ وَحَتَّى يُرْمَوْا بِالْمَنَاسِرِ تَتْبَعُهَا الْمَنَاسِرُ؛ وَيُرْجَمُوا بِالْكَتَائِبِ، تَقْفُوهَا الْحَلَائِبُ؛ وَحَتَّى يُجَرَّ بِبِلَادِهِمُ الْخَمِيسُ يَتْلُوهُ الْخَمِيسُ؛ وَحَتَّى تَدْعَقَ الْخُيُولُ فِى نَوَاحِرِ أَرْضِهِمْ، وَبِأَعْنَانِ مَسَارِبِهِمْ وَمَسَارِحِهِمْ».

الشرح والتفسير

خاض الإمام على عليه السلام فى هذا المقطع- الذى يمثل المقطع الأخير من الخطبة- فى أمرين:

الأول: يدعو فيه على العدو، وهوالدعاء الذى يجر عليهم الهزيمة والعذاب الإلهى ويشدّ من عزيمة صحبه ويضاعف إرادتهم فقال:

«اللَّهُمَّ فَإِنْ رَدُّوا الْحَقَّ فَافْضُضْ ۳۱۷] جَمَاعَتَهُمْ، وَشَتِّتْ كَلِمَتَهُمْ، وَأَبْسِلْهُمْ ۳۱۸] بِخَطَايَاهُمْ».

جدير ذكره أنّ الإمام عليه السلام اشترط اللعن بعدم قبول الحق، وذلك لأنّ الهدف النهائى من هذا القتال لا يكمن فى الاستيلاء على العدو والسلطة، بل ليس للإمام عليه السلام من هدف سوى قبول الحق، فانّ قبله انتفت الحرب، وهذه هى فلسفة قتال دعاة الحق وأهل الإيمان طيلة التاريخ.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۷۶

والأمر الآخر: هو أنّ الإمام عليه السلام ذكر اختلاف الكلمة ضمن دعائه كوسيلة لتفريق العدو وهزيمته والذنوب من أسباب البؤس والشقاء، ومن هنا كان دعاؤه درساً، ليس درس واحد بل دورس. وفى القسم الآخر من هذا المقطع من الخطبة أشار إلى وصيّة قتالية مهمّة أخرى فقال لهم، إن أردتم الانتصار عليكم بتوجيه الضربات الموجعة إلى العدو وأن تقوم كل فرقة من العسكر بمهمتها الخاصة ومتابعة العدو حين الهزيمة دون إمهاله ليتحقق النصر الشامل، فشرح ذلك قائلًا:

«إِنَّهُمْ لَنْ يَزُولُوا عَنْ مَوَاقِفِهِمْ دُونَ طَعْنٍ دِرَاكٍ ۳۱۹]، يَخْرُجُ مِنْهُمُ النَّسِيمُ، وَضَرْبٍ يَفْلِقُ الْهَامَ، وَيُطِيحُ ۳۲۰] الْعِظَامَ، وَيُنْدِرُ[۳۲۱] السَّوَاعِدَ وَالْأَقْدَامَ».

ثم واصل علیه السلام حدیثه مؤکداً علی ضرورة شن الهجمات علیهم تلو الهجمات وأن تتبنی فرقة مطاردتهم ورمیهم بالسهام، وأن تعاضد کل فئة الاخری وتحمل علی العدو، کما یقوم الفرسان بمطاردتهم حتی المدن حتی تندوس حوافر خیلکم آخر نقطة فی أرضهم والاستیلاء علی مسار الذهاب والأیاب والطرق المرای من کل جانب:

«وَحَتَّى يُرْمَوْا بِالْمَنَاسِرِ[۳۲۲] تَتْبَعُهَا الْمَنَاسِرُ؛ وَيُرْجَمُوا بِالْكَتَائِبِ ۳۲۳]، تَقْفُوهَا الْحَلَائِبُ ۳۲۴]؛ وَحَتَّى يُجَرَّ بِبِلَادِهِمُ الْخَمِيسُ ۳۲۵] يَتْلُوهُ الْخَمِيسُ؛ وَحَتَّى تَدْعَقَ ۳۲۶] الْخُيُولُ فِي نَوَاحِرِ[۳۲۷] أَرْضِهِمْ، وَبِأَعْنَانِ ۳۲۸] مَسَارِبِهِمْ وَمَسَارِحِهِمْ ۳۲۹]».

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۱۷۷

فقد علم الإمام علیه السلام فی هذه الخطبة جنوده الآداب الفردیة للقتال، وفی القسم الأخیر الآداب الجماعیة فی کیفیة عمل الکتائب والفرق والخیّالة والمشاة وتنسیقها فیما بینهما تجاه العدو والاعتماد علی الأسالیب العلمیة فی القضاء علی العدو، ومن النقاط المهمّة التی تطرق إلیها الإمام علیه السلام فی هذا المقطع من الخطبة هی عدم التوانی فی إتمام النصر علی العدو، وربّما کانت للإنسحابات أبعاد المباغتة، والهدف تشدید الحملات، فلا یدمی تعقیب العدو إلی أقصی نقاط مناطقة والاستیلاء علی کل مکان لیزول بالمرة أی احتمال لأنّ یشن العدو هجماته.

والحق لو عمل جیش الإمام علیه السلام بهذه الوصیّة فی صفین والتی أوردها الإمام علیه السلام قبل المعرکة لخمدت فتنة بنی أمیة إلی الأبد ولزال شبح ظلمهم وجور حکمهم عن المسلمین، ولکن واللأسف فقد سمعوا کل هذه الوصایا وضربوها عرض الحائط فتجرعوا مرارة تمردهم.

خاض المرحوم السید الرضی رضی الله عنه فی نهایة هذه الخطبة بشرح بعض مفرداتها الصعبة فقال:

الدعق: الدق، أی تدق الخیول بحوافرها أرضهم، ونواحر أرضهم: متقابلاتها ویقال:

منازل بنی فلان تتناحر أی تتقابل، انتهی کلام السید الرضی.

ولکن فسّر أغلب أرباب اللغة النواحر بمعنی المناطق البعیدة وهذا ما یناسب الخطبة.

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۱۷۹

الخطبة[۳۳۰] المأة والخامسة والعشرون

اشارة

ومِنْ كَلام لَهُ علیه السلام

فی التحکیم وذلک بعد سماعه لأمر الحکمین

نظرة إلی الخطبة

کما ورد فی السابق انّ هذه الخطبة وردت بصورة عامّة بشأن التحکیم بعد معرکة صفین، وهی تتألف من عدّة أقسام، فقد بیّن الإمام علیه السلام قبول التحکیم من خلال الاستدلال بالآیات القرآنیة.

وفی القسم الثانی یتکفّل بالردّ علی الاعتراضات

والقسم الثالث والأخیر ینصح الإمام علیه السلام بالکفّ عن الخلاف وإعداد أنفسهم من أجل الوقوف بوجه ظلمة الشام کما ذمّهم

على ما أبدوه من تقصير واعتراض وعدم انضباط.

نفحات الولايهٔ، ج۵، ص: ۱۸۱

القسم الأول: الردّ على الخوارج

اشارهٔ

«إِنَّا لَمْ نُحَكِّمِ الرِّجَالَ، وَإِنَّمَا حَكَّمْنَا الْقُرْآنَ. هذَا الْقُرْآنُ إِنَّمَا هُوَ خَطٌّ مَسْتُورٌ بَيْنَ الدَّفَّتَيْنِ، لَايَنْطِقُ بِلِسَانٍ، وَلَابُدَّ لَهُ مِنْ تَرْجُمَانٍ. وَإِنَّمَا يَنْطِقُ عَنْهُ الرِّجَالُ. وَلَمَّا دَعَانَا الْقَوْمُ إِلَى أَنْ نُحَكِّمَ بَيْنَنَا الْقُرْآنَ لَمْ نَكُنِ الْفَرِيقَ الْمُتَوَلِّيَ عَنْ كِتَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَقَدْ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ). فَرَدُّهُ إِلَى اللَّهِ أَنْ نَحْكُمَ بِكِتَابِهِ، وَرَدُّهُ إِلَى الرَّسُولِ أَنْ نَأْخُذَ بِسُنَّتِهِ؛ فَإِذَا حُكِمَ بِالصِّدْقِ فِي كِتَابِ اللَّهِ، فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ بِهِ، وَإِنْ حُكِمَ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ وَأَوْلَاهُمْ بِهَا».

الشرح والتفسير

كما ورد سابقاً فانّ الخطبهٔ ردّ على اعتراض قبول الإمام عليه السلام للتحكيم، ومضمون كلام المعترضين: لم قبلت تحكيم فردين فى هـذا الأمر الـدينى المهم؟ والحال لا حكم إلّاللّهوليس لعامهٔ الأفراد من حق فى الحكم فى الوظائف الدينيهٔ، أمّا الإمام عليه السلام فقد أشار فى ردّه إلى نقطهٔ مهمّهٔ فقال:

«إِنَّا لَمْ نُحَكِّمِ الرِّجَالَ، وَإِنَّمَا حَكَّمْنَا الْقُرْآنَ. هذَا الْقُرْآنُ إِنَّمَا هُوَ خَطٌّ مَسْتُورٌ[۳۳۱]

بَيْنَ الدَّفَّتَيْنِ ۳۳۲]، لَايَنْطِقُ بِلِسَانٍ، وَلَابُدَّ لَهُ مِنْ تَرْجُمَانٍ. وَإِنَّمَا يَنْطِقُ عَنْهُ الرِّجَالُ».

نفحات الولايهٔ، ج۵، ص: ۱۸۲

إشارهٔ إلى أنّ القرآن الكريم بيّن طائفهٔ من الأحكام الكليهٔ وعلى العالمين بالقرآن استنباط الأحكام الجزئيهٔ وإبلاغها إلى عموم الناس، أو بعبارهٔ أخرى تطبيق تلك الكليات على المصاديق، على سبيل المثال قال القرآن الكريم: «وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ»[۳۳۳].

لا شك أنّ معركهٔ صفين أحد مصاديق هذه الآيهٔ، ووظيفهٔ الحكمين- إن كانا على الصواب وعالمين بالامور- أن يقولا: لمّا بايع الناس علياً عليه السلام إضافهٔ إلى نص النبى الأكرم صلى الله عليه و آله عليه فانّ عامهٔ الامهٔ والصحابهٔ قد قبلت خلافته، فمن سلك غير هذا السبيل كان مصداقاً للباغى والظالم وعليه العودهٔ إلى الامهٔ و التوبهٔ، فان أبى وجب على المسلمين مقاتلته حتى يرعوى عن غيه.

ومسألـهٔ التحكيم لاـ تشـذ عن هـذا الأـمر، فهى ليست سوى مـا يقوم به قضـاهٔ الإسـلام، أى أنهم يطبقون أحكـام الكتـاب والسـنّهٔ على مصاديقهـا ويصـدرون الأحكام بهـذا الخصوص، فهل هناك من اعتراض على هـذا الكلام؟ للأسف لم يـدرك الخوارج الجهال هـذا المطلب الواضح ولم يدعهم تعصبهم وجهلهم ليفهموا ذلك فيعوا الهدف الأصلى من الحكومهٔ.

ثم خاض الإمام عليه السلام فى توضيح هذا المعنى قائلًا:

«وَلَمَّا دَعَانَا الْقَوْمُ إِلَى أَنْ نُحَكِّمَ بَيْنَنَا الْقُرْآنَ لَمْ نَكُنِ الْفَرِيقَ الْمُتَوَلِّيَ عَنْ كِتَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَقَدْ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ:

«فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ»[۳۳۴]».

فوضح الإمام عليه السلام الآيهٔ بالقول: «فَرَدُّهُ إِلَى اللَّهِ أَنْ نَحْكُمَ بِكِتَابِهِ، وَرَدُّهُ إِلَى الرَّسُولِ أَنْ نَأْخُذَ بِسُنَّتِهِ؛ فَإِذَا حُكِمَ بِالصِّدْقِ فِي كِتَابِ اللَّهِ، فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ بِهِ، وَإِنْ حُكِمَ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ وَأَوْلَاهُمْ بِهَا».

ومن هنـا فقـد أثبت الإمام عليه السـلام بوضوح أنّ تحكيم الكتاب والسنّهٔ لا تعنى سوى الرجوع إليهما، ولما كنّا مأمورين بهـذا الأمر،

فلیس لأحد أن یعترض علینا لم قبلنا التحکیم، فخطأ

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۱۸۳

المعترض فی تصوره أننا قبلنا تحکیم الأشخاص، والحال إننا لم نقبل سوی تحکیم کتاب للّه.

وهنا سؤال یطرح نفسه: یفهم من کلام الإمام علیه السلام هذا أنّه قبل التحکیم علی ضوء رغبته ورضاه ووظیفته الشرعیة، والحال یفهم من عدّة خطب وردت فی نهج البلاغة أنّ التحکیم فرض علی الإمام علیه السلام وکان ممتعظاً من هذا الأمر، فکیف یمکن حلّ هذا التناقض؟

نفحات الولایة ؛ ج۵ ؛ ص۱۸۳

دّ من القول فی الإجابة عن هذا السؤال أنّ الإمام علیه السلام لم یکن مخالفاً للتحکیم قط، بل کان الإمام علیه السلام یؤکد علی أمرین: الأول: هو أنّ رفع المصاحف علی أسنة الرماح کان خدیعة ومؤامرة تهدف الحیلولة دون انتصار جیش الإمام علیه السلام فی اللحظات الأخیرة من المعرکة، وإیجاد الفرقة والاختلاف بین صفوف عسکر الإمام علیه السلام، وإلّا فأهل الشام لم یکونوا مستعدین لقبول تحکیم القرآن الکریم، فلم یکونوا من أهل الدین ولا القرآن حسب تعبیر الإمام علیه السلام ۳۳۵].

الأمر الآخر: هو أنّ الإمام علیه السلام کان معترضاً علی أبی موسی الأشعری کممثل له فی تحکیم القرآن، وعلیه فلیس هنالک من تناقض بین هذه الخطبة وسائر الخطب نهج البلاغة، والشاهد علی ذلک ما فعله الإمام الحسین علیه السلام یوم عاشوراء طبق نقل أرباب المقاتل أنّه وضع المصحف علی رأسه وخاطب أهل الکوفة:

«یا قَومِ إِنّ بَینِی وَبَینَکُم کِتابُ اللَّهِ وَسُنَّةُ جَدِّی رَسُولُ اللَّهِ»[۳۳۶].

قضیة التحکیم

نعلم أنّ جیش معاویة حین أشرف علی الهزیمة المنکرة فی صفین، فبادر عمرو بن العاص المعروف بمکره إلی توصیة أهل الشام برفع المصاحف علی أسنة الرماح والقول بالتسلیم لحکمالقرآن، من جانبه قال الإمام علیه السلام بأنّ هؤلاء لا یسلمون لحکم القرآن ولیس ذلک سوی خدعة بهدف منع تلک الهزیمة الحتمیه، إلّاأنّ فئة من جهّال عسکر الإمام علیه السلام إلی جانب

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۱۸۴

المنافقین لم یسمعوا کلام الإمام علیه السلام وأصروا علی إیقاف المعرکة، حتی هددوا الإمام علیه السلام بالقتل، فلم یکن من الإمام علیه السلام وبهدف الحیلولة دون ذلک الاختلاف والشقاق وبحکم الإجبار إلّاأنّ أصدر أوامره بایقاف القتال.

ثم قالوا بوجوب انتخاب فردین من العسکرین لتحکیم القرآن، والعجیب أن طائفة منهم بعد ذلک وقفوا بوجه الإمام وهبّوا لمخالفته والاعتراض علیه فی قبوله للتحکیم، الخطأ الآخر الذی بدر من الجهّال والمنافقین هو اختیارهم لأبی موسی الأشعریالجاهل کحَکم وفرضوه علی الإمام علیه السلام وهو الأمر الذی أدّی إلی تلک الانتکاسة المریرة والعجیب فی الأمر فئة بعد هذه الحادثة رفعت رایة التمرد علی الإمام علیه السلام معترضة علی قبوله للتحکیم، فی حین هذا القرآن یصرّح قائلًا:

«إِنِ الحُکْمُ إِلّا للَّهِ»[۳۳۷]

، فکان من نتائج ذلک وقوع معرکة أخری عرفت بمعرکة النهروان، وقد رجعت طائفة منهم إلی نفسها بعد أن سمعت کلام الإمام علیه السلام فتابت إلی اللَّه سبحانه، ولم تبق إلّافئة قلیلة لم یکتب لها الدوام، وقد کان عمل الإمام علیه السلام واضحاً فی هذا الأمر للأسباب التالیة:

۱- تحکیم القرآن فی حلّ الخلافات العالقة بین المسلمین لیس بخفی علی أحد، وقد أمر القرآن المسلمین صراحة بالرجوع إلی

كتاب اللّه وسنّة نبيّه صلى الله عليه و آله فى حالة حدوث اختلاف بينهم (الآية ۵۹ من سورة النساء التى استشهد بها الإمام عليه السلام فى كلامه). وبناءاً على ما سبق فتحكيم القرآن واستناداً لعقيدة كافة المسلمين الذين للقرآن الكلمة الفصل فى حل المنازعات ليست بالأمر الذى يدعو إلى الاعتراض على الإمام عليه السلام، لكن لم يكن من اولئك الجهّال إلا أن يصوروا الأمر على أنّه نقطة ضعف فى الإمام عليه السلام.

۲- لا شك أنّ الذين أثاروا فتنة رفع المصاحف على أسنة الرماح لم يكن لهم من اعتقاد بحكم القرآن ولا الحق والعدل، بل لم يكن لساسة الكفر عديمى الإيمان من همّ سوى التسلط على الامة والهيمنة على إمكاناتها المادية، وقد كشف الإمام عليه السلام اللثام منذ البداية عن كنه هذه المؤامرة، ولكن ما جدوى ذلك حيال الجهّال الذين رفضوا منطق الإمام عليه السلام.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۸۵

۳- قطعاً ليس للقرآن من دور فى التحكيم من خلال نفسه، وإنّما يتسنى ذلك بواسطة أهل الذكر العالِمين بالقرآن فيجتهدون فى استنباط أحكامه فى كل مسألة وإبلاغها إلى الناس، ولو حصل هذا الأمر فى حادثة صفين لتبيّن أنّ عسكر معاوية مشمولون بالآية التاسعة من سورة الحجرات القائلة:

«فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى ...»

فينبغى إدانتهم بصفتهم بغاة طغاة هبّوا للوقوف بوجه إمام المسلمين والحكومة الإسلامية.

والمؤسف أنّ الحكمين هما أبو موسى الأشعرى وعمرو بن العاص اللذان ليس لهما من علم بالقرآن، ونهض بالأمر من هو عارف بالقرآن، فانّ ذلك ليس خلافاً فحسب، بل يمثل عملًا بالقرآن وأحكامه، لكن حيث لم تحصل الشرائط اللازمة فى أية مرحلة، وكانت النتيجة مريرة على تلك الفئة الجاهلة، فعمدت إلى لوم الإمام عليه السلام بدلًا من ذمّها لنفسها، فلم تعمد لإصلاح منظرها، بل اتجهت إلى كسر المرآة، طبعاً لا ينبغى تصور قضية التحكيم على أنّها ترتبط بحادثة تاريخى عابرة، بل هى قضية تكرر فى مختلف العصور والأزمنة وحتى فى عصرنا الحاضر، فهناك من يتستر خلف بعض المقدسات من ثم يحملوها بعض القراءات الخاطئة عن علم وبدونه ويختارون ما يتماشى ومصالحهم اللامشروعة.

فلعمروا بن العاص وأبو موسى الأشعرى- هذان الجاهلان- أشباههما فى كل زمان، وأما أكثر ما تتكرر واقعة صفين وحمل المصاحف على السنان والتحكيم التى تتخذ لنفسها صوراً مختلفة، فلا تتمخض سوى عن النتائج التى تؤدّى إلى مظلومية من يسير على النهج العلوى.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۸۷

القسم الثانى: لستم من أهل الجهاد

اشارة

«وَأَمَّا قَوْلُكُمْ: لِمَ جَعَلْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ أَجَلًا فِى التَّحْكِيمِ؟ فَإِنَّمَا فَعَلْتُ ذلِكَ لِيَتَبَيَّنَ الْجاهِلُ، وَيَتَثَبَّتَ الْعالِمُ؛ وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ فِى هذِهِ الْهُدْنَةِ أَمْرَ هذِهِ الْأُمَّةِ؛ وَلَاتُؤْخَذُ بِأَكْظَامِهَا، فَتَعْجَلَ عَنْ تَبَيُّنِ الْحَقِّ، وَتَنْقَادَ لِأَوَّلِ الْغَيِّ. إِنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ كَانَ الْعَمَلُ بِالْحَقِّ أَحَبَّ إِلَيْهِ- وَإِنْ نَقَصَهُ وَكَرَثَهُ- مِنَ الْبَاطِلِ وَإِنْ جَرَّ إِلَيْهِ فَائِدَةً وَزَادَهُ. فَأَيْنَ يُتَاهُ بِكُمْ! وَمِنْ أَيْنَ أُتِيتُمْ! اسْتَعِدُّوا لِلْمَسِيرِ إِلَى قَوْمٍ حَيَارَى عَنِ الْحَقِّ لَايُبْصِرُونَهُ، وَمُوزَعِينَ بِالْجَوْرِ لَايَعْدِلُونَ بِهِ، جُفَاةٍ عَنِ الْكِتَابِ، نُكُبٍ عَنِ الطَّرِيقِ. مَا أَنْتُمْ بِوَثِيقَةٍ يُعْلَقُ بِهَا، وَلَا زَوَافِرَ عِزٍّ يُعْتَصَمُ إِلَيْهَا. لَبِئْسَ حُشَّاشُ نَارِ الْحَرْبِ أَنْتُمْ! أُفٍّ لَكُمْ! لَقَدْ لَقِيتُ مِنْكُمْ بَرْحاً، يَوْماً أُنَادِيكُمْ وَيَوْماً أُنَاجِيكُمْ، فَلَا أَحْرَارُ صِدْقٍ عِنْدَ النِّدَاءِ [[القَاء]]

، وَلَا إِخْوَانُ ثِقَةٍ عِنْدَ النَّجَاءِ!».

الشرح والتفسير

يتألف كلام الإمام عليه السلام فى الواقع من قسمين: الأول يعالج شبهات الخوارج وأمثالهم، ثم يحثهم على جهاد ظلمة الشام، فكلام الإمام عليه السلام فى القسم الأول إشارة إلى ميثاق التحكيم الذى وقع بين الإمام عليه السلام ومعاوية (وسيأتى شرح ذلك فى موضوع تأملات) وعلى ضوء العهد فقد منح الحكمان مدّة سنة لحلّ اختلاف الامة دون التسرع فى ذلك، والمعترضون الجهّال يشكلون أحياناً على أصل التحكيم والذى أجاب عليه الإمام عليه السلام فى القسم السابق من الخطبة، وأحياناً أخرى كانوا يشكلون على تفاصيله، أى مسألة المدّة، ومن هنا ردّ الإمام عليه السلام على الإشكال

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۸۸

الأخير بالقول:

«وَأَمَّا قَوْلُكُمْ: لِمَ جَعَلْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ أَجَلًا فِى التَّحْكِيمِ؟ فَإِنَّمَا فَعَلْتُ ذلِكَ لِيَتَبَيَّنَ الْجَاهِلُ، وَيَتَثَبَّتَ ۳۳۸] الْعَالِمُ».

ثم أضاف:

«وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ فِى هذِهِ الْهُدْنَةِ[۳۳۹] أَمْرَ هذِهِ الْأُمَّةِ؛ وَلَاتُؤْخَذُ بِأَكْظَامِهَا[۳۴۰]،

فَتَعْجَلَ عَنْ تَبَيُّنِ الْحَقِّ، وَتَنْقَادَ لِأَوَّلِ الْغَيِّ».

فقد بيّن الإمام عليه السلام عدّة فوائد للأجل الوارد فى مسألة التحكيم،

الأولى:

أن يتريث الجهّال ويكفّوا عن شططهم وتعصبهم ويحققوا فى المسألة المصيرية، والأخرى: أنّ يقوم القوم علماء الامّة من أصحاب على عليه السلام بدراسة جوانب المسألة ويختاروا ما ينطوى على الحدّ الأدنى من الخسائر ويهدوا الحكمين لانتخاب الصحيح، والثالثة: التفكير خلال هذه المدّة فى الطرق التى تتكفّل بإصلاح أمر الامة بصورة كلية واجتناب الأفعال المتسرعة التى تقود إلى الضلال، والغريب فى الأمر التسرع والطيش الذى مارسه الخوارج الجهّال بهذا الشأن ليعرضوا مصير الامة للخطر دون أدنى دراسة وتحقيق، وهذا هو ديدن الجهّال من الأفراد فى كل عصر ومصر.

أمّا العبارة:

«لَاتُؤْخَذُ بِأَكْظَامِهَا»

فهى كناية عن الحرية من أجل المطالعة واتخاذ القرار والانتخاب، وهى كناية فصيحة وبليغة. والعبارة:

«تَنْقَادَ لِأَوَّلِ الْغَيِّ»

إشارة إلى أنّ التسرع فى القرار ضلالة عادة.

وذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ المراد بأول الغى رفع المصاحف على أسنة الرماح التى تعدّ أول خطوة فى الضلال ۳۴۱]، ويبدو التفسير الأول بقرينة الجملة التى سبقتها أنسب.

ثم خاض الإمام عليه السلام فى نصحهم ووعظهم بالانقياد للحق وعدم مجابهته بالتعصب واللجاجة وملاحظة المنافع الشخصية، فقال:

«إِنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ كَانَ الْعَمَلُ بِالْحَقِّ أَحَبَّ إِلَيْهِ- وَإِنْ نَقَصَهُ وَكَرَثَهُ ۳۴۲]- مِنَ الْبَاطِلِ وَإِنْ جَرَّ إِلَيْهِ فَائِدَةً وَزَادَهُ».

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۸۹

الواقع إنّ علامة المؤمن الحقيقى هى هذه، يعنى ان وقف على مفترق طرق بحيث كان الحق فى جانب والمنافع الشخصية فى جانب آخر، ولى ظهره لمنافعه الشخصية واندفع نحو الحق، وإلّا فلا فخر فى تعصب الإنسان للحق الذى ينسجم مع حفظ مصالحه الشخصية، ومن هنا ذمّ القرآن الكريم طائفة من اليهود التى عملت على هذا الضوء فقالوا: «نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ...»[۳۴۳]، كانت تلك

الطائفة تـذعن للقوانين الموافقة لميلها ورغبتها وتحقق منافعها، بينما تتمرد على تلك التى تتعارض ورغباتها، والحق إنّ مثل هـذا التفكيك لا يعنى عبادة اللّه سبحانه، بل عبادة الهوى، ويصدق هـذا الكلام على الأفراد الـذين يهبّون لنصرة الباطل بـدافع التعصب واللجاجة ودعم الأصدقاء والقرابة، وقد ورد مثل هذا الكلام عن على عليه السلام فى خطابه لعمرو بن العاص حيث أقسم أنّه يعرف الحق، إلّاأنّه يتجاهله، ولم يدفعه للإلتحاق بصفوف أعداء اللّه سبحانه سوى منافعه ۳۴۴].

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلًا:

«فَأَيْنَ يُتَاهُ ۳۴۵] بِكُمْ! وَمِنْ أَيْنَ أُتِيتُمْ ۳۴۶]!».

آنذاك دعاهم لجهاد القوم الظالمين، وقد نعتهم بخمس صفات سلبية تتمثل بحيرتهم عن الحق وعدم رؤيته وقد شجعوا على الظلم و الجور، ومن هنا فلا يسعهم الاقلاع عنه، وقد ابتعدوا عن كتاب اللّه وانحرفوا عن الصراط، رغم حملهم المصاحف ووضعها على الرماح وكلامهم عن تحكيم القرآن الكريم: «اسْتَعِدُّوا لِلْمَسِيرِ إِلَى قَوْمٍ حَيَارَى عَنِ الْحَقِّ لَا يُبْصِرُونَهُ، وَمُوزَعِينَ ۳۴۷] بِالْجَوْرِ لَايَعْدِلُونَ بِهِ، جُفَاةٍ عَنِ الْكِتَابِ، نُكُبٍ ۳۴۸] عَنِ الطَّرِيقِ».

وهكذا أشار الإمام عليه السلام إلى إننا نمتلك خمسة أدلّة قاطعة إن أردنا قتال هؤلاء وكل واحد من هذه الأدلة يكفى سبباً لقتالهم!

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۹۰

فقد حادوا عن الصواب وانحرفوا عن الصراط، ولا يكترثون للقرآن الكريم، اعتادوا على الظلم والجور، وقد عجزت أعينهم عن رؤية الحق فأصبحوا يدورون حول ذواتهم.

ثم لهج لسان الإمام عليه السلام بالشكوى فى عباراته الأخيرة وعرضّهم لأشدّ الذمّ واللوم، لعلهم يفيقون إلى أنفسهم ويعيدون النظر فى أعمالهم فقال:

«مَا أَنْتُمْ بِوَثِيقَةٍ يُعْلَقُ بِهَا، وَلَا زَوَافِرَ[۳۴۹]

عِزٍّ يُعْتَصَمُ إِلَيْهَا. لَبِئْسَ حُشَّاشُ ۳۵۰] نَارِ الْحَرْبِ أَنْتُمْ!».

ثم شدد عليه السلام فى تقريعهم فقال:

«أُفٍّ لَكُمْ! لَقَدْ لَقِيتُ مِنْكُمْ بَرْحاً[۳۵۱]، يَوْماً أُنَادِيكُمْ وَيَوْماً

أُنَاجِيكُمْ، فَلَا أَحْرَارُ صِدْقٍ عِنْدَ النِّدَاءِ

[[القَاء]]

، وَلَا إِخْوَانُ ثِقَةٍ عِنْدَ النَّجَاءِ[۳۵۲]!».

فقد تطرق الإمام عليه السلام إلى حقيقة فى هذه العبارات وهى إن كانت هنالك من مشكلة قد ظهرت فى أمر الجهاد وحكومته عليه السلام فانّما مرد ذلك إلى عدم كفاءة جمع من صحبه، وذلك لأنّهم كانوا يبدون الضعف والوهن فى كل ميدان يطرقه الإمام عليه السلام، ومن الطبيعى أنّ هناك ضرورة للصولة المقتدرة فى بداية المعركة والتى ينبغى أن تحصل من قبل الرجال الأشداء والشجعان والمخلصين، ولم يكن من ينهض بهـذا الدور فى معسكر الإمام عليه السلام، من جانب آخر فان القائد حين ينادى أن أحملوا! فلابدّ من حركة الجميع بشكل منسجم، إلّاأنّهم كانوا أضعف وأوهن من ذلك، وإن كانت هناك من خطط حربية يطلعون عليها بصورة سرية، لابدّ أن يجدوا ويجتهدوا فى حفظها، إلّاأنّهم لم يكونوا من حفظة الأسرار ويوثق بهم، وعليه لا يبدو من الصواب توقع حصول نصر خاطف فى ظلّ وجود مثل هؤلاء الأفراد، والعجيب فى الأمر فانّ مثل هؤلاء الأفراد وبهذا المدى من الضعف والوهن حين يصابون بفشل، فهم يوعطونه إى الخارج ويحملوا الإمام عليه السلام مسؤولية زلاتهم دون أن يهموا ويفتشوا عن أسباب ذلك فى أنفسهم، وهذه مشكلة كبرى.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۹۱

تأمّلان

۱- عهد صفین

حین استغل ظلمـة الشام قضـیة رفع المصاحف علی أسـنة الرماح وخدعوا بها أهل العراق، ففرض الصـلح علی أمیرالمؤمنین علی علیه السلام کتب هذا العهد بین الفریقین:
«هذا مَا تَقاضی عَلَیهِ عَلَیٌّ بن أَبی طَالب ۳۵۳] وَمُعاوِیهُ بنْ وأَبی سُفیانِ، قاضِی عَلَی
بن أَبِی طَالبٍ عَلَی أَهْلِ العِراقِ وَمنْ کَانَ مَعَهُ مِنْ شیعَتِهِ مَنَ المُؤمِنِینَ وَالمسلِمِینَ وَقاضِی مُعاوِیهُ بنْ وأَبِی سُفیانِ عَلَی أَهْلِ الشّام وَمنْ کَانَ مَعَهُ مِنْ شیعَتِهِ مَنَ المُؤمِنِینَ وَالمسلِمِینَ أَنّا نَنْزِلَ عِنْدَ حُکم اللَّهِ وَکِتابِهِ وَلا یَجمَعُ بَینَنا إلّاإیّاهُ وإنَّ کِتابَ اللَّهِ سُبحانَهُ بَینَنا مِنْ فَاتِحَتِهِ إلی خاتِمَتِهِ نُحیی مَا أَحیا القُرآنُ ونُمیتُ مَا أَماتَ القُرآنُ فإنْ وَجِدَ الحَکَمانِ أَنَّ ذَلِکَ فِی کِتَابَ اللَّهِ إتَّبعنَاهُ وإن لَمْ یَجِداه أَخذا بِسُنَّهِ العادِلَهِ غَیر المُفَرِّقَهِ وَالحَکَمَانِ عبْدَاللَّهِ بن قَیْسٍ وَعَمرو بنْ العاصِ»[۳۵۴].
وقد نقل هذا الصلح أو العهد (أو مهما سمیته) فی مختلف الکتب مع اختلاف طفیف، وکلها تشیر إلی أنّ المسألة کانت مسألة تحکیم القرآن الکریم لا ـ تحکیم الأشـخاص، وبعبـارة أخری فـانّ الأشـخاص کـانوا مکلّفین باسـتنباط ما فی القرآن بهـذا الشأن وتطبیقه علی مصادیقه، بینما اعتبرها الخوارج تحکیم للأفراد فی دین اللَّه فأثاروا مختلف الویلات والمأسی التی أفرزتها الجهل والحماقة.

۲- حوار الإمام علیه السلام مع الخوارج

روی أنّ أمیر المؤمنین علی علیه السلام أرسل عبداللَّه بن عباس إلی الخوارج وکان بمرآی منهم
نفحات الولایة، ج۵، ص: ۱۹۲
ومسمع لیسألهم ما الذی نقموا علیه؟ فقالوا فی الجواب: نقمنا یابن عباس علی صاحبک خصالًا کلها موبقة مکفرة تدعو إلی النار:
أمّـا أولهـا: فـانّه محی اسـمه من إمرة المؤمنین، ثم کتب بینه وبین معاویـة فإذا لم یکن أمیر المؤمنین فنحن المؤمنون فلسـنا نرضـی أن یکون أمیرنا.
وأمّا الثانیة: فانّه شک فی نفسه حین قال للحکمین: انظر فانّ کان معاویه أحق بها فأثبتاه، وإن کنت أولی بها فأثبتانی، فاذا هو شک فی نفسه، فنحن فیه أشدّ شکاً.
والثالثة: أنّه جعل الحکم إلی غیره وقد کان عندنا أحکم الناس.
الرابعة: أنّه حکّم الرجال فی دین اللَّه ولم یکن ذلک إلیه.
الخامسة: أنّه قسم بیننا الکراع والسلاح یوم البصرة ومنعنا النساء والذریة.
السادسة: أنّه کان وصیّاً فضیّع الوصیّة.
قـال ابن عبـاس: قـد سـمعت یـا أمیر المؤمنین مقالـة القوم فـأنت أحق بجوابهم. فقـال علیه السـلام: نعم، ثم قال له: قل لهم بابن عباس أترضون حکم اللَّه ورسوله؟ فقـالوا: بلی، ثم قـال: أمّـا الاولی فقـد کتبت عهـد الصـلح یوم الحدیبیـة «بسم اللَّه الرحمن الرحیم هـذا ما اصـطلح علیه رسول اللَّه وأبوسـفیان وسـهیل بن عمرو» فقـال سـهیل: إنـا لاـ نعرف الرحمن الرحیم أولًا، وثانیاً ولا نقرّ أنّک رسول اللَّه، وثالثاً ولکنّا نحسب ذلک شرفاً لک أن تقدّم اسمک قبل أسمائنا. إن کنّا أسن منک، فأمرنی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله أن أکتب بدلًا من «بسم اللَّه الرحمن الرحیم» «بسمک اللهم» وبدلًا من «رسول اللَّه» «محمد بن عبداللَّه»، ثم قال لی: إنّک تدعی إلی مثلها فتجیب وأنت مکره، وهکذا کتبت بینی وبین معاویة وعمرو بن العاص، فقال الخوارج: هذه لک خرجت منها.

وأمّا الثانية إنّى شككت فى نفسى حيث قلت للحكمين: انظروا فان كان معاوية أحق بها منى فأثبتاه، فان ذلك لم يكن شكا منّى فقد قال القرآن: «وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ»[۳۵۵].

ولم يكن ذلك شكاً وقد علم اللّه أنّ نبيّه على الحق، فقالوا: وهذا لك، وأمّا قولكم أنّى جعلت الحكم إلى غيرى وقد كنت عندكم أحكم الناس، فهذا رسول اللّه صلى الله عليه و آله قد جعل الحكم إلى سعد

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۹۳

يوم بنى قريظة وقد كان أحكم الناس، وقد قال اللّه تعالى: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً»[۳۵۶]، قالوا: وهذه لک بحجتنا، قال وأمّا قولكم إنّى حكمت فى دين اللّه الرجال، فما حكّمت الرجال ولكن حكّمت كلام ربّى فقال فى الصيد عند الاحرام:

«وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنْ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ»[۳۵۷]

، فدماء المسلمين أعظم من دم طائر، قالوا: وهذه لک، قال وأمّا قولكم: إنّى قسمت يوم البصرة الكراع والسلاح ومنعتكم النساء والذرية، فانى مننت على أهل البصرة كما منّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله على أهل مكة، وبعد فأيّكم كان يأخذ عائشة فى سهمه، قالوا: وهذه لک بحجتنا قال وأمّا قولكم إنّى كنت وصيّاً فضيّعت الوصيّة، فأنتم كفرتم وقدّمتم علىَّ وأزلتم الأمر عنّى ...

قالوا: وهذا لک وإثر ذلک رجع بعضهم وبقى منه أربعة آلاف فقاتلهم فقتلهم.[۳۵۸]

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۹۵

الخطبة[۳۵۹] المأة والسادسة والعشرون

اشارة

وَمِنْ كَلام لَهُ عليه السلام

لَمَّا عُوتِبَ على التَّسوِيَةِ فِى الْعَطاء

نظرة إلى الخطبة

يبدو الهدف من هذه الخطبة كما يفهم من عنوانها هو جواب الإمام عليه السلام لمن أشار عليه باغداق أموال بيت المال على الأشراف وزعماء القبائل الذين يمكنهم التأثير على الحكومة، فيعطيهم سهماً أكثر من غيرهم ويميزهم بالعطاء، وذلک من أجل ترسيخ حكومته، وقد تضمنت إجابة الإمام عليه السلام الإشارة إلى أمرين:

الأول: ليس لى قط ترسيخ دعائم حكومتى من خلال الظلم والجور والتمييز بين الناس وإعطاء حق أحد لآخر، فلا يسعنى بلوغ الحق والعدل بواسطة المعصية.

الثانى: أنّ من يمارس هذا الفعل فانّ عاقبته جحود اولئک الأفراد الذين أغدق عليهم.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۹۷

«أَتَأْمُرُونِّى أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ! وَاللَّهِ لَاأَطُورُ بِهِ مَا سَمَرَ سَمِيرٌ، وَمَا أَمَّ نَجْمٌ فِى السَّمَاءِ نَجْماً! لَوْ كَانَ الْمَالُ لِى لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ، فَكَيْفَ وَإِنَّمَا الْمَالُ مَالُ اللَّهِ! أَلَا وَإِنَّ إِعْطَاءَ الْمَالِ فِى غَيْرِ حَقِّهِ تَبْذِيرٌ وَإِسْرَافٌ، وَهُوَ يَرْفَعُ صَاحِبَهُ فِى الدُّنْيا وَيَضَعُهُ فِى الْآخِرَةِ، وَيُكْرِمُهُ فِى النَّاسِ وَيُهِينُهُ عِنْدَ اللَّهِ. وَلَمْ يَضَعِ امْرُؤٌ مَالَهُ فِى غَيْرِ حَقِّهِ وَلَا عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ إِلَّا حَرَمَهُ اللَّهُ شُكْرَهُمْ، وَكَانَ لِغَيْرِهِ وُدُّهُمْ. فَإِنْ زَلَّتْ بِهِ النَّعْلُ يَوْماً فَاحْتَاجَ إِلَى مَعُونَتِهِمْ فَشَرُّ خَلِيلٍ وَأَلْأَمُ خَدِينٍ!».

الشرح والتفسير

المنصب والعدالة

أورد المرحوم الكلينى فى بدايـة نقله لهـذه الخطبة عن أبى مخنف أنّ جماعة من شـيعة أميرالمؤمنين عليه السـلام اقترحوا على تقسـيم أموال بيت مال المسـلمين على الزعماء والأشـراف (فى أن يعطيهم من سـهمهم) لتستقر الحكومة ومن ثمّ يعود إلى التسوية فى العطاء، فانزعج الإمام عليه السلام وأورد هذه الخطبة ليوضح لهم عدم إمكانية الوصول إلى هدف مقدّس من خلال وسيلة ليست مقدّسة، فهذ الأمر لا ينسجم مع تعاليم الإسلام فقال:

«أَتَأْمُرُونِّى أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ!».

أو ليس الهـدف من الحكومـة هو بسط العـدل والقسط؟ كيف تقترحون علىّ تثبيت هذه الحكومة بالظلم والجور؟ هذا تناقض واضـح للعيان، وهو أمر لا يرتضيه الحق تبارك وتعالى.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۹۸

ثم أضاف عليه السلام قائلًا:

«وَاللَّهِ لَاأَطُورُ[۳۶۰] بِهِ مَا سَمَرَ سَمِيرٌ[۳۶۱]، وَمَا أَمَّ ۳۶۲] نَجْمٌ فِى السَّمَاءِ نَجْماً!».

فقد بيّن الإمام عليه السـلام رسوخ عزمه بهذا الشأن بعبارات صـريحة وقوية، فهو يقسم من جانب، ويسـتعمل العبارة لا أطور من جانب آخر، والمراد ليس فقط لا أفعل هـذا، بل لا أقاربه ولا أحوم حوله، إلى جانب ذلك أشار إلى الحركـة المتواصلة والأبديـة للنجوم فى السـماء والليل والنهار فى الأرض، كنايـة عن مراده لو كان عمرى خالداً فلست مسـتعداً للمارسة مثل هذا الظلم والتميز، ثم أكّد ذلك بقوله:

«لَوْ كَانَ الْمَالُ لِى لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ، فَكَيْفَ وَإِنَّمَا الْمَالُ مَالُ اللَّهِ!».

فالعبارة وإن بدت صـعبة على الأفراد الذين ليس لهم بُعد نظر واولئك الذين يضـحون بالحق والحقيقة من أجل المصـلحة، إلّاأنّ الحق هو أنّ هذه العبارة إنّما تتفق وسنّة رسول اللّه صلى الله عليه و آله وتعاليم القرآن الكريم والقيم الإسلامية العليا، وهذا ما سنعرض له فى البحث القادم.

ثم أشار الإمام على عليه السلام إلى مفاسد الظلم والجور والتقسيم غير العادل لأموال بيت المال فقال:

«أَلَا وَإِنَّ إِعْطَاءَ الْمَالِ فِى غَيْرِ حَقِّهِ تَبْذِيرٌ وَإِسْرَافٌ، وَهُوَ يَرْفَعُ صَاحِبَهُ فِى الدُّنْيَا وَيَضَعُهُ فِى الْآخِرَةِ، وَيُكْرِمُهُ فِى النَّاسِ وَيُهِينُهُ عِنْدَ اللَّهِ».

قد يكون التبذير والاسـراف بمعنى واحد ويرادف كلّ منهما الآخر تارة، وتارة أخرى بمعنيين، لأنّ التبذير بالمعنى الواقعى يختلف عن الاسـراف، فالتبـذير من مادة بذر بمعنى نثر البذور وتسـتعمل حين يضـيع الإنسان نعمة اللّه ويطرحها جانباً، وبعبارة أخرى ينفق الأموال فى غير موضعها، أمّا الاسراف فهو المبالغة فى إستهلاك النعم بحيث يخرج من حالة الإعتدال

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۹۹

دون أن يضـيع شـيئاً ظاهرياً، كأن يعد طعاماً كثيراً للغاية وفاخراً لبضعة أفراد، بينما يمكن إطعام عشرات الأفراد بتلك القيمة، فقد أشار الإمـام عليه السـلام فى هـذا المقطع من خطبته إلى الآثـار المعنويـة السـيئة لصـرف الأـموال فى غير مواضـعها، حيث يمكن أن يحظى الإنسـان فى ظلها بمكانـة معينـة إلى أجل بين الناس، بينما يسـقط بالمرء أمام اللّه ويعرض نفسه لأشـد العقاب فى يوم الجزاء، وأمّا نعته مثل هـذا العطاء بالتبـذير والاسـراف، فـذلك لأنّه يؤدّى إلى اشاعة التبذير والإسـراف فى وسط المجتمع، فاولئك الذين يأخذون أكثر من الحـدّ اللازم، لا يسـعهم غالباً إفاضـة جزء منه على الآخرين، كما لا يسـتطيعون احتماله بأنفسـهم، فلا مناص من بروز حالـة التبـذير

والإسراف.

ثم إختتم الإمام عليه السلام خطبته بالإشارة إلى الآثار الدنيوية السيئة لذلك العمل فقال:

«وَلَمْ يَضَعِ امْرُؤٌ مَالَهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ وَلَا عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ إِلَّا حَرَمَهُ اللَّهُ شُكْرَهُمْ، وَكَانَ لِغَيْرِهِ وُدُّهُمْ.

فَإِنْ زَلَّتْ بِهِ النَّعْلُ يَوْماً فَاحْتَاجَ إِلَى مَعُونَتِهِمْ فَشَرُّ خَلِيلٍ وَأَلْأَمُ خَدِينٍ ۳۶۳]!».

والعبارة ألأم خدين إشارة إلى أنّ اولئك الأفراد الذين أحسن إليهم ليس فقط لا يقدمون المساعدة لمن أحسن إليهم فى يوم عوزه فحسب، بل تبلغ بهم الوضاعة واللؤم أن يتحولوا إلى ذامّين، أمّا ما فهمه بعض شرّاح نهج البلاغة من أنّ العبارة تعنى اللوم والتوبيخ، فلعل ذلك كون الصديق هو المصداق الواضح للوضاعة حين الحاجة، وقد دلّ التاريخ والتجارب الشخصية كراراً ومراراً على أن أغلب الظلمة والأثرياء الذين يغدقون الأموال على أصدقائهم، لم يمهد أحد لهم يد العون حين ذاقوا وبال أعمالهم، بل نفر عنهم أقرب أصدقاؤهم القدماء، ولعل بيت الشعر المعروف للشاعر المشهور حافظ الشيرازى والذى تتناقله الألسن ومضمونه «أنى لم أتأثر قط بما يفعله الأجانب، بقدر ما أتأثر مما يفعله الصديق) إشارة إلى هذا المعنى.

بحث فى اسلوب تقسيم العطاء

يستفاد من هذه الخطبة الشريفة أنّ الإمام عليه السلام كان شديد الحرص على تقسيم أموال بيت

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۲۰۰

مال المسلمين بينهم بالسوية دون أن يكون هناك أدنى امتياز لشريف على وضيع وشخصية سياسية واجتماعية وحتى السابقين فى الإسلام، بل حتى أهل الحاجة على أحد من الناس، وهذا ما كانت عليه الحال على عهد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ويبدو أنّه كان النهج الذى اعتمده الخليفة الأول أيضاً، حتى خلافة عمر حيث إتّبع التمييز والاخذ بنظر الاعتبار الامور السياسية والاجتماعية فى تقسيم بين المال.

قال ابن أبى الحديد: أمّا عمر فانّه لما ولّى الخلافة فضل بعض الناس على بعض، ففضّل السابقين على غيرهم، وفضّل المهاجرين من قريش على غيرهم من المهاجرين، وفضّل المهاجرين كافة على الأنصار كافة، وفضلّ العرب على العجم، وفضّل الصريح على المولى، وقد كان أشار على أبى بكر فى أيّام خلافته بذلك، فلم يقبل وقال هذا خلاف كتاب اللَّه، ولما ولّى عثمان الخلافة بلغ التمييز قمته، فقد فضّل آنذاك كافة قرابته وبطانته، فقسم بينهم أغلب أموال بيت المال ۳۶۴]، وقد ذكر العلّامة الأمينى رحمه الله فى المجلد الثامن من كتابه الغدير الصفحة (۴۸۶) عنواناً أسماه (الفوضى فى مال اللَّه) جمع فيه الأرقام الدقيقة التى روتها مختلف مصادر العامّة بشأن هباته إلى قبيلته وأعوانه، وهى الأرقام التى تذهل كلّ إنسان حين يتأملها، فكان هذا أحد العوامل التى دعت الناس للقيام عليه، كما أنّ رفع هذه الامتياز من قبل الإمام عليه السلام كان أحد العوامل التى جعلت زعماء القبائل يتمردون عليه (كما يفهم من هذه الخطبة وسائر خطب نهج البلاغة)[۳۶۵].

والطريف فى الأمر أنّ أصحاب الإمتيازات فى ذلك الزمان لم يخفوا هذا الأمر، كما نقل ذلك الطبرى فى تاريخه، حيث قال رجل لأبى عبدالرحمن السلمى (الذى كان معروفاً آنذاك)[۳۶۶]:

ناشدتك اللَّه متى عاديت علياً عليه السلام أليس ذلك حين قسم العطاء ولم يعطك وأهلك شيئاً (وقد استغلوا بيت المال قبل ذلك)؟

قال أبو عبدالرحمن: بلى هو كذلك.[۳۶۷]

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۲۰۱

على كلّ حال لابدّ من بحث جذور مسألة المساواة التى تأكدت على عهد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وعلى عليه السلام، قطعاً إن ذلك يعود إلى ماهية الأموال التى كانت ترد بيت المال، وتوضيح ذلك أنّ الأموال التى كانت ترد بيت المال تستند إلى نواحى:

الأولى: غنائم الحرب وتعلم أنّ ليس هناك أى تفاوت بين المقاتلين بخصوص الغنائم الحربية، سوى أنّ الفارس كان يأخذ ضعف الراجل (بسبب التكاليف المتعلقة بالمركب، فهم الذين كانون يعدونه، إضافة إلى دور الفارس مقارنة بدور الراجل فى المعركة).

الثانية: أموال الخراج وهى الأموال المتعلقة بالأراضى الإسلامية والتى كانت تشكل أغلب بين المال على عهد الخلفاء، فهذه الأموال تتعلق بجميع المسلمين ولابدّ من تقسيمها بالسوية عليهم، وذلك لأنّ أراضى الخراج ملك لعامّة المسلمين وينبغى توزيعها عليهم بالسوية، حيث يتقسم دخل الملك المشاع بالتساوى على جميع المالكين، لأنّ سهم ملكية الجميع متساوى.

الثالثة: الجزية والأموال التى تجبى من غير المسلمين إزاء ما يتمتعون به من دعم وحماية من جانب الحكومة الإسلامية إلى جانب حفظ أموالهم وأعراضهم، ويرى طائفه من كبار الفقهاء أنّ مصاريف الجزية هى مصارف الخراج المتعلقة بجميع المسلمين.

الرابعة: الزكاة التى تفرض على بعض الأجناس بمقدار معين وقد تكفل القرآن الكريم ببيان مصاريفها الثمانية، وقد قسمت بصورة عامّة إلى الفقراء، والمساكين، حسب حاجتهم وفى موارد مصاريف الجهاد حسب الحاجات، وعليه فالمعيار فى تقسيمها الحاجة لا المساواة.

الخامسة: الخمس وهى الأموال المفروضة على كافة الإيرادات بعد طرح التكاليف ومخارج السنة، وعلى وضوء ما أورده القرآن الكريم والروايات فانّ الخمس نصفان، نصف يتعلق بأهل الحاجة من بنى هاشم، والنصف الآخر بإمام المسلمين والذى ينفقه فى حاجيات الحكومة الإسلامية.

السادسة: الأنفال التى تشمل جميع الأموال التى ليس لها ملكية خاصة كالأراضى الموات والبساتين وبعض المعادن وسواحل البحار والأرضى البوار التى غادرها أصحابها وانصرفوا عنها، فهى الأخرى جزء من أموال الدولة وتتعلق بجميع المسلمين، ولكل مصدر من المصادر

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۰۲

الست الماضية بحث مفصّل ورد فى الكتب الفقهية مثل كتاب الخمس وكتاب الزكاة وكتاب الجهاد.

وهنا يطرح هذا السؤال: أى من هذه الأموال الست التى ينبغى توزيعها بصورة مساوية بين المسلمين وقد عمل بذلك رسول اللَّه صلى الله عليه و آله واستمر العمل بها حتى فى زمان الخليفة الأول، وواصلها الإمام على عليه السلام إحياءً للسنّة بعدما إندرست على عهد الخليفة الثانى والثالث؟

يبدو أنّ تلك الأموال هى أموال الخراج (ويحتمل إلحاق الجزية بها) والتى كانت تشكل فى ذلك الزمان القسم الأعظم من بيت المال، وقد كانت إلى درجة من الكثرة بحيث لم تكن هناك من أهميّة لسائر موارد بيت المال فى مقابلها، ولذلك فانّ أحد البرامج الرئيسية للولاة الذين يتجهون إلى مختلف المناطق جباية الخراج، ويستفاد هذا المعنى من أغلب الرسائل الواردة فى نهج البلاغة، ومن ذلك عهد الإمام عليه السلام إلى مالك الأشتر رضى الله عنه ورسالته عليه السلام إلى مصقلة بن هبيرة (الرسالة ۵۳ و ۴۳).

وبناءاً على ما تقدم فانّ وزع قسم آخر من أموال بيت المال بصورة غير متساوية على أساس مصالح المسلمين والحكومة الإسلامية على ضوء المدارك الفقهية، فليس هناك من منافاة مع ما ورد فى هذه الخطبة وأمثالها.

أضف إلى ذلك فانّ هناك تقسيماً لأموال بين المال على أساس مصالح المسلمين والخدمات التى يقوم بها بعض الأفراد، لا على أساس المصالح الشخصية كما كان يفعل ذلك معاوية، حيث كان يشترى زعماء القبائل بما يغدق عليهم من أموال، حتى كان يغرر ببعض الأفراد ضعاف الإيمان من جيش الإمام عليه السلام فيغريهم بما ينفقه عليهم من أموال كثيرة[۳۶۸]، وهذا بحدّ ذاته يمثل جناية عظمى لا يمكن تداركها والإغماض عنها، وقد كان الإمام عليه السلام كما ورد فى هذه الخطبة يتنفر من هذا العمل، وقد غضب بشدّة على من اقترح عليه استمالة الأشراف وزعماء القبائل بالأموال.

وبالطبع فانّ هذه مدرسة الأحرار والأتقياء الأوفياء التى كانت وما زالت تتضاد ومدرسة سماسرة السياسة وعبدة المناصب وأسرى

الأهواء.

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۲۰۳

الخطبة[۳۶۹] المأة والسابعة والعشرون

اشارة

وَمِنْ کَلام لهُ علیه السلام

وفیه یبیّن بعض أحکام الدین

ویکشف للخوارج الشبهة وینقض حکم الحکمین

نظرة إلی الخطبة

خاطب الأمام علیه السلام الخوارج بهذه الخطبة، رغم عمومیة نفع الخطبة، تتألف الخطبة من عدّة أقسام، فنّد الإمام علیه السلام فی القسم الأول عقیدة الخوارج فی تکفیر مرتکب الکبیرة وحکمهم بقتل عامّة امّة النبی صلی الله علیه و آله، وذلک من خلال الأدلة المحکمة، وأشار علیه السلام فی القسم الثانی إلی غفلة الخوارج وجهلهم وسلوکهم المفرط فی عدوانهم، بینما أفرط البعض الآخر منهم فی موالاتهم، فکلاهما علی ظلالة، والقسم الثالث تضمن التأکید علی متابعة جمیع المسلمین وعدم الإنفراد عنهم والتحذیر من الفرقة، وأنّ شعار الخوارج هو شعار مضل وخطیر، وأخیراً القسم الرابع وهو إشارة إلی خطأ الحکمین، کما یوضح أن وظیفة الحکمین العمل بأحکام القرآن، ولکنّهم ضلوا الطریق، وعلیه فلیست هنالک أیة قیمة لحکمهم.

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۲۰۵

القسم الأول: العنف الهمجی للخوارج

اشارة

«فَإِنْ أَبَیْتُمْ إِلَّا أَنْ تَزْعُمُوا أَنِّی أَخْطَأْتُ وَضَلَلْتُ، فَلِمَ تُضَلِّلُونَ عَامَّةَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّی اللَّهُ عَلَیْهِ وَآلِهِ، بِضَلَالِی، وَتَأْخُذُونَهُمْ بِخَطَئِی، وَتُکَفِّرُونَهُمْ بِذُنُوبِی! سُیُوفُکُمْ عَلَی عَوَاتِقِکُمْ تَضَعُونَهَا مَوَاضِعَ الْبُرْءِ وَالسُّقْمِ، وَتَخْلِطُونَ مَنْ أَذْنَبَ بِمَنْ لَمْ یُذْنِبْ. وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلی الله علیه و آله رَجَمَ الزَّانِیَ الُمحْصَنَ، ثُمَّ صَلَّی عَلَیْهِ، ثُمَّ وَرَّثَهُ أَهْلَهُ؛ وَقَتَلَ الْقَاتِلَ وَوَرَّثَ مِیرَاثَهُ أَهْلَهُ.

وَقَطَعَ السَّارِقَ وَجَلَدَ الزَّانِیَ غَیْرَ الُمحْصَنِ، ثُمَّ قَسَمَ عَلَیْهِمَا مِنَ الْفَیْءِ، وَنَکَحَا الْمُسْلِمَاتِ؛ فَأَخَذَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صلی الله علیه و آله، بِذُنُوبِهِمْ، وَأَقَامَ حَقَّ اللَّهِ فِیهِمْ، وَلَمْ یَمْنَعْهُمْ سَهْمَهُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَلَمْ یُخْرِجْ أَسْمَاءَهُمْ مِنْ بَیْنِ أَهْلِهِ».

الشرح والتفسیر

هذا المقطع من الخطبة ناظر إلی الردّ علی شبهات الخوارج التی لحقت بهم بفعل جهلهم وتعصبهم وتقلیدهم الأعمی، فهم یعتقدون بکفر من إرتکب الکبیرة، والکافر یجب قتله، فقد صنعوا لأنفسهم صغری وکبری وعلی أساسهما أجازوا لنفسهم قتل أی فرد من أصحاب علی علیه السلام أینما وجدوهم، ومن هنا حمل هؤلاء الضالون المتعطشون لدماء الأبریاء سیوفهم علی عواتقهم لیسفکوا دماء من شاءوا من الأبریاء فی مختلف مناطق البلاد الإسلامیة، فأتوا بالأفعال الشنیعة التی یندی لها جبین التاریخ، نعم لقد ابتکروا لأنفسهم صغری وکبری وقالوا:

إن علیاً علیه السلام قبل تحکیم الأفراد فی مقابل القرآن، وعلیه فقد إرتکب الذنب، وکل من إرتکب الذنب فهو کافر، واتباع علی

عليه السلام كذلك فهم كفرة، والكافر يجب قتله وقد رد الإمام على عليه السلام

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۰۶

بالعبارة المذكورة على خطأهم ليتم الحجة عليهم، فلو فرض (وفرض المحال ليس بمحال) أنّه ضل فما الذى يدعو إلى الحكم بضلالة كافة امّة محمد صلى الله عليه و آله بضلاله:

«فَإِنْ أَبَيْتُمْ إِلَّا أَنْ تَزْعُمُوا أَنِّی أَخْطَأْتُ وَضَلَلْتُ، فَلِمَ تُضَلِّلُونَ عَامَّةَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّی اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، بِضَلَالِی، وَتَأْخُذُونَهُمْ بِخَطَئِی، وَتُكَفِّرُونَهُمْ بِذُنُوبِی!».

ثم واصل كلامه بالقول:

«سُيُوفُكُمْ عَلَى عَوَاتِقِكُمْ ۳۷۰] تَضَعُونَهَا مَوَاضِعَ الْبُرْءِ وَالسُّقْمِ،

وَتَخْلِطُونَ مَنْ أَذْنَبَ بِمَنْ لَمْ يُذْنِبْ».

فهذا العبارات تتضمن إشارة إلى عدّة أجوبة: الأول بطلان التصور القائم على أنى أحطأت وضللت، فأولًا: أنّى قبلت التحكيم بفعل ضغوطكم، وثانياً: لو تمّ التحكيم بصورة صحيحة لكان مطابقاً للقرآن، فالواقع أنّ الحكم هو القرآن، ومن ينهض بالتحكيم إنّما يرجع إلى القرآن ويستنبط منه حكم اللَّه سبحانه، فيطبق الكليات على مصاديقها، كما مرّ ذلك فى الخطب السابقة، وعليه فليس هنالك من عمل مخالف حكم اللَّه حتى يؤدّى إلى الخطأ والضلالة، ثالثاً:

على فرض أنّى إرتكبت خلافاً فما معنى حمل ذلك على سائر المسلمين؟ لم تكفرونهم وتريقون دماء الأبرياء؟ أى قانون هذا الذى تتمسكون به؟ وبأى شرع تؤمنون؟

ثم إتّجه الإمام عليه السلام صوب خطأهم الأصلى المتمثل بقولهم كل مذنب كافر، فردّ عليهم ردّاً قاطعاً فقال:

«وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه و آله رَجَمَ الزَّانِیَ الْمُحْصَنَ، ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهِ، ثُمَّ وَرَّثَهُ أَهْلَهُ؛ وَقَتَلَ الْقَاتِلَ وَوَرَّثَ مِيرَاثَهُ أَهْلَهُ. وَقَطَعَ السَّارِقَ وَجَلَدَ الزَّانِیَ غَيْرَ الْمُحْصَنِ، ثُمَّ قَسَمَ عَلَيْهِمَا مِنَ الْفَیْءِ، وَنَكَحَا الْمُسْلِمَاتِ؛ فَأَخَذَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه و آله، بِذُنُوبِهِمْ، وَأَقَامَ حَقَّ اللَّهِ فِيهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ سَهْمَهُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَلَمْ يُخْرِجْ أَسْمَاءَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ».

فقد أراد الإمام عليه السلام عدّة شواهد من سنّة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله تؤكد وضوح خطأ الخوارج، الأول أنّ النبى صلى الله عليه و آله كان يعدم الزانى والقاتل، ثم يصلّى عليهما ويورّث أهلهما، لو كفر هؤلاء بارتكابهم الزنا وقتل النفس لما وجب توريث أهلهم لهم حسب عقيدتكم، لأنّ المسلم لا يرث الكفّار، (هذه عقيدة أغلب فقهاء العامّة)، كما حدّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله سائر المذنبين كالسارق

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۰۷

والزانى غير المحصن، فقطع يد الأول وجلد الثانى، لكنّهم بقوا فى صفوف المسلمين فأجازهم جميع الأحكام الإسلامية كالزواج من المسلمات وأخذهم سهمهم من بيت المال، والحال لا تجرى عليه أى من هذه الأحكام إن كفر بارتكاب الكبيرة.

تأمّلات

۱- الخوارج وتكفير أهل الذنوب

يستفاد من هذه الخطبة أنّ الخوارج يعتقدون بأنّ إرتكاب الكبيرة يوجب الخروج من دين الإسلام، بناءاً على هذا فمن إرتكب الكبيرة وكان قبل ذلك مسلماً فهو مرتد يجب إعدامه، وقد استدلّ هؤلاء الجهّال بظاهر بعض آيات القرآن التى لم يدركوا مفهومها، ومن ذلك الآية الشريفة ۹۷ من سورة آل عمران بشأن تارك الحج والتى تقول: «وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْ الْعَالَمِينَ»، والآية ۴۴ من

المائدة: «وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأوْلَئِکَ هُمْ الْكَافِرُونَ»، والآيه ۲۳ من سورة الجن التي تحدثت عن المذنبين جمعاء: «وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَد».

فقد أطلقت هذه الآيات على بعض المذنبين كلمة الكفر أحياناً، وأحياناً أخرى الخلود فى جهنم الذى يختص بالكفّار، وقد غفلوا عن أنّ مفردة الكفر فى اللغة واصطلاح الشرع لا- تعنى على الدوام الخروج من الإسلام، بل الكفر درجات ومراحل: فقد يكون بمعنى إرتكاب الذنب، ويكون أحياناً أخرى بمعنى إنكار اللّه والعقائد الدينية، وبعبارة أخرى الكفر بمعنى مجانبة الحق أو ستره وهو على مراحل ودرجات، ولكل أحكامه الخاصة، كما للإيمان درجات، لكل منها أحكامه الخاصة، فقد ذكر الإمام الصادق عليه السلام فى الرواية المعروفة فى اصول الكافى خمسة معانى للكفر الوارد فى القرآن، أحدهما: أنّ الكفر بمعنى ترك أوامر اللّه والعصيان، ثم يورد الإمام شواهد من القرآن الكريم على هذه المعانى الخمسة[۳۷۱].

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۲۰۸

وأوضح دليل على بطلان هذه العقيدة ما أورده أمير المؤمنين على عليه السلام فى هذه الخطبة من كثرة عدد المذنبين فى عصر النبى الأكرم صلى الله عليه و آله والذين كان يقيم عليهم الحد، مع ذلک كان يجرى عليهم كافة أحكام الإسلام، حتى وإن لم يتوبوا من قبيل إقامة صلاة الميت والدفن فى مقابر المسلمين وأحكام الارث، ومن كان حياً بعد إقامة الحد؛ أجرى عليه سائر الأحكام كأخذه لسهمه من بيت المال والزواج من المسلمات وأمثال ذلک، هذه هى سيرة رسول اللّه صلى الله عليه و آله والتى تواصلت فى العهود اللاحقة حتى عصرنا الحاضر بين جميع مسلمى العالم والتى تدل على أن مرتكب الكبيرة ليس بكافر بمعنى خروجه من الإسلام قط، وليس فقط لا يراق دمه فحسب، بل هناک ديّة على أدنى جرح يعرّض له.

۲- جانب من جنايات الخوارج

إنّ أدنى مطالعة لجانب من التاريخ المظلم للخوارج تكفى لأن نقف على مدى فضاعة الفئة التى وقفت بوجه أمير المؤمنين على عليه السلام، والأسباب التى عاقت برامجه عليه السلام فى النهوض بالامّة، فليست هنالک فئة تشبه الخوارج شهدها التاريخ، فهى فئة متعصبة عاشت جميع التناقضات ويسفكون الدماء بكل بساطة ولا- يرحمون كبيراً ولا- صغيراً حتى الجنين فى بطن امّه، كما وصفهم أمير المؤمنين عليه السلام فى هذه الخطبة حيث وضعوا سيوفهم على عواتقهم فيريقون دم من يريدون، ولم يأمن أحد فى منطق حكومتهم التى لم تدم طولًا لحسن الحظ، وكأنّهم يرون أنفسهم المالكين والناس عبيد فلهم أن يفعلوا بهم ما يشاؤون من قتل وتعذيب وتشريد.

قال ابن أبى الحديد فى شرحه لنهج البلاغة: حين مضى الخوارج إلى النهروان أصابوا فى طريقهم مسلماً ونصرنياً، فقتلوا المسلم لأنّه عندهم كافر، إذ كان على خلاف معتقدهم، واستوصوا بالنصرانى، قالوا: احفظوا ذمّة نبيّكم، ونحو ذلک أنّ واصل بن عطاء (وهو من مشاهير علماء عصره) أقبل فى رفقة فأحسوا بالخوارج، فقال واصل لأهل الرفقة: إنّ هذا ليس من شأنكم فاعتزلوا ودعونى وإيّاهم، فقالوا: شأنک، فخرج إليهم، فقالوا: ما أنت وأصحابک؟ فقال: قوم مشركون مستجيرون بكم، ليسمعوا كلام اللّه، ويفهموا حدوده، قالوا:

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۲۰۹

قد أجرناكم، قال واصل: فعلمونا، فجعلوا يعلمونهم أحكامهم، ويقول واصل: قد قبلت أنا ومن معى، قالوا: فمضوا مصاحبين فقد صرتم إخواننا.

فقال: بل تبلغوننا مأمننا لأنّ اللّه تعالى يقول: «وَإِنْ أَحَدٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَکَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِکَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَايَعْلَمُونَ»[۳۷۲].

فنظر بعضهم إلى بعض، ثم قالوا: ذاک لكم، فساروا معهم بجمعهم حتى أبلغهم المأمن ۳۷۳].

ومعروفة هی قصة قتلهم صحابی النبی صلی الله علیه و آله المعروف: عبداللّه بن خباب وقتلهم لإمرأته وهی حامل، وقد عرضنا لشرح ذلک سابقاً، وهذا غیض من فیض جرائم الخوارج، هذا فی الوقت الذی إذا قتل أحدهم خنزیراً، واعترضوا علیه علی وأن ذلک فساد فی الأرض وأنکروا قتل الخنزیر[۳۷۴]، یبدو أنّ الجهل والتعصب والعجب هی العوامل الأصلیة لظهور هذه الفئة السفّاکة التی لا تتورع عن إرتکاب أیة جریمة وجنایة، أو لیس جزاء هؤلاء تلک الحملات المتتالیة التی شنها علیهم جیش الإمام علی علیه السلام بعد إتمام الحجّة وتوبة المخدوعین منهم، لکی لا تبقی لهم من باقیة، کما حدث فی النهروان؟!

۳- الردّ علی سؤال

تصدی الإمام علیه السلام فی الخطبة المذکورة للردّ علی الخوارج الذین یقولون بکفر من إرتکب الکبیرة، فی أنّ ذلک خلاف سیرة رسول اللّه صلی الله علیه و آله فی إقامته للحدود علی مرتکبی الکبائر، وفی الموارد التی تتطلب إعدام صاحبها من قبیل قصاص القاتل، فقد کان یحکم بقتلهم ویورثهم أهلهم من المسلمین.

هذا فی الوقت الذی نعتقد فیه علی ضوء مذهبنا بأنّ المسلم لا یرث الکفّار وعلیه فان إیصال إرثهم إلی وارثهم المسلمین لیس دلیلًا علی نفی کفرهم، وللإجابة علی هذا السؤال لابدّ

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۲۱۰

من القول بأنّ الإمام علیه السلام أورد هذا الکلام طبق مذهب أغلب العامّة والخوارج الذین یعتقدون بعدم إرث الکافر للمسلم ولا المسلم من الکافر، وبناءاً علی هذا فقد استدلّ علی ضوء مسلمات مذهبهم، أمّا مذهب أهل البیت علیهم السلام الکافر لا یرث المسلم بینما یرث المسلم الکافر، للروایة الواردة عن أهل البیت علیهم السلام

: «إنَّ الإسلامَ لَم یَزد المسُلِمَ إلّاعِزّاً فِی حَقِّهِ»[۳۷۵].

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۲۱۱

القسم الثانی: شر الناس

اشارة

«ثُمَّ أَنْتُمْ شِرَارُ النَّاسِ، وَمَنْ رَمَی بِهِ الشَّیْطَانُ مَرَامِیَهُ، وَضَرَبَ بِهِ تِیهَهُ! وَسَیَهْلِکُ فِیَّ صِنْفَانِ: مُحِبٌّ مُفْرِطٌ یَذْهَبُ بِهِ الْحُبُّ إِلَی غَیْرِ الْحَقِّ، وَمُبْغِضٌ مُفْرِطٌ یَذْهَبُ بِهِ الْبُغْضُ إِلَی غَیْرِ الْحَقِّ، وَخَیْرُ النَّاسِ فِیَّ حَالًا النَّمَطُ الْأَوْسَطُ فَالْزَمُوهُ، وَالْزَمُوا السَّوَادَ الْأَعْظَمَ فَإِنَّ یَدَ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَهِْ. وَإِیَّاکُمْ وَالْفُرْقَهَْ!

فَإِنَّ الشَّاذَّ مِنَ النَّاسِ لِلشَّیْطَانِ، کَمَا أَنَّ الشَّاذَّ مِنَ الْغَنَمِ لِلذِّئْبِ. أَلَا مَنْ دَعَا إِلَی هذَا الشِّعَارِ فَاقْتُلُوهُ، وَلَوْ کَانَ تَحْتَ عِمَامَتِی هذِهِ».

الشرح والتفسیر

أوضح الإمام علیه السلام جهراً فی ما مضی من کلام الخطبة بطلان عقیدة الخوارج فی تکفیر المسلمین، وقد حدّثهم بمنتهی المرونة حسبما یقتضیه البحث المنطقی، أمّا فی هذا القسم (القسم الثانی) فقد عنّفهم فی الکلام لیحدّ من غرورهم ویعرضهم بمکانتهم بین المسلمین علی أنّهم شر الناس وأغراض الشیطان الذی أضلهم وأوردهم الحیرة، وأفضل شاهد علی ذلک أفکارهم الشیطانیة وأعمالهم العدوانیة ضد البشریة:

«ثُمَّ أَنْتُمْ شِرَارُ النَّاسِ، وَمَنْ رَمَی بِهِ الشَّیْطَانُ مَرَامِیَهُ، وَضَرَبَ بِهِ تِیهَهُ!».

حقّاً لیس هناک من فئة فی أوساط المسلمین شر من الخوارج، فهم مصداق الآیة الشریفة:

«اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمْ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمْ الْخَاسِرُونَ»[۳۷۶].

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۲۱۲

وهم مصداق واضح للآية: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا* الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً»[۳۷۷].

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطة أخرى وهى أنّ الأفراط والتفريط شيمة الأفراد الجهال، فمنهم من ألّهنى ومنهم من كفّرنى، فقال عليه السلام:

«وَسَيَهْلِكُ فِيَّ صِنْفَانِ: مُحِبٌّ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْحُبُّ إِلَى غَيْرِ الْحَقِّ، وَمُبْغِضٌ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْبُغْضُ إِلَى غَيْرِ الْحَقِّ».

فإن دفعكم جهلكم وجنايتكم لأن تعتبروننى كافراً، فانّ هناك من ذهب إلى عكس ذلك- وبدافع الجهل أيضاً- ليقولوا بالوهيتى، والفئتان ضالتان، والطريف فى الأمر إنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أخبر الإمام عليه السلام منذ سنوات بهذا الإفراط والتفريط تجاهه، فقد روى ابن عبدالمالكى فى كتاب «الاستيعاب» أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله خاطب علياً عليه السلام بالقول:

«لا يُحِبُّك إلّاَمُؤمِن ولا يُبغِضُك إلّا مُنافِق ... وَيَهْلَكُ فِيكَ رَجُلانِ مُحِبٌّ مُفرِطٌ وَكَذَّابٌ مُفْتَرٍ .. وَتَفْتَرِقُ فِيكَ أُمَّتِي كَمَا افتَرَقَتْ بَنو إسرائيلَ فِي عِيسى [۳۷۸]

. (الحديث إشارة إلى أنّ طائفة من بنى‌غ اسرائيل آمنت واعتقدت بالوهيته وطائفة لم تؤمن ورأته ابن اللَّه والعياذ باللَّه).

وروى المرحوم السيد محسن الأمين فى «أعيان الشيعة» عن «مسند أحمد» و «صحيح الترمذى» و «الاستيعاب» لابن عبدالبر و «مستدرك الحاكم» أنّ المعروف بين الصحابة بغض على عليه السلام علامة النفاق والذى يميزه عن المؤمن الصادق.

ثم أضاف والثابت تاريخياً أنّ معاوية كان يسب علياً عليه السلام ويدعو الناس إلى سبّه (وعليه فمعاوية كان من المنافقين)[۳۷۹].

على كل حال فالجهّال دائماً على الإفراط والتفريط، الغلو أو العداوة.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه وبالتأكيد على حفظ الاعتدال فقال:

«وَخَيْرُ النَّاسِ فِيَّ حَالًا النَّمَطُ الْأَوْسَطُ فَالْزَمُوهُ».

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۲۱۳

فقد ورد عنه عليه السلام أنّه قال:

«أَلا إنّ خَيرَ شِيعَتِي النَّمطُ[۳۸۰] الأوسطُ إِلِيهِم يَرجَعُ الغالِي وَبِهِم يَلحَقُ التّالِي»[۳۸۱].

ثم أصدر أمراً مهما كانت مخالفته السبب فى سقوط الخوارج فى وادى الضلال فقال:

«وَالْزَمُوا السَّوَادَ[۳۸۲] الْأَعْظَمَ فَإِنَّ يَدَ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ».

كما بالغ فى هذا التأكيد ليقول:

«وَإِيَّاكُمْ
وَالْفُرْقَةَ! فَإِنَّ الشَّاذَّ[۳۸۳] مِنَ النَّاسِ لِلشَّيْطَانِ، كَمَا أَنَّ الشَّاذَّ مِنَ الْغَنَمِ لِلذِّئْبِ».

فالجماعة المؤمنة غالباً من تنطلق فى مسار الحق، فان ضلت طائفة منهم ذكّرتها طائفة أخرى وانقذتها من وادى الضلال، أمّا الأفراد الشاذّون والفئات الصغيرة والمعزولة عن المجتمع الإسلامى فهى عرضة لأنواع الأخطاء والانحرافات والشيطان غالباً من ما يشدد من وساوسه بينهم فهم لقمة سائغة للشيطان على غرار الشاذة من الغنم، فتكون لقمة سائغة للذئب، ثم أورد فى وصيّته فى الخصوص تقضى بقتل كل من رفع شعار لا حكم إلّاللّهودعى إليه الناس وإن لاذ بالإمام عليه السلام واختفى تحت عمامته:

«أَلَا مَنْ دَعَا إِلَى هذَا الشِّعَارِ فَاقْتُلُوهُ، وَلَوْ كَانَ تَحْتَ عِمَامَتِي هذِهِ».

وهكذا أصدر حكمه النهائى بشأن هذه الفئة الفاسدة والمفسدة والقاسية المتعطشة للدماء والذى لا يشكلون سوى الخطر الجدّى على

الإسلام والمسلمين، أمّا ما هو مراد الإمام عليه السلام من مفردة «الشعار» التى وردت فى العبارة المذكورة فقد اختلفت فيه أقوال شرّاح نهج البلاغة فقيل: المراد بالشعار التفرقة، قيل يعنى شعار الخوارج، وكان شعارهم أنّهم يحلقون وسط رؤوسهم ويبقى الشعر مستديراً حوله كالإكليل ۳۸۴]، وقيل هو الشعار الذى يعدّ شعار الخوارج أينما حلّوا وقد إرتكبوا بواسطته ما لا يحصى من الفتن والمفاسد وأشعلوا بالنيران المجتمع

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۱۴

الإسلامى، والواقع قد مهدوا بهذا الشعار أسباب الفرقة، والقتال وسفك الدماء والفساد فى الأرض، ومن هنا فقد حكم بالإعدام على حملة هذا الشعار.

كما وردت عدّة تفاسير للعبارة:

«لَوْ كَانَ تَحْتَ عِمَامَتِی هذِهِ»،

أنسبها ما ذكرناه سابقاً، وهو وإن اعتصم هؤلاء الأفراد الفاسدين بى ولاذوا بدارى وكانوا تحت ثيابى.

تأمّلات

۱- الحذر من الإفراط والتفريط

من بين المسائل التى أكد عليها الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة ضلالة وهلاك الفئة المفرطة والمفرطة، وقد ظهرت هاتان الفئتان بصورة جلية بشأن الإمام عليه السلام فى أوساط المجتمع الإسلامى، الفئة التى تصوّرت الإمام عليه السلام هو اللَّه والتى عاشت على عهده عليه السلام وقد تلقّت أشد العقاب من الإمام عليه السلام، والفئة الأخرى التى تراه- نعوذ باللَّه- كافراً، وقد عوقبت هذه الفئة أشدّ العقاب أيضاً، فالإفراط والتفريط مذموم فى كل شىء ومصدر البؤس والشقاء، ولا يقتصر ذلك على القضايا العقائدية، بل يتجاوزه ليشمل الحياة المتواضعة، وعادة ما يستند هذا الإفراط والتفريط إلى الجهل والعصبية، فهناك طائفة انحرفت عن الإسلام وشذت عن إتباع منهج أهل البيت عليهم السلام، فهبطت باللَّه إلى منزلة متسافلة لتراه كالجسمانيات فصوّرته كفتى أمرد وشعر مجعد وما إلى ذلك من صفات الأجسام، بينما رفعته فئة أخرى عن فكر البشر، لتقول باستحالة معرفة ذاته لدينا، وأبعد من ذلك بأننا لا نعلم شيئاً من صفاته، وبعبارة أخرى قال بتعطيل معرفة اللَّه، فئة سلكت طريق الإفراط فقالت: بالتفويض، وأخرى سلكت سبيل التفريط فقالت: بالجبر، أمّا أئمّة الهدى عليهم السلام فقد وصفوا أنفسهم بأنّهم «النمرقة الوسطى» أى الفئة المعتدلة البعيدة عن الإفراط والتفريط، والتى ينبغى أن يعود إليها المتطرفون ويلحق به المغالون:

«نَحنُ النُّمرَقَةُ الوُسطى بِها يَلْحَقُ التّالِى وَإلَيها يرْجَعُ الغالِى»[۳۸۵].

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۱۵

۲- يد اللَّه مع الجماعة

ورد التأكيد فى الخطبة المذكورة على مرافقة ومسايرة السواد الأعظم، أى جماعة المسلمين والابتعاد عن كافة أشكال العزلة والتفرد، فقال عليه السلام صراحة:

«يَدَ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ»

، فالجماعة الإسلامية كانت قوية ومقتدرة ذات شوكة كما كانت متحدة ومتفقة، بينما عاشت الذل والهوان والضعف كلما سادها النفاق والشقاق، فمقاطعة الجماعة الإسلامية وبعبارة أخرى الانعزال الاجتماعى يشكل أحد الانحرافات والفكرية والعقائدية، والأفراد

الانعزاليون عادة كما يعيشون خيال العجب بالنفس فيظون أنّهم أفضل من غيرهم وعلى الآخرين أن يعظموهم، وحيث لا يرون ذلك فى الناس تشتعل فى قلوبهم نيران العداوة والبغضاء وسوء الظنّ، الأمر الذى يجعلهم يهمون أحياناً بالثأر وقتل الأبرياء والإساءة إلى المثل الاجتماعية، وأحياناً أخرى يدّعى النبوة أو الإمام أو نيابة الإمام لمهدى عليه السلام فيصبح مصدراً لكل شقاق وفرقة ونفاق، ومن هنا نقف على عمق عبارة الإمام فى قوله:

«فَإِنَّ الشَّاذَّ مِنَ النَّاسِ لِلشَّيْطَانِ، كَمَا أَنَّ الشَّاذَّ مِنَ الْغَنَمِ لِلذِّئْبِ».

طبعاً المراد من مسايرة الجماعة بمعنى الأكثرية الموصوفة بالإيمان والقيم الأخلاقية والمبادىء الإنسانية، وإلّا فالإسلام لا يوصى بمسايرة الأكثرية الفاسدة، قال عليه السلام فى موضوع آخر:

«لا تَسْتَوحِشُوا فِى طرِيقِ الهُدىْ لِقلَّةِ أَهلِهِ»[۳۸۶]

. واما الذمّ الذى أورده القرآن الكريم على لسان عدّة آيات بشأن الأكثرية إلّاكان المراد بها الأكثرية الفاسدة والمفسدة: «قُلْ لَایَسْتَوِی الْخَبِیثُ وَالطَّیِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَکَ کَثْرَةُ الْخَبِیثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ یَا أُولِی الْأَلْبَابِ لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ»[۳۸۷].

۳- شرار الخلق

وصف الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة الخوارج بصفتها شرار الناس، فهذا الكلام ليس مبالغة، فالحق أنّ الخوارج شرّف فئة ظهرت فى أوساط المسلمين، ليس فقط لتكفيرهم أشرف مؤمن

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۱۶

بعد رسول اللّه صلى الله عليه و آله أى على عليه السلام الذى سقى شجرة الإسلام بدمائه الزكية فاستقام عودها وكثفت أغصانها، وليس لحملهم سيوفهم على عواتقهم وسفكهم لدماء الأبرياء، بل لأنّهم أسسوا لأنفسهم بالتدريج مدرسة منحرفة من حيث العقائد، كما ابتعدت عن أحكام الإسلام والقرآن السنّة، ففى جانب عقائدهم وردت عدّة أبحاث فى كتب الملل والنحل تصوّر مدى اختلافها وتضاربها، ولعل ذلك بسبب اختلاف فروعهم، مع ذلك فقد ذكر المؤرخ المعروف المسعودى اشتراك الخوارج فى ما يلى:

۱- تكفير عثمان وعلى عليه السلام (والعياذ وباللّه»

۲- وجوب القيام ضد الإمام الجائر.

۳- كفر من إرتكب الكبيرة (وجوب قتله).

۴- أنّهم بريئون من الحكمين (أبو موسى الأشعرى وعمرو بن العاص).

۵- كفر معاوية وأبتاعه وأتباعه.

لكنّهم يختلفون فى بعض المسائل كالتوحيد والوعد والوعيد فى القيامة والإمامة[۳۸۸].

وعدّ البعض الآخر من جملة عقائدهم المشتركة وجوب انتخاب الامّة للخليفة سواء كان من قريش أم من غيرها، والأخرى قبولهم الخلفاء الأربعة (وإن عزلوا عثمان وعلى عليه السلام)، وكذلك شدّة مخالفتهم لكافة خلفاء بنى الامية وبنى العباس، خاصّة أنّهم يسبون بنى امية[۳۸۹].

وأمّا الأباضية الذين ينتشرون اليوم فى عمان ومراكش وليبيا والجزائر وتونس ومصر والذين يعدّون أحياناً من الخوارج، فهناك فارق كبير لعقائدهم مع عقائد الخوارج، وإن اشتركوا معهم فى مخالفة التحكيم فى صفين وعدم اشتراط وصف القريشى فى إمام المسلمين.

ولعل عقائد الأباضية تشبه كثيراً عقائد الشيعة مثل:

۱- صفات اللّه ليست زائدة على ذاته.

۲- استحالة رؤية اللَّه فى الآخرة.

۳- القرآن حادث لا قديم.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۱۷

۴- مرتكب الكبيرة كافر بالنعمة لا كافر ملى (يعنى مثل هذا الفرد مسلم وليس خارجاً عن الإسلام).

۵- وجوب موالاة أولياء اللَّه والبراءة من أعدائه.

وروى بعض أنّهم يقولون بوجوب حبّ الخليفة الأول والثانى وبغض عثمان وعلى عليه السلام إلّا أنّ الأباضية فى هذا الزمان ينكرون ذلك ۳۹۰].

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۱۹

القسم الثالث: انحراف الحكمين

اشارة

«فَإِنَّمَا حُكِّمَ الْحَكَمَانِ لِيُحْيِيَا مَا أَحْيَا الْقُرْآنُ، وَيُمِيتَا مَا أَمَاتَ الْقُرْآنُ، وَإِحْيَاؤُهُ الاجْتَماعُ عَلَيْهِ، وَإِمَاتَتُهُ الافْتِرَاقُ عَنْهُ. فَإِنْ جَرَّنَا الْقُرْآنُ إِلَيْهِمْ اتَّبَعْنَاهُمْ، وَإِنْ جَرَّهُمْ إِلَيْنَا اتَّبَعُونَا. فَلَمْ آت- لَاأَبَالَكُمْ- بُجْراً، وَلَا خَتَلْتُكُمْ عَنْ أَمْرِكُمْ، وَلَا لَبَّسْتُهُ عَلَيْكُمْ، إِنَّمَا اجْتَمَعَ رَأْىُ مَلَئِكُمْ عَلَى اخْتِيَارِ رَجُلَيْنِ، أَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أنْ لَايَتَعَدَّيَا الْقُرْآنَ، فَتَاهَا عَنْهُ، وَتَرَكَا الْحَقَّ وَهُمَا يُبْصِرَانِهِ، وَكَانَ الْجَوْرُ هَوَاهُمَا فَمَضَيَا عَلَيْهِ. وَقَدْ سَبَقَ اسْتِثْنَاؤُنَا عَلَيْهِمَا- فِى الْحُكُومَةِ بِالْعَدْلِ، وَالصَّمْدِ لِلْحَقِّ- سُوءَ رَأْيِهِمَا، وَجَوْرَ حُكْمِهِمَا».

الشرح والتفسير

عاد الإمام عليه السلام فى هذا القسم من الخطبة والذى يمثل آخرها إلى الأدلة المنطقية ليكشف بالبراهين القاطعة خطأ الخوارج.

توضيح ذلك أنّ الخوارج حين رأوا النتيجة المريرة لقضية التحكيم التى خدع فيها الماكر عمرو بن العاص أبى موسى الأشعرى الساذج وقد حسم التحكيم لصالح معاوية، ارتفعت أصواتهم ليقولوا لم قبلنا التحكيم، ولماذا قبل على عليه السلام التحكيم، رغم أنّهم يعلمون:

أولًا: أنّ التحكيم فرض على على عليه السلام.

ثانياً: أنّ الإمام عليه السلام لم يكن راضياً بأبى موسى الأشعرى ممثلًا عنه فى التحكيم، بل كان رأيه أن يلعب ابن عباس ذلك الرجل العالم دور التحكيم، رغم ذلك أصر اولئك الجهال وفرضوا عليه أبى موسى الأشعرى، وقد خاض الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة فى جواب

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۲۰

آخر على أن تحكيم الحكمين كان مشروطاً بأن يتمّ على ضوء القرآن لا على أساس الأهواء النفسية والعقد الشخصية، فلم يعملا بهذا الشرط وهذا ذنبهم لا ذنب الإمام عليه السلام فقال:

«فَإِنَّمَا حُكِّمَ الْحَكَمَانِ لِيُحْيِيَا مَا أَحْيَا الْقُرْآنُ، وَيُمِيتَا مَا أَمَاتَ الْقُرْآنُ».

جدير بالذكر إنّه ورد نفس هذا المطلب الذى أشار إليه الإمام عليه السلام فى متن العهد الذى أشرنا إليه سابقاً: «

وإنَّ كِتابَ اللَّهِ سُبحانَهُ بَيْنَنا مِنْ فَاتِحَتِهِ إِلى خاتِمَتِهِ نُحيى مَا أَحيا القُرآنُ ونُمِيتُ مَا أَماتَ».

ثم أضاف قائلًا:

«وَإِحْيَاؤُهُ الاجْتَماعُ عَلَيْهِ، وَإِمَاتَتُهُ الافْتِرَاقُ عَنْهُ»

، ووضح هذه العبارة من خلال التأكيد على مضمونها بالقول:

«فَإِنْ جَرَّنَا الْقُرْآنُ إِلَيْهِمُ اتَّبَعْنَاهُمْ، وَإِنْ جَرَّهُمْ إِلَيْنَا اتَّبَعُونَا».

فهـذا الكلام منطقى يـدركه من كان له أدنى فكر وشـعور، لكن كأن الخوارج لم يتمتعوا حتى بهـذه النعمة الإلهيّة، ثم بيّن الإمام عليه السلام هذا المطلب بتعبير أوضح بحيث يبدو وكأنّه اشتاط غضباً من جهلهم وكلامهم الذى يفتقر إلى المنطق فقال:

«فَلَمْ آتِ- لَاأَبَالَكُمْ- بُجْراً[۳۹۱]، وَلَا خَتَلْتُكُمْ ۳۹۲]

عَنْ أَمْرِكُمْ، وَلَا لَبَّسْتُهُ عَلَيْكُمْ، إِنَّمَا اجْتَمَعَ رَأْىُ مَلَئِكُمْ عَلَى اخْتِيارِ رَجُلَيْنِ، أَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أَنْ لَايَتَعَدَّيَا الْقُرْآنَ»

، لكنّهم فقـدوا عقلهم «إيمانهم» وتركوا الحق وهم يرونه بام أعينهم، كما كان الظلم والجور ديـدنهما وهواهما فاتخـذوا سبيلًا وقد كنّا اشترطنا عليهما قبل أن يحكما بذلك الحكم الظالم أن يستندا إلى العدل ولا يهملا الحق:

«فَتَاهَا عَنْهُ، وَتَرَكَا الْحَقَّ وَهُمَا يُبْصِرَانِهِ، وَكَانَ الْجَوْرُ هَوَاهُمَا فَمَضَيَا عَلَيْهِ. وَقَدْ سَبَقَ اسْتِثْنَاؤُنَا عَلَيْهِمَا- فِى الْحُكُومَةِ بِالْعَدْلِ، وَالصَّمْدِ[۳۹۳] لِلْحَقِّ- سُوءَ[۳۹۴] رَأْيِهِمَا، وَجَوْرَ حُكْمِهِمَا».

فالواقع أنّ زبدة الكلام الإمام عليه السلام هى:

أولًا: إنّ انتخاب الحكمين كان على أساس ضغطكم وإصراركم على هذا الأمر، فان كان

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۲۱

خلافاً فهو خلاف منكم لا منّى.

وثانياً: إننا اشترطنا عليهم الحكم على ضوء الآيات القرآنيـة، لكنّهم آثروا هوى أنفسـهم وانحرفوا عن السبيل البيّن الـذى هديناهم إليه، وعليه فان كان هناك من خلاف فقد بدر منهما لا منّى ۳۹۵].

ولكن طبيعـة الأفـراد الجهّال والمتعصـبين حين يرتكبـون مخالفـة ويبتلون بسوء عواقبهـا شـرعان مـا يغرونهـا إلى الآخرين ويحملونها مسؤوليـة أخطأهم وهـذا أخس الأساليب، والحال يقتضـى العقل والانصاف والإيمان الاعتراف بالـذنب فى مثل هذه الموارد والاعتذار منها ومن ثم التفكير فى تدراكها.

تأمّل

دروس التحكيم

كثير هو الكلاـم بشأن قضـية التحكيم وهى تنطوى على الـدورس والعبر التى نقلتها التواريـخ والسير ومنها: أنّ عمرو بن العاص اشترط على معاوية إن انتصـر فى معركته أن يسـلمه حكومة مصر، وقد وفى له معاوية بهذا الشرط وقد قدّم أكثر رشوة لعمرو بن العاص، ولم تمض مـدّة حتى كتب معاويـة لعمرو بن العـاص أن إعطنى خراج مصر لهـذا العـام فبيت المال لا يسـدّ حاجات أهل الحجاز والعراق، فرفض عمرو ذلك من خلال شعر بعثه لمعاوية، فلم يعد معاوية للحديث عن خراج مصر- أمّا كتابه الذى ضمنه فهو:

مُعاوِى حَظّى لا تَغْفَلِوَعَنْ سُنَنَ الحَقِّ لاتَعدِلِ

أَتَنسَى مُخادَعَتِى الأشعَرِىوَمَا كَانَ فِى دَومَةَ الجَندَلِ![۳۹۶]

وَأَعلَيتُهُ المِنبَرَ المُشَمَخِرَ كَرَجْعِ الحِسامِ إِلَى المَفصِلِ فَأَضحى لِصاحِبِهِ خالِعاًكَخَلْعِ النِّعالِ مِنَ الأَرجُلِ

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۲۲

وَأَثبَتُها فِيكَ مَورُوثَةًثُبوتَ الخَواتِمِ فِى الأَنمُلِ

وَهَبتَ لِغَيرِى وَزنَ الجِبالِوَأَعطَيتَنِى زِنَةَ الخَردَلِ

وَإِنَّ عَلَيّاً غَداً خَصمُناسَيَحْتَجُّ بِاللّه وَالمُرسَلِ
وَمَا دَمُ عُثْمانَ مُنْجٍ لَنافَلَيسَ عَنِ الحَقِّ مِنْ مَزْحَلِ ۳۹۷]
نفحات الولایهٔ، ج۵، ص: ۲۲۳

الخطبهٔ[۳۹۸] المأهٔ والثامنهٔ والعشرون

اشارهٔ

وَمِنْ كَلامٍ لهُ عليه السلام
فِيما يُخْبِرُ به عن المَلاحم بالبصرهٔ

نظرهٔ إلى الخطبهٔ

أشار الإمام عليه السلام فى هذه الخطبهٔ إلى عدّهٔ امور:
۱- فتنهٔ صاحب الزنج وهم جماعهٔ من العبيد بزعامهٔ فرد أسمى نفسه على بن محمد العلوى وقد قاموا فى زمان خلافهٔ المهتدى العباسى، وقد سفكوا الكثير من الدماء.
۲- إشارهٔ إلى فتنهٔ أخرى فسّرها شرّاح نهج البلاغهٔ بفتنهٔ المغول والعجيب أنّه أشار إلى أغلب صفاتهم هنا وفى القسم السابق.
۳- بيان الإمام عليه السلام بشأن الغيب بعد أن سأله أحد الحاضرين إنّك تعلم الغيب فتخبر عن المستقبل، كما أشار إلى الفرق بين العلم الذاتى والعلم الإكتسابى، وهو فى الحقيقهٔ تفسير للآيات القرآنيهٔ التى تنفى بعضها عن العباد علم الغيب بينما يثبته البعض الآخر.
أمّا المرحوم ابن ميثم فقد إختتم الخطبهٔ فى شرحه لنهج البلاغهٔ بهذه العبارهٔ «وناظرها
نفحات الولایهٔ، ج۵، ص: ۲۲۴
بعينها» واعتبر بقيهٔ الخطبهٔ، خطبهٔ أخرى، وهذا ما نهجه أيضاً المرحوم الخوئى وابن أبى الحديد، فقد قسموا الخطبهٔ إلى قسمين واعتبروا كل قسم خطبهٔ منفصلهٔ، بينما اعتبرهما المرحوم مغنيهٔ فى شرحه كصبحى الصالح خطبهٔ واحدهٔ.
نفحات الولایهٔ، ج۵، ص: ۲۲۵

القسم الأول: الفتنهٔ المرعبهٔ بالمرصاد

اشارهٔ

«يَا أَحْنَفُ، كَأَنِّى بِهِ وَقَدْ سَارَ بِالْجَيْشِ الَّذِى لَايَكُونُ لَهُ غُبَارٌ وَلَا لَجَبٌ، وَلَا قَعْقَعَةُ لُجُمٍ، وَلَاحَمْحَمَةُ خَيْلٍ. يُثِيرُونَ الْأَرْضَ بِأَقْدَامِهِمْ كَأَنَّهَا أَقْدَامُ النَّعَام.
(قَالَ الشَّرِيفُ: يُومِئ بذلك إلى صاحب الزنج) ثمّ قَال عليه السلام: وَيْلٌ لِسِتكَكِكُمُ الْعَامِرَةِ، وَالدُّورِ الْمُزَخْرَفَةِ الَّتِى لَهَا أَجْنِحَةٌ كَأَجْنِحَةِ النُّسُورِ، وَخَرَاطِيمُ كَخَرَاطِيمِ الْفِيَلَةِ، مِنْ أُولئِكَ الَّذِينَ لَايُنْدَبُ قَتِيلُهُمْ، وَلَا يُفْقَدُ غَائِبُهُمْ. أَنَا كَابُّ الدُّنْيَا لِوَجْهِهَا، وَقَادِرُهَا بِقَدْرِهَا، وَنَاظِرُهَا بِعَيْنِهَا».
الشرح والتفسير
خاطب الإمام عليه السلام بادىء الأمر الأحنف بن قيس ۳۹۹] وهو من أشراف قبيلته، فقال:
«يَا

أَحْنَفُ، كَأَنِّی بِهِ وَقَدْ سَارَ بِالْجَیْشِ الَّذِی لَایَکُونُ لَهُ غُبَارٌ وَلَا لَجبٌ ۴۰۰]، وَلَا قَعْقَعَهُ[۴۰۱] لُجُمٍ، وَلَاحَمْحَمَهُ[۴۰۲] خَیْلٍ. یُثِیرُونَ الْأَرْضَ بِأَقْدَامِهِمْ کَأَنَّهَا أَقْدَامُ النَّعَامِ ۴۰۳]».

نفحات الولایهٔ، ج۵، ص: ۲۲۶

والإمام علیه السلام لم یذکر إسماً لزعیم الجیش، إلّاأن القرائن الواردهٔ فی هذه العبارات وما بعدها تشیر إلی أنّ المراد به صاحب الزنج الذی قام فی البصرهٔ عام ۲۵۵ ه ق وجمع حوله العبید وقد خلق هناک فتنهٔ عظیمهٔ سنعرض لتفاصیلها فی البحث القادم إن شاء اللَّه.

والعبارهٔ:

«لَا یَکُونُ لَهُ غُبَارٌ»

والعبارات القادمهٔ تدلّ صراحهٔ علی أنّ جیش صاحب الزنج کان من المشاهٔ، حیث لم یکن لهم من خیول لیرکبوها، طائفهٔ من العراهٔ المستضعفین الذین ساءت أحوالهم فقاموا علی الأسیاد فارتکبوا الجرائم الفضیعهٔ، والعبارهٔ یثیرون الأرض بأقدامهم تدلّ علی أنّهم کانوا حفاهٔ وقد اتسعت أرجلهم بسبب المشی حفاهٔ طیلهٔ أعمارهم لتصبح کرجل الناقهٔ، مع ذلک کانوا مخفین فی السیر والحرکهٔ، وحین وصل هنا المرحوم السید الرضی رضی الله عنه قال:

(قَالَ الشَّرِیفُ: یُومئ بذلک إلی صاحب الزنج).

ثم قال علیه السلام:

«وَیْلٌ لِسِکَکِکُمُ الْعَامِرَهِٔ، وَالدُّورِ الْمُزَخْرَفَهِٔ الَّتِی لَهَا أَجْنِحَهٌٔ کَأَجْنِحَهِٔ النُّسُورِ، وَخَرَاطِیمُ کَخَرَاطِیمِ الْفِیَلَهِٔ، مِنْ أُولئِکَ الَّذِینَ لَایُنْدَبُ قَتِیلُهُمْ، وَلَا یُفْقَدُ غَائِبُهُمْ».

والذی یستفاد من هذه العبارهٔ أنّ البصرهٔ کانت عامرهٔ (وإن عاش العبید منتهی الشقاء والعسر) فقد کانت بیوتهم کالقصور مزودهٔ بالشرفات والظلال الجمیلهٔ وخراطیم المیاه التی تزیدها روعهٔ وجمالًا، وکما سیأتی فانّ کل ذلک قد تحطم إثر قیام صاحب الزنج وقد ضرّج أصحاب القصور بدمائهم، والعبارهٔ

«لَا یُنْدَبُ قَتِیلُهُمْ، وَلَا یُفْقَدُ غَائِبُهُمْ».

تشیر إلی أنّ العبید لم یکونوا ذوی زوجات وأولاد، بل کانوا عزّاباً فلا نادیهٔ لهم من الأقرباء لیبحثوا عنهم ویتفقدونهم ویبکون علیهم، وهذه هی صفات العبید فی ذلک الزمان حیث کانوا یجلبون إلی البلاد الإسلامیهٔ وغیر الإسلامیهٔ بالقهر والغلبهٔ من البلدان البعیدهٔ خاصّهٔ أفریقیا، وخلافاً للتعالیم الإسلامیهٔ فقد کانوا یعاملون کالحیوانات، فکان قیام صالحب الزنج ردّ فعل تجاه المعاملهٔ غیر الإسلامیهٔ والإنسانیهٔ، ثم قال آخر کلامه:

«أَنَا کَابُ ۴۰۴]

الدُّنْیَا لِوَجْهِهَا، وَقَادِرُهَا بِقَدْرِهَا، وَنَاظِرُهَا بِعَیْنِهَا».

فهذه العبارات الثلاث إشارهٔ إلی تفاههٔ متاع الدنیا لدی الإمام علیه السلام وکأنّ الدنیا موجود

نفحات الولایهٔ، ج۵، ص: ۲۲۷

حی شریر لا قیمهٔ له وقد کبّه الإمام علیه السلام علی وجهه وهو ینظر إلیه بحقارهٔ، وتشبه هذه العبارهٔ ما ورد عن الإمام علیه السلام فی قصار کلماته حیث قال:

«یَا دُنْیَا یَا دُنْیَا، إِلَیْکِ عَنِّی أَبِی تَعَرَّضتِ؟ أَمْ إِلَیَّ تَشَوَّقْتِ؟ لَاحَانَ حِینُکِ، هَیْهَاتَ! غُرِّی غَیْرِی، لَا حَاجَهَٔ لِی فِیکَ، قَدْ طَلَّقْتُکِ ثَلَاثاً لَا رَجْعَهَٔ فِیهَا!»[۴۰۵].

ولعل شقاء أهل الدنیا المتکالبین علیها إنّما یعود إلی تقییمهم الباطل للدنیا فهم یرونها بعین أخری فیعظمونها ویرکعون لها ویضحون

بالغالى والنفيس من أجلها، أمّا ما هو الإرتباط بين هذه العبارة والعبارات السابقة بشأن أخطار صاحب الزنج، فيبدو أنّ شرّاح نهج البلاغة لم يخوضوا فى توضيح هذا الأمر، وربّما كان الإرتباط من خلال ذلك الظرف العصيب الذى أصاب أهل البصرة بسبب حبّ الدنيا، فقد شيّدوا القصور واهتموا بالدور وعاشوا الاسراف والتبذير فى حياتهم، فى حين عانى غالبية العبيد فى مدنهم ومزارعهم الأمرّين فسامهم الزنوج أنواع العذاب.

تأمّل: قيام صاحب الزنج

ظهر فى البصرة عام ۲۵۵ ه ق على عهد الخليفة العباسى المهتدى رجل زعم أنّه على بن محمد ونسب نفسه إلى الإمام زين العابدين وزيد بن على عليهما السلام وقد دعى العبيد للقيام ضد مالكيهم ولبّوا دعوته مسرعين بسبب صعوبة معيشتهم فى الدور والمزارع فى خدمة السلاطين فاجتمع له مائة نفر وألف نفر، وقد وعدهم بعتقهم وتسليمهم أموال مالكيهم ومزارعهم، وكانت الطبقية شديدة فى ذلك الزمان، فالبعض مرفه فى القصور كما أشار إلى ذلك أمير المؤمنين على عليه السلام فى هذه الخطبة، والبعض الآخر يعيش الحياة الصعبة، لذلك إلتحق به جماعة من غير العبيد أيضاً، فاجتمع له جيش عظيم، لقد أشعل فى قلوب العبيد والمحرومين نار

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۲۸

الإنتقام حتى أمر غلمانه بعد غلبته للأثرياء بأن يضرب كل رجل منهم خمسمائة شطبة وسبى نسائهم وكان يبيع كل واحدة منهن بدرهمين أو ثلاث وملكهن العبيد.

قال المؤرخ المشهور المسعودى فى «مروج الذهب» أنّ صاحب الزنج قتل النساء والأطفال والشيخ الفانى والمريض وكان يحرق أموالهم وأدواتهم ويخرب بيوتهم، وقد قتل فى البصرة ثلاثمائة ألف، ومن فرّ إلى الصحراء ونجى من القتل كان يأكل الكلاب والقطط والفئران، وأحياناً يأكلون الأموات، إستولى على قسم عظيم من العراق وإيران ودام حكمه مدّة تزيد على أربع عشرة سنة (وهذا يدلّ على أنّ حركته لم تكن عابرة بل كانت متجذرة فى أعماق ذلك المجتمع).

وقد أو شك صاحب الزنج أن يسقط الدولة العباسية، فهب له أبو أحمد الملقب بالموفق وهو أخو الخليفة العباسى فقاتله بجيش كبير حتى تمكن من قتله فى شهر صفر عام ۲۷۰ ه وفرق جيشه بعد معركة دموية طويلة، لقد ألفت عدّة كتب بشأن قيام صاحب الزنج فهو ليس بالأمر الهيّن الذى يمكن المرور عليه بسهولة، وذلك لأنّ جمع جيش يقارب عدده ثمانمائة ألف أو ثلاثمائة ألف آنذاك ليست بالشىء البسط وكذلك تلك المدّة من الحكم والتى تعتبر طويلة نسبياً، وكل ذلك يشير إلى رسوخ ذلك القيام بفعل الاضطراب وغياب العدل والذى ساد آنذاك، وإن قاد هذا القيام إلى الكثير من المظالم والجنايات.

وهنا لابدّ من الإشارة إلى بعض الامور:

۱- شبّه بعض الكتّاب قيام صاحب الزنج بثورة العبيد التى حدثت فى ايطاليا عام ۷۳ قبل الميلاد بزعامة اسبارتكوس الذى جمع حول فئة عظيمة من العبيد وقد قاتل الأثرياء والمرفهين وأحرز عدّة انتصارات حتى قتل عام ۷۱ قبل الميلاد مع أربعين ألف من العبيد، لكن يبدو أنّ هناك بوناً شاسعاً بين قيامه وقيام صاحب الزنج، فقيام صاحب الزنج كان أوسع وأشمل وقد تمكن من تشكيل الحكومة آخر الأمر والتى حكمت قسماً كبيراً من العراق وايران لمدّة أربع عشرة سنة، على كل حال فهو رجل دموى ومجرم رغم إمتلاكه للحجج التى تبدو منطقية نسبياً من أجل قيامه وثروته.

۲- كما ذكرنا سابقاً فانّ صاحب الزنج أسمى نفسه على بن محمد ومن نسل الإمام السجاد عليه السلام، وتلقب بالعلوى، إلّاأنّ ذلك لا حقيقة له، ولم يكن هدفه سوى شرعية حركته

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۲۹

والاستفادة من مكانة آل بيت رسول اللّه صلى الله عليه و آله وأميرالمؤمنين عليه السلام، ولذلك ورد عن الإمام الحسن العسكرى أنّ

قال:

«صاحِبَ الزِّنجِ لَیسَ مِنّا أَهلَ البَیتِ»[۴۰۶]

، وکما أوردنا فانّ قیام صاحب الزنج کان أواخر عمر الإمام الحسن العسکری علیه السلام وتزامناً مع الولادة المبارکة لإمام العصر والزمان المهدی علیه السلام.

۳- کان ظاهر قیام صاحب الزنج وفتنته الدفاع عن العبید والمحرومین، لکنّه انحرف عن هذا الهدف وتسبب فی دمار عظیم وسفک للدماء، حتی قال المسعودی فی «مروج الذهب»[۴۰۷] أنّه قتل خمسمائة ألف من النساء والأطفال والشیوخ وهذا أقل عدد لقتلاه، وقال بعض المؤرخین أنّه دخل البصرة بعد عامین فأحرق مسجدها الجامع وکثیر من البیوت، وأحرق حتی المواشی وجرت الدماء فی أزقة البصرة[۴۰۸].

۴- رغم کل نقاط الضعف فی صاحب الزنج فقد کانت فیه بعض الجوانب الإیجابیة ومنها خطه الجمیل وضلوعه بعلم النحو النجوم وقد نقلت عنه بعض الأشعار التی تدلّ علی ذوقه الشعری ومن أشعاره:

لَهْفَ نَفسِی عَلَی قُصُورٍ بِبغدادَ وَمَا قَدْ حَوَتْهُ مُلُّ عاصٍ

وَخُمُورٍ هُناکَ تُشرَبُ جَهراًوَرِجَالٍ عَلَی المَعاصِی حِراصٍ

لَستُ بِابنِ الفَواطِمِ الغُرِّ إنْ لَمأَجُلِ الخَیلَ حَوْلَ تِلکَ العِراصِ

رَأَیتُ المُقامَ عَلَی الإقتِصادِقَنُوعاً بِهِ ذِلَّةً فِی العِبادِ[۴۰۹]

ومن الشعر المنسوب إلیه:

وَإنّا لَتُصبِحُ أسیافَناإذا مَا انْتَضَینَ لِیومِ سُفُوکِ

مَنَابِرُهُنَّ بُطُونُ الأَکُفِوَأَغمَادهُنَّ رؤوسِ المُلُوکِ ۴۱۰]

فهذان البیتان یکشفان بوضوح عن روحیته وأهدافه.

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۲۳۱

القسم الثانی: نبوءة أخری

اشارة

منه فی وصف الاتراک

«کَأَنّی أَرَاهُمْ قَوْماً «کَأَنَّ وُجُوهَهُمُ المَجَانُّ الْمُطَرَّقَةُ»، یَلْبَسُونَ السَّرَقَ وَالدِّیبَاجَ، وَیَعْتَقِبُونَ الْخَیْلَ الْعِتَاقَ.

وَیَکُونُ هُنَاکَ اسْتِحْرَارُ قَتْلٍ حَتَّی یَمْشِیَ المَجْرُوحُ عَلَی الْمَقْتُولِ، وَیَکُونَ الْمُفْلِتُ أَقَلَّ مِنَ الْمَأْسُورِ!».

الشرح والتفسیر

خاض الإمام علیه السلام فی هذا القسم من الخطبة فی نبوءة عجیبة أخری طبقها المرحوم السید الرضی وتقریباً کافة شرّاح نهج البلاغة علی المغول وحملاتهم الوحشیة الهدّامة، ومن هنا قال المرحوم السید الرضی: القسم الآخر من الخطبة فی وصف الأتراک (المغول).

فقد قال الإمام علیه السلام:

«کَأَنّی أَرَاهُمْ قَوْماً «کَأَنَّ وُجُوهَهُمُ المَجَانُ ۴۱۱] الْمُطَرَّقَةُ[۴۱۲]».

وردت المفردة «كأنّى» فى عدّة موارد من نبوءات أميرالمؤمنين على عليه السلام، والمفردة أراهم إشارة إلى الشهود الباطنى والبصيرة التى كانت ترى الحوادث المستقبلية عبر القرون فيخبر عنها بصورة دقيقة، وتشبيه وجوههم بالدروع لأنّ وجوههم كانت عريضة وكبيرة ووصفها

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۳۲

بالمطرقة يمكن أن يكون إشارة أنّ أغلب وجوههم كانت تشبه بالضبط موضع المطرقة على صفيحة الترس، ثم قال عليه السلام:

«يَلْبَسُونَ السَّرَقَ ۴۱۳] وَالدِّيبَاجَ ۴۱۴]، وَيَعْتَقِبُونَ ۴۱۵] الْخَيْلَ الْعِتَاقَ ۴۱۶]».

فالعبارة تفيد أنّ هؤلاء وإن كانوا فقراء وجوعى أول أمرهم يرتدون الثياب الخشنة، إلّا أنّهم حين يستولون على البلدان الغنية ويسيطرون على أموالهم وثرواتهم يتجهون صوب الثياب الفاخرة والخيول النفيسة، ويحتمل أن يكون المراد أنّ لهم رغبة شديدة فى القتال، ومن المعروف أن لبس الحرير يمنح الإنسان قوة القلب ويجعله أكثر مقاومة للسيف، كما للخيول الخفيفة دور مهم فى ميدان القتال، وهذا ما يجعلهم يتجهون إلى هذه الأمور.

ثم خاض الإمام عليه السلام فى أعمالهم وأشار بعبارات قصيرة إلى أبعاد ما يرتكبونه من فاجعة فقال:

«وَيَكُونُ هُنَاكَ اسْتِحْرَارُ[۴۱۷] قَتْلٍ حَتَّى يَمْشِيَ الَمجْرُوحُ عَلَى الْمَقْتُولِ، وَيَكُونَ
الْمُفْلِتُ ۴۱۸] أَقَلَّ مِنَ الْمَأْسُورِ[۴۱۹]!».

فالعبارتان تشيران إلى مدى سعة أبعاد الفاجعة، حيث لا يبقى فى الأرض مكان يسمح لعبور الجرحى، لابدّ من وضع أقدامهم على أجساد القتلى، ومن لم يقتل يؤسر، وقليل هم الناجون، وإنّ أدنى مطالعة فى تاريخ المغول تفيد انطباق جميع هذه الأوصاف عليهم، قال ابن أبى الحديد: واعلم إنّ هذا الغيب الذى أخبر به على عليه السلام قد رأيناه نحن عياناً ووقع فى زماننا فقد فعل هؤلاء القوم ما لم تحتو التواريخ منذ خلق اللّه تعالى آدم إلى عصرنا هذا على مثله ۴۲۰].

وهنا يبرز هذا السؤال: ماذا كان قصد الإمام عليه السلام بالإخبار عن فتنة صاحب الزنج التى

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۳۳

وقعت بعد مئتى سنة وفتنة المغول التى وقعت بعد ستمائة سنة؟ ربّما أراد الإمام عليه السلام أن يذكّرهم بأنّ أعمالكم الطالحة هذه والتى تأتون بها فى هذا العصر وقد وليتم ظهوركم للحق وأقبلتم على الباطل وضربتم أحكام الإسلام ووقعتم أسرى هوى أنفسكم، فانّ تواصلت هذه الأعمال فى أجيالكم القادمة ستشهدون عواقب وخيمة وسيطالكم العقاب الإلهى، كما يحتمل أن يكون الإمام عليه السلام أراد تحذيرهم من البلاء العظيم الذى ينتظرهم، عليكم أن تتحدوا وتركزوا قوتكم لتتمكنوا من التقليل من آثاره المخربة.

فتنة المغول

المغول فرع من الترك الذين عاشوا فى آسيا المركزية والشرقية فى حدود الصين وهم طوائف مختلفة، طائفة منهم التاتار، وكانوا يأتمرون عادة بأوامر سلاطين الصين، وكان والد جنكيز أول من نهض من هذه الطائفة وإدّعى الاستقلال، وحين خلف جنكيز أباه ۶۰۰ ه سعى للسيطرة على الأقوام المختلفة لتلك المنطقة حيث أراد الرئاسة العامّة لنفسه واستولى على قسم واسع من الصين وسيطر على عاصمتها بكين.

أمّا السلطان محمود خوارزم شاه الذى كان يحكم أكثر الشرط الأوسط وآسيا المركزية، فقد عقد الهدنة بادىء الأمر مع جنكيز، ولكن لم تمض مدّة حتى نشبت بينهما عداوة فقتل رسل جنكيز، فما كان من جنكيز وبدافع الانتقام إلّاأن هجم على ايران وسائر المناطق الخاضعة لنفوذ خوارزمشاه.

أمّا ابن أبى الحديد الذى عاش فى ذلك الزمان وقد شهد تلك الأحداث حسب قوله كما سمع بعضها الآخر، فقد أفرد ۲۵ صفحة فى

شرحه لنهج البلاغة وتطرق فيها بالتفصيل إلى حملة المغول على المناطق الإسلامية وقال: واعلم أنّ هذا الغيب الذى أخبر به الإمام عليه السلام قد رأيناه نحن عياناً، ووقع فى زماننا، وإليك الآن جانب ممّا أورده ابن أبى الحديد بهذا الشأن:

هم التاتـار الـذين خرجوا من أقاصـى المشـرق حتى وردت خيلهم العراق والشام، وقـد فعلوا بالقوقاز وبلاد ما رواء النهر وبخراسان وما والاها من بلاد ما لم تحتو التواريخ منذ خلق اللّه تعالى آدم عليه السلام إلى عصرنا هذا على مثله، رئيسهم هو جنكيز الذى كان شجاعاً عاقلًا

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۳۴

موفقاً منصوراً فى الحرب، كما كان عسكره من الأفراد الشجعان وكانوا يعيشون بصورة شبه وحشية وأنّهم من أصبر الناس على القتال، لاـ يعرفون الفرار ويعلمون مـا يحتـاجون إلى من السـلاح بأيـديهم، وأنّ خيلهم لاـ تحتـاج إلى الشـعير، بـل تأكل نبات الأرض وعروق المراعى، وأنّ عندهم من الخيل والبقر ما لا يحصـى، وأنّهم يأكلون الميتة والكلاب والخنازير وهم أصبر خلق اللّه سبحانه على الجوع والعطش والشـقاء، وثيابهم أخشن الثياب مسّاً، ومنهم من يلبس جلود الكلاب والـدواب والميتة، وأنّهم أشـبه شـىء بالوحش والسـباع، كانوا يقتلون كل من يرونه من الرجال ويغنمون الأموال ويحرقون المـدن ويسـبون النساء الأطفال، لقـد دخلوا من شـرق ايران وأشاعوا الخوف والرعب بحيث لم يفكر أحـد فى مواجهتهم، ومن قـاومهم استسـلم أخيراً لهم، وأحياناً كانت تفتـح لهم أبواب المـدن بعـد أن يعطيهم التاتـار الأمـان حين يطلبونه، ولكنّهم كـانوا ينقضون عهـدهم ويقتلون أهـالى المـدن ويسـبون النساء والأطفال ويعـذبون الناس بأنواع العذاب فى طلب المال .. ومن العجيب فى هذ الأحداث أنّهم وصـلوا إلى إصفهان بعد أن سيطروا على المدن الإيرانية، فحصلت بين الفريقين مقتلـة عظيمـة، ولم يبلغوا منهـا غرضـاً حتى اختلف أهـل إصـفهان فى سـنة ثلاـث وثلاـثين وسـتمائة وهم طائفتان: حنفية وشافعيـة، وبينهم حروب متصـلة وعصبية ظاهرة، فخرج قوم من أصـحاب الشافعى إلى ما يجاروهم ويتاخمهم من ممالك التتار، فقالوا لهم: اقصـدوا البلـد حتى نسلمه إليكم، وفتحت أبواب المدينـة فلما دخلوا البلـد بـدؤا بالشافعية فقتلوهم قتلًا ذريعاً، ولم يقفوا مع العهد الذى عهدوه لهم، ثم قتلوا الحنفية، ثم قتلوا سائرالناس وسـبوا النساء وشـقوا بطون الحبالى ونهبوا الأموال وصادروا الأغنياء، ثم أضرموا النار، فأحرقوا إصفهان حتى صارت تلولًا من الرماد.

ثم ساروا إلى بلاد العرب فهجموا على بغداد فتصدى لهم عسـكر بغداد وثبت أحسن ثبوت ورشقوهم بالسهام، وبعد مدّة توفى جنكيز وخلفه حفيـده هولاكو الـذى تمكن من السـيطرة على بغـداد بعـد أن قتل آخر خلفاء العباسـيين المسـتعصم باللّه وقـد أنهى حكومتهم بذلك.

وبقى المغول فى إيران والبلدان الإسـلامية وقد فقدوا ما طبعوا عليه من وحشية بالتدريج وتأثروا بالثقافة الإسلاميه، وأسلم هولاكو حتى تشيع السلطان محمد خدابنده أحد سلاطين المغول [۴۲۱].

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۳۵

القسم الثالث: الغيب للّهولكن ...

اشارة

«فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ: لَقَدْ أُعْطِيتَ يَا أَمِيرَالْمُؤْمِنِينَ عِلْمَ الْغَيْبِ! فَضَحِكَ عليه السلام، وَقَالَ لِلرَّجُلِ، وَكَانَ كَلْبِيّاً: يَا أَخَا كَلْبٍ، لَيسَ هُوَ بِعِلْمِ غَيْبٍ، وَإِنَّمَا هُوَ تَعَلُّمٌ مِنْ ذِى عِلْم. وَإِنَّمَا عِلْمُ الْغَيْبِ عِلْمُ السَّاعَةِ، وَمَا عَدَّدَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِوَيُنَزِّلُ الْغَيْثُ، وَيَعْلَمُ مَا فِى الْأَرْحَام، وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً، وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَيِّ أرض تَمُوتُ ...) الْآيَةَ، فَيَعْلَمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مَا فِى الْأَرْحَامِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَقَبِيحٍ أَوْ جَمِيلٍ، وَسَخِيٍّ أَوْ بَخِيلٍ، وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ، وَمَنْ يَكُونُ فِى النَّارِ حَطَباً، أَوْ فِى الْجِنَانِ لِلنَّبِيِّينَ مُرَافِقاً.

فَهَذَا عِلْمُ الْغَيْبِ الَّذِی لَایَعْلَمُهُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ، وَمَا سِوَی ذلِکَ فَعِلْمٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ نَبِیَّهُ فَعَلَّمَنِیهِ، وَدَعَا لِی بِأَنْ یَعِیَهُ صَدْرِی، وَتَضْطَمَّ عَلَیْهِ جَوَانِحِی».

الشرح والتفسير

حین خاض الإمام علیه السلام فی تلک الحادثتین المهمتین (قیام صاحب الزنج وفتنهٔ المغول) وذکر خصوصیاتهما

«فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ: لَقَدْ أُعْطِیتَ یَا أَمِیرَالْمُؤْمِنِینَ عِلْمَ الْغَیْبِ!».

فالعبارهٔ وإن کانت علی سبیل الإخبار، لکنّها فی الواقع استفهامیهٔ، لأنّه سمع أن علم الغیب مختص باللّه سبحانه، ولذلک طلب توضیح الإمام علیه السلام:

«فَضَحِکَ علیه السلام، وَقَالَ لِلرَّجُلِ، وَکَانَ کَلْبِیّاً: یَا أَخَا کَلْبٍ، لَیْسَ هُوَ بِعِلْمِ غَیْبٍ، وَإِنَّمَا هُوَ تَعَلُّمٌ مِنْ ذِی عِلْمٍ».

قطعاً أنّ ضحک الإمام علیه السلام لم یکن بدافع السخریهٔ ولم یفرزه الغرور، بل کان ضحک الفرح

نفحات الولایهٔ، ج۵، ص: ۲۳۶

والسرور، ولعل مرد ذلک إلی حسن الأمر فی طرح ذلک السؤال من الرجل الکلبی لیکشف الإمام علیه السلام عن کنه ذلک الموضوع أمام الجمیع .. أو أنّ ضحکه کان من تعجبه فی أنّه لا ینبغی أن یکون مثل هذا الأمر بخفی علی أحد، علی کل حال فانّ عبارهٔ الإمام علیه السلام تشیر إلی حقیقهٔ فی أنّ ذلک العلم مختص باللّه وهو علم ذاتی، والعلم الممکن لما سوی اللّه، فهو العلم الحاصل من التعلم والذی له بُعد إکتسابی، یعنی یتعلّمه الإمام علیه السلام من النّبی صلی الله علیه و آله والنّبی عن طریق الوحی الإلهی (سیأتی شرح هذا المطلب).

ثم قال الإمام علیه السلام:

«وَإِنَّمَا عِلْمُ الْغَیْبِ عِلْمُ السَّاعَهِٔ، وَمَا عَدَّدَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: «إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَهِٔوَیُنَزِّلُ الْغَیْبُ، وَیَعْلَمُ مَا فِی الْأَرْحَامِ، وَمَا تَدْرِی نَفْسٌ مَاذَا تَکْسِبُ غَداً، وَمَا تَدْرِی نَفْسٌ بِأَیِّ أرضٍ تَمُوتُ ...»[۴۲۲]».

ثم أوضح معنی ذلک قائلًا:

«فَیَعْلَمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مَا فِی الْأَرْحَامِ مِنْ ذَکَرٍ أَوْ أُنْثَی وَقَبِیحٍ أَوْ جَمِیلٍ، وَسَخِیٍّ أَوْ بَخِیلٍ، وَشَقِیٍّ أَوْ سَعِیدٍ، وَمَنْ یَکُونُ فِی النَّارِ حَطَباً، أَوْ فِی الْجِنَانِ لِلنَّبِیِّینَ مُرَافِقاً».

فخلص علیه السلام إلی نتیجهٔ نهائیهٔ مؤدّاها:

«فَهَذَا عِلْمُ الْغَیْبِ الَّذِی لَایَعْلَمُهُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ، وَمَا سِوَی ذِلِکَ فَعِلْمٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ نَبِیَّهُ فَعَلَّمَنِیهِ، وَدَعَا لِی بِأَنْ یَعِیَهُ ۴۲۳] صَدْرِی، وَتَضْطَمَ ۴۲۴] عَلَیْهِ

جَوَانِحِی ۴۲۵]».

فالذی یستفاد من مجموع هذه العبارات:

أولًا: أنّ علم الغیب علم ذاتی مختص باللّه سبحانه وتعالی، لکن العلم الإکتسابی والإعطائی لا یسمی بعلم الغیب، بل هو ذ لک العلم الذی علّمه اللّه سبحانه نبیّه وعلّمه النبی من یراه مستعداً لذلک العلم.

ثانیاً: لهذه العلوم التعلیمیهٔ استثناءات وردت خمسهٔ منها فی الآیهٔ الشریفهٔ الأخیرهٔ من

نفحات الولایهٔ، ج۵، ص: ۲۳۷

سورهٔ لقمان، وهذه مصادیق علم الغیب التی لم یعلّمها اللّه سبحانه أحداً من الخلق.

وهنا لابدّ من طرح هذه الأسئلهٔ

۱- كيف يستفاد من الآية الشريفة أنّ هذه العلوم الخمسة مختصة باللّه سبحانه؟

۲- كيف تختص هـذه العلوم باللّه والحال أخبر النبى صلى الله عليه و آله والأئمّـة عليهم السـلام أحياناً عن نزول الأمطار والأطفال فى الأرحام أو الزمان والمكان الذى يتوفون فيه، بل أحياناً أخرى كانوا يخبرون عن العلوم المعاصـرة فمثلًا متى وأين سينزل المطر، وذلك الجنين ولد أم بنت؟

۳- ما الفارق بين هذه العلوم الخمسة وسائر الأمور الخفية التى لا يعلمها غير اللّه سبحانه؟

ويقال فى الإجابة على السؤال الأول:

العبارة الاولى بشأن القيامـة قـد بيّنت بوضوح إختصاص علمها باللّه سـبحانه، وتقـديم عنـده على علم الساعـة دلالة على الحصـر، يعنى العلم بالقيامة مختص فقط بالذات اللّه المقدس، كما تدلّ العبارة والرابعة والخامسة على الحصر أيضاً حيث قالت:

«وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً، وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أرضٍ تَمُوتُ ...».

وبناءاً على ما تقدم فانّ المورد الثانى والثالث بمقتضى وحدة السياق جزء من العلوم المختصة باللّه سبحانه، والروايات المتعددة الواردة عن أئمة العصمة عليهم السلام فى تفسير الآية شاهد أخر على هذا المعنى ۴۲۶].

ويقال فى الردّ على السؤال الثانى:

أنّ الالتفات إلى هذه النقطة ضرورة، وهى أنّ العلم بهذه الأمور الخمسة بصورة تفصيلية مختص باللّه سبحانه، وإن أمكن حصول العلم الإجمـالى للمعصومين أو بعض أوليـاء اللّه سـبحانه، مثلًا يمكن أن يعلم المعصوم أنّ المطر ينزل غـداً، أو الشـخص الفلانى يموت فى الأرض الفلانيـة، أما العلم بجزئيات هذا الأمر من قبيل العلم بلحظة الشـروع وحبات المطر التى تنزل فى المكان، وكذلك العلم بلحظة الموت والبقعة التى يموت فيها والحالات الناشئة من سكرات الموت وما إلى ذلك فى أمور فهو مختص بالذات الإلهيّة المقدّسة،

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۲۳۸

والشاهد على ذلك ما أورده الإمام عليه السلام بشأن الجنين فى رحم امّه فقال:

«فَيَعْلَمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مَا فِى الْأَرْحَامِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَقَبِيحٍ أَوْ جَمِيلٍ، وَسَخِىٍّ أَوْ بَخِيلٍ، وَشَقِىٍّ أَوْ سَعِيدٍ، وَمَنْ يَكُونُ فِى النَّارِ حَطَباً، أَوْ فِى الْجِنَانِ لِلنَّبِيِّينَ مُرَافِقاً»

، وسـائر الأـمور التى يقتصـر علمها على اللّه تبارك وتعالى، وبناءاً هلى هـذا فما يعلمه الناس من حالات فى بعض الأدوار الجنينيـة من خلال تعلم الغيب أو المختبرات المتداولة فى الوقت المعاصر، فهو من قبيل العلم الجزئى، والحال يختص العلم الكلى باللّه سبحانه.

وأمّا الإجابة على السؤال الثالث:

فلابـدّ من الإذعان بأننا لا نرى من فارق بين الموارد الأربعة الأخرى غير القيامة وسائر الأمور الخفية، سوى أنّ الآية المذكورة وروايات المعصومين عليهم السـلام تفرّق هـذه الأمور مع سائر الأمور الخفيـة وتقول بأنّ العلم التفصـيلى فيها مختص بالـذات الإلهيّة، ولكن فى الموارد الأخرى كالـذى ورد فى هـذه الخطبـة بشأن فتنـة صاحب الزنـج وحملة المغول، فممكن أن يزود اللّه بعض الخواص من عباده بعلمها الإجمالى والتفصيلى، وعلى كل حال فاننا تبع للنصوص القرآنية وروايات المعصومين المعتبرة.

علم الغيب فى الآيات والروايات

اختلف العلماء فى قضية علم الغيب وهل هناك من يعلم الغيب سوى اللّه سبحانه أم لا؟

ويبدو اختلافهم يعود إلى اختلاف ظواهر آيات القرآن والروايات الإسلامية، فبعض الآيات القرآنية صرّحت علانية قائلة أنّ علم الغيب مختص باللّه تبارك وتعالى، مثل الآية ۶۵ من سورة النمل: «قُلْ لَايَعْلَمُ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ...».

وصرحت فى الآية ۵۹ من سورة الأنعام قائلة: «وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَايَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ...»، فى حين يسـتفاد من البعض الآخر من الآيات أنّ

جانباً من علم الغیب علی الأقل قد زود به بعض أولیاء اللَّه تعالی، کما فی الآیة ۴۹ من وسورة آل عمران بشأن السید المسیح علیه السلام:

«ءَأُنَبِّئُکُمْ بِمَا تَأْکُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِی بُیُوتِکُمْ ...»، والآیة ۲۶ و ۲۷ من سورة الجن: «عَالِمُ الْغَیْبِ فَلَا یُظْهِرُ عَلَی غَیْبِهِ أَحَداً* إِلَّا مَنْ ارْتَضَی مِنْ رَسُولٍ ...».

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۲۳۹

ونری نفس هذا التفاوت فی الروایات، فمثلًا جاء فی الحدیث أنّ الإمام الصادق علیه السلام ورد مجلساً غاضباً وکان فیه أبو بصیر وبعض أصحابه، فلما جلس قال:

«یَا عَجَباً لأقوام یَزْعَمُونَ أَنَّا نَعلَمُ الغَیبَ مَا یَعْلَمُ الغَیبَ إِلّا اللَّهُ عزَّ وَجَلَّ»[۴۲۷].

بینما یستفاد من عدّة روایات علم الأئمّة المعصومین علیهم السلام بأغلب الأمور الخفیة کالذی ورد فی هذه الخطبة بشأن فتنة صاحب الزنج والمغول، أو سائر خطب نهج البلاغة بخصوص الأمور المستقبلیة، وممّا لا شک فیه أنّه لیس هناک من تضارب بین الآیات المذکورة وأمثالها ولا بین الروایات السابقة (والروایات الأخری التی وردت بهذا المضمون) وقد ذکر المحققون عدّة آراء من أجل الجمع بین هذه الآیات والروایات، منها:

۱- المراد بعلم الغیب الذی اختصته الآیات والروایات باللَّه تبارک وتعالی هو العلم الذاتی، وما یعلمه الأنبیاء والأولیاء هو العلم التعلیمی من جانب اللَّه سبحانه (وهو ما ورد فی کلام الإمام علیه السلام فی هذه الخطبة).

۲- أسرار الغیب علی قسمین: قسم یختص باللَّه تعالی ولا یعلمه أحد إلّاهو کزمان الساعة والأمور الأخری التی وردت فی الآیة ۲۴ من سورة لقمان، وقد أشارت الخطبة إلی هذا الوجه فی الجمع وقد تقدم شرح ذلک.

۳- علم اللَّه سبحانه بأسرار الغیب بالفعل یعنی یعلم کل شیء فی کل زمان، أمّا علم أولیاء اللَّه سبحانه، فلیس بفعلی بل حینی، أی إن أرادوا أن یعلموا شیئاً وتتحقق هذه الإرادة باذن اللَّه تعالی ورضاه، ومن هنا نقرأ فی سورة یوسف أنّ یعقوب لم یکن یعلم مصیر ولده فی صحراء کنعان، والحال علم بعد سنوات بمصیره فی مصر، فقد وجد ریح یوسف من مصر بینما لم یجده فی بئر کنعانه، فلم یکن مأذوناً فی المورد الأول لأن یرید فیعلم، بینما أذن له فی المورد الثانی.

۴- الطریق الآخر للجمع بین الآیات والروایات المختلفة فی أنّ أسرار الغیب مثبتة فی موضعین، اللوح المحفوظ والذی لا یحدث فیه أدنی تغییر ولا یعلمه إلّاتعالی، واللوح المحو والإثبات وهو فی الواقع علم بالمقتضیات لا علم بالعلة التامة، ومن هنا فهو قابل للتغییر، وما

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۲۴۰

یعلمه أولیاء اللَّه إنّما یرتبط بهذا القسم.

ومن أراد المزید من الشرح لکل من الطرق الأربعة المذکورة، فلیراجع المجلد ۱۹، من تفسیر الأمثل فی تفسیر سورة الجن.

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۲۴۱

الخطبة[۴۲۸] المأة والتاسعة والعشرون

اشارة

وَمِنْ خُطبَةٍ لَهُ علیه السلام

فی ذکر المکاییل والموازین ۴۲۹]

نظرة إلى الخطبة

خاض الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة بوعظ المسلمين فأورد عدّة نصائح شافية وكافية، الأولى وتحدث فيها عن قصر عمر الدنيا وأنّ الناس فيها كالضيوف وستنتهى بسرعة هذه الضيافة، بينما تبقى تبعات أعمال الإنسان حين الحساب والجزاء، ثم تحدث فى الثانية عن سعة الفساد فى ذلك العصر شاكياً منه، وأشار فى الثالثة إلى الأخيار والصلحاء والاتقياء والسمحاء ليحذر من خلال المقارنة بضرورة إصلاح النفس وإجتثاث الفساد من المجتمع وأخيراً إختتم الخطبة بذم المرائين الذين يأمرون بالمعروف وليسوا من أهله، وينهون عن المنكر ولا ينتهون عنه.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۴۳

القسم الأول: التحذير من الفساد الاجتماعى

«عِبَادَ اللَّهِ، إِنَّكُمْ- وَمَا تَأْمُلُونَ مِنْ هـذِهِ الـدُّنيَا- أَثْوِيَاءُ مُؤَجَّلُونَ، وَمَدِينُونَ مُقْتَضَوْنَ: أَجَلٌ مَنْقُوصٌ، وَعَمَلٌ مَحْفُوظٌ. فَرُبَّ دَائِبٍ مُضَيَّعٌ، وَرُبَّ كَادِحٍ خَاسِرٌ. وَقَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي زَمَنٍ لَايَزْدَادُ الخَيْرُ فِيهِ إِلَّا إِدْبَاراً، وَلَا الشَّرُّ فِيهِ إِلَّا إِقْبَالًا، وَلَا الشَّيْطَانُ فِي هَلَاكِ النَّاسِ إِلَّا طَمَعاً. فَهذَا أَوَانٌ قَوِيَتْ عُدَّتُهُ، وَعَمَّتْ مَكِيدَتُهُ، وَأَمْكَنَتْ فَرِيسَتُهُ. اضْرِبْ بِطَرْفِكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ النَّاسِ، فَهَلْ تُبْصِرُ

[[تنظر]]

إِلَّا فَقِيراً يُكَابِدُ فَقْراً، أَوْ غَنِيّاً بَدَّلَ نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْراً، أَوْ بَخِيلًا اتَّخَذَ الْبُخْلَ بِحَقِّ اللَّهِ وَفْراً، أَوْ مُتَمَرِّداً كَأَنَّ بِأُذُنِهِ عَنْ سَمْعِ الْمَوَاعِظِ وَقْراً!».

الشرح والتفسير

كما ورد فى سند الخطبة وخلافاً لما جاء فى عنوان هذه الخطبة فاننا لا نشاهد فى متنها ما يشير إلى رعاية العدل فى الكيل والوزن، ولعل ذلك يعود إلى أحد سببين: إمّا أنّ المرحوم السيد الرضى رضى الله عنه قد حذف بعض جوانب الخطبة المتعلقة بالكيل والوزن حسب طريقته فى اختيار الأفصح، أو ليس هنالك من حذف فى الخطبة إلّاأنّ الإمام عليه السلام خطب بهذه الخطبة فى ظروف حين اتسع الفساد فى الكيل والوزن والتطفيف فى البيع وظلم الناس وساد ذلك فى المجتمع، وبالنظر إلى ذلك أورد الإمام عليه السلام هذه الخطبة ليحذر المردة، بعبارة أخرى فانّ شأن وورد الخطبة قضية الكيل والميزان وإن لم يذكر ذلك صريحاً فى متنها، إلّاأنّه ذكر من خلال الدلالة الالتزامية، على كل حال خاطب الإمام عليه السلام عامة الناس وقد حذرهم من تقلب الدنيا

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۴۴

وفساد المجتمع فقال:

«عِبَادَ اللَّهِ، إِنَّكُمْ- وَمَا تَأْمُلُونَ مِنْ هذِهِ الدُّنيَا- أَثْوِيَاءُ[۴۳۰] مُؤَجَّلُونَ، وَمَدِينُونَ مُقْتَضَوْنَ: أَجَلٌ مَنْقُوصٌ، وَعَمَلٌ مَحْفُوظٌ».

فقد شبّه الإمام عليه السلام وضع أهل الدنيا بهذه العبارة بالضيوف الذين دعوا لمدّة معينة فى ضيافة، وبالأفراد المدينين الذين لا يتركهم دائنوهم، فمن الطبيعى ألا يرى الضيف دار المضيف محطته الأبدية، فهم لا يتعلق بها أبداً ولا يثق بها ولا يحرص عليها، وليس الشخص المدين الذى يتابع دائماً من قِبل الدائن من سبيل سوى منحه كل ما يجد بالتدريج، أملًا بأن يأتى اليوم الذى يكون قد سدد فيه كل دينه، كأنّ العمر الذى منحنا اللَّه تعالى من ديوننا التى تؤخذ منّا كل لحظة، والمشكلة المهمّة أنّ إلى جانب ذلك العمر المتقلب والذى ينقضى بسرعة أعمالنا التى نقوم بها والتى تحفظ ويجب علينا تحمل تبعاتها.

ورى بعض شرّاح نهج البلاغة عن بعض الصلحاء قوله:

«مَا أَدرِى كَيفَ أَعجَبُ مِنَ الدُّنيا! أَمن حُسنِ مَنظَرِها وَقُبحِ مَخبَرِها أم مِنْ ذَمِّ النَّاسِ لَها وَتَناحُرِهُم عَلَيها»[۴۳۱].

نفحات الولاية ؛ ج‌۵ ؛ ص۲۴۴
واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلًا:
«فَرُبَّ دَائِبٍ ۴۳۲] مُضَيَّعٌ، وَرُبَّ كَادِحٍ ۴۳۳] خَاسِرٌ».
صحيح أنّ السعى والجهد رمز الموفقية والنجاح، إلّاأنّ هذا ليس قانوناً كلياً، فهناك الأفراد الذين أفنوا عمرهم فى السعى والجد وأجهدوا أنفسهم ليل نها ولم يظفروا بشيء، وهذا أحد إحباطات الإنسان فى الحياة الدنيا، ولعل العبارة إشارة إلى السعى المتعلق بالأمور المادية أوالمعنوية، لأنّهم كثيرون هو الأفراد الذين أجهدوا أنفسهم من أجل الوصول إلى المقامات المعنوية والنجاة الاخروية، ولكن تسللت إليهم أهواء النفس ووساوس الشيطان فى اللحظات الحساسة فاشتعلت النيران فى مزارع طاعتهم وأحرقت كل شيء، ثم أشار إلى الأوضاع المزرية لزمانهم وإقبال الناس على المساويء وفرارهم من الصالحات فقال:
«وَقَدْ
نفحات الولاية، ج‌۵، ص: ۲۴۵
أَصْبَحْتُمْ فِي زَمَنٍ لَايَزْدَادُ الخَيْرُ فِيهِ إِلَّا إِدْبَاراً، وَلَا الشَّرُّ فِيهِ إِلَّا إِقْبَالًا، وَلَا الشَّيْطَانُ فِى هَلَاكِ النَّاسِ إِلَّا طَمَعاً. فَهذَا أَوَانٌ قَوِيَتْ عُدَّتُهُ، وَعَمَّتْ مَكِيدَتُهُ، وَأَمْكَنَتْ فَرِيسَتُهُ ۴۳۴]».
فهذه العبارات الصريحة والواضحة تشير إلى مدى سقوط الوضع الأخلاقى للمسلمين فى ذلك العصر والزمان بفعل الحكومات المستبدة، ومدى الوسط المضحك الذى واجهه الإمام عليه السلام فى عهده، نعم إن فسد مسؤولوا البلاد ومن كان على رأس الحكومة فانّ الفساد سيشمل كل شيء
«النّاس عَلى دينِ مُلُوكِهِم».
فما الذى يمكن توقعه من الناس إن وزع الخليفة أموال بيت المال المسلمين على بطانته، وولى قرابته الطالحة ونصبهم فى المواقع الحساسة، وتعاطى عامله الشراب علانية ليدخل المحراب فيصلى بالناس جماعة ثملًا، ويمارس الآخرون الرذيلة والأعمال البشعة، أو ليست سلطة الشيطان بالتكالب على الدنيا وإبتاع الأهواء؟
نعم، إنّ سادت هذه الأمور تيسرت حكومة الشيطان، فقد ورد فى الخبر أنّ ابن عمر وبعض ولد أبى بكر وسعد بن أبى وقاص قصدوا علياً عليه السلام حين خلافته وسألوه زيادة العطاء من بين المال، فصعد عليه السلام المنبر وخطب الناس قائلًا:
«... إذا مَنعتُهُم مَا كانُوا فِيهِ يَخُوضُونَ وَصَيّرتُهُم إلى مَا يَستَوجِبُونَ فَيَفقِدون ذَلكَ فَيسأَلُونَ وَيَقُولُونَ: ظَلَمنا ابنُ أبى طالبٍ وَحَرَمنا وَمَنعنا حُقوقَنا- إلى أن قال- أَمّا أَنَّى أَعلَمُ الّذى تُريدُونَ وَيُقِيمَ أودكم، وَلَكن لا أَشتَرى صَلاحَكُم بِفَسادِ نَفسِى ...»[۴۳۵].
ثم قال:
«اضْرِبْ بِطَرْفِكَ ۴۳۶] حَيْثُ شِئْتَ مِنَ النَّاسِ، فَهَلْ تُبْصِرُ
[[تنظر]]
إِلَّا فَقِيراً يُكَابِدُ[۴۳۷]
فَقْراً، أَوْ غَنِيّاً بَدَّلَ نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْراً، أَوْ بَخِيلًا اتَّخَذَ الْبُخْلَ بِحَقِّ اللَّهِ وَفْراً[۴۳۸]، أَوْ مُتَمَرِّداً كَأَنَ
نفحات الولاية، ج‌۵، ص: ۲۴۶
بِأُذُنِهِ عَنْ سَمْعِ الْمَوَاعِظِ وَقْراً[۴۳۹]!».
فقد ركز الإمام عليه السلام بهذه العبارات البليغة والرائعة على أربع فئات محرومة أو منحرفة تشكل أساس فساد المجتمع وإنهياره:
الأولى: الفقراء الذين يقعون أسرى الفقر، وهو الفقر الذى عبرت عنه الروايات بالقول:

«كَادَ الفَقرُ أنْ يَكونَ كُفراً».

الثانية: الأغنياء الذين غرقوا فى النعم والملذات والشهوات حتى نسوا كل شيء وهووا فى الكفر.

الثالثة: البخلاء الذين تصوروا أنّ البخل سبب زيادة الثروة.

الرابعة: المتمردون الذين عاشوا الغرور ولم تعد آذانهم تسمع كلام الحق.

فعبارة الإمام عليه السلام التى قال فيها:

«اضْرِبْ بِطَرْفِكَ ۴۴۰] حَيْثُ شِئْتَ ...»

فلاـ تبصر أحداً سوى هذه الفئات الأربع دليل على أنّ الفقر والفساد أصبح على درجة من الشمولية بحيث ظهرت أثارهما فى كل مكان، والدليل على تلك السعة والشمولية ما اشير إليه فى العبارة المذكورة.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۴۷

القسم الثانى: أين الأخيار؟

اشارة

«أَيْنَ أَخْيَارُكُمْ وَصُلَحَاؤُكُمْ! وَأَيْنَ أَحْرَارُكُمْ وَسُمَحَاؤُكُمْ! وَأَيْنَ الْمُتَوَرِّعُونَ فِي مَكَاسِبِهِمْ، وَالْمُتَنَزِّهُونَ فِي مَذَاهِبِهِمْ! أَلَيْسَ قَدْ ظَعَنُوا جَمِيعاً عَنْ هذِهِ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ، وَالْعَاجِلَةِ الْمُنَغِّصَةِ. وَهَلْ خُلِقْتُمْ إِلَّا فِي حُثَالَةٍ لَا تَلْتَقِي بِذَمِّهِمُ الشَّفَتَانِ، اسْتِصْغَاراً لِقَدْرِهِمْ، وَذَهَاباً عَنْ ذِكْرِهِمْ! فَ (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)، (ظَهَرَ الْفَسَادُ)، فَلَا مُنْكِرٌ مُغَيِّرٌ، وَلَا زَاجِرٌ مُزْدَجِرٌ. أَفَبِهذَا تُرِيدُونَ أَنْ تُجَاوِرُوا اللَّهَ فِي دَارِ قُدْسِهِ، وَتَكُونُوا أَعَزَّ أَوْلِيَائِهِ عِنْدَهُ؟

هَيْهَاتَ! لَايُخْدَعُ اللَّهُ عَنْ جَنَّتِهِ، وَلَا تُنَالُ مَرْضَاتُهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ. لَعَنَ اللَّهُ الْآمِرِينَ بِالْمَعْرُوفِ التَّارِكِينَ لَهُ، وَالنَّاهِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ الْعَامِلِينَ بِهِ!».

الشرح والتفسير

استعمل الإمام عليه السلام عبارات بليغة رائعة فى هذا المقطع من الخطبة ليكشف النقاب عن فساد الزمان والتولى عن الصالحات والاقبال على السيئات فقال:

«أَيْنَ أَخْيَارُكُمْ وَصُلَحَاؤُكُمْ! وَأَيْنَ أَحْرَارُكُمْ وَسُمَحَاؤُكُمْ![۴۴۱] وَأَيْنَ الْمُتَوَرِّعُونَ ۴۴۲] فِي مَكَاسِبِهِمْ، وَالْمُتَنَزِّهُونَ فِي مَذَاهِبِهِمْ!».

فقد بحث الإمام عليه السلام بهذه العبارات عن ستة طوائف فى المجتمع ليدل فقد انها أنذاك على مدى الانحطاط والفساد، والطوائف الست هى: الأخيار، الصالحون، الأحرار، السمحاء،

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۴۸

المتورعون، والمتنزهون، حقّاً إنّ افتقرت المجتمعات البشرية إلى هذه الطوائف الشريفة والنجيبة فى المجتمع، فليس هناك سوى الفساد والانحراف، والمراد من المتورعين فى مكاسبهم، الأفراد الذين لا يطففون فى البيع ولا يغشون ولا يكذبون ولا يقسمون بالباطل ولاـ يرابون والذين ينقضون عهودهم ومواثيقهم، فمن يرى المجتمع الصالح العامر بالأخيار والصلحاء والأحرار والسمحاء على أنّهم نماذج المجتمع إنّما يشعر بالامتعاظ لا سيّما إن رأى بدلًا منهم الأشرار والطلحاء والأسرى والبخلاء فلا يمتلك سوى الصراخ: اين اولئك الأعزة؟ كيف خلى مكانهم؟

ثم قال الإمام عليه السلام:

«أَلَيْسَ قَدْ ظَعَنُوا[۴۴۳] جَمِيعاً عَنْ هذِهِ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ، وَالْعَاجِلَةِ

الْمُنَغِّصَةِ[۴۴۴]».

فأردفها عليه السلام بالقول:

«وَهَلْ خُلِقْتُمْ ۴۴۵] إِلَّا فِی حُثَالَةٍ[۴۴۶] لَاتَلْتَقِی بِذَمِّهِمُ الشَّفَتَانِ، اسْتِصْغَاراً لِقَدْرِهِمْ، وَذَهَاباً عَنْ ذِكْرِهِمْ! فَ (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)».

وقد انبثقت هذه الظروف العصيبة والأفراد المنحطين منذ انحراف الخلافة الإسلامية عن محورها الأصلی وقد بلغ الأمر ذروته علی عهد عثمان، فقد فوضت المواقع الحساسة من الحكومة الإسلامية إلی أصحاب الدنيا البعيدين عن الورع والتقوی وقد تغلغلوا فی المجتمع الإسلامی بحيث كان من المتعذر تغييرهم ابان حكومة علی عليه السلام، كما كان هؤلاء الأفراد هم السبب لكافة المعارك التی حدثت ضد الإمام عليه السلام.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلی الوظيفة التی ينبغی أن يقوم بها أصحابه تجاه تلك الظروف والأوضاع فقال:

«ظَهَرَ الْفَسَادُ، فَلَا مُنْكِرٌ مُغَيِّرٌ، وَلَا زَاجِرٌ مُزْدَجِرٌ. أَفَبِهذَا تُرِيدُونَ أَنْ تُجَاوِرُوا اللَّهَ فِی دَارِ قُدْسِهِ، وَتَكُونُوا أَعَزَّ أَوْلِيَائِهِ عِنْدَهُ؟».

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۴۹

طبعاً إنّ هذا الاستفهام إستفهام استنكاری، والمراد علی ضوء هذا الوضع الذی سلكتموه وقد سكتم إزاء الفساد أو أعنتم عليه، فلا من أمر بمعروف ولا نهی عن منكر، فليس لكم أن تنالوا القرب الإلهی وتكونوا فی صفوف أولياء اللّه، فأكد ذلك بالقول:

«هَيْهَاتَ! لَايُخْدَعُ اللَّهُ عَنْ جَنَّتِهِ، وَلَا تُنَالُ مَرْضَاتُهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ».

فاولئك المسلمون ظاهراً ويحسبون فی صفوف أهل الإيمان لكنّهم راضون بالفساد ساكتون باطناً، لا يقدرون علی خداع اللّه العالم بأسرارهم وأعمالهم، لعلم يخدعون الآخرين، بل وأنفسهم لمدّة، ولكن أنی لهم ذلك يوم القيامة يوم لا يخفی علی اللّه منهم خافية، فليس أمامهم سوی الندم.

ورد فی الحديث عن النبی الأكرم صلی الله عليه و آله أنّه قال:

«لَيسَ الإيمانُ بِالتَّحلّی وَلا بِالّتمنّی ولكن الإيمانَ ما خَلصَ فِی القَلبِ وَصَدَّقَهُ الأعمالُ»[۴۴۷].

ثم إختتم الخطبة مشدداً فی التأكيد فقال:

«لَعَنَ اللَّهُ الْآمِرِينَ بِالْمَعْرُوفِ التَّارِكِينَ لَهُ، وَالنَّاهِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ الْعَامِلِينَ بِهِ!».

صحيح أنّ عمل الإنسان لا يشترط فی الأمر بالمعروف والنهی عن المنكر، وبعبارة أخری فانّ الأمر بالمعروف والنهی عن المنكر وظيفتان مستقلتان وإن كان نفس الإنسان تاركاً للمعروف وعاملًا بالمنكر.

كما ورد عن رسول اللّه صلی الله عليه و آله:

«مُروا بِالمَعرُوفِ وَإن لَم تَفعَلوهُ وَانهُوا عن المُنكَرِ وإن لَم تَجتَنِبُوا كُلَّهُ»[۴۴۸].

ولكن أن يأمر الإنسان بالمعروف ولا يأتمر به وينهی عن المنكر ولا ينتهی عنه بحدّ ذاته نوع من النفاق الواضح، والمنافق يستحق اللعن واللوم والعقاب.

وبعبارة أخری فانّ اختلاف الظاهر والباطن الذی يكون سبباً لخداع الناس وروح النفاق من أسوأ الصفات التی يجعل الإنسان يستحق اللعن فيوجب بُعده عن اللّه ورحمته.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۵۰

شكوی أهل الزمان

من المسائل الغاية فی الصعوبة والمرارة فی التاريخ الإسلام هو أنّ علياً عليه السلام بدلًا من أن يأخذ بزمام أمور الامة الاسلامية بعد

رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لينشر الإسلام فى الشرق والغرب ويحفظ مبادئ الإسلامية، قد تسلم الحكومة الإسلامية والامّة الإسلامية عاشت الانحراف عن العدالة والزهد بفعل اضطراب عهود الخلفاء ولا سيّما عهد عثمان الذى ضاعت فيه القيم الإسلامية وقد وضعت الأموال والمناصب تحت تصرف حثالة بنى أمية وآل مروان، فهم لا يفكرون إلّافى المال والثروة والمقام والسيطرة على الناس، وقد انتعشت أغلب مثل الجاهلية، فقد قام الإمام عليه السلام فى ظل هذه الظروف العصيبة من أجل إحياء القيم الإسلامية وسنّة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وإطفاء فتن الجاهلية، من خلال الحث والتبشير أحياناً والانذار واللوم أحياناً أخرى، ون خلال الاستشهاد بحوادث عصر النبى الأكرم عليه السلام ومقارنتها بالأوضاع السائدة، كما يستعين أحياناً بتاريخ سالف الأنبياء والعذاب الذى صبّ على العتاة الذين تمردوا عليهم، وهكذا أخذت تظهر الفضائل الإسلامية والإنسانية شيئاً فشيئاً بين أصحاب الإمام عليه السلام حتى استقرت وتبلورت بعد أن رويت شجرتها بدم الإمام عليه السلام، وكادت أن تثمر، ولكن مع الأسف الشديد أنّ تلك الأجواء تعكرت بفعل فتن الناكثين والقاسطين والمارقين، وقد بلغت الجريمة بأحدهم لأن ينهال بالسيف على رأس الإمام عليه السلام لتبقى تلك البرامج ناقصة، فتنشط من جديد الشياطين لتعيث فى الأرض الفساد.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۵۱

الخطبة[۴۴۹] المأة والثلاثون

اشارة

وَمِنْ كَلام لَهُ عليه السلام

لأبى ذرّ رحمه اللَّه لمّا أخرج إلى الربذة

نظرة إلى الخطبة

لما إنهال أزلام بنى أمية وبنى مروان على بيت مال المسلمين بتلويح من عثمان فجعلوا ينهبون ما يريدون، واجههم أبو ذر رحمه الله ذلك الصحابى الشجاع والاسوة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فأصبح يشكل خطراً جدّياً على منافعهم، فأشاروا على عثمان بنفيه إلى ربذة التى تعتبر أسوأ المناطق مناخاً، أمّا الإمام عليه السلام فقد أراد أن يثبت عدم شرعية هذا الحكم الجائر من جهة، وأن يشد من عزيمة أبى ذر من جهة أخرى، فيعينه على تحمل ما يواجهه من صعوبات، ومن هنا شايع أبى ذر وقد واساه بكلمات رائعة وعميقة وأمله بالمستقبل الزاهر الذى ينتظره، كما أضاف ورقة سوداء أخرى إلى سجل بنى أمية ومروان المظلم.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۵۳

القسم الأول: أبو ذر رحمه الله بطل مقارعة الفساد

اشارة

«يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّکَ غَضِبْتَ لِلَّهِ، فَارْجُ مَنْ غَضِبْتَ لَهُ. إنَّ الْقَوْمَ خَافُوکَ عَلَى دُنْيَاهُمْ، وَخِفْتَهُمْ عَلَى دِينِکَ، فَاتْرُکْ فِی أَيْدِيهِمْ مَا خَافُوکَ عَلَيْهِ، وَاهْرُبْ مِنْهُمْ بِمَا خِفْتَهُمْ عَلَيْهِ، فَمَا أَحْوَجَهُمْ إِلَى مَا مَنَعْتَهُمْ، وَمَا أَغْنَاکَ عَمَّا مَنَعُوکَ! وَسَتَعْلَمُ مَنِ الرَّابِحُ غَداً، وَالْأَکْثَرُ حُسَّداً [[خسّراً]]

. وَلَوْ أَنَّ السَّموَاتِ وَالْأَرَضِينَ کَانَتَا عَلَى عَبْدٍ رَتْقاً ثُمَّ اتَّقَى اللَّهَ لَجَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْهُمَا مَخْرَجاً! لَا يُؤْنِسَنَّکَ إِلَّا الْحَقُّ، وَلَا يُوحِشَنَّکَ إِلَّا الْبَاطِلُ. فَلَوْ قَبِلْتَ دُنْيَاهُمْ لَأَحَبُّوکَ، وَلَوْ قَرَضْتَ مِنْهَا لَأَمَّنُوکَ».

الشرح والتفسیر

کما ذکرنا فانّ الإمام علیه السلام أورد هذا الکلام حین نفی أبو ذر من قبل عثمان إلی الربذة، جاء فی الخبر: لما أخرج أبو ذر إلی الربذة أمر عثمان، فنودی فی الناس ألا یکلم أحد أبا ذر ولا یشیعه، وأمر مروان بن الحکم أن یخرج به، فخرج به، وتنحّی عنه الناس إلّاعلی بن أبی طالب علیه السلام وعقیلًا أخاه وحسناً وحسیناً علیهما السلام وعماراً رحمه الله، فانّهم خرجوا معه یشیعونه، فجعل الحسن علیه السلام یکلم أبا ذر، فقال مروان إیها حسن ألا تعلم أنّ أمیر المؤمنین (عثمان) قد نهی عن کلام هذا الرجل، فان کنت لا تعلم فاعلم ذلک، فحمل علی علیه السلام علی مروان فضرب بالسوط بین أذنی راحلته وقال: تنحّ لحالک اللَّه إلی النار، فرجع مروان مغضباً إلی عثمان فأخبره الخبر[۴۵۰].

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۲۵۴

وهنا وقف أبو ذر رحمه الله فودعه القوم، وخطب الإمام علیه السلام بهذه الکلمات التی تتضمن کل واحدة منها نقطة مهمّة بهدف مواساة أبی ذر وتحمله المصاعب التی ستواجهه فی المستقبل، فقد أشار علیه السلام إلی ست نقاط فقال أولًا:

«یَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّکَ غَضِبْتَ لِلَّهِ، فَارْجُ مَنْ غَضِبْتَ لَهُ».

أمّا قوله علیه السلام فارج من غضبت له ولم یقل ارج اللَّه، فالواقع بیّن الإمام علیه السلام دلیل ذلک الأمل، لأنّ کل شخص یغضب لآخر بالنسبة لشیء یؤذیه، فمن الطبیعی أنّ ذلک الشخص سیقف إلی جانبه.

وقال فی الثانیة:

«إِنَّ الْقَوْمَ خَافُوکَ عَلَی دُنْیَاهُمْ، وَخِفْتَهُمْ عَلَی دِینِکَ، فَاتْرُکْ فِی أَیْدِیهِمْ مَا خَافُوکَ عَلَیْهِ، وَاهْرُبْ مِنْهُمْ بِمَا خِفْتَهُمْ عَلَیْهِ».

إشارة إلی أنّهم شعروا بالخطر علی حکومتهم ومنافعهم المادیة إثر صراحة کلامک فی الأمر بالمعروف والنهی عن المنکر، فلم یستطیعوا تحمل وجودک فی المدینة، لکنّک قاطعتهم ولم تقبل بذلهم، وذلک لأنّک شعرت بالخطر علی دینک، فلما قمت بوظیفتک واطلعت الناس علی أعمال هؤلاء الحکام، فاترکهم واهرب بدینک وإیمانک.

ثم قال الإمام علیه السلام:

«فَمَا أَحْوَجَهُمْ إِلَی مَا مَنَعْتَهُمْ، وَمَا أَغْنَاکَ عَمَّا مَنَعُوکَ! وَسَتَعْلَمُ مَنِ الرَّابِحُ غَداً، وَالْأَکْثَرُ حُسَّداً»،

فهم بحاجة إلی دینک، الدین الذی لم تکن مستعداً للتضحیة به من أجل دنیاهم، لکنّک لست بحاجة إلی دنیاهم وإن منعوها عنک ۴۵۱]، والعبارة «وستعلم ...» مواساة أخری لأبی ذر فعمر الدنیا قصیر کأنه ویوم وغدا تقوم القیامة، أنذاک سیفتضح الظلمة عبدة الدنیا ویغبطون الأتقیاء علی درجاتهم العالیة، ثم ضاعف من ذلک الرجاء فی قلب أبی ذر فقال فی الثالثة:

«وَلَوْ أَنَّ السَّموَاتِ وَالْأَرَضِینَ کَانَتَا عَلَی عَبْدٍ رَتْقاً[۴۵۲] ثُمَّ اتَّقَی اللَّهَ لَجَعَلَ اللَّهُ

لَهُ مِنْهُمَا مَخْرَجاً!».

والواقع هو أنّ هذه العبارة إشارة إلی الآیة الشریفة:

«وَمَنْ یَتَّقِ اللَّهَ یَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً

* وَیَرْزُقْهُ مِنْ حَیْثُ لَایَحْتَسِبُ»[۴۵۳].

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۲۵۵

ثم قال فی الرابعة والخامسة:

«لَا یُؤْنِسَنَّکَ إِلَّا الْحَقُّ، وَلَا یُوحِشَنَّکَ إِلَّا الْبَاطِلُ».

فلیکن أنسک فی الحق ولا تخشی شیئاً مادمت فی هذا السبیل، ولتکن وحشتک من الباطل وإنّک لسعید مادمت هارباً من الباطل، فلا ضیر علیک إنّک قمت للَّهوأمرت بالمعروف ونهیت عن المنکر فی اللَّه، فلو قبلت دنیاهم وعاونتهم فی نیل أطماعهم المادیة لأحبّوک،

ولو أخذت من ذلک شيئاً وهادنتهم لأمنوک، ولذا قال فی السادسة:

«فَلَوْ قَبِلْتَ دُنْيَاهُمْ لَأَحَبُّوکَ، وَلَوْ قَرَضْتَ [۴۵۴] مِنْهَا لَأَمَّنُوکَ»

، فهم تجار ظلمة ذائبون فی الدنيا وأهل معاملة فيها، فمن وافق على مظالمهم وهادنهم بقبول سهم من أموالهم، أحبّوه وقدّسوه ودافعوا عن ماله وعرضه.

فعبارته عليه السلام مواساة لأبی ذر من جانب وصاعقة شديدة على الحكام الظلمة من جانب آخر، فالحق أن نفی «أبوذر» ذلک العبد الصالح والزاهد الورع كان نموذجاً للأمر بالمعروف والنهی عن المنكر كان وصمة عار فی جبين الحكام الظلمة وأعوانهم، فقد كانوا يعلمون أنّ لسان ذلک الصحابی الجليل يعدل مئة ألف سيف.

تأمّلات

۱– من هو أبو ذر رحمه الله

تعتبر حياة أبی ذر مليئة بالأحداث مقارنة بحياة سائر صحابة النبی الأكرم صلى الله عليه و آله والتی يمكنها أن تكون أسوة لكافة المجاهدين فی سبيل الحق طيلة التاريخ البشری، ولا غرو فحياته إقتباس من حياة مولاه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وعلى عليه السلام مع فارق بسيط هو أنّه خضع لظروف صعبة جدّاً، لكنّه لم يتوان قط فی الأمر بالمعروف والنهی عن المنكر الوقوف بوجه الظلمة والفساد، وإليک جانب من سيرته:

اسمه جندب وأبوه جنادة[۴۵۵] وأسماه رسول اللَّه عبداللَّه، ينسب إلى طائفة معروفة من طوائف

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۵۶

العرب وهی بنی غفار، كانت له ضيعة أطراف مكّة، سمع ببعث النبی الأكرم صلى الله عليه و آله فاتجه إلى مكّة، فلما دخل المسجد رأى فيه طائفة من قريش وهی تتحدث عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وهی تسبه وتشتمه، فدخل أبو طالب، فقالوا: إسكتوا هذه عمّه، عرف أبو ذر، أبا طالب، فلما خرج من المسجد تبعه فالتفت إلى أبو طالب وسأله هل من حاجة؟ قال: اريد الإيمان بالنبی صلى الله عليه و آله، فقال له أبو طالب تعال هنا غداً، فقضى أبو ذر ليلته فی المسجد الحرام، وفی اليوم التالی إلتقى حمزة، ثم تعرف بجعفر وعلی وأخيراً حمله علی عليه السلام إلى النبی صلى الله عليه و آله فأسلم وآمن طواعية.

ثم أمره رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بالرجوع إلى أهله وقال له: فان لک ابن عم قد توفی وليس به وارث غيرک فاستعن بتلک الأموال حتى يؤذن لی بالدعوة العلنية آنذاک عد إلينا، كان أبو ذر من أوائل من أسلم، وإلتحق بالنبی الأكرم صلى الله عليه و آله بعد غزوة بدر وأحد و الخندق وحين أنفق كل ما لديه فی سبيل اللَّه، وقد وصفه النبی صلى الله عليه و آله بصدّيق الأمّة وشبيه عيسى بن مريم.

قال العلّامة المجلسی رحمه الله فی كتاب «عين الحياة» يستفاد من مصادر الفريقين أنّه لم يكن من بين الصاحبة بعد المعصومين من هو أجل قدراً من سلمان و أبی ذر والمقداد وقد قال فيه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله:

«مَا أَظَلَّتِ الخضرَاءُ ولا أَقَلَّتِ الغَبرَاءُ عَلَى ذی لَهجَةٍ أَصدَقُ مِن أَبِی ذَر يَعيشُ وَحدَهُ وَيَمُوتُ وَحدَهُ وَيُبعَثُ وَحدَهُ وَيَدخُلِ الجَنَّةَ وَحدَهُ»[۴۵۶].

لازم أبو ذر رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فی المدينة، ولمّا ولی عثمان الخلافة وأعطى مروان من بيت المال، جعل أبو ذر يقول بين الناس وفی الطرقات والشوارع:

«وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِی سَبِيلِ اللَّهِ ...»[۴۵۷].

فى إشارة إلى عثمان وبطانته الـذين أخـذوا ينهبون بيت مال المسـلمين، كان أبو ذر يردد تلك الآية ويرفع بها صوته، فرفع ذلك مراراً إلى عثمان وهو ساكت، ولم تمض مـدّة حتى صـعب على الخليفـة وبطانته تحمل كلام أبى ذر، فأرسل إليه عثمان مولى من مواليه أن إنته عمّا بلغنى عنك،

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۵۷

فقـال أبو ذر: أو ينهانى عثمان عن قراءة كتاب اللَّه تعالى؟ فواللَّه لأن أرضـى اللَّه بسـخط عثمان أحبّ إلىّ وخير لى من أن أسـخط اللَّه برضـا عثمـان، فأغضب ذلك عثمان وأحفظه، فتطاير وتماسك، إلى أن قال يوماً والناس حوله: أيجوز للإمام أن يأخـذ من المال شـيئاً قرضاً، فاذا أيسر قضى؟ وكان فى المجلس كعب الأحبار وأبو ذر، فقال كعب الأحبار: لا بأس بذلك، فقال:

أبو ذر: يابن اليهودية أتعلمنا ديننا؟ (فمثل هذه الأمور لا تجوز فى بيت مال المسلمين) فقال عثمان: قد كثر أذاك وتولعك بأصحابى، إلحق بالشام، فأخرجه إليها.

ولـم يسـكت أبـو ذر فى الشـام حين شاهـد الخضـراء الـتى بناهـا معاويـة فى دمشـق إلى جـانب الـبيوت المتواضـعه للفقراء من النـاس والمحرومين، فقال لمعاويـة: يا معاويـة إن كانت هذه من مال اللَّه فهى الخيانة، وإن كانت من مالك فهى الاسـراف، واللَّه لقد حدثت أعمـال مـا أعرفهـا، واللَّه مـا هى فى كتـاب اللَّه ولا ـ سـنّة نبيّه، واللَّه إنّى لأـرى حقـاً يطفـأ وباطلًا يحيا، وصادقاً مكـذباً، وأثرة بغير تقى، وصالحاً مسـتأثراً عليه، فثقل ذلك الكلام على معاوية، فكتب إلى عثمان، فكتب عثمان أن إحمل جندباً إلى على أغلظ مركب وأوعره حتى قدم به المدينة.

فلما دخل أبو ذر رحمه الله على عثمان، سعى عثمان لأن يضطره للقول بخلاف ما يريد فقال له: أنت الذى تزعم أنا نقول:

«إنّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحنُ الأغنِياء»

، فقال أبو ذر: لو كنتم لا تقولون هذا لأنفقتم مال اللَّه على عباده، ولكنّى أشهد أنّى سمعت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يقول:

«إذا بَلَغَ بَنو العاصِ ثَلاثِينَ رَجُلًا، جَعَلُوا مالَ اللَّهِ دُولًا، وَعِبادَهُ خِولًا، وَدِينَهُ دَخلًا»

، فقال عثمان لمن حضـر: أسـمعتموها من رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله؟ قالوا: لا؟ قال عثمان: ويلك يا أبا ذر! أتكـذب على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، ثم قال: ادعوا لى علياً، فما جاء قال عثمان لأبى ذر: اقصص عليه حديثك فى بنى العاص، فأعاده، فقال عثمان لعلى أسـمعت هذا من رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله قال: لا؛ وقد صدق أبو ذر، فقال: كيف عرفت صدقه؟ قال: لأنّى سـمعت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، يقول:

«مَا أظَلَّتِ الخضرَاءُ ولا أَقَلَّتِ الغَبرَاءُ عَلَى ذِى لَهجَةٍ أَصدَقُ مِن أَبِى ذَر ...»

. فقال من حضر: أما هذا فقد سمعناه كلّنا من رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، فندم عثمان.

وجـاء فى الخبر عن الإمـام الصـادق عليه السـلام قال: «إنّ عثمان بعث غلامين بمئتى دينار إلى أبى ذر وقال: قولا له إنّ عثمان يقرأك السلام وبعث بهذا المال لتستعن به على معيشتك، فقال أبو ذر:

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۵۸

فهل أعطى سائر المسلمين، قالا: لا، فقال: لا حاجة لى به، قالا: إنّ عثمان يقول إنّه من خاصة مالى ولم يخالطه الحرام، فلم يقبل أبو ذر وقال: إنّنى لأغنى الناس بولاية على بن أبى طالب، فعودا بالمبلغ إليه واللَّه يحكم بينى وبينه»[۴۵۸].

وأخيراً ضـاق عثمـان ذرعـاً بأبى ذر واسـتشار من حوله، فأشاروا عليه بنفيه من المدينـة، فاختار أبو ذر الشام والعراق، فلم يوافقوه حيث كـانوا يخشون منه، إلى انتهى بهم الأـمر لنفيه إلى الربـذة[۴۵۹] المعروفـة بسوء أحوالهـا ومناخها حتى توفى فيها، ولم يكن لـديه حتى الكفن مرّت جماعة وفيهم مالك الأشتر فأخبرتهم بنته فى الطريق، فكفنوه وصـلى عليه صـحابى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله عبداللَّه بن مسعود، ثم دفنوه ۴۶۰].

۲- أبو ذر رحمه الله والاشتراكية

لقد سعى البعض من المتعصبين بدافع حبّه لمعاوية وبنى أمية أو لفرط ذوبانه فى عثمان لإثارة بعض الغبار على شخصية أبى ذر، وذلك لعدم إمكانية الجمع بين كون أبا ذر من أولياء اللَّه أنّه أصدق من على الأرض وأنّ عثمان خليفةالمسلمين ومعاوية من الصحابة، ومن هنا فلم يروا أخف وطأة عليهم من أبى ذر فقالوا: إنّ أبا ذر لا يؤمن بالملكية الفردية وكانت له نزعة اشتراكيه.

وقال الرزكلى فى كتاب «الاعلام فى أبى ذر»: «ولعله أول اشتراكى طادرته الحكومات»[۴۶۱].

وهذا فى الوقت الذى لم يتطرق فيه أبو ذر قط إلى نفى الملكية الفردية، بل شدد من حملاته ضد الأثرياء كمعاوية ممن يوزعون الثروة بصورة غير عادلة، ولذلك لم يكن يشن مثل هذه

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۵۹

الحملات على عهد الخيفة الأول والثانى، قال البعض وردت عبارة «مال اللَّه» فى كلمات أبى ذر، فاستفادو منها نفيه للملكية الخاصة، والحال التعبير بمال اللَّه عن بيت المال هو تعبير متداول وسائد، فقد صرّح المرحوم العلّامة الأمينى فى المجلد الثامن من الغدير حين نقل نعت أبى ذر بالاشتراكية أنّ التعبير بمال اللَّه كثير فى أقوال الصحابة، ثم نقل عدّة روايات عن عمر عبّر فيها صريحاً بمال اللَّه، كما وردت عدّة روايات عن أمير المؤمنين على عليه السلام عبّر فيها بمال اللَّه ۴۶۲].

لا شك أنّه يمكن التعبير عن تلك الأموال بمال اللَّه، بل يمكن اطلاق مال اللَّه حتى على الأموال الشخصية للناس، فقد جاء فى القرآن الكريم مثل هذه التعبير:

«وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِى آتَاكُمْ ...»[۴۶۳].

والحق إنّ هذه الفئة تسرعت فى الحكم على أبى ذر، حيث كان يؤكد مراراً تمسكه بالآية:

«وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ...»[۴۶۴]

، ونعلم جميعاً أنّ هذه الآية وردت بشأن مانعى الزكاة.

والأدهى من كل ذلك لجنة فتوى الأزهر قد أصدرت فتوى عام ۱۳۶۷ ق تحت تأثير بعض المتعصبين فى نفى الشيوعية لتنقل عقيدة أخرى لأبى ذر وحكمت ببطلانها لتعتبرها معلولة لبعده عن مبادىء الإسلام، وهى أنّه كان يعتقد بوجوب اعطاء المال الزائد عن حاجته إلى أهل الحاجة ولا ينبغى أن يحتفظ بتلك الأموال، قال المرحوم الأمينى بعد ذكره لهذه الفتوى لو اوكل شيخ الأزهر مطالعة هذه المسألة لمن هو أعرف بأبى ذر وحكموا فيها بعيداً عن التعصب، لعلم أنّ ليس هناك مثل هذه العقيدة لأبى ذر، والأسوأ من ذلك ماذكروه من عذر لأبى ذر بعدم معرفة بمبادىء الإسلام، وهذا ما يضحك الثكلى ويبكى كل مسلم غيور، فهل يصح مثل هذا الكلام بشأن صحابى جليل قضى شرطاً من حياته مع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وقد شبّهه النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بعيسى خلقاً وخلقاً[۴۶۵]، والطريف فى الأمر أنّ أبا ذر ثقة عند بعض

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۶۰

المحدثين كالبخارى ومسلم حيث نقلوا عنه ۸۱ حديثاً[۴۶۶]، وهذا بدوره يكشف عن مدى بعد لجنة فتوى الأزهر عن الحقيقة.

۳- العاقبة المريرة لأبى ذر

إنّ الحديث فى أبى ذر وما لم يقال فيه لكثير ويتطلب كتاباً مستقلّا، ولكن يبدو من الضرورى ذكر هذه النقطة فى أنّ ما منح أبى ذر القوة والصلابة وأرعب خصومه هو زهده الممزوج بصراحة لسانه، فهم لم يستطيعوا الاعتراض عليه لزهده من جانب، ومن جانب آخر لم يطيقوا تحمل صراحته، وإليك نموذج من ذلك.

روی ابن أبی الحدید عن الجاحظ عن جلّام بن جندل الغفاری قال: کنت غلاماً لمعاویة علی قنسرین والعواصم فی خلافة عثمان، فجئت إلیه یوماً أسأله عن حال عملی، إذا سمعت صارخاً علی باب داره یقول: أتتکم القطار بحمل النار (إشارة إلی الجمال التی کانت تحمل أموال بین المال)، اللّهم إلعن الآمرین بالمعروف التراکین به، اللّهم إلعن الناهین عن المنکر المرتکبین له، فازبأر معاویة وتعیّر لونه وقال: یا جلّام أتعرف الصارخ؟ فقلت: اللّهم لا. قال:

من عذیری من جندب بن جنادة، یأتینا کل یوم فیصرخ علی باب قصرنا بما سمعت! ثم قال:

أدخلوه علیَّ، فجیئی بأبی ذر بین قوم یقودونه، حتی وقف بین یدیه، فقال له معاویة: یا عدوّ اللَّه وعدوّ رسوله تأتینا کل ویوم فتصنع ما تصنع، أمّا لو أنی کنت قاتل رجلًا من أصحاب محمد من غیر أذن أمیر المؤمنین عثمان لقتلتک، ولکنی أستاذن فیک. فقال أبو ذر: ما أنا بعدوّ للَّهولا لرسوله، بل أنت وأبوک عدوّان للَّهولرسوله، أظهرتما الإسلام وأبطنتما الکفر، ولقد لعنک رسول للَّهصلی الله علیه و آله ودعا علیک مرات ألا تشبع .. فغضب معاویة وأمر بحبسه وکتب إلی عثمان فیه، فکتب عثمان إلی معاویة أن إحمل جندباً علی أغلظ مرکب وأوعره، فوجه به مع من سار به اللیل والنهار، وحمله علی شارف لیس علیها إلّاقتب، حتی قدم به المدینة وقد سقط لحم

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۲۶۱

فخذیه من الجهد، ثم نفاه عثمان إلی الربذة[۴۶۷].

ونختتم هذا البحث بحدیث نبوی شریف ورد فی کتاب أسد الغابة، فقد أسلم أبو ذر لثلاث سنوات قبل البعثة، وکان یعبد اللَّه:

«وَبَایَع النَّبِی صلی الله علیه و آله عَلَی أنْ لاتَأخُذُهُ فِی اللَّهِ لَومَةَ لائِم وَعَلَی أن یَقُولَ الحَقَّ وإرن کَانَ مرّاً»[۴۶۸].

۴- کلمات المؤدعین لأبی ذر

جاء فی الکتب التاریخیة أنّ عقیلًا وحسناً وحسیناً علیهم السلام وعماراً رحمه الله قد ودعوا أبا ذر إلی جانب علی علیه السلام وکل قال فی وداعه کلمة، فقد قال عقیل:

«ما عسی أن نقول یا أبا ذر وأنت تعلم إنّا نُحبّک، وأَنت تُحبّنا! فاتق اللَّه فان التقوی نجاة واصبر فان الصبر کرم».

ثم تکلّم الحسن علیه السلام فقال:

«یا عمّاه، لولا أنّه ینبغی للمودع أن یسکت، وللمشیّع أن ینصرف، لقصر الکلام وإن طال الأسف، وقد أتی القوم إلیک ما تری، فضع عنک الدنیا بتذکر فراغها، وشدّة ما إشتد منها برجاء ما بعدها، واصبر حتی تلقی نبیّک صلی الله علیه و آله وهو عنک راض».

ثم تکلّم الحسین علیه السلام فقال:

«یا عمّاه، إن اللَّه تعالی قادر أن یغیر ما قد تری، واللَّه کل یوم هو فی شأن، وقد منعک القوم دنیاهم، ومنعتهم دینک، فما أغناک عمّا منعوک وأحوجهم إلی منعتهم، فأسأل اللَّه الصبر والنصر، واستعذ به من الجشع والجزع، فانّ الصبر من الدین والکرم ...».

ثم تکلّم عمار رحمه الله فقال:

«لا- آنس اللَّه من أوحشک، ولا- آمن من أخافک، أما واللَّه لو أردت دنیاهم لأمنوک، ولو رضیت أعمالهم لأحبّوک، وما منع الناس أن یقولوا بقولک إلّاالرضا بالدنیا، والجزع من الموت، مالوا إلی ما سلطان جماعتهم علیه، والملک لمن غلب، فوهبوا لهم دینهم، ومنحهم القوم دنیاهم، فخسروا الدنیا والآخرة، ألا ذلک هو الخسران المبین».

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۲۶۲

فبکی أبو ذر رحمه الله وکان شیخاً کبیراً، وقال: رحمکم اللَّه یا أهل بیت الرحمة إذا رأیتکم ذکرت بکم رسول اللَّه صلی الله علیه و آله، ما لی بالمدینة سکن ولا شجن غیرکم، واللَّه ما أرید إلّااللَّه صاحباً، وما أخشی مع اللَّه وحشة، توکلت علی اللَّه والصلاة والسلام علی رسول اللَّه وآله ۴۶۹].

نفحات الولايهٔ، ج۵، ص: ۲۶۳

الخطبهٔ[۴۷۰] المأهٔ والحاديهٔ والثلاثون

اشارهٔ

وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عليه السلام

وفيه يبيّن سبب طلبه الحكم ويصف الإمام الحقّ

نظرهٔ إلى الخطبهٔ

أشار الإمام على عليه السلام فى هذا الكلام إلى عدّهٔ مطالب:

-۱

قبوله الحكومهٔ من أجل رفع رايهٔ الدين والعدل فى المجتمع الإسلامى وإصلاح البلاد وأمان العباد واستقرار المظلومين.

-۲

أشار عليه السلام فى جانب آخر من الخطبهٔ إلى الاختلافات الفكريهٔ لأصحابه فقال: لا يمكن بسط العدل فى ظل هذه الظروف واعطاء الحقوق إلى أصحابها، ويستحيل بلوغ هذه الأهداف ما لم تتحد قلوبكم وتتفق أعمالكم.

-۳

خاض عليه السلام فى تعريف نفسه فقال: أني أول من سمع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فآمنت به، ولم يسبقنى إلّا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بالصلاهٔ.

-۴

أشار فى القسم الأخير من الخطبهٔ إلى صفات الزعيم المقتدر، فعدد أوصافه بكل دقّهٔ، وهى الأوصاف التى يؤدّى توفرها فى الزعيم الإسلامى إلى الديمومهٔ والثبات.

نفحات الولايهٔ، ج۵، ص: ۲۶۵

القسم الأول: لستم من الأصحاب الأخيار

اشارهٔ

«أَيَّتُهَا النُّفُوسُ الُمخْتَلِفَهُٔ، وَالْقُلُوبُ الْمُتَشَتِّتَهُٔ، الشَّاهِدَهُٔ أَبْدَانُهُمْ، وَالْغَائِبَهُٔ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ، أَظْأَرُكُمْ عَلَى الْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَنْفِرُونَ عَنْهُ نُفُورَ الْمِعْزَى مِنْ وَعْوَعَهِٔ الْأَسَدِ! هَيْهَاتَ أَنْ أَطْلَعَ بِكُمْ سَرَارَ الْعَدْلِ، أَوْ أُقِيمَ اعْوِجَاجَ الْحَقِّ»».

الشرح والتفسير

من الحوادث الأليمهٔ فى التاريخ الإسلامى أن يبتلى إمام عالم وكفوء مقتدر كعلى عليه السلام بناس جهّال وعبدهٔ للأهواء يعيشون التناحر والفرقهٔ، فقد كانوا وسائل سيئهٔ لإقامهٔ حكومهٔ الحق والعدل، وقد رأينا منذ بدايهٔ الكتاب لحدّ الآن فى مختلف خطب نهج البلاغهٔ أنّ الإمام على عليه السلام كان يتألم بشدّهٔ من هذا الأمر وكان دائم الشكوى، باحثاً عن مختلف الأساليب لعلاج أمراضهم النفسيهٔ والأخلاقيهٔ، فقد قال عليه السلام مستهلًا هذه الخطبهٔ:

«أَيَّتُهَا النُّفُوسُ الُمخْتَلِفَهُٔ، وَالْقُلُوبُ الْمُتَشَتِّتَهُٔ، الشَّاهِدَهُٔ أَبْدَانُهُمْ، وَالْغَائِبَهُٔ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ».

فقد ركز الإمام عليه السلام هنا على الجذور الأصلية لداء المجتمعات والامم، ألا وهو الاختلاف والتشت والذى يؤدّى إلى النزاعات وهدر الطاقات، والعبارة:

«الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُم ...»

إشارة إلى حضورهم الجسمانى فى المجتمع وغيابهم الفكرى والروحى عن الحوادث الخطيرة التى تصيب المجتمع، أمّا أهمية هذا الموضوع فقد دفعت بالإمام إلى ذكر مثل هذه العبارات مع اختلاف طفيف فى الخطب الأخرى، كالذى ورد فى الخطبة ۲۹ و ۹۷ حيث قال فى الأولى:

«أَيُّهَا النَّاس، الُمجْتَمِعَةُ أَبْدَانُهُمْ، والُمخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ».

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۶۶

وقال فى الثانية:

«أَيُّهَا الْقَوْمُ الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ، الْغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ، الُمخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ».

ثم قال عليه السلام:

«أَظْأَرُكُمْ ۴۷۱] عَلَى الْحَقِّ وَأَنْتُم تَنْفِرُونَ عَنْهُ نُفُورَ الْمِعْزَى ۴۷۲] مِنْ وَعْوَعَةِ[۴۷۳] الْأَسَدِ!»

، العبارة «أظأركم» بالنظر إلى أنّ «ظأر» جاءت فى اللغة بمعنى القابلة، فهى تشير إلى مراده أنّى كالقابلة الشفيقة قد رويتكم على الدوام من عين الحق الجياشة، لكنّكم كنتم تفرون من ذلك دائماً، تفرون فراركم من الأسد، وهذه أسوأ حالة يمكن أن تعرض لإنسان فينفر من الحق ويهرب منه بالشكل الذى يفوق التصور، والعبارة

«وَعْوَعَةِ الْأَسَدِ!»

، تعبير رائع فلم يقل «من الأسد» بل قال

«وَعْوَعَةِ الْأَسَدِ!»

يعنى إنّ هذا الحيوان على درجة من الجبن بحيث لا ينظر إلى أطرافه ليرى هل هو أسد أم لا، بل يهرب لمجرّد سماعه الصوت، وهذا هو حال بعض الحيوانات التى تهرب إذا سمعت زئير الأسد مهما كانت المسافة بعيدة فى الصحراء.

ثم قال عليه السلام:

«هَيْهَاتَ أَنْ أَطْلَعَ ۴۷۴] بِكُمْ سَرَارَ[۴۷۵] الْعَدْلِ، أَوْ أُقِيمَ اعْوِجَاجَ الْحَقِّ».

قطعاً ليس للحق من إعوجاج ليراد قيامه، والمراد يخلطونه بالباطل وقد سعى أئمة الهدى عليهم السلام لتخليص الحق من شوائب الباطل، كما ليس فى العدل من ظلمة ليجلوها عنه، فالظلم الذى غالباً ما يخالط العدل ويلبسه على حال لا شك أنّ إزالة الظلمة عن العدالة وتمييز الباطل عن الحق، يتطلب أعواناً وأنصاراً من أهل الوعى والتضحية، ولم يكن للجهال والغدرة المشتتين كأهل الكوفة من قدرة للإستعانة بهم فى إزالة الظلمات وتسوية الاعوجاجات، وهذا داء دوى عرض لإمام عادل وشجاع كعلى بن أبى طالب عليه السلام.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۶۷

العوامل الرئيسية للفشل

أشرنا سابقاً إلى إبتلاء الإمام عليه السلام بالأصحاب الذين اعتادوا الحياة المرفهة والدعة والراحة، وقد اعتمدوا مختلف الذارئع للهروب من الجهاد ومقاتلة العدو، وقد سعى الإمام عليه السلام جاهداً لتطهير روحيتهم من هذه الأدران عن طريق الحث والتشجيع تارة

واللوم والعتاب والذم تارة أخرى.

وقد أشار فى هذه الخطبة إلى نقاط ضعفهم ليخلصها فى ثلاث هى الاختلاف و التشتت وغياب العقل والهروب من الواقع، ثم صرّح إثر ذلك: كيف يمكن تطهير المجتمع من رواسب بنى أمية وعناصرهم المنافقة المتبقية من عصر الجاهلية وإقامة الحق وتسوية العوج، وأنتم بهذه الأحوال.

وكما أراده الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة قانون كلى دائم يحكم كل عصر ومصر ويصدق فى المشاريع السياسية والاجتماعية والعسكرية، وهى الامة المتحدة الواعية التى تستقبل الحق وتعمل به مهما كان مريراً.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۶۹

القسم الثانى: الهدف هو إقامة الحق وبسط العدل

«اللَّهُمَّ إِنَّکَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَکُنِ الَّذِى کَانَ مِنَّا مُنَافَسَةً فِى سُلْطَانٍ، وَلَا الِتمَاسَ شَىْءٍ مِنْ فُضُولِ الْحُطَامِ، وَلکِنْ لِنَرِدَ الْمَعَالِمَ مِنْ دِينِکَ، وَنُظْهِرَ الْإِصْلَاحَ فِى بِلَادِکَ، فَيَأْمَنَ الْمَظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِکَ، وَتُقَامَ الْمُعَطَّلَةُ مِنْ حُدُودِکَ. اللَّهُمَّ إِنِّى أَوَّلُ مَنْ أَنَابَ، وَسَمِعَ وَأَجَابَ، لَمْ يَسْبِقْنِى إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه و آله بِالصَّلَاةِ».

الشرح والتفسير

بيّن الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة أهداف الحكومة الإسلامية- ومنها حكومته- بعبارات غاية فى الروعة والدقة ليضمنها دروساً خالدة لجميع الحكّام المؤمنين والمخلصين فقال:

«اللَّهُمَّ إِنَّکَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَکُنِ الَّذِى کَانَ مِنَّا مُنَافَسَةً[۴۷۶] فِى سُلْطَانٍ، وَلَا الِتمَاسَ شَىْءٍ مِنْ فُضُولِ الْحُطَامِ».

ربّما كانت هذه العبارة إشارة إلى أصل قبول بيعة الامة على الخلافة، أو إشارة إلى المعارك التى وقعت بينه وبين الأعداء فى صفين وأمثالها، وهى تعكس الأهداف الرئيسية لحكّام الاستبداد الذين يهدفون إلى أمرين: الحصول على المنصب مهما كان الثمن والاستيلاء على الأموال أينما كانت ومن أى كان، والواقع ليس ذلك سوى حب الجاه وحب المال الذى ساد تاريخ البشر واجتاح حتى الحكومات المستبدة، وقد أثبت الإمام عليه السلام عملياً ما قال، فقد

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۷۰

اشترط على الإمام عليه السلام من قبل الشورى التى عينها عمر نيل الخلافة شريطة الانحراف عن مسار رسول اللّه صلى الله عليه و آله فلم يستجب الإمام عليه السلام كما وقف بقوّة بوجه طلحة والزبير وما قدماه من اقتراح ليس بصواب، كيف يستجيب لهما الإمام عليه السلام هو يرى الدنيا كعطفة عنز، ثم بيّن الإمام أهدافه الأربعة من أجل قبول الحكومة وهى:

«وَلکِنْ لِنَرِدَ[۴۷۷] الْمَعَالِمَ مِنْ دِينِکَ، وَنُظْهِرَ الْإِصْلَاحَ فِى بِلَادِکَ، فَيَأْمَنَ الْمَظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِکَ، وَتُقَامَ الْمُعَطَّلَةُ مِنْ حُدُودِکَ».

فالواقع أشار الإمام عليه السلام فى العبارات الأربع التى أوردها كدافع أصلية لقبول البيعة، إلى برامجه المعنوية فى الحكومة ومشاريعه المادية والظاهرية، فلابدّ فى الدرجة الأولى من إعادة معالم الدين التى تعين للناس مسيرتها نحو اللّه سبحانه وقد اندثرت بفعل الحكومات المستبدة، ومن ثم الإصلاحات فى كافة الشؤون الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأخلاقية، ونصرة المظلوم من الظالم وإجراء الحدود الإلهيّة بحيث يشعر المظلومون بالأمن والاستقرار حقاً، وإن كان هذه الأهداف الأربعة هى مراد الحكومات لعاشت المجتمعات السعادة والمادية والمعنوية، وإن كان هدفهم الحصول على المناصب ونيل الأموال والثروات، فليست هناك من نتيجة سوى الفساد والظلم وتعطيل الحدود الإلهيّة ومحو الأخلاق والدين، وهذا بحدّ ذاته درس لجميع المسلمين فى كافة الأزمنة والعصور،

وهذه هى الأمور التى ذكرها القرآن الكريم كأهداف لبعثة الأنبياء وتشكيل الحكومة الإسلامية، فقد ذكر التعليم والتهذيب والنجاة من الظلال المبين كهدف للبعثة فقال: (هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ»[۴۷۸]، كما ذكر فى موضع آخر هذا الهدف المتمثل ببسط العدل والقسط: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمْ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ...»[۴۷۹]، كما قال: «الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِى الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ»[۴۸۰].

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۷۱

ثم إختتم الإمام عليه السلام هذا المقطع من الخطبة بذكر شهادة واضحة على صدق قوله بالنسبة لداوفعه فى قبول البيعة فقال:

«اللَّهُمَّ إِنِّى أَوَّلُ مَنْ أَنَابَ، وَسَمِعَ وَأَجَابَ، لَمْ يَسْبِقْنِى إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه و آله بِالصَّلَاةِ».

إشارة إلى أنّ الإسلام كان غريباً آنذاك، والرسول لوحده وليس إلى جانبه سوى خديجة عليها السلام زوجته الوفية، فكان الجهر بالإسلام إزاء المشركين المتعصبين غاية فى الخطورة، فقد بايع رسول اللّه صلى الله عليه و آله وإنقاد له، فكان أول من إلتحق به، ولم يكن همّه سوى طاعة اللّه سبحانه وإحياء الحق والتوحيد والعدل، ومازال ذلك الهدف هوالدافع له من أجل قبول البيعة.

ليس هناك من خلاف بين علماء الفريقين بشأن خديجة على أنّها أول إمرأة أمنت بالنبى الأكرم صلى الله عليه و آله وأنّ علياً عليه السلام أول من آمن به من الرجال، وإن تذرع البعض من علماء العامّة بصغر سن على حين أمن، ليسقطوا عنه تلك الفضيلة ويلصقوها بالآخرين، ولكن يتضح خواء هذه الذريعة من خلال قبول النبى الأكرم صلى الله عليه و آله لإسلام على صلى الله عليه و آله وأبعد من ذلك تسميته بوصيّه فى يوم الدار[۴۸۱].

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۷۳

القسم الثالث: شرائط حكّام العدل

اشارة

«وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ لَايَنْبَغِى أَنْ يَكُونَ الْوَالِى عَلَى الْفُرُوجِ وَالدِّمَاءِ وَالْمَغَانِمِ وَالْأَحْكَامِ، وَإِمَامَةِ الْمُسْلِمِينَ الْبَخِيلُ، فَتَكُونَ فِى أَمْوَالِهِمْ نَهْمَتُهُ، وَلَا الْجَاهِلُ فَيُضِلَّهُمْ بِجَهْلِهِ، وَلَا الْجَافِى فَيَقْطَعَهُمْ بِجَفَائِهِ، وَلَا الْحَائِفُ لِلدُّوَلِ فَيَتَّخِذَ قَوْماً دُونَ قَوْمٍ، وَلَا الْمُرْتَشِى فِى الْحُكْمِ فَيَذْهَبَ بِالْحُقُوقِ، وَيَقِفَ بِهَا دُونَ الْمَقَاطِعِ، وَلَا الْمُعَطِّلُ لِلسُّنَّةِ فَيُهْلِكَ الْأُمَّةَ».

الشرح والتفسير

خاض الإمام فى المقطع الأخير من الخطبة فى بيان خصائص ولاة العدل ودعاة الحق حيث أشار إلى ست صفات من صفاتهم، وهكذا يختتم هذه الخطبة التى أوردها بشأن الحكومة الإسلامية، والحذير بالذكر أنه استهل الكلام بالعبارة «وقد علمتم» حيث يرى الالتزام بهذه الصفات من الأمور العقلية الواضحة والمسلمة التى يعرفها كل شخص، أو على الأقل ينبغى معرفتها من كل شخص، فقال:

«وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ لَايَنْبَغِى أَنْ يَكُونَ الْوَالِى عَلَى الْفُرُوجِ وَالدِّمَاءِ وَالْمَغَانِمِ وَالْأَحْكَامِ، وَإِمَامَةِ الْمُسْلِمِينَ الْبَخِيلُ، فَتَكُونَ فِى أَمْوَالِهِمْ نَهْمَتُهُ [۴۸۲]».

والواقع هو أنّ هذه الأمور تشكل أصول الحياة الفردية والاجتماعية للناس وهى الفروج، والأرواح، والأموال، والقوانين، وإدارت الدولة التى ينبغى للإمام المدبّر والواسع الآفاق والعادل المنصف أن يؤدّى حقوقها جميعاً، فتأمن الأمّة على أرواحها وأموالها وأعراضها،

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۷۴

وتطبق القوانين والأحكام وتوكل زعامة الامة وإمامتها إلى الصالحين من أفرادها، فان كان إمام الخلق بخيلًا اقتصرت همّته وشهوته

على جمع الأموال وضحى بكل شيء من أجل بلوغ هذا الهدف، فلا من أمن واستقرار، ولا من احترام للقوانين والأحكام.

ثم قال عليه السلام فى بيان الصفة الثانية:

«وَلَا الْجَاهِلُ فَيُضِلَّهُمْ بِجَهْلِهِ»،

فلا شك أنّ العلم بالأحكام والموضوعات والأساليب الصحيحة تعدّ من أهم دعائم الحكومة وليس للجهّال من الأفراد قدرة إدارة شؤون الحكومة وإن صفت نيّتهم واتصفوا بالورع و التقوى، فهم يقودون الامة إلى المجهول بجهلهم.

وقال عليه السلام فى بيان الصفة الثالثة:

«وَلَا الْجَافِى [۴۸۳] فَيَقْطَعَهُمْ بِجَفَائِهِ»،

فمن أبرز صفات والى العدل العطف والمحبّة والسماحة والمدارسة، ونعلم بأنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله قد استقطب القلوب البعيدة عن الحق بهذه الشفقة والمحبّة، وهذه رحمة إلهيّة كبرى كما وصفها القرآن الكريم بالقول:

«فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ...»[۴۸۴].

ثم قال عليه السلام فى الصفة الرابعة:

«وَلَا الْحَائِفُ [۴۸۵] لِلدُّوَلِ [۴۸۶] فَيَتَّخِذَ قَوْماً دُونَ قَوْمٍ»،

وهذا هو البلاء الذى أصاب عثمان، وقد سدّد الضربات المهلكة للمجتمع الإسلامى بحيث لا يمكن معالجتها، فقد أغدق أموال بيت المال المسلمين على قرابته وبطانته ومتملقيه، ممّا أدّى إلى قيام المظلومين عليه حتى قتلوه فظهرت الخلافات العظيمة بين الناس آنذاك وما زالت أثارها باقية.

ثم قال عليه السلام فى الصفة الخامسة:

«وَلَا الْمُرْتَشِى فِى الْحُكْمِ فَيَذْهَبَ بِالْحُقُوقِ، وَيَقِفَ بِهَا دُونَ الْمَقَاطِعِ [۴۸۷]»،

فأهم عامل للحكم بالظلم والجور هو الرشوة التى يقدمها أصحاب الثراء والقدرة فيغيرون مسار القضاء ليصدر أحكامه لصالحهم ضد أصحاب الحق فيحولون دون إجراء الحق والعدل.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۷۵

طبعاً فلسفة القوانين والمحاكم حفظ حقوق الضعفاء، وإلّا فالأقوياء يحفظون حقوقهم، وإن تسللت هذه الرشوة إلى المحكمة ونفذت إلى ذهن القاضى والتى لا يقوى على دفعها سوى الأثرياء والأقوياء، فعندما تسلب قدرة الضعفاء على الدفاع فتضيع حقوقهم، وهذا هو الأمر الذى نشهده فى كافة أنحاء عالمنا المعاصر، ومن الضرورى الالتفات إلى هذه النقطة أنّ الرشوة لا تقتصر على الجانب المالى، فقد تتخذ أشكالًا أخرى كتصفية الحسابات السياسية والوصول إلى المناصب والمقامات والشهوات الجنسية والمدح الكاذب وأمثال ذلك، وهكذا تتحرك عجلة المحكمة باتجاه الظلم والجور.

وقال عليه السلام فى الصفة السادسة الأخيرة:

«وَلَا الْمُعَطِّلُ لِلسُّنَّةِ فَيُهْلِكَ الْأُمَّةَ»، طبعاً

يمكن أن يكون المراد بالسنّة سنّة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أو السنن والقوانين التى أمضاها اللّه فى عالم الخلقة أوالسنين الاجتماعية الحسنة التى أشير إليها فى عهد مالك الأشتر:

«وَلَا تَنْقُضْ سُنَّةً صَالِحَةً عَمِلَ بِهَا صُدُورُ هذِهِ لْأُمَّةِ»

، أو جميعها وإن بدا المعنى الأول هو الأقرب.

آفة الحكومات

کما ورد فی بدایة هذه الخطبة، فهی تتألف فی الواقع من ثلاثة أقسام مرتبطة مع بعضها تماماً، الأول ذم الإمام علیه السلام القوی الجاهزة التی ینبغی لها أن تنشط فی إقامة الحق والعدل، لکنّها عاشت الضعف والجز بفعل الاختلاف وعدم توظیف العقل والفکر، ثم أشار إلی أهداف ودوافع حکومة العدل الإسلامیة والإنسانیة، بینما ذکر آخر الخطبة الأرکان الأصلیة لمواصفات حکّام العدل، طبعاً إن کانت القوی المؤمنة والمتحدة من جانب، والأهداف والدوافع المقدّسة والوالی الذی یتحلی بالصفات الست المذکورة من جانب آخر، فانّ ذلک سیؤدّی إلی قیام حکومة من شأنها حفظ الأمن والاستقرار وإحیاء القیم الإنسانیة، وبالعکس لو:

حل البخل بدل الکرم.

والجهل بدل العلم.

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۲۷۶

والعنف بدل الرأفة والرحمة.

وخاض الحکّام فی البذخ ونهب الأموال والثروات والتمییز والظلم والجور، وتسللت الرشوة إلی الجهاز القضائی، وعطلت السنن الحسنة، فتتأسس حکومة فاسدة ینعدم فیها الدین کما تزول فیها الدنیا ... ویا له من درس وعبرة لحکّام الحق.

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۲۷۷

الخطبة[۴۸۸] المأة والثانیة والثلاثون

اشارة

وَمِنْ خُطبَةٍ لَهُ علیه السلام

یعظ فیها ویزهّد فی الدنیا

نظرة إلی الخطبة

تشمتل هذه الخطبة کما ورد فی عنوانها علی المواعظ والإرشادت والنصائح والوصیة بالزهد فی الدنیا، وتتألف من أربعة أقسام هی:

۱- حمد اللَّه والثناء علیه مع ذکر صفات اللَّه سبحانه الخاصة والشهادة الخالصة للنبی صلی الله علیه و آله بالنبوة.

۲- إشارة إلی انتهاء الأجل وسلخ الإنسان من کافة ممتلکاته التی حازها فی الحیاة الدنیا.

۳- لزوم الاعتبار بحیاة الامم السالفة، واولئک الذین جمعوا الأموال والثروات، فکان عاقبة دورهم أن أصبحت قبورهم، کما خلّفوا للآخرین أزواجهم وأموالهم.

۴- ضرورة اغتنام فرض الدنیا وإعداد المتاع والزاد للآخرة.

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۲۷۹

القسم الأول: صفات اللَّه الخاصة

«نَحْمَدُهُ عَلَی مَا أَخَذَ وَأَعْطَی وَعَلَی مَا أَبْلَی وَابْتَلَی الْبَاطِنُ لِکُلِّ خَفِیَّةٍ، وَالْحَاضِرُ لِکُلِّ سَرِیرَةٍ. العَالِمُ بِمَا تُکِنُّ الصُّدُورُ، وَمَا تَخُونُ الْعُیُونُ. وَنَشْهَدُ أَنْ لَاإِلهَ غَیْرُهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً نَجِیبُهُ نجیّه وَبَعِیثُهُ شَهَادَةً یُوَافِقُ فِیهَا السِّرُّ الْإِعْلَانَ، وَالْقَلْبُ اللِّسَانَ».

الشرح والتفسیر

استهل الإمام علیه السلام الخطبة بحمد اللَّه والثناء علیه وذکر أوصافه الخاصة فقال:

«نَحْمَدُهُ عَلَى مَا أَخَذَ وَأَعْطَى وَعَلَى مَا أَبْلَى وَابْتَلَى .

والمراد من «أخذ» سلب النعم والآلاء الإلهيّة، والمراد من «أعطى» وهبها، ومن «أبلى» إعطاء النعمة و «إبتلى» الامتحان بواسه أخذ النعم، ومن هنا ذهب أغلب شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ هاتين العبارتين تفسيرتين (أى أن أخذ تعادل أبلى وأعطى تعادل ابتلى)، لكن يحتمل أن تكون الأولى إشارة إلى النعم المادية والثانية إشارة إلى النعم المعنوية، لأنّ المفردة «أخذ» كثيراً ما تستعمل فى الأمور المادية.

على كل حال يستفاد من العبارات المذكورة أنّ سلب النعمة قد يكون نفسه نعمة، لأنّ وفور النعمة سبب الغرور والابتعاد عن اللّه ومقاطعة الخلق، أضف إلى ذلك فانّ الحمد تجاه سلب النعم علامة على التسليم المطلق لمشيئة اللّه.

ثم أشار إلى ذكر ثلاثة أوصاف أخرى من أوصاف اللّه سبحانه وتعالى والتى تشكل فى

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۸۰

الواقع تحذيراً لكافة الأفراد الذين يراقبون أنفسهم ونيّاتهم فقال عليه السلام:

«الْبَاطِنُ لِكُلِّ خَفِيَّةٍ[۴۸۹]، وَالْحَاضِرُ لِكُلِّ سَرِيرَةٍ. العَالِمُ بِمَا تُكِنُّ الصُّدُورُ، وَمَا تَخُونُ الْعُيُونُ».

فهذه الصفات تدلّ بوضوح على أنّ علم اللّه سبحانه علم حضورى، يعنى أنّه حاضر وناظر فى كل مكان، فالخفيات والعلنيات لديه على حدّ سواء، والحضور والغياب عنده واحد، فهو يعلم أسرار الصدور وخائنة الأعين، وهو علم بباطن كل شخص وكل شيء.

حقّاً إنّ الإنسان لو تأمل حقيقة الحمد والثناء وذكر هذه الصفات وأمن بها إيماناً راسخاً لأدرك أنّ العالم حاضر عند اللّه تبارك وتعالى، وللّه حضور فى روحه وفكره، ولما قارف السيئة، بل لما فكر فيها.

ثم إختتم هذا المقطع من الخطبة بالشهادة للّهبالوحدانية وللنّبى الأكرم صلى الله عليه و آله بالنبوة، فقال عليه السلام:

«وَنَشْهَدُ أَنْ لَاإِلَهَ غَيْرُهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً نَجِيبُهُ ۴۹۰] نجيّه وَ بَعِيثُهُ ۴۹۱] شَهَادَةً يُوَافِقُ فِيهَا السِّرُّ الْإِعْلَانَ، وَالْقَلْبُ اللِّسَانَ».

طبيعى أنّ الشهادة بهذين الركنين الأصليين الذين يشكلان أسس الإيمان تدعو الإنسان إلى نفى معبود آخر وتحذر من عبادة الشيطان وهوى النفس الأمارة، كما تدعو الشهادة بالنبوّة إلى طاعة الإنسان لأوامر النبى صلى الله عليه و آله، ولا سيّما الشهادة التى لا تقتصر على اللسان بل تتعزز بالقلب وروح الإنسان.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۸۱

القسم الثانى: نزول الموت؟

و منها: «فَإِنَّهُ وَاللَّهِ الْجِدُّ لَااللَّعِبُ، وَالْحَقُّ لَاالْكَذِبُ. وَمَا هُوَ إِلَّا الْمَوْتُ أَسْمَعَ دَاعِيهِ، وَأَعْجَلَ حَادِيهِ. فَلَا يَغُرَّنَّكَ سَوَادُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِكَ، وَقَدْ رَأَيْتَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِمَّنْ جَمَعَ الْمَالَ وَحَذِرَ الْإِقْلَالَ، وَأَمِنَ الْعَوَاقِبَ- طُولَ أَمَلٍ وَاسْتِبْعَادَ أَجَلٍ- كَيْفَ نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ فَأَزْعَجَهُ عَنْ وَطَنِهِ، وَأَخَذَهُ مِنْ مَأْمَنِهِ، مَحْمُولًا عَلَى أَعْوَادِ الْمَنَايَا، يَتَعَاطَى بِهِ الرِّجَالُ الرِّجَالَ، حَمْلًا عَلَى الْمَنَاكِبِ وَإِمْسَاكاً بِالْأَنَامِلِ. أَمَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَأْمُلُونَ بَعِيداً، وَيَبْنُونَ مَشِيداً، وَيَجْمَعُونَ كَثِيراً! كَيْفَ أَصْبَحَتْ بُيُوتُهُمْ قُبُوراً، وَمَا جَمَعُوا بُوراً؛ وَصَارتْ أَمْوَالُهُمْ لِلْوَارِثِينَ، وَأَزْوَاجُهُمْ لِقَوْمٍ آخَرِينَ؛ لَافِى حَسَنَةٍ يَزِيدُونَ، وَلَا مِنْ سَيِّئَةٍ يَسْتَعْتِبُونَ!».

الشرح والتفسير

حذر الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة الجميع فى أنّ هذه الحياة الدنيا إلى زوال ولابدّ من مفارقة هذه الدنيا عاجلًا أم آجلًا والالتحاق بالآخرة وتحمل تبعات الأعمال فقال:

«فَإِنَّهُ وَاللَّهِ الْجِدُّ لَااللَّعِبُ، وَالْحَقُّ لَاالْكَذِبُ. وَمَا هُوَ إِلَّا الْمَوْتُ أَسْمَعَ دَاعِيهِ ۴۹۲]، وَأَعْجَلَ حَادِيهِ ۴۹۳]».

ولما كان الموت حقيقة واقعة بالنسبة لجميع الأفراد، وقضية قطعية تأبى الاجتناب، فقد

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۸۲

أكّد الإمام عليه السلام كلامه بأنواع التأكيدات ۴۹۴]، والتى بلغت عشرة أنواع حسب قول بعض شرّاح نهج البلاغة، فقال أنّ صوت داعى الموت يطرق الأذن من كل جانب وقد دوّى صوت الرحيل ليملا كافة أرجاءالعالم، وملك الموت لا يفرق بين كهل وشاب وطفل، فقد كمن للجميع ولا ينتظر سوى أمر اللّه، ثم قال عليه السلام:

«فَلَا يَغُرَّنَّكَ سَوَادُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِكَ، وَقَدْ رَأَيْتَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِمَّنْ جَمَعَ الْمَالَ وَحَذِرَ الْإِقْلَالَ، وَأَمِنَ الْعَوَاقِبَ- طُولَ أَمَلٍ وَاسْتِبْعَادَ أَجَلٍ- كَيْفَ نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ فَأَزْعَجَهُ ۴۹۵] عَنْ وَطَنِهِ، وَأَخَذَهُ مِنْ مَأْمَنِهِ»

، يمكن أن يكون للعبارة

«فَلَا يَغُرَّنَّكَ

سَوَادُ النَّاسِ»

، معنيان:

الأول: إن رأيت الناس أحياء وسالمين فلا يخدعك ذلك ولا يغفلك من الموت.

والثانى: لا تخدعك جماعات الناس لأن تفكر فى الحياة لا الموت، ومفهوم العبارة:

«وَحَذِرَ الْإِقْلَالَ»

، ابعاد النفس (حسب ظنه) عن الفقر بجمع الأموال، والعبارة: «

وَأَمِنَ الْعَوَاقِبَ»

تعنى تصور الشخص أنّه بمأمن من عاقبة عمله بسبب الآمال الفارغة بأنّ الوقت مازال مبكراً على الموت، ولكن رغم كل هذه الآمال والأمانى، فقد فاجأهم الموت وأخرجهم بسرعة وعنف من وطنهم المألوف وطردهم من مكانهم الآمن، ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بأنّ ذلك فى الوقت الذى يحملون فيه على الأولاد وقد تناولتهم أيدى الرجال ليمسكوهم بالأنامل، وكأنّهم متنفرون ومرعبون من حمل توابيتهم بكامل أيديهم: «

مَحْمُولًا عَلَى أَعْوَادِ الْمَنَايَا، يَتَعَاطَى بِهِ الرِّجَالُ الرِّجَالَ، حَمْلًا عَلَى الْمَنَاكِبِ وَإِمْسَاكاً بِالْأَنَامِلِ».

فقد رسم الإمام عليه السلام صورة واضحة بهذه العبارات الصريحة والبليغة المؤثرة لكيفية نهاية حياة الأثرياء المرفهين والمغرورين بالجاه والمنصب، ولاسيّما حين يدركهم الموت المفاجىء، فهى عبارات تمزق كافة الحجب التى تسدل على عين الإنسان، كما توقظ كل سامع من نوم غفلته.

ثم أضفى عليه السلام صورة أخرى على هذا المعنى مواصلة لكلامه فقال:

«أَمَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَأْمُلُونَ

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۸۳

بَعِيداً، وَيَبْنُونَ مَشِيداً[۴۹۶]، وَيَجْمَعُونَ كَثِيراً! كَيْفَ أَصْبَحَتْ بُيُوتُهُمْ قُبُوراً، وَمَا جَمَعُوا بُوراً؛ وَصَارَتْ أَمْوَالُهُمْ لِلْوَارِثِينَ، وَأَزْوَاجُهُمْ لِقَوْمٍ آخَرِينَ؛ لَافِى حَسَنَةٍ يَزِيدُونَ، وَلَا مِنْ سَيِّئَةٍ يَسْتَعْتِبُونَ!

نعم، يفيق الإنسان من نوم الغفلة حين يصفعه الأجل، وفى تلك اللحظة تغلق صحف الأعمال تماماً، فلا من شىء يمكن واضافته إلى الحسنات، ولا يمكن تقليل شىء من السيئات، ولو سلب الإنسان حياته بينما بقيت صحف العمل مفتوحة والسبيل مشرع أمام تداركها فلا عقبة ولا ضير، إلّاأنّ المشكلة تكمن فى غلق صحيفة الأعمال فلا مجال لتداركها، وهذا ما يجعل الإنسان يعيش الهم والغم.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۸۵

القسم الثالث: ممر يعرف باسم الدنيا

اشارة

«فَمَنْ أَشْعَرَ التَّقْوى قَلْبَهُ بَرَّزَ

[[برز]]

مَهَلُهُ، وَفازَ عَمَلُهُ. فَاهْتَبِلُوا هَبَلَهَا، وَاعْمَلُوا لِلْجَنَّةِ عَمَلَهَا: فَإِنَّ الدُّنْيا لَمْ تُخْلَقْ لَكُمْ دارَ مُقامٍ، بَلْ خُلِقَتْ لَكُمْ مَجازاً لِتَزَوَّدُوا مِنْهَا الْأَعْمالَ إِلَى دارِ الْقَرارِ. فَكُونُوا مِنْهَا عَلَى أَوْفازٍ. وَقَرِّبُوا الظُّهُورَ لِلزِّيالِ [[للزّوال]».

الشرح والتفسير

خلص الإمام عليه السلام إلى نتيجة بعد مقدمات دقيقة أوردها في بداية ووسط هذه الخطبة بشأن علم اللّه بكل شيء سيّما بأعمال العباد ونيّاتهم وكذلك قرب الموت والاعتبار بحياة الماضين فقال:

«فَمَنْ أَشْعَرَ التَّقْوى قَلْبَهُ بَرَّزَ[۴۹۷] برزمَهَلُهُ ۴۹۸]، وَفازَ عَمَلُهُ».

فمن الواضح أنّ التقوى إذا تجذرت في أعماق قلب الإنسان ظهرت ثمارها على يديه ولسانه وعينه وسمعه، وذلك لأنّ التقوى ملكة نفسية تتمثل بخشية اللّه وهي الدافع القوي للإتيان بالأعمال الصالحة وحاجز عن الذنوب والمعاصي.

ثم واصل الإمام كلامه فقال:

«فَاهْتَبِلُوا هَبَلَهَا[۴۹۹]، وَاعْمَلُوا لِلْجَنَّةِ عَمَلَهَا»

، إشارة إلى أنّ

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۸۶

الجنّة لا تعطى لأحد بالمجان، كما لا تتأتى من خلال الظن والتصور والخيال والزعم الفارغ، فمفتاح الجنّة الأعمال الصالحة، والأعمال الصالحة تنبعث من التقوى.

ثم قال عليه السلام في مواصلة لشرح وضع الدنيا والآخرة ومنزلة كل جماعة:

«فَإِنَّ الدُّنْيا لَمْ تُخْلَقْ لَكُمْ دارَ مُقامٍ، بَلْ خُلِقَتْ لَكُمْ مَجازاً لِتَزَوَّدُوا مِنْهَا الْأَعْمالَ إِلَى دارِ الْقَرارِ»

، فالنظرة الإسلامية التي تعرض لها القرآن الكريم ونهج البلاغة مراراً تكمن في أنّ الدنيا دار ممر وأنّها قنطرة وميدان للتدريب وبالتالي فهي متجر ومقدمة للآخرة الموضوع الأصلي للإنسان، وإن اعتمدنا هذه النظرة للدنيا آنذاك سيبدو لنا كل شيء بصيغة أخرى وستحول دون مقارفتنا للذنب والظلم، وتسوقنا نحو الخير والاحسان.

أمّا أتباع المدارس المادية التي‌ترى الدنيا ولذاتها هدفها النهائي، وقد غفلت تماماً عن الآخرة، فليس هناك من حد لتلوثها بالذنوب والنزاعات من أجل الاستحواذ على الأموال والمناصب الظاهرية، وعليه فلا- أمل في إطفاء غائلة المعارك والنزاعات بينها، وأخيراً خلص الإمام إلى نتيجة رائعة عميقة المعنى فقال:

«فَكُونُوا مِنْهَا عَلَى أَوْفازٍ[۵۰۰]. وَقَرِّبُوا الظُّهُورَ

لِلزِّيالِ ۵۰۱]»،

في إشارة إلى أنّ الوقت ضيق والموانع كثيرة وزمان الرحيل مجهول تماماً، ولا- ينبغي أن يقتصر التأهب على الكهول، بل لابدّ أن يعيش ذلك التأهب حتى الشباب على الدوام، فما أكثر من بقى من الآباء الكهول والعجزة، بينما رحل الشبان الأشداء.

نتيجة الخطبة

أشار الإمام في هذه الخطبة إلى أمور مهمّة يمكن إيجازها في ما يلي:

۱- لفت الأنظار في بداية الخطبة إلى حضور اللّه سبحانه في كل مكان وعلمه بخفايا الإنسان وباطنه، ليراقب الجميع أعمالهم.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۸۷

۲- عدّ الشهادة الحقيقة بالوحدانية للحق والنبوة للنبى صلى الله عليه و آله من العلم الذى ينسجم فيه الظاهر والباطن وينفصل عن كل نفاق.

۳- إلفات إنتباه الجميع إلى قرب الموت والرحيل عن الدنيا وهو سبب اليقظة والعلم.

۴- دعى مخاطبيه لمطالعة تاريخ الماضين من خلال الكتب والآثار التى خلفوها فى المدن والمناطق، ليعلموا أنّ ذلك المصير ينتظرهم مهما كانوا ومهما بلغوا.

۵- دعى الجميع إثر تلك المواعظ والإرشادات إلى الروع والتقوى، التقوى التى تخترق أعماق قلب الإنسان وتظهر آثارها على جميع أفعاله وممارساته.

۶- يذكّر كافة مخاطبيه بهذه النقطة وهى عدم إعطاء الجنّة لأحد دون حساب، بل لها ثمن لا يبلغها العبد إلّابه.

۷- يستعرض أخيراً هذا الأمر فى أنّ الدنيا ممر ولا مقر، متجر ينبغى للجميع التزود منه فيستعدوا فى كل آن للرحيل والانطلاق.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۸۹

الخطبة[۵۰۲] المأة والثالثة والثلاثون

اشارة

وَمِنْ خُطبَةٍ لَهُ عليه السلام

يُعظِّم اللَّه سبحانه ويَذكر القرآن والنبى ويَعظُ الناس

نظرة إلى الخطبة

يتضح من النظرة الإجمالية إلى الخطبة أنّها تتألف من خمسة أقسام مهمّة هى:

القسم الأول: يتحدث عن عظمة اللَّه وقدرته المطلقة وسجود كافة المخلوقات لذاته المقدّسة.

القسم الثانى: إشارة إلى عظمة القرآن الكريم وخلوده.

القسم الثالث: فى النبى صلى الله عليه و آله وأنّ اللَّه سبحانه أرسله بعد فترة وختم به النبوة.

القسم الرابع: الحديث عن تفاهة الدنيا ودعوة الجميع لليقظة والتعرف على الدنيا والتزود منها.

القسم الخامس: وعظ المخاطبين والعود على التذكير بالقرآن وعظمته ولزوم التدبر فى آياته، وهكذا يعرض اطروحة كاملة لأهل الحق لنيل السعادة.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۹۱

القسم الأول: انقياد ما فى الدنيا للّه

اشارة

«وَانْقَادَتْ لَهُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ بِأَزِمَّتِهَا، وَقَذَفَتْ إِلَيْهِ السَّموَاتُ وَالْأَرَضُونَ مَقَالِيدَهَا، وَسَجَدَتْ لَهُ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ الْأَشْجَارُ النَّاضِرَةُ، وَقَدَحَتْ لَهُ مِنْ قُضْبَانِهَا النِّيرَانَ الْمُضِيئَةَ، وَآتَتْ أُكُلَهَا بِكَلِمَاتِهِ الِّثمَارُ الْيَانِعَةُ».

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام فى هذا المقطع فى بيان طائفة من أوصاف اللّه تبارك وتعالى، وأشار بخمس عبارات إلى أمور دقيقة بهذا الشأن فقال:

«وَانْقَادَتْ لَهُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ بِأَزِمَّتِهَا[۵۰۳]».

فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام شبّه الدنيا والآخرة بالحيوانات السلسة والمروضة التى أسلمت زمامها فيقودها حيث يشاء، ثم قال عليه السلام فى العبارة الثانية مؤكّداً ذات المعنى السابق بصيغة أخرى:

«وَقَذَفَتْ إِلَيْهِ السَّمواتُ وَالْأَرَضُونَ مَقَالِيدَهَا[۵۰۴]»،

فهو يفتح ما يشاء ويغلق ما يشاء ويفعل كل ذلك على أساس الحكمة، وأشار فى العبارة الثالثة إلى سجود الأشجار والناضرة لذاته المقدّسة وقال عليه السلام:

«وَسَجَدَتْ لَهُ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۵۰۵] الْأَشْجَارُ النَّاضِرَةُ».

صبعاً التركيز على الأشجار الناضرة لا يعنى الحصر، بل نموذج من أجمل الكائنات الحية

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۹۲

لعالم الخليقة، كما يشير الغدو والآصال إلى جميع الأوقات، كقولنا إنا فى خدمة نشر المبادىء الإسلامية ليل ونهار، أى فى جميع الأحوال والأوقات، ومن هنا أطلق القرآن الكريم القول:

«والنَّجم والشَّجَرِ يَسجُدَانِ»[۵۰۶]، كما يحتمل أن تكون آثار اللّه وعظمته أوضح فى الأشجار حين شروق الشمس وغروبها أكثر من أى زمان، ويمكن أن يكون هذا السجود بلسان الحال، لأنّ نظامها الدقيق يعكس علم خالقها وقدرته المطلقة، كما يمكن أن يكون بلسان القال، وبناءاً على تمتع كافة ذرات كائنات العالم بالعلم والشعور وتسبيحها للّهسبحانه عن علم وسجودها له.

وقال عليه السلام فى العبارة الرابعة:

«وَقَدَحتْ ۵۰۷] لَهُ مِنْ قُضْبَانِهَا[۵۰۸] النِّيرَانَ الْمُضِيئَةَ».

وهذا من عجائب القدرة الإلهيّة بأن يخلق مادة بين الماء والتراب تكون مركزاً للنور والضوء، وذلك الضوء الذى تحل من خلاله أغلب مشاكل الإنسان.

ثم قال عليه السلام:

«وَآتَتْ أُكُلَهَا بِكَلِمَاتِهِ الِّثمَارُ الْيَانِعَةُ[۵۰۹]».

اسجام الآيات والروايات

تتفق عبارات الخطبة التى تضمنت آثار التوحيد اللّه وعظمته وما ورد فى الآيات والقرآنية، فقد ورد فى موضع من القرآن الكريم: «لَهُ الْحَمْدُ فِى الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ»[۵۱۰]، وفى موضع آخر: «لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمْ الْخَاسِرُونَ»[۵۱۱]، وكذلك: «أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِى الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ ...»[۵۱۲]، وورد أيضاً: «الَّذِى

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۹۳

جَعَلَ لَكُمْ مِنْ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ»[۵۱۳]، وقال: «وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ...»[۵۱۴].

على كل حال كلما تأملنا آيات القرآن الكريم وخطب نهج البلاغة كهذه الخطبة اتضحت لنا عظمة الحق تبارك وتعالى وقدرته ونعمته فتثير الدنيا حس الشكر له لنرتوى من العين الصافية لفرات معرفته وتعرفنا على صفات جماله وجلاله.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۹۵

القسم الثانی: إعجاز القرآن

اشارة

منهَا: «وَكِتَابُ اللَّهِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ نَاطِقٌ لَايَعْيَا لِسَانُهُ، وَبَيْتٌ لَاتُهْدَمُ أَرْكَانُهُ، وَعِزٌّ لَاتُهْزَمُ أَعْوَانُهُ».

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام فی هذا المقطع القصير من كلامه بالحديث عن أهمیّة كتاب اللَّه القرآن الكريم، وقد أدّى حق المطلب بثلاث عبارات قصيرة وبليغة:

«وَكِتَابُ اللَّهِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ ۵۱۵]

نَاطِقٌ لَايَعْيَا[۵۱۶] لِسَانُهُ، وَبَيْتٌ لَاتُهْدَمُ أَرْكَانُهُ، وَعِزٌّ لَاتُهْزَمُ أَعْوَانُهُ».

فقد أشار فی العبارة الاولى إلى هداية القرآن فی كل زمان ومكان وتحت أية ظروف، وإن بدا صامتاً، لكنّه تحدث بمئة لسان، وقد سمعه كل من جلس إليه ومنحه آذاناً صاغية، فهو لا ينفك يلقن الإنسان دورس الحياة السعيدة، والعبارة:

«لَا يَعْيَا لِسَانُهُ»،

يمكن أن تكون إشارة إلى أنّ تقادم الزمان لا يؤثر مطلقاً على حقائق القرآن الكريم، وهو غض طرى على الدوام كما صورته الأخبار والروايات ۵۱۷].

وأشار فی العبارة الثانية إلى نقطة أخرى حفظ القرآن الكريم، فكما يحفظ البيت المستحكم

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۹۶

ذا الأعمدة القوية أصحابه من مخاطر الحوادث والحرارة والبرودة والحيوانات الوحشية والأعداء واللصوص، فانّ القرآن الكريم يتكفل بحفظ أتباعه من الانحراف والضلال ووسوسة الخناسين وإلقاءات الشياطين.

وأشار فی العبارة الثالثة إلى هذده الحقيقة وهی أنّ قدرة الإنسان لا تقهر إن لاذ بالقرآن وهبّ لنصرته، وذلك لأنّ قدرة هداية القرآن تستند إلى قدرة اللَّه سبحانه وقدرة اللَّه قاهرة لا تغلب، وبفعل مصداق الآية الشريفة: «إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ...»[۵۱۸]، فمن تأيد بنصر القرآن لن يهزمه عدو.

القرآن الناطق

لعل العبارة التی وردت فی هذا المقطع من الخطبة والتی عبّرت عن القرآن الكريم بأنّ

«نَاطِقٌ لَايَعْيَا لِسَانُهُ»

تشير هذا السؤال: كيف التوفيق بين هذه العبارة وما ورد عن الإمام فی الخطبة ۱۵۸ بشأن القرآن إذ قال عليه السلام:

«ذلِكَ الْقُرْآنُ، فَاسْتَنْطِقُوهُ، وَلَنْ يَنْطِقَ، وَلَكِنْ أُخْبِرُكُمْ عَنْهُ».

وكذلك العبارة التی وردت فی الخطبة ۱۸۳ إذ قال عليه السلام:

«فَالْقُرْآنُ آمِرٌ زَاجِرٌ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ»، أو ليس

هناك من تضاد بين هذه العبارات؟

تتضح الإجابة على هذا السؤال من أدنى دقّة وتأمل، بعبارة أخرى فانّ العبارات المذكورة تفسر بعضها البعض الآخر، لأنّ القرآن حين

يعبر عن القرآن بالصامت والناطق فمفهوم ذلک أنّ کل تعبير ناظر لشيء، مثلًا يمکن القول: القرآن صامت من حيث الظاهر، لکنّه في الواقع تحدث بصوت جلي بليغ، أو أنّه صامت إزاء الأفراد السطحيين بينما ناطق هو تجاه العلماء المفكرين، أو أنّه ناطق في مواصلة الطرق العملية الأصولية، أمّا بالنسبة لتطبيقها على مصاديقها استنباط الأحكام الفرعية (كقضية التحكيم في حادثة معركة صفين)، فيجب على المجتهدين أن ينطقوا عنه، ويمكن جمعها معاً في مفهوم جامع لكلام علي عليه السلام وسيأتي مزيد من التوضيح في ذلك هذه الخطبة.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۹۷

القسم الثالث: رسالة خاتم الأنبياء صلى الله عليه و آله

منها: «أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَتَنَازُعٍ مِنَ الْأَلْسُنِ، فَقَفَّى بِهِ الرُّسُلَ، وَخَتَمَ بِهِ الْوَحْيَ، فَجَاهَدَ فِي اللَّهِ الْمُدْبِرِينَ عَنْهُ، وَالْعَادِلِينَ بِهِ».

الشرح والتفسير

تحدّث الإمام عليه السلام في المقطع الأول والثاني عن صفات اللَّه سبحانه والقرآن الكريم، ثم أشار هنا بعبارات قصيرة عميقة المعنى إلى النبي الأكرم صلى الله عليه و آله في أنّ اللَّه تعالى أرسله بالإسلام بعد مدّة وفترة من الرسل السابقين حين كان النزاع قائماً على قدم وساق بين الأفراد في دفاع كل عن معتقده فقال:

«أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ[۵۱۹] مِنَ الرُّسُلِ، وَتَنَازُعٍ مِنَ الْأَلْسُنِ».

فالعبارة:

«تَنَازُعٍ مِنَ الْأَلْسُنِ»

، إشارة إلى أنّ الحوادث التي تدور بين أتباع المذهب المختلفة بما فيهم عبدة الأوثان وأهل الكتاب ومن ليس له دين وعقيدة، لم تكن حوارات منطقية ذات محتوى فكري وعقلي، بل كان كل يسطّر بعض الألفاظ بدافع التعصب لإثبات أحقيقته، بل كان هذا النزاع والاختلاف اللفظي أحياناً مصدر معارك طاحنة وسفك دماء غزيرة.

ثم قال عليه السلام:

«فَقَفَّى ۵۲۰] بِهِ الرُّسُلَ، وَخَتَمَ بِهِ الْوَحْيَ»،

فقد أشار الإمام إلى نقطتين: الأولى أنّ رسول اللَّه صلى اللَّه عليه و آله واصل مسيرة الأنبياء الماضين، وذلك لأنّ مسرتهم بصورة كلية واحدة، والثانية أنّه بلغ بتعاليمهم الكمال وختم بهم النبوّة، ثم إختتم كلامه عليه السلام بالقول:

«فَجَاهَدَ فِي اللَّهِ الْمُدْبِرِينَ عَنْهُ، وَالْعَادِلِينَ ۵۲۱] بِهِ».

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۹۸

فالواقع هو أنّ الكفّار فريقان: فريق نسي اللَّه تعالى بالمرّة ولا يعتقد بالحق، وفريق آخر مشرك جعل للَّهسبحانه شريكاً، وقد جاهد النبي الأكرم صلى الله عليه و آله كلا الفريقين، جهاد ثقافي وإعلامي وخاضه لمدّة ثلاث عشرة سنة وقد أسلم العديد منهم، وعندما شاهد الفريق المعاند الذي حال دون إقبال الناس على الدين اللَّه خاض الجهاد المسلح ليقضي على تلك الموانع دون أن يجبر أحداً على قبول دينه ذلك لأنّه:

«لَاإِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ...»[۵۲۲]

، وزبدة الكلام فقد أوجز الإمام عليه السلام جميع أنشطة نبي الإسلام صلى الله عليه و آله في الجهاد، وهو الجهاد ذو المفهوم الواسع والذي يشمل كل سعي وجهد من أجل نشر دين الحق، والعبارة جاهد في للَّهإشارة لطيفة في أنّه لم يكن أسيراً للمال أو المقام والجاه

والجلال، بل جاهد من أجل اللَّه سبحانه وسعى لنجاة العباد.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۹۹

القسم الرابع: الدنيا غاية بصر الأعمى

اشارة

منها: «وَإِنَّمَا الدُّنْيَا مُنْتَهَى بَصَرِ الْأَعْمَى لَايُبْصِرُ مِمَّا وَرَاءَهَا شَيْئاً، وَالْبَصِيرُ يَنْفُذُهَا بَصَرُهُ، وَيَعْلَمُ أَنَّ الدَّارَ وَرَاءَهَا. فَالْبَصِيرُ مِنْهَا شَاخِصٌ، وَالْأَعْمَى إِلَيْهَا شَاخِصٌ. وَالْبَصِيرُ مِنْهَا مُتَزَوِّدٌ، وَالْأَعْمَى لَهَا مُتَزَوِّدٌ».

الشرح والتفسير

أورد الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة كما ذكر ذلك الشارح البحراني عدّة نقاط لطيفة ورائعة رغم اقتضابها، وقد لفت الأنظار إلى الأصول التي تعد معالم حياة الأفراد فقال:

«وَإِنَّمَا الدُّنْيَا مُنْتَهَى بَصَرِ الْأَعْمَى .

ثم أكمل ذلك بقوله:

«لَا يُبْصِرُ مِمَّا وَرَاءَهَا شَيْئاً، وَالْبَصِيرُ يَنْفُذُهَا بَصَرُهُ، وَيَعْلَمُ أَنَّ الدَّارَ وَرَاءَهَا».

نعم، فعبّاد الدنيا وبسبب حبّهم وشغفهم بزخارف الدنيا وزبرجها كالمحبوس في سجن لا يرى سوى ما في داخل السجن، فأمّا نظرهم ضعيف، أو هناك حجب تحيط بأطرافهم، أو كلاهما، وأمّا دعاة الحق فنظرهم ثابت ولا حجاب لهم، ومن هنا فهم يرون ببصيرتهم الثاقبة الدار الآخرة منزلهم الأبدي الخالد بكل وضوح فليس لهم من هم سواها والحق إننا عرفنا الدنيا كما هي تبع ذلك الإيمان بالآخرة، وذلك لتعذر فهم الدنيا دون الآخرة، فهل خلق الخالق الحكيم كل ما في هذا العالم الواسع ليعيش الإنسان هذه المدّة المعينة فيأكل ويشرب وينام ويصحو بالتالي يموت ويواري جثمانه الثرى ويدع النسيان؟ والحال بداية عمره كنهايته ممزوجة بالضعف والعجز، ووسطه الذي يمكن الاستفادة منه مشوب بأنواعه المشاكل المصائب والآلام والمعاناة؟ هل هناك حكيم يقوم بمثل هذا العمل الطائش؟ ولذلك صرّح

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۰۰

القرآن الكريم:

«يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنْ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ»[۵۲۳].

وقال في النقطة الثانية التي تمثل في الواقع نتيجة بالنسبة للنقطة الأول:

«فَالْبَصِيرُ مِنْهَا شَاخِصٌ، وَالْأَعْمَى إِلَيْهَا شَاخِصٌ».

وبناءاً على هذا فقد استعمل الشاخص بمعنيين وما يصطلح عليه بالجنس التام، المعنى الأول من مادة شخوص بمعنى الرحيل والمفارقة، والمعنى الثاني التطلع وتصويب العين نحو موضع والتخلف عن الحركة، وكأن العين تريد مغادرة الحدقة، وللعبارة تفسير آخر اقتصر على ذكره شرّاح نهج البلاغة وهو أنّ الشاخص هنا يعني الراحل غاية ما في الأمر تطلق حين يقال «منها شاخص»، كما يقال «إليها شاخص» وهذا هو الفارق بين من كانت له بصيرة والأعمى، وقال في النقطة الثالثة والأخيرة:

«وَالْبَصِيرُ مِنْهَا مُتَزَوِّدٌ، وَالْأَعْمَى لَهَا مُتَزَوِّدٌ».

فهل البصيرة يتزودون من الدنيا للآخرة كما صرّح بذلك القرآن الكريم: «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى»[۵۲۴]، بينما يتزود عمى القلوب من أجل العيش في الدنيا، فهناك اختلاف تام بين المسيرين بتعين فقط بكلمة «منها» و «لها».

التعامل مع الدنيا

هنـاك على الـدوام نظرتـان يمتلكهـا الإنسـان تجاه الـدنيا، فأتباع الأديان السـماوية يرون الـدنيا بصـفتها منزلًا لابـدّ من التزود فيها إلى الآخرة، يبلغون مرادهم بواسطة هـذا الزاد والمتاع وليس لهم من مراد سوى السعادة الأبديـة والفوز برضوان اللّه سبحانه وتعالى، أمّا أتباع المدرسة الماديـة (والمـدارس التى تتفق معها) فهم ينظرون إلى الـدنيا على أنّها الهـدف النهائى والغايـة فيوظفون كافة طاقاتهم ويجنـدون قواهم من أجـل الظفر بهـا، وأحيانـاً يتفق أصـحاب النظرة الأولى فى العمل مع أتباع النظرة الثانيـة، يعنى رغم اعتقادهم بأنّ الدنيا وسيلة لنيل الآخرة، إلّا أنّ عملهم يشير إلى نسيان ذلك الاعتقاد وتعاملهم مع الدنيا كهدف نهائى ومن هنا وردت

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۰۱

تحذيرات أئمّة الدين التى تهدف ايقاظهم من الغفلة، فيقولون أحياناً:

«تَجَهَّزُوا، رحِمَكُمُ اللَّهُ، فَقَدْ نُودِىَ فِيكُمْ بِالرَّحِيلِ»[۵۲۵].

وأخرى يقولون:

«النَّاسُ عَبِيدُ الدُّنيا وَالدِّينُ لَعرقٌ عَلى ألسِنَتِهِم»[۵۲۶]

، كما يقولون:

«الدنيا: تَغُرُّ وَتَضُرُّ وَتَمُرُّ»[۵۲۷].

وأخيراً يقولون: إنّما الدنيا منتهى بصر الأعمى، ولا يبصر ما وراءها شيئاً والبصير ينفذها بصره، ويعلم أنّ الدار وراءها».

وأعظم مانع من الا فراد، وأهم وظائف أئمّة الدين إيقاظ هؤلاء الأفراد ولفت إنتباهم إلى أنّ الدنيا ممر لا مقر.

نفحات الولاية ؛ ج۵ ؛ ص۳۰۱

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۰۳

القسم الخامس: أهمية القرآن و دور عبادة الدنيا فى الصراعات

منها: «وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَـىْءٍ إِلَّا وَيَكَادُ صَاحِبُهُ يَشْبَعُ مِنْهُ وَيَمَلُّهُ إِلَّا الْحَيَاةَ فَإِنَّهُ لَايَجِدُ فِى الْمَوْتِ رَاحَـةً. وَإِنَّمَا ذلِكَ بِمَنْزِلَةِ الْحِكْمَةِ الَّتِى هِىَ حَيَاةٌ لِلْقَلْبِ الْمَيِّتِ، وَبَصَرٌ لِلْعَيْنِ الْعَمْيَاءِ، وَسَمْعٌ لِلْأُذُنِ الصَّمَّاءِ، وَرِيٌّ لِلظَّمْآنِ، وَفِيهَا الغِنَى كُلُّهُ وَالسَّلامَةُ. كِتَابُ اللَّهِ تُبْصِرُونَ بِهِ، وَتَنْطِقُونَ بِهِ، وَتَسْمَعُونَ بِهِ، وَيَنْطِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، وَيَشْهَدُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، وَلَا يَخْتَلِفُ فِى اللَّهِ، وَلَا يُخَالِفُ بِصَاحِبِهِ عَنِ اللَّهِ. قَدِ اصْطَلَحْتُمْ عَلَى الْغِلِّ فِيما بَيْنَكُمْ، وَنَبَتَ الْمَرْعَى عَلَى دِمَنِكُمْ. وَتَصَافَيْتُمْ عَلَى حُبِّ الْآمَالِ، وَتَعَادَيْتُمْ فِى كَسْبِ الْأَمْوَالِ. لَقَدِ اسْتَهَامَ بِكُمُ الْخَبِيثُ، وَتَاهَ بِكُمُ الْغُرُورُ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى نَفْسِى وَأَنْفُسِكُمْ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السـلام فى هـذا المقطع إلى مسائل مهمّـة وقضايا مختلفـة لا يبدو أنّها مرتبطة مع بضـعها، ومن هنا يعتقد بعض شـرّاح نهج البلاغة أنّ هذه العبارات قطوف اختارها المرحوم السـيد الرضـى من خطبة طويلة مرتبطة، وذلك لأنّه رآها أعظم فصاحة وبلاغة، وإلى هـذا يعود سبب عـدم رؤيتنا لإرتباط واضـح بينها، ومع ذلك فهناك حكمـة بالغـة تختزنها هـذه العبارات، فقـد ساق فى البداية تثبيتها من أجل لفت الأنظار إلى أهميّة العلم الذى يمثل حياة قلب الإنسان فقال:

«وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَىْءٍ إِلَّا وَيَكَادُ صَاحِبُهُ يَشْبَعُ مِنْهُ وَيَمَلُّهُ إِلَّا الْحَيَاةَ فَإِنَّهُ لَايَجِدُ فِى الْمَوْتِ رَاحَةً».

وقد صرّح أغلب شرّاح نهج البلاغة هنا سؤالًا وهو: لا ينسجم هذا التعبير مع ما ورد فى

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۳۰۴

بعض الآیات والروایات التی تصور راحة أولیاء اللّه سبحانه فی الموت، ومن ذلک ما ورد فی سورة الجمعة: «قُلْ یَا أَیُّهَا الَّذِینَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّکُمْ أَوْلِیَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ کُنتُمْ صَادِقِینَ»[۵۲۸]. وما ورد فی سورة الواقعة: «فَأَمَّا إِنْ کَانَ مِنْ الْمُقَرَّبِینَ* فَرَوْحٌ وَرَیْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِیم»[۵۲۹].

فمن الطبیعی ألا یکره الموت من یری نفسه علی أعتاب الروح والریحان والجنّة الملیئة بالنعم، وقد ورد فی الحدیث النبوی الشریف: «لَیسَ لِلمُؤمِنِ راحَةٌ دُونَ لِقاءِ اللَّهِ»[۵۳۰]

، کما ورد هذا المعنی بعبارة أخری عن الإمام الصادق أنّه قال:

«لا راحَةَ لِلمُؤمِنِ عَلَی الحَقِیقَةِ إلّاعِندَ لِقاءر اللَّهِ»[۵۳۱].

وجاء فی الدعاءالمعروف للإمام علی بن الحسین علیهما السلام فی یوم الثلاثاء:

«وَاجعَل الحَیاةَ زِیادِةً لِی فِی کُلِّ خَیرٍ وَالوَفاةَ راحَةً لِی مِنْ کُلِّ شَرٍ».

وقد ذکرت عدّة أجوبة علی هذا السؤال أوضحها جمیعاً أنّ هذه العبارة إشارة إلی الناس الذین یهربون عادة من الموت، بینما لیس لأمر کذالک بالنسبة لخواص اللّه سبحانه، کما یحتمل أن یکون المراد کراهة حتی أولیاء اللّه تعالی للموت بفضله نهایة التزود ومواصلة مسیرتهم التکاملیة، علی کل حال فقد أراد الإمام علی علیه السلام هذه المقدمة علی أنّها نتیجة وتشبیه للعلم والمعرفة التی یرتوی منها الإنسان مطلقاً فقال:

«وَإِنَّمَا ذلِکَ بِمَنْزِلَةِ الْحِکْمَةِ الَّتِی هِیَ حَیَاةٌ لِلْقَلْبِ الْمَیِّتِ، وَبَصَرٌ لِلْعَیْنِ الْعَمْیَاءِ، وَسَمْعٌ لِلْأُذُنِ الصَّمَّاءِ، وَرِیٌ ۵۳۲] لِلظَّمْآنِ ۵۳۳]، وَفِیهَا الغِنَی کُلُّهُ وَالسَّلامَةُ».

فالواقع أراد الإمام علیه السلام أن هناک نوعین من الحیاة حیاة مادیة وجسمانیة والتی لا یشبع منها الناس غالباً، والحیاة المعنویة والروحانیة والأفضل منها العلم والمعرفة التی لا یرتوی منها العقلاء والعلماء قط، وبناءاً علی هذا فانّ المشار إلیه «ذلک» بالضبط هو ذلک الشیء الذی ورد

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۳۰۵

قبل ذلک وهو الحیاة المادیة التی لا یشبع منها الناس، والغریب هنا کما أورده شرّاح نهج البلاغة حیث ذکر کل واحد منهم احتمالًا للعبارة المذکورة، الحال تفسیرها واضح وهو یشبه ما ورد فی إحدی قصار الکلمات لأمیرالمؤمنین علی علیه السلام إذ قال:

«مَنْهُومَانِ لَا یَشْبَعَانِ: طَالِبُ عِلْمٍ وَطَالِبُ دُنْیا»[۵۳۴].

علی کل حال فالمراد بالحکمة فی العبارة المذکورة هو العلم والمعرفة التی تقرب الإنسان من اللّه وتنظم أموره المادیة والمعنویة وتحول دون أعماله العبثیة، وبعبارة قصیرة کما وردت فی القرآن الکریم فانّ الخیر الکثیر یعود إلی صاحبه: «وَمَنْ یُؤْتَ الْحِکْمَةَ فَقَدْ أُوتِیَ خَیْراً کَثِیراً ...»[۵۳۵].

وقد یبیّن الإمام علیه السلام فی عبارته المذکورة العمیقة المعنی الأوصاف الخمسة للحکمة وکشف عن منزلتها فی حیاة الإنسان المادیة والمعنویة، فقال أولًا إنّ الحکمة حیاة القلب المیت، یعنی أنّ الأرواح والأفکار التی تصبح بفعل الجهل کالأموات خالیة من أیة حرکة إیجابیة، إنّما تعود إلی الحیاة فی ظلّ العلم والحکمة فتحیا وتمارس الحرکة.

وثانیاً وثالثاً أنّ الحکمة تبصر الأعمی وتسمع الأصم وتوضح الحقائق لمن غطت الحجب بصره وأثقل الوقر أذنه، بحیث یری الحق فی کافة أنحاء الخلق ویسمع نداء تسبیح الکائنات ویدرک رسالته أولیاء اللّه سبحانه، وقال فی الوصف الرابع والخامس أنّ عطشی الحق لا یرتوون من منابع الحکمة ویجدون فیها أسباب عافیتهم وسلامتهم، وعلیه فلن یبقی من الخیر والبرکة والسعادة شیئاً إلّاوقد اختزنته الحکمة.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالحديث عن القرآن الكريم والذى يراه بعض شرّاح نهج البلاغة أنّه جمل استئنافية قطع إرتباطها بالعبارات السابقة بسبب ما اعتمده السيد الرضى فى الانتخاب ۵۳۶]، ولكن كما أورد المرحوم البحرانى فانّه لا يمكن القول أنّ ليس هناك إرتباط بين هذه العبارات وسابقاتها حيث بيّنت أحد منافع الحكمة المهمّة وهى القرآن الكريم، أو بعبارة

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۰۶

أخرى قد ركّزت على المصداق التام للحكمة، والجدير بالذكر أنّ الأوصاف التى بيّنتها للقرآن تشبه الأوصاف التى بيّنتها العبارات المذكورة للحكمة، على كل حال فقد قال كتاب اللّه الذى تبصرون به الحقائق وتتحدثون به، وتسمعون به ينطق بعضه البعض الآخر (وتفسر فيه المتشابهات على ضوء المحكمات) ويشهد بضعه على البعض الآخر (ويؤيد بعضه الآخر) ولا يختلف ما يقوله فى اللّه، ومن يصحبه لا يخلاف اللّه: «كِتَابُ اللَّهِ تُبْصِرُونَ بِهِ، وَتَنْطِقُونَ بِهِ، وَتَسْمَعُونَ بِهِ، وَيَنْطِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، وَيَشْهَدُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، وَلَا يَخْتَلِفُ فِى اللَّهِ».

والأوصاف السبعة التى بيّنها الإمام عليه السلام بشأن القرآن تشبه من جهات الأوصاف الخمسة التى بيّنها بصورة كلية بخصوص الحكمة.

والجدير بالذكر أنّ الحكمة اقترنت بالكتاب فى غلب الآيات القرآنية[۵۳۷] والذى يدلّ على العلاقة الوثيقة بينهما وأنّ رسل اللّه سبحانه كانوا يمضون قدماً فى ظلّهما (الكتاب والحكمة).

من جانب آخر فانّ الأوصاف التى تضمنتها العبارة بشأن القرآن الكريم فى أنّه أساس البصر والسمع والنطق، وقد وردت الإشارة إليها فى بعض الآيات القرآنية ومن ذلك الآية:

«قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ...»[۵۳۸].

وممّا لا شك فيه أنّ الآيات الإلهيّة ودلائل الحق قد وردت بكثرة فى القرآن الكريم بحيث يسع الإنسان بواسطتها رؤية جمال الحق ويسمع نداء اللّه تبارك وتعالى، وهناك فارق واضح بين العبارة:

«يَنْطِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ»

والعبارة:

«يَشْهَدُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ»

، لأنّ الحديث فى العبارة الأولى عن آيات القرآن التى يفسر بعضها البعض، وتتضح المتشابهات فى ظل المحكمات، وأمّا العبارة الثانية فتتحدث عن إنسجام آيات القرآن وكلّ منها يعاضد الأخرى وتشهد على صدقها، وبالعبارة:

«وَلَا يَخْتَلِفُ فِى اللَّهِ»

، إشارة إلى عدم اختلاف القرآن الكريم فى بيان صفات الجمال والجلال والتى تعدّ من أهم مباحث القرآن الكريم، ويتحدث بجميع أياته عن تلك الذات المقدّسة الجامعة لكافة الكمالات اللامتناهية، والعبارة:

«وَلَا يُخَالِفُ بِصَاحِبِهِ عَنِ اللَّهِ».

إشارة إلى أنّ أى من آيات القرآن لا تبعد الإنسان عن مسار الحق، بل

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۰۷

تأخذ بيده إليه، فمن تمسك بالقرآن لن يضل أبداً، ومن رجاه لا يخيب، فالقرآن يعرّف نفسه:

«أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً»[۵۳۹].

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه كطبيب حاذق وحكيم ماهر فخاض فى بيان معاناة مخاطبيه المعنوية وقد ذكرهم بنقطة مهمّة، كيف ولم عجزتم عن مواصلة سبيل الحق وعندكم هذا القرآن- وعليه لا يبدو صواباً ما أورده شرّاح نهج البلاغة من عدم إرتباط

العبارات اللاحقة بالعبارات السابقة، فقال بادىء الأمر كأنّى بكم قد إتفقتم على الخيانة والحسد والحقد:

«قَدِ اصْطَلَحْتُمْ عَلَى الْغِلِ ۵۴۰] فِيما بَيْنَكُمْ».

ثم قال:

«وَنَبَتَ الْمَرْعَى عَلَى دِمَنِكُمْ ۵۴۱]»،

إشارة إلى أن أعمالكم الخاطئة إنّما تفرزها أفكاركم الملوثة، وأضاف فى بيانه لنقطة ضعفهم الرابعة والخامسة فقال:

«وَتَصَافَيْتُمْ عَلَى حُبِّ الْآمَالِ، وَتَعَادَيْتُمْ فِي كَسْبِ الْأَمْوَالِ»

، فنقطة اشتراككم تكمن فى تعلقكم بالآمال والأمانى الفارغة، ونقطة اختلافكم فى كسب المال، حيث يريد كل منك أن يختطف المال الذى فى يد غيره.

والواقع يمكن خلاصة نقاط ضعفهم فى أربع كلمات هى الحقد والحسد والرياء وطول الأمل والنزاع من أجل كسب المال، والحق أنّ المجتمع لن يرى الأمن والاسقرار إن سادته هذه الرذائل، ولا يسوده سوى النزاع والقتال وأنواع التوتر، كما لا يعيش سوى الضعف والوهن تجاه العدو الخارجى، وإن طالعتنا بعض مظاهر الجمال فى هذا المجتمع فهى بمثابة الزهور الجميلة التى تنبت فى المزابل وجذورها عفنة، وكأنّ الإمام عليه السلام أراد أن يفهمهم هذه القضية وهى أنّ المبادىء التى سادت المجتمع الجاهلى قبل الإسلام والتى وردت الإشارة إليها فى صدر هذه الخطبة قد إنتعشت اليوم مرّة أخرى فى وسطكم، ثم أشار الإمام عليه السلام فى آخر الخطبة إلى أحد الأركان المهمة لانحرافهم والذى يتمثل بوساوس الشياطين والتى جعلتهم يضلون سبيل

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۰۸

السعادة والنجاة:

«لَقَدِ اسْتَهَامَ بِكُمُ الْخَبِيثُ، وَتَاهَ ۵۴۲] بِكُمُ الْغُرُورُ[۵۴۳]، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى نَفْسِي وَأَنْفُسِكُمْ».

قال سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز: «وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً ...»[۵۴۴]، كما قال: «وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا»[۵۴۵]، استهام من مادة هيام على وزن قيام خرج لا يدرى أين يذهب، فهو يمشى دون هدف حيران فلا يبلغ الهدف، ولمّا كان العاشق حيران فى حياته فقد اطلقت هذه المفردة على العشق الشديد.

على كل حال فانّ الشيطان يحث الإنسان على العبث والعشوائية ولا يقود ذلك سوى للحيرة والاضطراب، وهذا بدوره يلقى بالإنسان فى وادى الهلكة، وبالنتيجة فانّ صفاتهم الباطنية القبيحة من جانب، والانقياد لوساوس الشياطين من جانب آخر قد مهدت السبيل لبؤسهم وشقائهم وسلبتهم بصيرتهم وسمعهم ونطقهم وفهم الصحيح، وهكذا يستعرض هذا الطبيب الربانى بهذه الخطبة الغرّاء جذور الأمراض وطرق مكافحتها وعلاجها.

أشار الإمام فى هذا المقطع الأخير من الخطبة إلى عدّة أمور مهمّة منها:

۱- أنّ القرآن الكريم مصدر البصر السمع والنطق، مع ذلك هناك من لم يستثمر ذلك، لأنّهم محجوبون وحجابهم فسادهم والباطنى وتلوثهم وطول أملهم وغرقهم فى حبّ الدنيا، ونعلم أنّ هذه الأمور أهم حجب المعرفة، نعم فالكتب السماوية مهما ملئت الحكمة، ومهما تحلى الأئمّة بالعلم والبلاغة فلا جدوى من ذلك ما لم تكن هناك قابلية فى القابل، فالشمس ترسل أشعتها

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۰۹

على الدوام ولكن ما جدوى هذا الشعاع بالنسبة للأعمى، وكذلك هى الأمطار فى لطافة طبعها لكنه لا ينبت الأزهار فى كل مكان.

۲- إنّ حبّ المال والثراء أساس الحروب والمعارك النزاعات ولا يقتصر هذا الأمر على الزمان والماضى، بل تلمسه بوضوح فى كل مكان فى الوقت الحاضر، فالدول الغاشمة تصرّح دون خشية إننا دخلنا تلك الحرب من أجل حفظ مصالحنا، أو لدينا بعض المصالح

فی البلد الفلانی (طبعاً مصالح غیر مشروعة) وعلیه فلابدّ أن یکون لنا تواجد عسکری فیه لنرعی تلک المصالح، والمؤسف أن وجه الدنیا أخذ یتکدر یوماً بعد آخر والحیاة أصبحت فیها عدیمة الأمن، ولیس ذلک سوی ما أورده الإمام علیه السلام إذا قال:

«وَتَعَادَیْتُمْ فِی کَسْبِ الْأَمْوَالِ».

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۳۱۱

الخطبة[۵۴۶] المأة والرابعة والثلاثون

اشارة

وَمِنْ کَلامٍ لهُ علیه السلام

وقد شاوره عمرُ بن الخطاب فی الخروج إلی غزو الروم

نظرة إلی الخطبة

قال بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ الإمام علیه السلام خطب بهذا الکلام حین اتّجه قیصر بجیشه نحو ثغور الإسلام عندما عزل خالد بن الولید عن إمرة جیش المسلمین وقد تولی الإمرة أبو عبیدة الجراح وشرحبیل وقد ضاق علیهما الأمر، لذلک عزم عمر أن یحضر بنفسه وأستشار أمیر المؤمنین علی علیه السلام ۵۴۷]، ویفهم من کلام ابن أبی الحدید أنّ عمر خالف ما أشار علیه علی علیه السلام، فلمّا علم الروم مقدم عمر بنفسه خافوا وسألوا الصلح علی أن یؤدّوا الجزیة إلی المسلمین، ثم روی قصة أشبه بالخرافة[۵۴۸].

قال المرحوم العلّامة التستری أولًا: ما وراه ابن أبی الحدید عن سیف وروایات سیف لا تخلو من الوضع والتحریف.

ثانیاً: لا دلیل لدنیا أنّ هذا الکلام قاله علی علیه السلام حین استشارة عمر فی الخروج بنفسه

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۳۱۲

لقتال الروم، بل ظاهر بعض کلمات الشیخ المفید رحمه الله أنّ الکلام فی معرکة القادسیة أو نهاوند[۵۴۹].

والجدیر بالذکر هنا أنّ عمر کان یقبل عادة ما یشیر علیه علی علیه السلام وکان یری نجاته فی ذلک القبول، وهذا بدوره یؤید ما أورده المرحوم العلّامة التستری.

علی کل حال تتألف هذه الخطبة من قسمین: الأول وعد اللّه سبحانه لهذه الامة بالنصر والغلبة والامل بهذا الوعد، والثانی الذی قال فیه علی علیه السلام لعمر: لا تشخص بنفسک فانّک متی تسر إلی هذا العدو بنفسک، فتلقهم فتنکب لا یکن للمسلمین کهف دون أقصی بلادهم، لیس بعدک مرجع یرجعون إلیه.

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۳۱۳

«وَقَدْ تَوَکَّلَ اللَّهُ لِأَهْلِ هذَا الدِّینِ بِإِعْزَازِ الْحَوْزَةِ، وَسَتْرِ الْعَوْرَةِ. وَالَّذِی نَصَرَهُمْ، وَهُمْ قَلِیلٌ لَایَنْتَصِرُونَ، وَمَنَعَهُمْ وَهُمْ قَلِیلٌ لَا یَمْتَنِعُونَ، حَیٌّ لَا یَمُوتُ.

إِنَّکَ مَتی تَسِرْ إِلَی هذَا الْعَدُوِّ بِنَفْسِکَ، فَتَلْقَهُمْ فَتُنْکَبْ، لَاتَکُنْ لِلْمُسْلِمِینَ کَانِفَةٌ دُونَ أَقْصَی بِلَادِهِمْ. لَیْسَ بَعْدَکَ مَرْجِعٌ یَرْجِعُونَ إِلَیْهِ. فَابْعَثْ إِلَیْهِمْ رَجُلًا مِحْرَباً، و احْفِزْ مَعَهُ أَهْلَ الْبَلاءِ وَالنَّصِیحَةِ، فَإِنْ أَظْهَرَ اللَّهُ فَذَاکَ مَا تُحِبُّ، وَإِنْ تَکُنِ الْأُخْرَی، کُنْتَ رِدْءاً لِلنَّاسِ وَمَثَابَةً لِلْمُسْلِمِینَ».

الشرح والتفسیر

الحضور الخطیر

استهل الإمام عليه السلام كلامه للخليفة بهدف تقوية معنوياته حذراً من خوف لقاءالعدو الغاشم كالروم بقوله:

وَقَدْ تَوَكَّلَ اللَّهُ لِأَهْلِ هذَا الدِّينِ بِإِعْزَازِ الْحَوْزَةِ[۵۵۰]، وَسَتْرِ الْعَوْرَةِ»

، والعبارة توكل تشير إلى أنّ اللَّه سبحانه تكفل بحمايتهم والدفاع عنهم، وهو الأمر الذى أشار إليه القرآن الكريم: «هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ»[۵۵۱].

وهذا الوعد الإلهى- طبق كلام الإمام عليه السلام- لم يكن مقتصراً على زمان النبى صلى الله عليه و آله، بل يجرى فى كل عصر ومصر، والعبارة:

«وَسَتْرِ الْعَوْرَةِ»

، بالنظر إلى أنّ العورة تعنى فى الأصل النقاط الحدودية الهشة وما يخشاه الإنسان ويخافه، فهى تشير إلى أنّ الحق تبارك وتعالى وإضافة إلى

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۱۴

تعهده بعزّة المسلمين ورفعتهم فانّه يمنع العدو من الالتفات إلى نقاط ضعفهم أسرارهم حتى لا يتمكن من تسديد ضرباته للمسلمين.

ثم شدّ من العزائم أكثر فأتى بشاهد حى فقال عليه السلام:

«وَالَّذِى نَصَرَهُمْ، وَهُمْ قَلِيلٌ لَا يَنْتَصِرُونَ، وَمَنَعَهُمْ وَهُمْ قَلِيلٌ لَا يَمْتَنِعُونَ، حَيٌّ لَا يَمُوتُ ۵۵۲]».

فقد نصر اللَّه تعالى اولئك المسلمين الذين كانوا يبدون فى الظاهر ضعفاء ومن حيث العدّة قلائل، واليوم وقد اتسعت حوزة الإسلام والحمد للَّهوقد إنضوت عدّة أفواج تحت رايته، فهم مشمولون قطعاً بنصرة الحق والغلبة لهم والهزيمة لأعدائهم، فناصرهم هو اللَّه تعالى الحى القيوم الذى لا- يموت، طبعاً إنّ أى موجود تثق به وتعتمد عليه فانّ مرور الزمان يصيبه بالضعف والهن والفتور وبالتالى الزوال والفناء، والذات الإلهيّة المقدّسة الوحيدة التى لا تعرف للضعف الفتور من معنى والتى لا ينبغى الاعتماد سوى عليها.

ثم ورد الإمام عليه السلام ذى مقدمة بعد هذه المقدمة فيخلص إلى نتيجة ليؤكد على عمر عدم حضور ميدان القتال بنفسه بعد أن ذكر دليلًا واضحاً لذلك والذى يقبل بصورة تامة فى الموارد المشابهة فقال:

«إِنَّكَ مَتَى تَسِرْ إِلَى هذَا الْعَدُوِّ بِنَفْسِكَ، فَتَلْقَهُمْ فَتُنْكَبْ ۵۵۳]، لَاتَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ كَانِفَةٌ[۵۵۴] دُونَ أَقْصَى بِلَادِهِمْ، لَيْسَ بَعْدَكَ مَرْجِعٌ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ».

إشارة إلى هذا الأمر إن حضرت ميدان القتال بنفسك وقتلت فانّ أرادت الامة مبايعة شخص آخر فانّ المجتمع الإسلامى سيفقد مركزيته وتنها المناطق النائية التى تكون عرضة للخرق أكثر من غيرها وهذا ما سيسرى إلى سائر أنحاءالبلاد، ولما كان السلب فى القضايا الاجتماعية يقترن دائماً بالايجاب بغية سدالفراغ الاجتماعى، فبعد أن أشار عليه الإمام بعدم الذهاب بنفسه، طرح عليه البديل ببعث رجل مجرب فى الحرب وطائفة ممن أبلت فى القتال، من أهل النصح والخير فانّ أتاهم النصر فذلك ما يبغى ويحب، وإن حدث شىء آخر (إشارة

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۱۵

إلى الهزيمة المسلمين) فسيكون هو ملاذ المسلمين وكهفهم (فيستطيع ومن خلال بعث القوى السيطرة على الأوضاع وتحيق النصر على العدو):

«فَابْعَثْ إِلَيْهِمْ رَجُلًا مِحْرَباً[۵۵۵]، واحْفِزْ[۵۵۶] مَعَهُ

أَهْلَ الْبَلَاءِ[۵۵۷] وَالنَّصِيحَةِ، فَإِنْ أَظْهَرَ اللَّهُ فَذَاكَ مَا تُحِبُّ، وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى، كُنْتَ رِدْءاً[۵۵۸]

لِلنَّاسِ وَمَثَابَةً[۵۵۹] لِلْمُسْلِمِينَ».

فقد بيّن الإمام عليه السلام جوابه للخليفة حين المشورة بدليل منطقى وواضح وهو أنّ حضور زعيم جماعة فى ميدان القتال أمر خطير

سوى في الموارد الاستثنائية، لأنّ من الاحتمالات الواردة قتله في المعركة ونتيجة ذلك إنيهار الجيش من جانب وتصدع كيان البلاد من جانب آخر، بينما لو بقي مكانه كان له أن يبعث بجيوش بدل جيش واحد ويحتفظ بقدرته وسيطرته على جميع البلاد.

تأمّلات

۱- الردّ على سؤال

طرح بعض شرّاح نهج البلاغة هذا السؤال أشار على عليه السلام على عمر ألا يشخص بنفسه، فما بال رسول اللّه صلى الله عليه و آله كان يشاهد الحروب بنفسه، ويباشرهم بشخصه، وما بال أميرالمؤمنين على عليه السلام شهد حرب الجمل وصفين والنهروان بنفسه؟

وقد أجاب بعض الشرّاح بالقول أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله كان عالماً عن طريق الوحى بأنّه لا يقتل فى الحرب، كما كان على عليه السلام عالماً من جهة النبى صلى الله عليه و آله أنّه لا يقتل فى هذه الحروب، ويشهد لذلك الخبر المتفق عليه بين الناس يقاتل بعدى الناكثين، والقاسطين، والمارقين، وعليه

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۱۶

فليست هنالك من خطورة فى حضورهما، وقال البعض الآخر، أنّهما كانا يحضران المعارك التى لم تكن تدور بعيداً عن مركز البلاد، بينما اقتصر حضور النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى المعارك الخارجية على تبوك فقط، وبعد أن استخلف علياً عليه السلام فى المدينة.

وبعبارة أخرى يمكن القول: الموارد مختلفة تماماً ولكل ميدان من ميادين القتال وشرائطه ووضع العدو حكمه الخاص، ولكن غالباً إن كان الميدان بعيداً عن مركز الحكومة واشترك رئيس الحكومة فيه وقتل أدّى إلى عدّة مشاكل، ومن هنا نهى الإمام عليه السلام الخليفة عن حضور ميدان القتال بنفسه.

۲- شبهة أخرى

لعل هناك من يشكل: كيف قدم الإمام عليه السلام هذه النصيحة الودّية والمشفقة للخليفة مع أنّه يرى الحكومة من حقوقه المسلمة وقد صرّح النبى الأكرم صلى الله عليه و آله والآيات القرآنية بهذا المعنى فى أنّ الولاية لعلى عليه السلام؟

الجواب على هذا السؤال واضح وهو أنّ الإمام عليه السلام إنّما يفكر فى المصير النهائى للإسلام والمسلمين لا فى شخصه، وهو يعلم أنّ الخليفة الثانى قد تربع على مسند الحكومة وتسلم زمام الأمور وقد وقف إلى جانبه عوام الناس وطائفة من الخواص، فانّ تعرض فى ظل هذه الظروف إلى أزمة عظيمة وقتال خطير ساد الهرج والمرج البلاد وعمتها الفوضى وتعرض كيان الإسلام للخطر، فروح على عليه السلام العظيمة تقتضى نسيانه لكل شيء وإيثاره لخير المسلمين على كل شيء.

۳- الأمانة فى الاستشارة

الكلام المذكور درس لجميع المسلمين بتقديم الخير والصلاح حين المشورة دون الأخذ بنظر الاعتبار قضية المستشار وكيفية العلاقة به.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۱۷

بعبارة أخرى: إمّا يرفض المشورة وإمّا أنّ يقبلها ويؤدّى حقها، فقد ورد فى الحديث أنّ الإمام الصادق عليه السلام قال:

«اعْلَم أَنَّ ضَارِبَ عَلِيٍّ بِالسَّيفِ وَقَاتِلَهُ لَو إِتَمَنَنى واستَنصَحنِى وَاستِشارَنِى ثُمَّ قَبِلْتُ ذَلِکَ مِنْهُ لأَدَّيتُ الأَمانَةَ»[۵۶۰].

۴- إستنتاج خاطیء

أراد بعض المخالفين التشبث بكلام الإمام عليه السلام ليقيموا الدليل على أحقيّة الخليفة الثانى بالخلافة وعلى لسان على عليه السلام، ولكن من الواضح أنّ هذا الاستنباط خاطىء، لأنّ الوظيفة الشرعية والعقلية وحفظاً لمصالح المسلمين تتطلب من كل شخص فى مثل ظروف على عليه السلام أن يقدم النصح لمن كان يمر بظروف عمر، فينطق لسانه بخير المسلمين وصلاحهم، وإن جرت الأمور على خلاف مصالحه الشخصية، بل إن كانت بضرورة، والعبارة:

«لَيسَ بَعْدَکَ مَرْجِعٌ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ»

، لا تعنى قط أنّك أصلح الامة، بل معناها أنّ الناس عرفوك فى ظلّ الظروف الفعلية- حقّاً أم بغير حق- بهذه الصفة فان قتلت تطلبت البيعة لآخر زماناً طويلًا وهنا تنهار الامة.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۱۹

الخطبة[۵۶۱] المأة والخامسة والثلاثون

اشارة

ومِنْ كَلامٍ لَهُ عليه السلام

وقد وقعت مشاجرة بينه وبين عثمان

فقال المغيرة بن الأخنس لعثمان: أنا أكفيكه، فقال على عليه السلام للمغيرة:

نظرة إلى الخطبة

صرّح ابن أبى الحديد وآخرون أنّ هذا الكلام لم يكن بحضرة عثمان، وإن أفادت عبارات الخطبة أنّ هذه المشاجرة كانت بحضرة عثمان، فقد جاء فى الخبر أنّ عماراً لما سمع بخبر وفاة أبى ذر ترحم عليه بحضور عثمان، فغضب عثمان وقال: انفوه إلى الربذة، فقال عمّار: مجالسة الكلاب والخنازير أحبّ إلىَّ من مجالستك قال ذلك وخرج، فعزم عثمان على نفيه، فذهب بنو مخزوم إلى على عليه السلام وشكوا له ضرب عثمان لعمار وهو عازم الآن على إبعاده فسألوه أن يكلم عثمان وإلّا وقعت فتنة عظيمة، فذهب الإمام على عليه السلام إلى عثمان وقال له: نفيت أبى ذر إلى الربذة حتى مات غريباً وهو من صحابة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وقد نقم عليك الناس ذلك، وتريد الآن نفى عمار.

فغضب عثمان وقال: لابدّ من نفيك أولًا لكى لا يجرأ عمار، ففسادهم منك، فقال على عليه السلام: لا تقدر على ذلك وفساد أمثال عمار بسبب أعمالك، فأنت تعمل خلاف دين اللَّه تعالى فنقم

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۲۰

الناس عليك، قال ذلك ثم خرج من عند عثمان، وقد أحاط الناس به وقالوا فليبعدنا عثمان جميعاً لنموت بعيداً عن أهلنا، فقال الإمام عليه السلام قولوا لعمار يلازم بيته ولا يخرج.

فقال بنو مخزوم: إن كنت معنا فليس لعثمان أن يفعل شيئاً، فلما بلغ ذلك عثمان شكى علياً عليه السلام إلى الناس، فقال له زيد بن ثابت وكان من شيعته وخاصته: أفلا أمشى إليه فأخبره بموجدتك فيما يأتى إليك، قال: بلى، فأتاه زيد معه المغيرة بن الأخنس [۵۶۲] وعداده بنى زهرة وامّه عمة عثمان، فحمد زيد اللَّه وأثنى عليه ثم قال: أمّا بعد فانّ اللَّه قدم لك سلفاً صالحاً فى الإسلام، وجعلك من الرسول بالمكان الذى أنت به، فأنت للخير كل الخير أهل، وأميرالمؤمنين عثمان ابن عمك ووالى هذه الامة، فله عليك حقان، حق

الولاية وحق القرابة، وقد شكا إلينا أنّ علياً يعرض لى، ويرد أمرى عليّ، وقد مشينا إليك نصيحة لك، وكراهية أن يقع بينك وبين ابن عمك أمر نكرهه لكما، فحمد على عليه السلام اللّه وأثنى عليه وصلى على رسوله ثم قال: أمّا بعد، فواللّه ما أحبّ الاعتراض ولا الردّ عليه، إلّاأن يأبى حقّاً للّهلا يسعنى أن أقول فيه إلّابالحق، وواللّه لأكفنّ عنه ما وسعنى الكف.

فقال المغيرة بن الأخنس وكان رجلًا وقاحاً، وكان من شيعة عثمان وخلصائه: إنّك واللّه لتكفن عنه أو لتكفن، فانّه أقدر عليك منك عليه.

فقال له عليه السلام: يابن اللعين الأبتر، والشجرة التى لا أصل لها ولا فرع ...[۵۶۳].

بناءاً على هـذا فخلاصة الكلام أنّه اعتراض شديد على المغيرة بن الأخنس الذى نطق بكلام أكبر منه واعتقد أنّ له منزلة أعظم ممّا فى نفسه.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۲۱

«يَابْنَ اللَّعِينِ الْأَبْتَرِ، وَالشَّجَرَةِ الَّتِىلَا أَصْلَ لَهَا وَلَا فَرْعَ، أَنْتَ تَكْفِينِى؟

فَوَاللَّهِ مَا أَعَزَّ اللَّهُ مَنْ أَنْتَ نَاصِرُهُ، وَلَا قَامَ مَنْ أَنْتَ مُنْهِضُهُ. اخْرُجْ عَنَّا أَبْعَدَ اللَّهُ نَوَاكَ، ثُمَّ ابْلُغْ جَهْدَكَ، فَلَا أَبْقَى اللَّهُ عَلَيْكَ إِنْ أَبْقَيْتَ!».

الشرح والتفسير

أنت عاجز

كان على عليه السلام الكهف الحصين للمظلومين والمحرومين على عهد الخلفاء الثلاث سيّما على عهد الخليفة الثالث عثمان الذى جاوزت بطانته الحدّ فى الظلم والجور، فلم ترحم صغيراً ولم توقر كبيراً، فكان عليه السلام من يوصل نداء المظلومية للخليفة، فمن الطبيعى أن يسبب له هذا الأمر بعض المشاكل حيث كان يجند الامة ضد الخلافة الحاكمة.

فقد عرض الإمام عليه السلام بهذا الردّ على تهديد المغيرة بن الأخنس بالذم له والاستخفاف به، فأشار بادىء الأمر إلى جذور فساده ونقاط ضعفه ليخلص إلى نتيجة تفيد عجزه عن القيام بأى عمل ضد الإمام عليه السلام فقال:

«يَابْنَ اللَّعِينِ الْأَبْتَرِ، وَالشَّجَرَةِ الَّتِىلَا أَصْلَ لَهَا وَلَا فَرْعَ، أَنْتَ تَكْفِينِى؟»،

والتعبير عن المغيرة بن الأخنس باللعين كونه من رؤوس النفاق حيث أظهر الإسلام فى فتح مكة وأبطن الكفر، وقد حاول رسول اللّه صلى الله عليه و آله إستمالة قلبه فأعطاه سهماً كبيراً من غنائم حنين، وأخوه أبو الحكم الذى قتله على عليه السلام يوم احد، ومن هنا حقد المغيرة على على عليه السلام ۵۶۴].

وأمّا وصف الإمام لأبيه بالأبتر لا أنّه لم يكن له عقب، بل الأبتر هنا تعنى انقطاعه عن الخير والسعادة، أو أبتر من حيث النسب حيث كان أولاده ممن لا خير فيهم فكانوا كالعدم،

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۲۲

وأمّا قوله والشجرة التى لا أصل لها ولا فرع فهو كناية عن وضاعة هذه الاسرة وبُعدها عن القيم والمثل، فالواقع أنّ قول الإمام عليه السلام إقتباس من الآية الشريفة:

«وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ»[۵۶۵].

ثم قال الإمام عليه السلام:

«فَوَاللَّهِ مَا أَعَزَّ اللَّهُ مَنْ أَنْتَ نَاصِرُهُ، وَلَا قَامَ مَنْ أَنْتَ مُنْهِضُهُ ۵۶۶]»،

العزّة والقدرة بيد اللّه سبحانه ذلك طبقاً للآية الكريمة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ»[۵۶۷].

وقوله تعالى: «إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ»[۵۶۸]، فالعزّة للّهلا للمنافقين، ثم إختتم الخطبة

باستخفافه الشديد بالمغيرة فقال:

«اخْرُجْ عَنَّا أَبْعَدَ اللَّهُ نَوَاکَ ۵۶۹]، ثُمَّ ابْلُغْ جَهْدَکَ، فَلَا أَبْقَى اللَّهُ عَلَيْکَ ۵۷۰] إِنْ أَبْقَيْتَ!».

إشارة إلى أنّك لأصغر من أن تهدد علياً عليه السلام، فافعل ما بوسعك لترى إنّك لا تقوى على شيء، وبائس هو الفرد الذى أنت ناصره.

سلوک الإمام عليه السلام تجاه الفرد العديم المنطق

لو أنعمنا النظر فى شأن وورد هذا الكلام للإمام عليه السلام وتتبعنا بدقة مساره التاريخى لرأينا كيف اصطدم الإمام عليه السلام بصورة منطقية بالانحرافات فى عصر الخلفاء ولا سيّما على عهد عثمان، فلم يتوان فى تقديم الوعظ والنصح من أجل منع أى توتر واضطراب حيث كان يكتفى بالحدّ الأدنى من التذكير، أمّا حين كان يصطدم بالمنافقين والجهّال عديمى المنطق، فقد كان يقف بوجههم بكل شدّة وصلابة حتى لا يقتدح فى أذهانهم التفكير بالأعمال الطائشة والخطيرة، وصدر وذيل الكلام المذكور خير شاهد على السلوكين.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۲۳

الخطبة[۵۷۱] المأة والسادسة والثلاثون

اشارة

وَمِنْ کَلام لَهُ عليه السلام

فى أمر البيعة

نظرة إلى الخطبة

أشار الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة إلى أمور:

الأول: أنّ بيعتى لم تكن صدفة بعيدة عن تفكير الناس وتخطيطهم، وعليه فلا يحق لأحد نقضها لأنّها بيعة عامّة.

الثانى: أنّى أريدكم جنوداً لتبلور الأهداف الربانية، لكنّكم تريدوننى من أجل ضمان منافعكم الدنيوية.

الثالث: أبغى من كل الافراد النصرة لاستنقاذ حق المظلوم من الظالم، ويبيّن الإمام عليه السلام عزمه القاطع بهذا الشأن

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۲۵

«لَمْ تَکُنْ بَيْعَتُکُمْ إِيَّایَ فَلْتَةً، وَلَيْسَ أَمْرِی وَأَمْرُکُمْ وَاحِداً. إِنِّی أُرِيدُکُمْ لِلَّهِ، وَأَنْتُمْ تُرِيدُونَنِی لِأَنْفُسِکُمْ.

أَيُّهَا النَّاسُ، أَعِينُونِی عَلَی أَنْفُسِکُمْ، وَايْمُ اللَّهِ لَأُنْصِفَنَّ الْمَظْلُومَ مِنْ ظَالِمِهِ، وَلَأَقُودَنَّ الظَّالِمَ بِخِزَامَتِهِ حَتَّی أُورِدَهُ مَنْهَلَ الْحَقِّ وَإِنْ کَانَ کَارِهاً».

الشرح والتفسير

أنصف المظلوم من الظالم

كما ورد سابقاً فانّ الإمام أورد هذا الكلام- بعبارة أخرى هذا المقطع من الخطبة- حين إمتنع بعض صحابة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله عن بيعته، فأتمّ الإمام عليه السلام الحجة عليهم بهذا الكلام فقال:

«لَمْ تَکُنْ بَيْعَتُکُمْ إِيَّایَ فَلْتَةً»،

بل حين رأيتم المشاكل الناشئة من بيعة الخلفاء السابقين ولاسيّما بيعة الخليفة الثالث وما ترتب عليها من آثار فقد عزمتم على الإقبال علىَّ فأبيتم أمراً جديداً فى مسألة البيعة، وبناءاً على ما تقدم فانّ الأقلية لا تمتلك الحق فى نقض البيعة التى سارعت إليها الأكثيرة من الامة.

وبالنظر إلى أنّ الفلتة تعنى العمل الذى يقع بغتة دون روية وتدبر فقد أراد الإمام:

أولًا: يوضح أنّ بيعته كانت دقيقة جدّاً وقد حصلت بعد مشورة الامة وزعماء القبائل مع بعضهم.

ثانياً: التلميح إلى بيعة أبى بكر التى حصلت فى أجواء متوترة مغلقة من قبل قلّة قليلة حتى قال عمر بهذا المضمون:

«إنَّ بَيعةَ أبى بَكرٍ كانتْ فَلتَةً، وَقى اللّهُ شرّها»[۵۷۲]

، كما ورد فى بعض الروايات فى ذيل هذا الحديث

«فَمَن عادَ إلى مِثلِها فاقتُلوهُ»[۵۷۳]

، وسنقدم شرحاً وافياً لهذا الموضوع فى البحث اقادم.

ثم قال الإمام عليه السلام فى مواصلة كلامه:

«وَلَيسَ أَمْرِى وَأَمْرُكُمْ وَاحِداً، إِنِّى أُرِيدُكُمْ لِلَّهِ،

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۲۶

وَأَنْتُم تُرِيدُونَنِى لِأَنْفُسِكُمْ»، فلست

من قبيل طلاب الدنيا من الحكّام الذين ينشدون من وراءها تأمين جلالهم وأبهتهم ومصالحهم الشخصية، فما أريده هو إقامة الدين بواسطتكم وأن اؤدّى حقوق الناس وأفوز برضى اللّه سبحانه، ولكنكم تريدوننى لمصالكم الشخصية كالحصول على سهم كبير من بيت المال أو نيل المناصب والمقامات والرفاه فى الحياة، وبالإلتفات إلى الاختلاف بين هاتين النظرتين فمن الطبيعى ألا تتساوى المسارات تبعاً لوسائل العمل، ثم دعاهم لإصلاح أنفسهم بعد أن وبّخهم وأيقظهم فقال:

«أَيُّهَا النَّاسُ، أَعِينُونِى عَلَى أَنْفُسِكُمْ»

، فى إشارة إلى أنّ مدرستى التربوية معدة لإصلاحكم، فما اريده منكم وبقبول نصائحى- التى تستند إلى مصدر الوحى والقرآن الكريم وتعاليم النبى الأكرم صلى الله عليه و آله- الإلتحاق بها والتعاون معى، فانّ لم يكن لديكم الإندفاع فلا جدوى من أى برنامج، ثم أشار فى الختام إلى نقطة مهمّة ووضح عزمه الراسخ فيها وهى مسألة بسط العدالة فى كافة أرجاء البلد الإسلامى مقاتلة الظلمة فقال:

«وَايْمُ اللَّهِ لَأُنْصِفَنَّ الْمَظْلُومَ مِنْ ظَالِمِهِ، وَلَأَقُودَنَّ الظَّالِمَ بِخِزَامَتِهِ ۵۷۴] حَتَّى أُورِدَهُ مَنْهَلَ ۵۷۵] الْحَقِّ وَإِنْ كَانَ كَارِهاً»

، فهذا التشبيه الرائع للظلمة بالبعير الجامح الذى يمتنع حتى من شرب الماء ويريد صاحبه أن يورده مشربه كرهاً ويرويه، يفيد أنّ الهدف من مقارعة الظلمة لا يقتصر على استرداد حقوق المظلومين فحسب، بل أنّ هذا العمل بنفعهم أيضاً، لأنّ الظالم إن جاوز الحدّ فانّ التمرد والعصيان العام سيكون كألسنة اللهب التى تحرق الأخضر واليابس وأنّ الظلمة أول من تحرقهم تلك النار، الأمر الذى وقع فى عصر عثمان قبيل حكومة الإمام عليه السلام كما يفيد من جانب آخر أنّ أهم هدف اجتماعى للإمام عليه السلام بسط العدل وأخذ حق المظلومين، وهذا هو الدواء الشافى المرير على ألسنة أغلب الأفراد الجهّال، وهذا أهم هدف لبعثة الأنبياء والذى صوره القرآن الكريم بالقول: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمْ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ...»[۵۷۶].

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۲۷

الخطبة[۵۷۷] المأة والسابعة والثلاثون

اشارة

وَمِنْ كَلامٍ لهُ عليه السلام

فى شأن طلحة والزبير وفى البيعة له

نظرة إلى الخطبة

المحاور الأصلية للخطبة هى:

۱- نقض طلحة والزبير للبيعة لحجّة اشتراك على عليه السلام فى قتل عثمان، والحال هم كانوا يحرضون الناس للقيام على عثمان.

۲- النصيحة المشوبة بالتهديد لطلحة والزبير ليكفا عن الفتنة، ويلتحقا بصفوف عامّة المسلمين.

۳- الإشارة إلى مسألة البيعة وأنّ الإمام عليه السلام لم يكن طالباً للحكومة، بل هم الذين أصروا عليه بقبول البيعة.

۴- لعن الإمام عليه السلام فى ختام الخطبة طلحة والزبير وهو الأمر الذى جرى عليهما عملياً فساءت عاقبتهما.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۲۹

القسم الأول: الحاقدون الظالمون

«وَاللَّهِ مَا أَنْكَرُوا عَلَيَّ مُنْكَراً، وَلَا جَعَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ نِصْـفاً. وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقّاً هُمْ تَرَكُوهُ، وَدَماً هُمْ سَفَكُوهُ، فَإِنْ كُنْتُ شَرِيكَهُمْ فِيهِ، فَإِنَّ لَهُمْ نَصِيبَهُمْ مِنْهُ، وَإِنْ كَانُوا وَلُوهُ

[وُلُّوهُ]

دُونِي فَمَا الطَّلِبَةُ إِلَّا قِبَلَهُمْ. وَإِنَّ أَوَّلَ عَدْلِهِمْ لَلْحُكْمُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ. إِنَّ مَعِي لَبَصِيرَتِي؛ مَا لَبَسْتُ وَلَا لُبِسَ عَلَيَّ.

وَإِنَّهَا لَلْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ؛ فِيهَا الْحَمأُ وَالْحُمَةُ، وَالشُّبْهَةُ الْمُغْدِفَةُ؛ وَإِنَّ الْأَمْرَ لَوَاضِحٌ؛ وَقَدْ زَاحَ الْبَاطِلُ عَنْ نِصَابِهِ، وَانْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنْ شَغَبِهِ. وَايْمُ اللَّهِ لَأُفْرِطَنَّ لَهُمْ حَوْضاً أَنَا مَاتِحُهُ، لَايَصْدُرُونَ عَنْهُ بِرِيٍّ، وَلَا يَعُبُّونَ بَعْدَهُ فِي حَسْيٍ!».

الشرح والتفسير

لا شبهة ولا شك أنّ طلحة والزبير كانا من بين اولئك الذين أثاروا الناس ضد عثمان ويجمع العدو والصديق على اشتراكهما فى قتل عثمان، كما أعلنت عائشة صراحة اعتراضها على عثمان، إلّا أنّ العجيب ما إن هبت الامة لمبايعة على عليه السلام فتسلم زمام الأمور حتى وقف بوجهه طلحة والزبير وكذلك عائشة، والأعجب من ذلك أنّ حجّتهم لذلك الوقوف هو الطلب بدم عثمان، ولا- زال التاريخ يحفل بالكثير من هذه العجائب والأفراد الذين يحرصون على الدنيا وزخارفها، على كل حال فانّ الإمام عليه السلام أشار فى هذه الخطبة إلى هذا المطلب فقال:

«وَاللَّهِ مَا أَنْكَرُوا عَلَيَّ مُنْكَراً، وَلَا جَعَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ نِصْفاً[۵۷۸]»،

ثم أضاف قائلًا:

«وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ

حَقّاً هُمْ تَرَكُوهُ، وَدَماً هُمْ سَفَكُوهُ».

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۳۰

ثم استدلّ بدليل واضح على ذلك فقال:

«فَإِنْ كُنْتُ شَرِيكَهُمْ فِيهِ، فَإِنَّ لَهُمْ نَصِيبَهُمْ مِنْهُ، وَإِنْ كَانُوا وَلُوهُ

[[وُلُّوهُ]
دُونِی فَمَا الطَّلِبَةُ إِلَّا قِبَلَهُمْ. وَإِنَّ أَوَّلَ عَدْلِهِمْ لَلْحُکْمُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ»
، قطعاً لیس الإمام علیه السلام من ید فی قتل عثمان، وإن اعتبر أغلب الصحابهٔ أنّ عثمان یستحق القتل، إلّا أنّ الإمام علیه السلام لیس فقط لن یشترک فی هذا العمل فحسب، بل بعث بولدیه الحسن والحسین علیهما السلام للدفاع عنه، مع ذلک صرّح تجاه ذرائع طلحهٔ والزبیر وبغیهٔ سلبهم حق المطالبهٔ فقد قال لم یقل أحد بأنّی کنت الوحید فی قتل عثمان على فرض أنّی اشترکت فی قتله، فقد شرکتمونی فیه، وعلیه فأی منطق یستول لکم مطالبهٔ الآخرین بأمر اشترکتم فیه معهم، وإن کنتما لوحدکما من فعل ذلک، فالعقاب یقتصر علیکم، وعلیکم أن تدینوا أنفسکم قبل أی شخص، فالمتعارف بین الساسهٔ الشیاطین أنّهم یسعون لخلق بعض الذرائع التی یستحسنها العوام بغیهٔ التشنیع على منافعهم، فهم یبذلون قصارى جهدهم لإتهام منافسهم بما یشوه سمعتهم لدى الرأی العام، وفی ظلّ هذه الأجواء تغیب معانی المنطق والعدالهٔ والوجدان والشرف، فالهدف إقصاء المنافس الخصم مهما کان الثمن، وهذا بالضبط هو المنهج الذی مارسه طلحهٔ الزبیر وعائشهٔ بعد بیعهٔ الامهٔ لعلی علیه السلام فألبّوا الکثیر من الناس لقتاله علیه السلام حتى احترقوا بنیران تلک المعارک، على کل حال فانّ الإمام علیه السلام سلب من خصومه الحجّهٔ وأفشل خططهم لیعلم الناس أنّهم قتلهٔ عثمان وقد تذرعوا بالمطالبهٔ بدمه وهدفهم ضمان مصالحهم الشخصیهٔ، فهم لا یفکرون فی الناس ولا یهتمون بدم الخلیفهٔ المظلوم.
ثم واصل الإمام علیه السلام کلامه بالإشارهٔ إلى حدیث النبی الأکرم صلى الله علیه و آله بشأن أصحاب الجمل الذین ینقضون البیعهٔ:
«إِنَّ مَعِی لَبَصِیرَتِی ۵۷۹]؛ مَا لَبَسْتُ وَلَا لُبِسَ عَلَیَّ. وَإِنَّهَا لَلْفِئَةُ الْبَاغِیَةُ؛
فِیهَا الْحَمَأُ وَالْحُمَةُ، وَالشُّبْهَةُ الْمُغْدِفَةُ؛ وَإِنَّ الْأَمْرَ لَوَاضِحٌ؛ وَقَدْ زَاحَ الْبَاطِلُ عَنْ نِصَابِهِ، وَانْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنْ شَغَبِهِ ۵۸۰]».
فهذا الکلام إشارهٔ للحدیث المعروف عن النبی الأکرم صلى الله علیه و آله أنّه قال:
«لا تَذهَب اللّیالِی وَالأَیّامُ حتّى تَتنابَحَ کِلابُ ماءٍ بِالعِراقِ یُقَالُ لَها الحَوأَبُ إمرَأَةٌ مِنْ نِسائِی فِی فِئَةٍ بَاغِیةٍ»[۵۸۱].
نفحات الولایهٔ، ج۵، ص: ۳۳۱
فالحدیث یشیر إلى الحادثهٔ المعروفهٔ لأصحاب الجمل حین قدموا من المدینهٔ إلى البصرهٔ، فلمّا بلغوا الحوأب نبحت عائشهٔ کلابها، فتذکرت حدیث النبی صلى الله علیه و آله فقالت: إرجعونی إلى المدینهٔ، لکن الساسهٔ المحترفین جندوا أهل تلک المنطقهٔ لیشهدوا بأنّ تلک المنطقهٔ لیست الحوأب ۵۸۲].
وروى ابن عساکر فی «تاریخ دمشق» ومتقی الهندی فی کنز العمال أنّ رسول اللّه صلى الله علیه و آله قال لعلی علیه السلام:
«یَا عَلَیُّ ستُقاتِلُ الفِئَةِ البَاغِیةِ وَأَنتَ عَلَى الحَقِّ فَمَن لَم یَنصُرکَ یَومَئِذٍ فَلَیسَ مِنِّی»[۵۸۳]
، ومن هنا قال الإمام علیه السلام إنّ معی لبصیرتی ما لبست ولا لبس علیَّ، فالعبارهٔ:
«فِیهَا
الْحَمَأُ وَالْحُمَةُ»
، بالنظر إلى أنّ الحمأ بمعنى المستنقع والمادهٔ الغامقهٔ فی جرف الأحواض والجداول، والحمهٔ بضم ففتح بمعنى الإبرهٔ اللاسعهٔ للعقرب والحیهٔ، فهی کنایهٔ عن الأفراد الأرجاس والخطیرین الذین کانوا من مثیری فتنهٔ الجمل.
وهنا تفسیر آخر لهاتین المفردتین فی أنّ الحمأ بمعنى القرابهٔ الحمیمهٔ والحمهٔ بمعنى الزوج وهی کنایهٔ عن الزبیر بن العوام ابن عمهٔ النبی الأکرم صلى الله علیه و آله، وعائشهٔ إحدى أزواج النبی صلى الله علیه و آله، والعبارهٔ الشبهٔ المغدقهٔ بالنظر إلى أنّ المغدقهٔ من مادهٔ أغداق تعنی فی الأصل التغطیهٔ إشارهٔ إلى الضجهٔ التی أقامها أصحاب الجمل بعنوان المطالبهٔ بدم عثمان والحال أیدیهم ملطخهٔ بدم عثمان، بینما صوروا أنفسهم من حماته، وهذه العبارهٔ لا تنافی العبارهٔ اللاحقهٔ التی قالت بوضوح المطلب، لأنّ المراد هو عدم خفاء الأمر على الأفراد من ذوی العقول والإدراک، لأنّهم کانوا على علم بمؤامرات أصحاب الجمل ودعایاتهم المغرضهٔ الکاذبهٔ.

ثم إختتم الإمام عليه السلام كلامه بتوجيه تهديد شديد استهله بالقسم فقال عليه السلام:

«وَايْمُ اللَّهِ

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۳۳۲

لَأُفْرِطَنَ ۵۸۴] لَهُمْ حَوْضاً أَنَا مَاتِحُهُ ۵۸۵]، لَايَصْدُرُونَ عَنْهُ بِرِيٍ ۵۸۶]، وَلَا يَعُبُّونَ ۵۸۷] بَعْدَهُ فِي حَسْيٍ![۵۸۸]».

كما أوردنا فى الخطبة العاشرة التى تشبه إلى حدّ بعيد هذه الخطبة، مراد الإمام عليه السلام من هذه العبارة أنّى سأجعل من ميدان معركة الجمل مستنقعاً خطيراً مملوءاً بالماء بحيث لا يسعهم الهروب منه وأخمد الفتنة فى مهدها حتى لا يفكروا قط فى العودة إلى مثل ذلك الميدان، وكما ورد فى التواريخ فانّ الإمام عليه السلام حقق عملياً ما قاله، فقد قتل زعماء الجمل وعادت عائشة مخذولة إلى المدينة وافتضح أصحاب الفتنة وتشتتوا فى البلاد.

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۳۳۳

القسم الثانى: إصراركم على البيعة

اشارة

و منه: «فَأَقْبَلْتُم إِلَيَّ إِقْبالَ الْعُوذِ الْمَطَافِيلِ عَلَى أَوْلَادِهَا، تَقُولُونَ: الْبَيْعَةَ الْبَيْعَةَ! قَبَضْتُ كَفِّى فَبَسَطْتُمُوهَا، وَنَازَعَتْكُمْ يَدِى فَجَاذَبْتُمُوهَا. اللَّهُمَّ إِنَّهُمَا قَطَعَانِى وَظَلَمَانِى، وَنَكَثَا بَيْعَتِى، وَأَلَّبَا النَّاسَ عَلَيَّ؛ فَاحْلُلْ مَا عَقَدَا، وَلَا تُحْكِمْ لَهُمَا مَا أَبْرَمَا، وَأَرِهِمَا الْمَسَاءَةَ فِيما أَمَّلَا وَعَمِلَا. وَلَقَدِ اسْتَثَبْتُهُمَا قَبْلَ الْقِتَالِ، وَاسْتَأْنَيْتُ بِهِمَا أَمَامَ الْوِقَاعِ، فَغَمَطَا النِّعْمَةَ، وَرَدَّا الْعَافِيَةَ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة إلى مسألة البيعة فقال:

«فَأَقْبَلْتُمْ إِلَيَّ إِقْبالَ الْعُوذِ[۵۸۹] الْمَطَافِيلِ ۵۹۰] عَلَى أَوْلَادِهَا، تَقُولُونَ: الْبَيْعَةَ الْبَيْعَةَ! قَبَضْتُ كَفِّى فَبَسَطْتُمُوهَا، وَنَازَعَتْكُمْ يَدِى فَجَاذَبْتُمُوهَا».

فقد أشار الإمام عليه السلام فى الواقع إلى هذه الحقيقة وهى أنّ عليكم أن تقارنوا بى الزاعمين الطالبة بدم عثمان ليجعلوا ذلك ذريعة للوصول إلى الخلافة والحكومة وهم طلحة والزبير، فهما لا- يتورعان عن أية حيلة وخدعة من أجل تحقيق أهدافهما، أمّا أنا فقد أريتكم منذ البداية أنّى لا أطلب المقام، وأنتم الذين أصررتم عليّ البيعة، ولأن قبلت بيعتكم فإنما ذلك بسبب القيام بالمسؤولية التى تتمثل باجراء الحق وبسط العدل والقسط وإحياء الإسلام فعبارات الإمام عليه السلام

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۳۳۴

تكشف مدى شوق الناس للبيعة، وفى ذات الوقت مدى زهد الإمام عليه السلام بها.

ثم إتّجه إلى الحق تبارك وتعالى فشكى إلى اللّه الظلمة الذين نقضوا العهد وجعلوا من إراقة دماء الأبرياء وسيلة لتحقيق أطماعهم وأغراضهم، ثم أخذ بالدعاء عليهم ولعنهم:

«اللَّهُمَّ إِنَّهُمَا قَطَعَانِى وَظَلَمَانِى، وَنَكَثَا بَيْعَتِى، وَأَلَّبَا[۵۹۱] النَّاسَ عَلَيَّ».

ثم قال:

«فَاحْلُلْ مَا عَقَدَا، وَلَا تُحْكِمْ لَهُمَا مَا أَبْرَمَا، وَأَرِهِمَا الْمَسَاءَةَ فِيما أَمَّلَا وَعَمِلَا»،

والتفت إلى الناس قائلًا:

«وَلَقَدِ اسْتَثَبْتُهُمَا[۵۹۲] قَبْلَ الْقِتَالِ، وَاسْتَأْنَيْتُ ۵۹۳] بِهِمَا أَمَامَ الْوِقَاعِ ۵۹۴]،

فَغَمَطَا[۵۹۵] النِّعْمَةَ، وَرَدَّا الْعَافِيَةَ»

، لعل العبارة الأخيرة مواصلة شكوى الإمام عليه السلام للّهسبحانه، ويمكن أن تكون خطاباً للناس،، يبدو المعنى الثانى أنسب، على كل حال فانّ هذه العبارات تبيّن مدى سعى الإمام عليه السلام لاجتناب الحرب وسفك الدماء وقد بذل قصارى جهده لوعظ أصحاب الجمل ومثيرى الفتن علّهم يعودون إلى رشدهم وتثار حميتهم الدينية، فيعودا عن سبيل الغى، إلّاأنّ حبّ الخلافة والجاه والمقام قد أعمى أبصارهم وأصم أسماعهم بحيث لم يعد لنصائح الإمام عليه السلام ومواعظه من تأثير عليهم، بالتالى حلّت عليهم لعنة الإمام عليه السلام ففشلوا فى تحقيق أهدافهم، فانهزموا شرّ هزيمة وقتلوا بذلة وهوان.

القاتل يطالب بالثأر

لا شك أنّ طلحة والزبير كانا ممن أثارا الناس ضد عثمان، فقد أورد ابن قتيبة فى كتابه «السياسة والإمامة» أنّ أهل الكوفة ومصر حين قاما ضد عثمان وحاصروه فى داره كان

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۳۵

طلحة ممن أثار الفريقين ضد عثمان ويقول: أنّ عثمان لا يهتم لمحاصرتكم طالما يحمل إليه الماء والغذاء فاقطعوا عنه الماء[۵۹۶]، كما ورد عن ابن أبى الحديد بشأن الزبير أنّه كان يقول: اقتلوا عثمان فقد أحدث فى دنيكم، فقالوا له: ابنك على باب دار عثمان يدافع عنه، قال: إن قتل عثمان فليقتل ابنى قبله ۵۹۷]، فقد كان تصور طلحة العكس حين قتل عثمان وبايع الناس علياً عليه السلام فتغيّرت الأوضاع تماماً، ولم تكن الامة مستعدة لبيعتهما على حدّ قول الكاتب المصرى المعروف العقاد، حيث لم يكن أمرهما يختلف عن عثمان ۵۹۸]، وكانت عائشة من الناقمين على عثمان ۵۹۹]، إلّاأنّ هؤلاء الأفراد الثلاث انقلبوا على عقبهم بعد بيعة الامة لأمير المؤمنين على عليه السلام فاصبحوا من أنصار عثمان وهبوا للمطالبة بدمه، وكثيرة هى هذه الانقلابات التى تسود حركة الساسة المحترفين، وبالتالى ذاق الثلاث العاقبة المريرة لإثارتهم الفتن، فقد هزم طلحة والزبير وقتلا فى المعركة، وعادت عائشة تجر أذيال الخيبة إلى المدينة، وقد تناولنا بالتفصيل موقعة الجمل وطيش عائشة ودور طلحة والزبير فى المجلدات السابقة من هذا الشرح ۶۰۰].

ولكن ما ينبغى إضافته هنا أنّ اتباعهم ممن حاول توجيه أعمالهم قد خسروا أنفسهم فى زواية حرجة، فمن جانب اعتبروا طلحة والزبير من الصحابة، كما يجرون عليهم نظرية عدالة الصحابة (طهارة وقدسية جميع صحابة النبى صلى الله عليه و آله)، ومن جانب آخر يعتبرونهما من ضمن العشرة المبشرة، تارة يزعمون أنهّم كانوا مجتهدين وإن أخطاؤا فى اجتهادهم، وعليه فهم معذورون ومأجورون، والحال لو وجهنا أعمالهم تحت هذا الغطاء لأمكن تبرير كل جريمة ومن كل فرد، ذلك لأنّ الاجتهاد لا يقتصر على هؤلاء الأفراد، وهذا بدوره يؤدّى إلى تجاوز البديهيات العقلية والنصوص القرآنية، وتارة أخرى يزعمون أنّهم تابوا، وتوبتهم مقبولة عند اللّه، ولكن هل يمكن اشعال فتيل حرب تؤدّى بسبعة عشر آلف شخص ثم تنسلخ مسؤولية هذه الدماء بمجرّد لقلقة اللسان بالقول استغفر اللّه؟! فهل أدّوا حق تلك الدماء لأصحابها؟ أم

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۳۶

هل عوضوا تلك الأموال التى ذهبت هدراً بهذا الخصوص؟ وهل اعترف طلحة والزبير وعائشة بخطأهم أمام الملأ العام؟

إنّ مثل هذا الدفاع العابث هو نتيجة للأغماض عن الحقائق والتعصب الأعمى، أو ليس من الأجدر بنا تقسيم صحابة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله إلى طائفتين، طائفة كانت صالحة على عهده وأخرى منافقة وطالحة، كما تقسم الطائقة الصالحة إلى فئتين، فئة واصلت صلاحها، وأخرى انقلبت على عقبها فجانبت الحق والعدل والإيمان والسلاح، كما علينا أن نعلم بأنّ المراد من بشارة القرآن الكريم النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بنجاة شخص أو أشخاص فى ذلك الزمان هو شمولها بهذا الحكم، على أنّهم ربّما غيروا مسيرتهم، فممكن أن يقوم الإنسان بعمل بحيث تجب له الجنّة، ثم يفعل بعد ذلك ما يوجب دخوله النار.

نفحات الولايهٔ، ج۵، ص: ۳۳۷

الخطبهٔ[۶۰۱] المأهٔ والرابعهٔ والثلاثون

اشارهٔ

وَمِنْ خُطبَةٍ لَهُ عليه السلام

يومئ فيها إلى ذكر الملاحم

نظرهٔ إلى الخطبهٔ

تتألف هذه الخطبهٔ فى الواقع من ثلاثهٔ أقسام مرتبطهٔ مع بعضها:

القسم الأول: إشارهٔ إلى ولى من أولياء اللّه سبحانه ينطلق فى عمله على أساس هدايهٔ القرآن، ويرى أغلب شرّاح نهج البلاغهٔ أنّ ذلك الولى واستناداً إلى صفاته هو الإمام المهدى «عجلّ اللّه تعالى فرجه الشريف».

والقسم الثانى: إشارهٔ إلى الأحداث الداميهٔ التى يفرزها قيام ذلك الولى من أجل بسط العدل فى ظلّ الحكومهٔ الإلهيّهٔ حيث يملأ الأرض بالقسط والعدل.

القسم الثالث: إشارهٔ إلى الحوادث داميهٔ أخرى تظهر من الشام، ولعل ذلك إشارهٔ إلى حكومهٔ البعض من بنى مروان، أو ظهور بعض الأفراد كالسفيانى الذى يسبق ظهور الإمام المهدى عليه السلام.

نفحات الولايهٔ، ج۵، ص: ۳۳۹

القسم الأول: خصائص الإمام المهدى عليه السلام

«يَعْطِفُ الْهَوَى عَلَى الْهُدَى، إِذَا عَطَفُوا الْهُدَى عَلَى الْهَوَى، وَيَعْطِفُ الرَّأْيَ عَلَى الْقُرْآنِ إِذَا عَطَفُوا الْقُرْآنَ عَلَى الرَّأْيِ».

الشرح والتفسير

كما ورد سابقاً فانّ هذه الخطبهٔ تشير إلى الحوادث المستقبلهٔ حيث تطرقت إلى ثلاث حوادث، الاولى عدّها أغلب شرّاح نهج البلاغهٔ فى الإمام المهدى عليه السلام، لأنّه قال يجعل رغبات النفس وهواجس القلب تابعهٔ للهدى حين يسود العكس باتباع الهدى للهوى، ويجعل الرأى والفكر منقاداً للقرآن فى الوقت الذى يجعلون القرآن فيه تابعاً للرأى:

«يَعْطِفُ ۶۰۲] الْهَوَى عَلَى

الْهُدَى، إِذَا عَطَفُوا الْهُدَى عَلَى الْهَوَى، وَيَعْطِفُ الرَّأْيَ عَلَى الْقُرْآنِ إِذَا عَطَفُوا الْقُرْآنَ عَلَى الرَّأْيِ».

والسؤال هل للعبارتان مفهوم واحد ويؤكد كل منهما الآخر؟ أم أنّ العبارهٔ الاولى إشارهٔ إلى الهدايهٔ العقليهٔ والعبارهٔ الثانيهٔ إلى الهدايهٔ القرآنيهٔ؟ يبدو المعنى الثانى أنسب، يعنى فى ذلك اليوم الذى يغيب فيه الناس منطق العقل والهدايهٔ بسبب عبادهٔ الهوى فانّه يزيل حجب الهوى، ويجعل السيادهٔ لهدايهٔ العقل، كما يجعل القرآن هو ميزان التقييم بعد أن يقصى التفسير بالرأى حين يحاول ذوى الاطماع تطبيق النصوص القرآنيهٔ على ضوء تفسيرهم إيّاه حسب أرائهم

نفحات الولايهٔ، ج۵، ص: ۳۴۰

من أجل تحقيق أطماعهم للامشروعهٔ، ولو تأملنا أسباب البؤس والشقاء لرأيناها تتمثل بهذين الدائين، تحكيم هو النفس على العقل وتطبيق الرغبات الخفيهٔ على آيات القرآن من التفسير بالرأى، وإن زال هذان السيلان تمهد السبيل من أجل بلوغ حكومهٔ العدل

الإلهى، ولعل جميع القضايا التى أصابت المسلمين منذ البداية لحدّ الآن إنما تعود إلى هذين الانحرافين كما يعود سبيل الصلاح إلى إصلاحهما.

ذكر العلماء فى بحث المعرفة أنّ الهوى من بين حجب المعرفة، حيث قال القرآن الكريم:

«أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً ...»[۶۰۳].

وما أورع ما قال أمير المؤمنين على عليه السلام فى الخطبة ۱۰۹:

«وَمَنْ عَشِقَ شَيْئاً أَعْشَى بَصَرَهُ»

، والتفسير بالرأى وحمل الآيات القرآنية عليه إحدى مكائد الشيطان الكبرى فى تحريف العبارات عن معناها الواقعى وإسقاط الوحى عن قيمته، ومن هنا فقد عدت الأحاديث الإسلامية هذا العمل بمنزلة الكفر حيث قال الإمام الصادق عليه السلام:

«مَنْ فَسَّرَ بِرَأْيِهِ آيَةً مِنْ كِتَابَ اللَّهِ فَقَد كَفَرَ»[۶۰۴]

، ولمّا كان الوقوف بوجه هذين الانحرافين من خصائص الإمام المهدى (أرواحنا فداه) فانّ الضمير فى هذه العبارات يعود كما يعتقد شرّاح نهج البلاغة إلى الإمام المهدى عليه السلام.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۴۱

القسم الثانى: جانب من الحوادث المرعبة آخر الزمان

و منهَا: «حَتَّى تَقُومَ الْحَرْبُ بِكُمْ عَلَى سَاقٍ، بَادِياً نَوَاجِذُهَا، مَمْلُوءَةً أَخْلَافُهَا، حُلْواً رَضَاعُهَا، عَلْقَماً عَاقِبَتُهَا. أَلَا وَفِى غَدٍ- وَسَيَأْتِى غَدٌ بِمَا لَا تَعْرِفُونَ- يَأْخُذُ الْوَالِى مِنْ غَيْرِهَا عُمَّالَهَا عَلَى مَسَاوِى أَعْمَالِهَا، وَتُخْرِجُ لَهُ الْأَرْضُ أَفَالِيذَ كَبِدِهَا، وَتُلْقِى إِلَيْهِ سِلْماً مَقَالِيدَهَا، فَيُرِيكُمْ كَيْفَ عَدْلُ السِّيرَةِ، وَيُحْيِى مَيِّتَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ».

الشرح والتفسير

يمثل هذا القسم من الخطبة فى الواقع استمراراً للقسم السابق وهو إشارة إلى حوادث آخر الزمان يتعرض بادىء الأمر فيها إلى المعارك الدموية المدمرة التى تثقل كاهل المجتمعات البشرية ويعمّ الظلم والجور كافة الأماكن، ثم يظهر رمز العدل الإلهى فينهى النزاعات والاقتتال ويملأ الأرض قسطاً وعدلًا، ويوفر كافة مستلزمات الراحة والرفاه، فقال عليه السلام بأنّ هذا الوضع سيتواصل:

«حَتَّى تَقُومَ الْحَرْبُ بِكُمْ عَلَى سَاقٍ، بَادِياً نَوَاجِذُهَا[۶۰۵]»،

ثم أشار إلى الانتصارات التى تتحقق فى بداية الحرب والمرارة التى تختتم بها فقال:

«مَمْلُوءَةً أَخْلَافُهَا[۶۰۶]،

حُلْواً رَضَاعُهَا، عَلْقَماً[۶۰۷] عَاقِبَتُهَا»،

وكأنّ الحرب تنطوى على لبن حلو وفى نفس الوقت مسموم

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۴۲

بحيث يجذب الأفراد المهوسين ليأملوا بتحقيق نصر خاطف سريع، بينما يصرعون ويهلكون فى نهاية الأمر، ثم أشار الإمام إلى ظهور حكومة العدل الإلهى:

«أَلَا وَفِى غَدٍ- وَسَيَأْتِى غَدٌ بِمَا لَا تَعْرِفُونَ- يَأْخُذُ الْوَالِى مِنْ غَيْرِهَا عُمَّالَهَا عَلَى مَسَاوِى أَعْمَالِهَا».

ثم تطرق إلى ذكر الأوضاع المطلوبة المفعمة بالخير والبركة والتى تحصل بعد قيامه فقال:

«وَتُخْرِجُ لَهُ الْأَرْضُ أَفَالِيذَ[۶۰۸] كَبِدِهَا، وَتُلْقِى إِلَيْهِ سِلْماً مَقَالِيدَهَا، فَيُرِيكُمْ كَيْفَ عَدْلُ السِّيرَةِ،

وَيُحْيِى مَيِّتَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ»،

فمن جانب: يتم اكتشاف المعادن النفيسة باطن الأرض بسهولة.

ومن جانب ثان: بيده مقاليد تلك الكنوز أو مقاليد حكومة أرجاء الأرض.

ومن جانب ثالث: يبسط العدل والقسط بالاستناد إلى التمتع بتلك المصادر الغنية وهذه الحكومة الشاملة.

ومن جانب رابع: يحيى التعاليم المندرسة والقيم المغيبة للقرآن والكريم والسنّة الشريفة، وهكذا تسير البشرية باتجاه التكامل على المستوى المادى والمعنوى، فالعقول تتم فى ظلّ حكومة الإمام المهدى عليه السلام، وتحيى القيم الإنسانية وتفيض النعم بأنواعها على الناس ويطاح بصنم الظلم والجور.

وقد وردت مثل هذه العبارات فى الروايات المتعلقة بقيام الإمام المهدى عليه السلام فقد روى عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: « وتَظهرُ لَهُ الكُنوزُ ويَبلُغُ سُلطَانُهُ المَشرِقَ والمَغرِبَ، ويُظْهِرَهُ دِينَهُ عَلىَ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكوُنَ فَلا يَفقَى عَلَى وَجهُ الأَرضِ خَرابٌ إلّا عُمِّرَ»[۶۰۹].

وقا فى موضع آخر:

«يَملأُ اللَّهُ بِهِ الأَرضَ عَدلًا وَقِسطَاً كَمَا مُلِئَتْ ظُلمَاً وَجَوراً، فَيَفتَحُ اللَّهُ لَهُ شَرقَ الارضِ وَغَربِها»[۶۱۰].

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۴۳

القسم الثالث: خصائص ذلك الحاكم الدموى

منهَا: «كَأَنِّى بِهِ قَدْ نَعَقَ بِالشَّامِ، وَفَحَصَ بِرَايَاتِهِ فِى ضَوَاحِى كُوفَانَ، فَعَطَفَ عَلَيْهَا عَطْفَ الضَّرُوسِ، وَفَرَشَ الْأَرْضَ بِالرُّؤُوسِ. قَدْ فَغَرَتْ فَاغِرَتُهُ، وَثَقُلَتْ فِى الْأَرْضِ وَطْأَتُهُ، بَعِيدَ الْجَوْلَةِ، عَظِيمَ الصَّوْلَةِ. وَاللَّهِ لَيُشَرِّدَنَّكُمْ فِى أَطْرَافِ الْأَرْضِ حَتَّى لَايَبْقَى مِنْكُمْ إِلَّا قَلِيلٌ، كَالْكُحْلِ فِى الْعَيْنِ، فَلَا تَزَالُونَ كَذلِکَ، حَتَّى تَؤُوبَ إِلَى الْعَرَبِ عَوَازِبُ أَحْلَامِهَا! فَالْزَمُوا السُّنَنَ الْقَائِمَةَ، وَالْآثَارَ الْبَيِّنَةَ، وَالْعَهْدَ الْقَرِيبَ الَّذِى عَلَيْهِ بَاقِى النُّبُوَّةِ.

وَاعْلَمُوا أَنَّ الشَّيْطَانَ إِنَّمَا يُسَنِّى لَكُمْ طُرُقَهُ لِتَتَّبِعُوا عَقِبَهُ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام فى هذا القسم من الخطبة إلى حاكم دموى وغاشم ومقتدر يظهر مستقبلًا بالشام فيشهر سيفه ويستولى على جميع البلاد الإسلامية، ثم ذكر له تسع صفات، فقال:

«كَأَنِّى بِهِ قَدْ نَعَقَ ۶۱۱] بِالشَّامِ، وَفَحَصَ ۶۱۲] بِرَايَاتِهِ فِى ضَوَاحِى ۶۱۳] كُوفَانَ ۶۱۴]».

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۴۴

ثم قال:

«فَعَطَفَ عَلَيْهَا عَطْفَ الضَّرُوسِ ۶۱۵]، وَفَرَشَ الْأَرْضَ بِالرُّؤُوسِ. قَدْ فَغَرَتْ ۶۱۶]

فَاغِرَتُهُ، وَثَقُلَتْ فِى الْأَرْضِ وَطْأَتُهُ، بَعِيدَ الْجَوْلَةِ[۶۱۷]، عَظِيمَ الصَّوْلَةِ[۶۱۸]».

ثم أقسم قائلًا:

«وَاللَّهِ لَيُشَرِّدَنَّكُمْ ۶۱۹] فِى أَطْرَافِ الْأَرْضِ حَتَّى لَايَبْقَى مِنْكُمْ إِلَّا قَلِيلٌ، كَالْكُحْلِ فِى الْعَيْنِ».

فهذه الصفات التسع لذلك الحاكم الدموى المقتدر والتى تكشف عن شخصه بصورة تامة تشير إلى أنّه يدك أهل الإيمان دكاً بحيث لا يبقى منهم إلّاالقليل، فهو يكتم الأنفاس فى الصدور ويخنق كل حركة ونشاط، ويستولى على البلاد بعد سفكه للدماء وانطلاقه من الشام إلى الكوفة ثم سائر المناطق، أمّا من هو هذا الشخص الذى يتصف بهذه الصفات؟ هناك رأيان لشرّاح نهج البلاغة، رأى يراه عبدالملك بن مروان خامس خلفاء بنى أمية، كان جباراً طاغياً ودموياً، فقد تحرك بجيش عظيم من الشام ليقضى على مصعب بن

الزبير الذى كان يحكم الكوفة، فاستولى على العراق والكوفة، ثم وجه جشياً بقيادة الحجاج إلى الحجاز فقتل عبد اللّه بن الزبير فسيطر على مكة والمدينة، كما هدم جانباً من الكعبة بعد أن لاذ بها جمع من جيش عبداللّه بن الزبير.

والرأى الآخر أنّ ذلك الشخص هو السفيانى الذى يسبق ظهور الإمام المهدى عليه السلام حيث يظهر فى الشام ويسفك الدماء ويدعو النـاس إلى نفسه، وبالنظر إلى أنّ الأقسام السابقـة من الخطبـة بشأن ظهور الإمام المهـدى عليه السـلام لـذلك يبـدو أنّ هـذا القسم فى الظهور أيضاً، والعبارات المذكورة إشارة إلى ظهور السفيانى.

وقـد ورد فى الخبر عن حذيفـة بن اليمـان أنّ رسول اللّه صـلى الله عليه و آله أشار إلى فتنـة بين أهل الشـرق والغرب فيخرج السـفيانى حتى يرد دمشق فيبعث بجيش إلى الشرق وآخر إلى المدينة حتى

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۴۵

يصل بابل وبغـداد، فيقتل أكثر من ثلاثـة الاف وينتهك عرض أكثر من مئة إمرأة، ثم يتّجهون إلى الكوفة فيخربون أطرافها، ثم يعودن إلى الشام، فتظهر راية هدى فى الكوفة وينطلق جيشها إلى جيش السفيانى فيقتله ولا ينجو منه إلّاواحد يخبر عن الحادثة (وهكذا تخمد الفتنة).

قال المرحوم العلّامـة المجلسـى نقل أصـحابنا هـذا الحـديث عن الإمام الباقر عليه السـلام والإمام الصادق عليه السـلام ضـمن أحاديث المهدى عليه السلام ۶۲۰].

ولكن القسم الأخير من هذه الخطبة لا ينسـجم مع هذا التفسـير، ثم قال الإمام عليه السلام: بأنّ هذا الوضع من الاضطراب وسفك الماء والابعاد والتشتت يستمر حتى يعود إلى العرب رشدها وعقلها فتتخلص بهذا العقل من فرقتها واختلافها وتتحد كلمتها:

«فَلَا تَزَالُونَ كَذلِكَ، حَتَّى تَؤُوبَ ۶۲۱] إِلَى الْعَرَبِ عَوَازِبُ ۶۲۲] أَحْلَامِهَا![۶۲۳]».

ثم أمر الناس بأربع من شأنها نصرهم على حكّام الظلم والجور، وإعادة الأمن والسلام إليهم فقال عليه السلام:

«فَالْزَمُوا السُّنَنَ الْقَائِمَـةَ، وَالْآثَارَ الْبَيِّنَـةَ، وَالْعَهْـدَ الْقَرِيبَ الَّذِى عَلَيْهِ بَاقِى النُّبُوَّةِ. وَاعْلَمُوا أَنَّ الشَّيْطَانَ إِنَّمَا يُسَنِّى ۶۲۴] لَكُمْ طُرُقَهُ لِتَتَّبِعُوا عَقِبَهُ».

والمراد بالسـنن القائمة ضـروريات الإسـلام وتعاليمه التى ينبغى أن تكون محور الأنشـطة السياسية والاجتماعية والفردية فى كل زمان، والمراد بالآثار البيّنة هى الأخبار والروايات التى ثبتت من الطرق المعتبرة والتى تختزن أغلب التعاليم والوصايا الإسلامية، والمراد بالعهد القريب وصـيّة النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله بولايـة على عليه السـلام، والمراد بالعبارة «واعلموا ...» مراقبة الشـيطان والحذر منه فى الإتيان بالأمور المذكورة، وذلك لأنّ الشـيطان يسـهل طرقه ليصد الناس عن طاعة اللّه والأئمة المعصومين عليه السـلام والذى لا يخلو عادة من المصاعب، أمّا الأفراد الذين اعتبروا

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۴۶

القسم الأخير من الخطبة بشأن حكومة عبدالملك بن مروان فيرد عليهم إشكالات:

الأول: مفهوم العبـارة هو أنّ اسـقاط حكومـة بنى أميـة ومجيىء حكومـة بنى العباس قـد تمّ فى ظلّ عقل العرب ودرايتها والعودة إلى الطريق الصحيح، والحال نعلم أنّ بنى العباس قد واصلوا جنايات بنى أمية ولم تكن حكومتهم أقلّ استبداداً من حكومة بنى أمية، إلّاأن يقال بعقلائية سقوط بنى أمية وشروع حركة بنى العباس وإن انحرفوا فى مواصلة الطريق.

الثانى: لم يكن ظهور بنى العباس مباشرة بعد موت عبدالملك، بل استغرق عشرات السنين حيث حكم ولد عبدالملك ثم أعقب ذلك سقوط بنى أميـة، إلّاأن يقال فى جواب هـذا الإشـكال أنّ حكومـة ولد عبدالملك كان امتداداً لحكومته، ولكن من اعتبر القسم الأخير من الخطبـة إشارة إلى خروج السـفيانى قبل قيام الإمام المهـدى عليه السـلام قـد فسّر العبارات المـذكورة على أنّها بعد سـفك الدماء الطائش فى آخر الزمان والفساد الـذى يحصل الناس مع خروج السـفيانى، حيث يطرح حجب الغفلة وتتم العقول وتسـتعد الناس لقبول

حكومة المهدى عليه السلام لابدّ فى تلك الشرائط ومن أجل مزيداً من الاستعداد من حفظ السنن الإسلامية والولاء للولاية، وقد مرّ علينا فى الخطبة ۱۰۱ العبارات المشابهة لما ورد فى هذه الخطبة، وقد وردت الابحاث بشأن تطبيقها على حكومة عبدالملك.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۴۷

الخطبة[۶۲۵] المأة والتاسعة والثلاثون

اشارة

وَمِنْ كَلام لَهُ عليه السلام

فى وقت الشُّورَى

نظرة إلى الخطبة

نعلم أنّ عمر حين أشرف على الموت عهد بتشكيل الشورى المؤلفة من ستة أفراد لتعيين الخليفة، كان أحدهم علياً عليه السلام وعثمان، وكان إختيار الأفراد قد جرى وفق تخطيط وسياسة، وكان الهدف واضحاً منذ البداية فى إقصاء على عليه السلام وتسلم عثمان لزمام الأمور بصفته الخليفة السابق، بل بصفته منتخب شورى كبار المسلمين وقد مضى شرح ذلك فى الخطبة الشقشقية[۶۲۶].

أمّا الإمام على عليه السلام الذى كان ينظر لما هو أبعد من الشورى فقد خطب هذه الخطبة ليحذر أصحاب الشورى، وقد ذكر المرحوم السيد الرضى جانب منها.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۴۹

«لَنْ يُسْرِعَ أَحَدٌ قَبْلِى إِلَى دَعْوَةِ حَقٍّ، وَصِلَةِ رَحِم، وَعَائِدَةِ كَرَم. فَاسْمَعُوا قَوْلِى، وَعُوا مَنْطِقِى؛ عَسَى أَنْ تَرَوْا هذَا الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِ هذَا الْيَوْمِ تُنْتَضَى فِيهِ السُّيُوفُ، وَتُخَانُ فِيهِ الْعُهُودُ، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُكُمْ أَئِمَّةً لِأَهْلِ الضَّلَالَةِ، وَشِيعَةً لِأَهْلِ الْجَهَالَةِ».

الشرح والتفسير

تحذير من الحوادث المستقبلية

يتألف هذا الكلام فى الواقع من ثلاثة أقسام:

الأول: أشار فيه الإمام عليه السلام إلى جانب من فضائله، ولم يكن ذلك بدافع الفخر ومدح النفس، بل ليمهد السبيل أمام الآخرين للقبول.

الثانى: طلب فيه من مخاطبيه سماع ما يقول وقبول نصائحه التى تستبع خيرهم ومصالحهم وسعادتهم.

والقسم الثالث: تطرق فيه إلى الحوادث الأليمة التى يشهدها المجتمع الإسلامى فى حالة عدم قبول مواعظه وإشراته.

فقد قال فى القسم الأول: «لَنْ يُسْرِعَ أَحَدٌ قَبْلِى إِلَى دَعْوَةِ حَقٍّ، وَصِلَةِ رَحِم، وَعَائِدَةِ كَرَم».

فقد أشار فى هذه الفضائل الكبرى الثلاث إلى قبول الإسلام فقال إنّ علياً عليه السلام هو أول من أسلم ومن الطبيعى أنّ مثل هذا الفرد يكون أكثر وعياً به من غيره وأحرص، والآخرى إلى سبقه فى صلة الرحم، لأنّه وقف إلى جانب رسول اللّه صلى الله عليه و آله منذ إنبثاق الدعوة الإسلامية حتى وفاة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، وقد فدى رسول اللّه صلى الله عليه و آله بنفسه فى المواطن الصعبة من قبيل مبيته على فراش النبى صلى الله عليه و آله واقعة أحد وأمثال ذلك، كما كان الأبرز فى البر والخير والإحسان حتى نزلت

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۵۰

آیات من القرآن الکریم بشأن تصدّقه بالخاتم حین الرکوع فی الصلاة[۶۲۷]، وتصدقه بالطعام علی المسکین والیتیم والأسیر[۶۲۸]، وتصدقه بدرهم فی السر وآخر فی العلانیة، ودرهم فی اللیل وآخر فی النهار[۶۲۹].

ثم قال بالاستناد إلی إذعان الجمیع بالفضل فیما ذکر:

«فَاسْمَعُوا قَوْلِی، وَعُوا مَنْطِقِی»

، لا تتعجلوا الأمور بانتخاب عثمان، فهذا عمل خطیر له عواقب وخیمة علی المسلمین، وتطرق علیه السلام إلی المصیر الصعب الذی سیفرزه هذا الانتخاب فقال:

«عَسَی أَنْ تَرَوْا هذَا الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِ هذَا الْیَوْمِ تُنْتَضَی ۶۳۰] فِیهِ السُّیُوفُ، وَتُخَانُ فِیهِ الْعُهُودُ، حَتَّی یَکُونَ بَعْضُکُمْ أَئِمَّةً لِأَهْلِ الضَّلَالَةِ، وَشِیعَةً لِأَهْلِ الْجَهَالَةِ».

هناک خلاف بین شرّاح نهج البلاغة فی أنّ هذا الإخبار إشارة لحادثة قتل عثمان وشهر السیوف ونقض البیعة من قبل بعض الأفراد کطلحة والزبیر وأمثالهما أم إشارة إلی تمرد الناکثین والقاسطین والمارقین (أصحاب الجمل وصفین والنهروان)، ولکن بالنظر إلی الظروف التی وردت فیها هذه الخطبة (حین تشکیل الشوری لانتخاب الخلیفة الثالث)، یبدو المعنی الأول أقوی، وکما تکهن الإمام علیه السلام فبمجرّد تسلم عثمان زمام الأمور حتی بدأ التبذیر والبذخ فی بیت مال المسلمین وحصل أقرباؤه وبطانته علی المراکز الحساسة فی البلد الإسلامی فتهافتوا علی بیت المال لیفعلوا فیه ما شاؤوا، وهو الأمر الذی أثار غضب المسلمین فثاروا علیه وکان فی مقدمة من ثار علیه طلحة والزبیر، وقد تبعهم طائفة من الناس فحصل ما لم ینبغی أن یحصل، والحال لو لم تسود الشوری تلک العصبیات والملاحظات الشخصیة وفوضت الخلافة لأهلها، لما وقعت تلک الحوادث المریرة ولا ما تبعها من نتائج، وذلک لأنّ جذور فتنة الناکثین والقاسطین والمارقین إنّما ترعرعت فی ظلّ حوادث عصر عثمان.

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۳۵۱

جذور الفساد

ذکرنا فی المجلد الأول من هذا الکتاب فی شرحنا لخطبة الثالثة المعروفة بالخطبة الشقشقیة قصة الشوری المؤلفة من ستة أفراد والتی شکّلها عمر وأدّت إلی انتخاب عثمان کخلیفة والتی تمثل فی الواقع مؤامرة ضد خلافة علی علیه السلام، وقد أوردنا جانباً من الأقوال بهذا الشأن استناداً إلی التواریخ المعتبرة والذی نود إضافته هنا إلی ما ذکرناه هو أننا لو أنعمنا النظر فی ترکیب هذه الشوری وحوادثها السلبیة وسنری أنّ أغلب مشاکل المسلمین قد أفرزتها تلک الشوری، ومن ذلک أیضاً حکومة عثمان واستیلاء بنی أمیة وبنی مروان علی المناصب الحساسة للبلاد الإسلامیة وبیت المال المسلمین وحکومة معاویة ومعارک الجمل وصفین والنهروان ومن ثم حکومة یزید وأمثال عبدالملک.

والجدیر بالذکر هنا ما أورده شارح نهج البلاغة ابن أبی الحدید حیث قال بخصوص الشوری:

«إنّ ذلک کان سبب کل فتنة وقعت وتقع إلی تنقضی الدنیا»[۶۳۱].

فهذه الشوری هی التی أدّت بالتالی إلی تغییب القیم الإسلامیة وأحیت السنن الجاهلیة والمعاییر المادیة والدنیویة وشادت المجتمع الإسلامی وقطعت ألسن دعاة الحق ونفت وشردت أبی ذر وأثارات النقمة ضد عمّار بن یاسر حین اعترض علی نتیجة الشوری فلم یکترث أحد لما کان یقول: فقد استوی اوالئک العتاة علی عرش الغرور والحمیة فعاثوا الفساد فی أوساط المجتمعات الإسلامیة، الفساد فی الحکومة والفساد فی الإیمان والأخلاق، ولو سمحت النعرات الطائفیة بالتعامل الدقیق مع هذه الأحداث لاتضحت فداحة الخسارة التی منی بها المسلمون من جراء الشوری.

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۳۵۳

الخطبة[۶۳۲] المأة والأربعون

اشارة

ومِنْ كَلامٍ لهُ عليه السلام

فی النهی عن غیبة الناس

نظرة إلی الخطبة

نهی الإمام علیه السلام الناس فی هذه الخطبة عن اغتیاب بعضهم البعض الآخر وقد عزز ذلک بعدّة أدلة، فقد ذکر بادیء الأمر وجوب الشکر علی من تطهر من العیوب والذنوب، ویتمثل شکرها بتجنب الغیبة واقتفاء عیوب الآخرین، الأمر الآخر لو تأمل صاحب الغیبة نفسه لإکتشف فیها العیوب التی یحاول العثور علیها فی الآخرین، فکیف والحال کذلک یسعی لذم الآخرین علی عیوبهم وهم یحملونها، وأخیراً لعل الإنسان یقارف الصغیرة وهو یظن بأنّه لم یرتکب الکبیرة من الذنوب فیخوض فی غیبة الآخرین، وتقصی معایبهم وهذا بحدّ ذاته من الکبائر، أضف إلی ذلک فما یدری من یغتاب الآخرین أنّ اللَّه قد غفر لهم بینما لم یغفر لمن فتش عن عیوب الآخرین، وزبدة الکلام فانّ اللَّه قد أغلق الطریق علی أصحاب الغیبة والباحثین عن عیوب الناس لیطهر المجتمع الإسلامی من هذه الفاحشة.

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۳۵۵

القسم الأول: التغابی عن عیوب الذات

«وَإِنَّمَا یَنْبَغِی لِأَهْلِ الْعِصْمَةِ وَالْمَصْنُوعِ إِلَیْهِمْ فِی السَّلَامَةِ أَنْ یَرْحَمُوا أَهْلَ الذُّنُوبِ وَالْمَعْصِیَةِ، وَیَکُونَ الشُّکْرُ هُوَ الْغَالِبَ عَلَیْهِمْ، وَالْحَاجِزَ لَهُمْ عَنْهُمْ، فَکَیْفَ بِالْعَائِبِ الَّذِی عَابَ أَخَاهُ، وَعَیَّرَهُ بِبَلْوَاهُ. أَمَا ذَکَرَ مَوْضِعَ سَتْرِ اللَّهِ عَلَیْهِ مِنَ ذُنُوبِهِ مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ الذَّنْبِ الَّذِی عَابَهُ بِهِ! وَکَیْفَ یَذُمُّهُ بِذَنْبٍ قَدْ رَکِبَ مِثْلَهُ! فَإِنْ لَمْ یَکُنْ رَکِبَ ذلِکَ الذَّنْبَ بِعَیْنِهِ فَقَدْ عَصَی اللَّهَ فِیما سِوَاهُ، مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ. وَایْمُ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ یَکُنْ عَصَاهُ فِی الْکَبِیرِ، وَعَصَاهُ فِی الصَّغِیرِ، لَجَرَاتُهُ

[[لَجُرأَتُه]

عَلَی عَیْبِ النَّاسِ أَکْبَرُ!».

الشرح والتفسیر

إهتم الإسلام بقضیة الغیبة وإقتفاء عیوب الآخرین علی أنّها من المشاکل الاجتماعیة الکبری التی تشیع روح التشاؤم والنفاق وتفکک عری الثقفة وتقضی علی روح الاتحاد والأخوة، ومن هنا عدّها الإسلام من الذنوب الکبیرة، وقد قسم الإمام علیه السلام الناس إلی خمس طوائف، الطائفة الاولی التی شملتها عنایة اللَّه سبحانه فلم تتلوث بالذنوب المعاصی، فقال بشأن هذه الطائفة:

«وَإِنَّمَا یَنْبَغِی لِأَهْلِ الْعِصْمَةِ وَالْمَصْنُوعِ إِلَیْهِمْ فِی السَّلَامَةِ أَنْ یَرْحَمُوا أَهْلَ الذُّنُوبِ وَالْمَعْصِیَةِ، وَیَکُونَ الشُّکْرُ هُوَ الْغَالِبَ عَلَیْهِمْ، وَالْحَاجِزَ لَهُمْ عَنْهُمْ»

، فأی نعمة أعظم من أن یتلطف اللَّه تعالی علی إنسان ویصونه من مقارفة الذنب، وأی شکر أعظم من شکر هذه النعمة الإلهیّة الکبری بأن یحفظ لسانه من إغتیاب الآخرین واقتفاء عیوبهم.

الطائفة الثانیة التی تحمل العیوب وتذم الآخرین علی مثلها، أی إنّ حب الذات لا یدعهم

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۳۵۶

یرون عیوبهم بینما دقیق هو فی متابعة عیوب الآخرین، وقد قال فیها علی علیه السلام:

«فَکَیْفَ بِالْعَائِبِ الَّذِی عَابَ أَخَاهُ، وَعَیَّرَهُ بِبَلْوَاهُ. أَمَا ذَکَرَ مَوْضِعَ سَتْرِ اللَّهِ عَلَیْهِ مِنَ ذُنُوبِهِ مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ الذَّنْبِ الَّذِی عَابَهُ بِهِ!».

إشارة إلی أنّ الإنسان المؤمن یجب أن یتحلی بقبسات من صفات اللّه سبحانه، فاللّه ستار العیوب، فینبغی علیه أن یستر عیوب الآخرین.

الطائفة الثالثة التی ترتکب الذنوب وتذم الآخرین علی مثلها، والحال من الطبیعی أن یکون الإنسان أحرص علی نفسه من الآخرین، فکیف لهذا الإنسان بالتفکیر فی عیوب الآخرین دون أن یهم بإصلاح نفسه وعیوبه، أی عقل یسوّل للإنسان نسیانه لذاته بصورة کلیة ویلقی بها فی مستنقع البؤس والشقاء فیخوض فی ذنوب الآخرین، ناهیک عن أنّ الدافع من ذلک هوالفساد لا الإصلاح، فقد قال الإمام علیه السلام:

«وَکَیْفَ یَذُمُّهُ بِذَنْبٍ قَدْ رَکِبَ مِثْلَهُ!».

الطائفة الرابعة من تذم الآخرین علی ذنوب لم ترتکبها، لکنّها إرتکبت ما هو أفضع منها، وهو غافل عن هذه الذنوب غیر مکترث لها، فقال الإمام علیه السلام بشأنها:

«فَإِنْ لَمْ یَکُنْ رَکِبَ ذلِکَ الذَّنْبَ بِعَیْنِهِ فَقَدْ عَصَی اللَّهَ فِیما سِوَاهُ، مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ».

الطائفة الخامسة التی ربّما لم ترتکب تلک الذنوب التی تذم الآخرین علی إرتکابها، حیث لم تصدر منها سوی بعض الصغائر من الذنوب فقال قال الإمام علیه السلام بشأنها:

«وَایْمُ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ یَکُنْ عَصَاهُ فِی الْکَبِیرِ، وَعَصَاهُ فِی الصَّغِیرِ، لَجَرَاءَتُهُ

[لَجُرأَتُه]

عَلَی عَیْبِ النَّاسِ أَکْبَرُ!».

وهکذا أغلق الإمام علیه السلام جمیع الطرق علی اولئک الذین یقتفون عیوب الآخرین ویسلبهم أیة ذریعة بعد أن یذکرهم بکافة العواقب الوخیمة التی تترتب علی شنائع أعمالهم، لیبتعدوا عن وساوس الشیاطین ویطلعهم علی أهوائهم وقبح أفعالهم لیجسدها أمام أنظارهم.

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۳۵۷

القسم الثانی: اقتفاء العیوب جحود عظیم

اشارة

«یَا عَبْدَاللَّهِ، لَاتَعْجَلْ فِی عَیْبِ أَحَدٍ بِذَنْبِهِ، فَلَعَلَّهُ مَغْفُورٌ لَهُ، وَلَا تَأْمَنْ عَلَی نَفْسِکَ صَغِیرَ مَعْصِیَةٍ، فَلَعَلَّکَ مُعَذَّبٌ عَلَیْهِ. فَلْیَکْفُفْ مَنْ عَلِمَ مِنْکُمْ عَیْبَ غَیْرِهِ لِمَا یَعْلَمُ مِنْ عَیْبِ نَفْسِهِ، وَلْیَکُنِ الشُّکْرُ شَاغِلًا لَهُ عَلَی مُعَافَاتِهِ مِمَّا ابْتُلِیَ بِهِ غَیْرُهُ».

الشرح والتفسیر

أکد الإمام علیه السلام فی هذا القسم من الخطبة تلک المبادیء التی أوردها فی القسم السابق وقد حذر کافة العباد من تتبع عیوب الآخرین وغیبتهم، ثم تابع هذا الأمر من خلال الأدلة المنطقیة فقال علیه السلام:

«یَا عَبْدَاللَّهِ، لَاتَعْجَلْ فِی عَیْبِ أَحَدٍ بِذَنْبِهِ، فَلَعَلَّهُ مَغْفُورٌ لَهُ، وَلَا تَأْمَنْ عَلَی نَفْسِکَ صَغِیرَ مَعْصِیَةٍ، فَلَعَلَّکَ مُعَذَّبٌ عَلَیْهِ».

فی إشارة إلی أنّ ذنب الآخرین قد یغفر بسبب التوبة أو شفاعة المعصومین علیه السلام أو علی أساس القیام بأعمال الخیر بینما یؤاخذ هذا الإنسان بذنبه مهما کان صغیراً بفعل الغرور والغفلة، وعلیه کیف یسمح العاصی لنفسه بذم الآخرین علی معایبهم ومثالبهم

فيغتابهم؟

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه فقال:

«فَلْيَكْفُفْ مَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ عَيْبَ غَيْرِهِ لِمَا يَعْلَمُ مِنْ عَيْبِ نَفْسِهِ»،

فاللَّه هو المنزه من العيوب والطاهر من الذنب هوالمعصوم، وعليه فلا يجيزنا العقل بأن نصوب سهام غيبتنا وذمّنا للآخرين ونحن غارقون في العيوب والذنوب.

ثم إختتم الخطبة بالإشارة إلى المطلب الذي ذكره في القسم الأول من الخطبة ولكن بعبارة أخرى فقال عليه السلام:

«وَلْيَكُنِ الشُّكْرُ شَاغِلًا لَهُ عَلَى مُعَافَاتِهِ مِمَّا ابْتُلِيَ بِهِ غَيْرُهُ».

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۵۸

فو فرضنا تنزه شخص عن كل عيب أو عيوب معينة، فذلك نعمة كبيرة تستحق شكر اللَّه والشعور بلطف اللَّه تعالى وعنايته، والحق إنّ مثل هذا الشكر يشغل الإنسان بنفسه إلى الحد الذي يسلبه فرصة البحث عن عيوب الآخرين.

نعم، فهذا المعلم الرباني يعتمد مختلف الأدلة المنطقية بغية القضاء على هذه الرذيلة القبيحة المتمثلة بالغيبة وتحرى عيوب الآخرين، كما يغلق جميع الطرق على أصحاب الحجج والذرائع.

الغيبة والبحث عن العيوب آفة المجتمعات الإنسانية

الغيبة تعني إفشاء عيوب الأفراد ومثالبهم، والمؤسف له هو أنّ هذه الظاهرة شائعة في أغلب المجتمعات البشرية، وبما لا شك فيه أنّها تختزن مختلف الآثار السلبية على المستوى الأخلاقي وكذلك الاجتماعي، وذلك لأنّ السند الرصين لكل مواطن في المجتمع هو ماء وجهه، والغيبة تزيل ماء الوجه وتطعن في شخصية الفرد وتقضي على روح الثقة وبين أفراد المجتمع والتالي تلعب دوراً سلبياً في إضعاف التعاون الاجتماعي، ومن هنا عدّها الشارع وحداة من أقبح وأشنع الذنوب حتى شبهها القرآن الكريم بأكل لحم الأخ الميت، وقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله في خطبة حجّة الوداع وهي خطبة حساسة:

«أيُّها النَّاسُ إنَّ دِماءَكُم وَأَموالَكُم وَأَعراضَكُم عَلَيكُم حَرامٌ كَحُرمَةِ يومِكُم هذا فِي شَهْرِكُم هذا فِي بَلَدِكُم هذا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الغِيبَةَ كَمَا حَرَّمَ المَالَ والدَّمَ»[۶۳۳].

وكفى بقباحة الغيبة ما ورد في الحديث القدسي أنّ اللَّه تبارك وتعالى أوحى إلى موسى بن عمران:

«مَنْ ماتَ تائِباً مِنْ الغِيبَةِ فَهُوَ آخِرُ مَنْ يَدخُلُ الجَنَّةَ وَمَنْ مَاتَ مُصِراً عَلَيها فَهُوَ أولُ مَنْ يَدخُلُ النَّارَ»[۶۳۴].

وقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بهذا الشأن:

«مَنْ مَشى فِي غِيبَةِ أَخِيهِ وَكَشَفَ عَورَتَهُ كَانَ أولُ خُطوةٍ خَطَاهَا وَضَعَها فِي جَهَنَّمَ»[۶۳۵].

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۵۹

كما قال صلى الله عليه و آله:

«مَا عَمَرَ مَجلِسٌ بِالغِيبَةِ إلّاخَرِبَ بِالدِّين»[۶۳۶].

وكثيرة هي الأحاديث التي وردت بهذا الخصوص والتي لا يسع المجال ذكرها، ونكتفي هنا بذكر حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام: ونحيل من أراد المزيد إلى المجلد الثالث من كتاب الأخلاق في القرآن في مبحث الغيبة وكتاب جامع السعادات المجلد الثاني والمجلد الثامن من وسائل الشيعة، حيث قال:

«الغِيبَةُ حَرامٌ عَلَى كُلِّ مُسلِمٍ وَأَنَّها تَأكُلُ الحَسَناتِ كَمَا تَأكُلُ النَّارُالحَطَبَ»[۶۳۷].

والحقيقة هي أنّ الإسلام يرى حرمة ماء وجه المسلم والتي تعدل حرمة دمه، وقد اقترن العرض بالدم في الروايات والأخبار الإسلامية

وبناءاً على ما تقدم فانّ من إغتاب شخصاً آخر وانتهك حرمته الاجتماعية وأراق ماء وجهه فكأنه قتله، ومن هنا تواترت الروايات التى أكدّت الثمن الباهض الذى سيدفعه صاحب الغيبة يوم القيامة وما سيؤخذ منه حسنات بسبب ما اقترف من غيبة فتضاف إلى حسنات من إغتابه، فانّ لم يكن له من حسنات، أخذت من سيئات من إغتابه وأضيفت إلى سيئات صاحب الغيبة.

نعم، الغيبة حق الناس على غرار قتل النفس وجرح الأفراد، ولهذا فلو إلتفت المؤمنون إلى تبعات السيئة لهذه الذنوب والتى صورتها الروايات الإسلامية لما سعى لمقارفة هذه السيئة، وهذا ما دفع بالإمام عليه السلام للإتيان بعدّة أدلة منطقية لبيان الآثار السيئة لهذه السيئة وقد حذر الجميع من مقارفتها، ويبدو بحث موضوع الغيبة من الأبحاث الواسعة كما صورها علماء الأخلاق ونكتفى هنا بذكر بعض الأمور بهذا الشأن:

۱- لابدّ أن نتّجه قبل كل شيء نحو دوافع الغيبة وذلك لأنّه يمكن الاستدلال على قبح النتائج من خلال قبح الدوافع، فدافع الغيبة غالباً هوالحسد وحبّ الذات والغرور والتكبر والحقد والرياء وحبّ الدنيا والثأر والسخرية والاستهزاء بالآخرين وما شاكل ذلك، حيث يحاول الأفراد الملوثون بهذه الأمراض بلوغ أهدافهم السيئة عن طريق الغيبة وبالنظر إلى أنّ الداوفع المذكورة جميعاً من الكبائر فانّه يمكن الوقوف على قباحة الغيبة.

نفحات الولاية ؛ ج‌۵ ؛ ص ۳۶۰

نفحات الولاية، ج‌۵، ص: ۳۶۰

۲- إنّ أهم أرصدة المجتمع وسنده الأصل والذى من شأنه توحيد الأفراد ويدفعهم باتّجاه الأهداف النبيلة هو الثقة المتبادلة وممّا لا يشك فيه أنّ أولى النتائج السيئة للغيبة تتمثل بالقضاء على هذا السند، وذلك لأنّ كل فرد فى الغالب ينطوى على عيب أو عيوب فانّ بقيت خفية لن تنعكس سلباً على الآخرين ويبقى التفاؤل ثقة الأفراد بعضهم بالبعض الآخر قائمة، أمّا كشف هذه العيوب عن طريق تحريها والبحث عنها وممارسة الغيبة وذم كل فرد آخر إنّما يحيل المجتمع إلى جهنم محرقة بحيث يسيىء كل فرد الظن بالآخر وينفر منه، بالنتيجة تزعزع النظام العام للمجتمع وتعرّضه للقلق والاضطراب.

وبعبارة أخرى كما يتهدد الأمن العام للمجتمع بفعل نهب الأموال وسفك دماء الأبرياء، فانّ سلب ماء الوجه وسرقته من الآخرين عن عن طريق الغيبة إنّما يشيع تلك الفوضى ويقضى على الأمن، وذلك لأنّه كما ورد فى الرواية المذكورة عن رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله فانّ التعرض لحيثيات الآخرين بمثابة التعرض لأنفسهم وأموالهم، لا يمكن كتمان الغيبة عادة وتفشى على صاحبها فتشتعل فيهم نيران الحقد والكراهية، الحقد الذى يمهد السبيل أمام سفك الدماء وعظام المشاكل، والغيبة أحد أسباب إشاعة الفحشاء وعامل مهم من عوامل سوء الظن، إلى جانب كونها تجعل الآثم جريئاً فى ذنوبه، لأنّ المذنب الآثم يراعى عادة جانب الاحتياط إن بقيت معصيته خفية مستورة، فان هتكت زال حجاب الحياء والخجل.

۳- الغيبة حق الناس، والمسألة المهمّة بشأن الغيبة أنّها ليست معصية بين الإنسان وربّه تبارك وتعالى يمكن غسلها بماء الندم فتحصل التوبة، بل كما لا يمكن تلافى الخسائر الناجمة عن سفك الماء وغصب الأموال دون القصاص أو الدية ودفع التعويضات المالية، فانّه لا يمكن غفران إزالة ماء وجه الآخرين دون تعويض، سيّما إن توفى من أغتيب ولم يكن هناك من سبيل لمن إغتابه للوصول إليه ولم يبق أمامه سوى الحساب والقيامة، يعنى حين لا يكون هنالك من سبيل للتعويض سوى إضافة حسناته إلى ذلك الفرد أو تقبل سيئاته، وهذه بحدّ ذاته مصيبة كبرى.

نفحات الولاية، ج‌۵، ص: ۳۶۱

۴- إنّ أفضل علاج للغيبة يتمثل بما ذكره مولى الموحيد أميرالمؤمنين على عليه السلام فى الكلام المذكور وقد لفت انتباه الإنسان إلى هذه الحقيقة وهى إن رأى الإنسان عيباً ومنقصة فى شخص آخر وليس فيه مثلها، فقد وجب عليه شكر اللّٰه، الشكر الذى يصده

عن تحرى عيوب الآخرين، وإن قارف معصية وقد إرتكبها مثله، فلا ينبغى له أن يتجاهل عيبه وينشغل بعيوب الآخرين، وإن إرتكب الصغيرة وجب عليه أن يفكر فى أنّ كبيرة غيره ربّما غفرت ولم يغفر له، بل جرأته على تقصى عيوب الآخرين لأكبر من ذنوبهم مهما كبرت.

أضف إلى ذلك فكما أنّ الأمراض البدنية لن تعالج بصورة تامة ما لم تزول جذورها فانّ الأمراض الروحية كالغيبة لابدّ من إقتلاع جذورها حتى تزول الرغبة فى مقارفتها.

۵- استماع الغيبة أحد الذنوب- كما سيأتى شرح ذلك فى الخطبة القادمة- ذلك لأنّ السامع شارك فى إراقة ماء وجه مسلم فهو شريك فى الجرم، سيّما إن إستمع مختاراً بما يجعله سبباً لتشجيع صاحبه الغيبة.

۶- لا- يقتصر سبيل التوبة عن الغيبة على الاستغفار، بل لابدّ من محاولة تعويض من أغتيب واريق من ماء وجهه إلى جانبى الندم والتوسل إلى اللّه تعالى فى طلب العفو الرحمة، فان أمكن مناشدته إبراء الذمّة، وأمّا إن تعذّر ذلك بسبب ترتب مفسدة، أو توفى الشخص، فلابدّ من القيام بأعمال الخير من أجله حتى يرضى، وكل هذه الأمور تشير إلى مدى فضاعة الغيبة وصعوبة التخلص من تبعاتها، ومن أراد المزيد بشأن المسائل المتعلقة بالغيبة ومن ذلك موارد الاستثناء عليه مراجعة الجلد الثالث من كتاب الأخلاق فى القرآن ۶۳۸].

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۶۳

الخطبة[۶۳۹] المأة والحادية والأربعون

اشارة

وَمِنْ كَلام لَهُ عليه السلام

فى النهى عن سماع الغيبة وفى الفرق بين الحقّ والباطل

نظرة إلى الخطبة

يبدو أنّ هذا الكلام مواصلة للخطبة السابقة، فقد ورد الحديث فى الخطبة السابقة عن نهى الناس عن الغيبة، وجرى الكلام هنا فى النهى عن سماع الغيبة، كما أكد عليه السلام عدم تصديق كل ما يصدر من الشخص بهدف حفظ شخصية الآخرين، فالخطأ جائز حتى على الصادقين.

وإختتم عليه السلام الخطبة بوصيّة الجميع بعدم تصديق الشيء ما لم يره، فما أكثر الخطأ واللبس فى السماع.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۶۵

«أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ عَرَفَ مِنْ أَخِيهِ وَثِيقَةَ دِينٍ وَسَدَادَ طَرِيقٍ، فَلَا يَسْمَعَنَّ فِيهِ أَقَاوِيلَ الرِّجَالِ. أَمَا إِنَّهُ قَدْ يَرْمِى الرَّامِى، وَتُخْطِئُ السِّهَامُ، وَيُحِيلُ

[[يُحيك]

الْكَلَامُ، وَبَاطِلُ ذلِكَ يَبُورُ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ وَشَهِيدٌ. أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ إِلَّا أَرْبَعُ أَصَابِعَ.

فَسُئِلَ، عليه السلام، عَن مَعْنى قولِهِ هذَا، فجمع أَصابِعَهُ وَوَضعهَا بين أُذُنِهِ وَعَيْنِهِ ثمَّ قَالَ: الْبَاطِلُ أَنْ تَقُولَ: سَمِعْتُ، وَالْحَقُّ أَنْ تَقُولَ: رَأَيْتُ!».

الشرح والتفسير

المسافة بين الحق الباطل

كما ورد سابقاً، يبدو أنّ هذا الكلام جزء من الخطبة السابقة فصلها عن بعضها المرحوم السيد الرضى، وذكرها بصورة مستقلة، والواقع أنّ الهدف من الخطبتين واحد هو حفظ ماء الوجه وإشاعة أجواء الثقة بين أفراد المجتمع والابتعاد عن الآثار السيئة للغيبة وتحرى العيوب.

فقد بيّن الإمام عليه السلام فى الخطبة السابقة طرق معالجة الغيبة، وسعى هنا للحد من الآثار الهدامة للغيبة أو القضاء عليها تماماً.

فقال بادىء ذى بدء:

«أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ عَرَفَ مِنْ أَخِيهِ وَثِيقَةَ دِينٍ وَسَدَادَ[۶۴۰] طَرِيقٍ، فَلَا

يَسْمَعَنَّ فِيهِ أَقَاوِيلَ الرِّجَالِ».

فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام قد أبطل بهذه العبارة القصيرة ومن خلال عدّة طرق الآثار السيئة للغيبة فى المستمع، وأول تلك الطرق ما ورد فى العبارة المذكورة، لانّ الإنسان إن عرف

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۶۶

أحداً بحسن السيرة والورع والتقوى كان عليه أن يوقن بخطأ ما يقال فيه من أمور مخالفة، لأنّ الموارد المشكوكة غالباً ما تحمل على الموارد المعلومة وعلى حدّ التعبير المشهور:

«الظَّنُّ يَلحَقُ الشَّىءَ بِالأَعَمِّ الأغلَبِ»

، وبالطبع فانّ هذا الكلام لا يعنى قبولنا لغيبة الأفراد وتتبعهم لعورات الآخرين الذين ليس لهم من سابقة، بل الهدف مضاعفة التأكيد بالنسبة للأفراد من ذوى السوابق الحسنة، بحيث لا ينبغى التصديق مطلقاً بما يقال بشأن اولئك.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطة أخرى وهى لو فرضنا أنّ المتكلم كان صادقاً، ولكن من الموقن به أنّه ليس بمعصوم، وعليه فالخطأ محتمل من جميع الناس سوى المعصومين، وعليه فلا ينبغى تصديق المقابل بكل سهولة فى ما ينسبه إلى الآخرين، ناهيك عن عدم مطابقة الظن والحدس إلى الواقع على الدوام، فقال:

«أَمَا إِنَّهُ قَدْ يَرْمِى الرَّامِى، وَتُخْطِئُ السِّهَامُ»،

أضف إلى ذلك وعلى ضوء كلام الإمام عليه السلام: «

وَيُحِيلُ ۶۴۱]

[[يُحيك]

الْكَلَامُ، وَبَاطِلُ ذلِكَ يَبُورُ[۶۴۲]، وَاللَّهُ

سَمِيعٌ وَشَهِيدٌ»، فى

إشارة إلى أنّ أغلب الناس لا يلتزمون بكلام الحق ويتفوهون بكل ما يرد على ألسنتهم، ومن هنا لا ينبغى قبول ما ينسبونه إلى الآخرين من عيوب، فقد يكون ذلك من الأقوال الباطلة التى تنسب إلى الأفراد دون تريث.

ثم أشار عليه السلام إلى نقطة مهمّة أخريس فقال:

أَمَا إِنَّهُ لَيسَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ إِلَّا أَرْبَعُ أَصَابِعَ».

وفى هذه الأثناء سأله أحد الحاضرين:

«عَنْ مَعْنى قولِهِ هذَا، فجمع أَصابِعَهُ وَوَضعهَا بين أُذُنِهِ وَعَيْنِهِ ثمَّ قَالَ: الْبَاطِلُ أَنْ تَقُولَ: سَمِعْتُ، وَالْحَقُّ أَنْ تَقُولَ: رَأَيْتُ!».

فالعبارة فى الواقع إشارة إلى الشائعات التى تتناقها الألسن فيطالعك هذا وذاك وهم يرددون يقال كذا ويقال كيت وليس الأمر سوى شائعات لا أساس لها، وقد قال عليه السلام لا تلتفتوا إلى الشائعات ولا تنسبوا إلى الآخرين ما لا ترون، ومن هنا تتضح الإجابة على

السؤال الذى أورده أغلب شرّاح نهج البلاغة ومفاده: إنّ الآيات القرآنية والوحى السماوى وسنّة النبى

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۶۷

الأكرم صلى الله عليه و آله والأئمّة المعصومين عليهم السلام كلها عن طريق السمع فكيف يحكم ببطلانها؟

فليس مراد الإمام عليه السلام بطلان أخبار الثقاة والأحاديث المتواترة والمستفيضة التى وصلتنا عن طريق السمع، بل مراده ذلك المعنى العرفى والمتداول بشأن الشائعات، والشاهد على ذلك ما روى عن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام لما سئل: كم بين الحق والباطل؟ فقال عليه السلام:

«أربع أصابع فما رأيته بعينك فهو الحق وقد تسمع باذنيك باطلًا كثيراً»[۶۴۳].

وزبدة الكلام ليس كل ما يراه الإنسان حق، وذلك لأنّ العين قد تخظىء أحياناً، وليس كل كما يسمعه باطل، وذلك لأنّ المتكلم قد يكون فرداً عادلًا وثقة، لكن قليل هو الخطأ على مستوى العين، أمّا الكلام الباطل عن طريق السمع فهو كثير، وهذا ما أشارت إليه العبارة الواردة عن الإمام عليه السلام.

ولعل هذا هو أنسب التفاسير للعبارة المذكورة، بينما أورد البعض من شرّاح نهج البلاغة تفسيراً آخر خلاصته أنّ العبارة: «ليس بين الحق والباطل إلّاأربع أصابع» إشارة إلى العيوب التى تقال فى حق الأفراد، أغلب هذه العيوب ناشىء من سوء الظن وعدم التحقيق والحسد، والحقد والكراهية وما شاكل ذلك، وعليه فهناك الكثير من الكذب والباطل فى هذه الأقوال، ولكن يمكن للإنسان القول بأنّ العيوب الفلانية فى الشخص الفلانى إن رآها بعينه.

درس أخلاقى رفيع

لو وضع الناس نصب أعينهم واستحضروا على الدوام وفى كل مكان عبارة الإمام عليه السلام ليس بين الحق ولباطل إلّاأربع أصابع وعملوا بها فى حياتهم، قطعاً كل التفاؤل محل التشاؤم وحسن الظن بدل سوء الظن والثقة والاعتماد بدل عدمهما والمحبّة بدل البغض والكراهية، وسوف تبهت الإشاعات ولا يكون لها ذلك الصدى والتأثير وبالتالى سوف لن يبلغ أصحابها ما يرومونه من أهداف فلا يسود المجتمع سوى الحب والأخاء، والمؤسف له أنّ الشائعات فى

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۶۸

الوقت الحاضر قد جاوزت الأفراد لتطيل فئات البلاد وتجمعاته بحيث ألقت بظلالها الوخيمة على جميع أرجاء العالم وما ذلك إلى للغفلة عن الفارق بين الحق والباطل التى أشير إليها فى كلام الإمام عليه السلام، وإننا لنلمس الثمن الباهظ الذى يدفعه العالم بسبب عدم التزامه بهذا الأمر.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۶۹

الخطبة[۶۴۴] المأة والحادية والأربعون

اشارة

ومِنْ كَلام لهُ عليه السلام

المعروف فى غير أهله

نظرة إلى الخطبة

تدور هذه الخطبة حول محورين:

المحور الأول: يشرح النتائج السلبية للمعروف والإحسان إلى غير أهله.

والمحور الثانى: الموارد المؤهلة لأن يصنع الإنسان إليها المعروف لينال من خلالها شرف الدنيا والفوز بفضائل الآخرة.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۷۱

القسم الأول: المعروف فى موضعه

«وَلَيسَ لِوَاضِعِ الْمَعْرُوفِ فِى غَيْرِ حَقِّهِ، وَعِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ، مِنَ الْحَظِّ فِيما أَتَى إِلَّا مَحْمَدَةُ اللِّئَامِ، وَثَنَاءُ الْأَشْرَارِ، وَمَقَالَةُ الْجُهَّالِ، مَادَامَ مُنْعِماً عَلَيْهِمْ: مَا أَجْوَدَ يَدَهُ! وَهُوَ عَنْ ذَاتِ اللَّهِ بَخِيلٌ!

مواضع المعروف

فَمَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلْيَصِلْ بِهِ الْقَرَابَةَ، وَلْيُحْسِنْ مِنْهُ الضِّيَافَةَ، وَلْيَفُكَّ بِهِ الْأَسِيرَ وَالْعَانِىَ، وَلْيُعْطِ مِنْهُ الْفَقِيرَ وَالْغَارِمَ، وَلْيَصْبِرْ نَفْسَهُ عَلَى الْحُقُوقِ وَالنَّوَائِبِ، ابْتِغَاءَ الثَّوَابِ، فَإِنَّ فَوْزاً بِهذِهِ الْخِصَالِ شَرَفُ مَكَارِمِ الدُّنْيَا، وَدَرْكُ فَضَائِلِ الْآخِرَةِ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ».

الشرح والتفسير

كما ورد سابقاً هذه الخطبة حسب بعض الروايات المعتبرة جزء من الخطبة رقم ۱۲۶، والتى اعترض فيها بعض الجهّال على الإمام عليه السلام بسبب تسويته بين الناس فى العطاء من بيت المال المسلمين، فكلّموه لم لا تزيد فى عطاء أشراف القبائل ليطروه ويثنوا عليه ويقفوا إلى جانبه عند الشدائد، أمّا الإمام عليه السلام فقد وبّخهم فى هذه الخطبة فى أنّ البذل والعطاء فى غير موضعه لا يوجب غضب اللَّه وسخطه فحسب، بل به آثاره السلبية حتى فى الدنيا أهونها ثناء الأشرار وإنسحاب الأخيار، فقال عليه السلام:

«وَلَيسَ لِوَاضِعِ الْمَعْرُوفِ فِى غَيْرِ حَقِّهِ، وَعِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ، مِنَ الْحَظِّ فِيما أَتَى إِلَّا مَحْمَدَةُ[۶۴۵] اللِّئَامِ، وَثَنَاءُ الْأَشْرَارِ، وَمَقَالَةُ الْجُهَّالِ».

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۷۲

أضف إلى ذلك فانّ هذا المدح والثناء قائم مادام البذل والعطاء ومد يد الجود والسخاء، ولكن بمجرّد أن يقطع هذا البذل لا يبقى من أثر لذلك المدح ولاثناء، هذا فى الوقت الذى يكون فيه بخيلًا عن البذل فى سبيل اللَّه تعالى: «مَادَامَ مُنْعِماً عَلَيْهِمْ: مَا أَجْوَدَ يَدَهُ! وَهُوَ عَنْ ذَاتِ اللَّهِ بَخِيلٌ!».

وقد جربنا كلام الإمام عليه السلام مراراً فى حياتنا والذاكرة البشرية تحتفظ بالكثير من ذلك طيلة التاريخ، فقد حفلت الدنيا بالأفراد المتكالبين على الدنيا ممن تحكموا بثروات المجتمع وقد أغدقوها على المتملقين من الأشرار ممن حولهم وبطانتهم وقد ولو ظهورهم بالمرّة عن معاناة المحرومين وآلام المساكين، فان دارت عليهم الدوائر وتنكرت لهم الدنيا، هب المحرومون للوقوف بوجههم ولم يكتف الأمر عند هذا الحدّ، بل تنكر لهم حتى أنصارهم من المتملقين وعرضوا لهم بالذم والتوبيخ، فلم يتركوهم وشأنهم فحسب، بل سارعوا للتمرد عليهم وأعدوا أنفسهم للإنسجام مع من يخلفونهم من الحكّام، وهذه هى عاقبة من ولى ظهره للحق تبارك وتعالى والخلق والتحق بركب النفعيين.

ورد فى الحديث عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«مَنْ طَلَبَ مَحامِدَ النَّاسِ بِمعاصِى اللَّهِ عادَ حامِدُهُ مِنهُم ذامًّا»[۶۴۶]

، وعن المفضل عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«إذا أَرَدتَ أَنْ تعلَمَ إلى

خَيرٍ يَصيرُ الرَّجُلُ أَم إِلى شَرٍّ؟ انظُر إِلى أَينَ يَضَعُ مَعرُوفَهُ؟ فَإِنْ كَانَ يَضَعُ مَعرُوفَهُ عِندَ أَهلِهِ فاعلَم أَنَّهُ يَصِيرُ إِلى خَيرٍ وَإِنْ كَانَ يَضَعُ مَعرُوفَهُ عِندَ غَيرِ أَهلِهِ فاعلَم أَنَّهُ لَيسَ لَهُ فِى الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ»[۶۴۷].

نفحات الولايهٔ، ج۵، ص: ۳۷۳

القسم الثانى

«فَمَنْ آتَـاهُ اللَّهُ مَالًـا فَلْيَصِـلْ بِهِ الْقَرَابَـةَ، وَلْيُحْسِنْ مِنْهُ الضِّيَافَـةَ، وَلْيَفُـكَّ بِهِ الْأَسِـيرَ وَالْعَـانِىَ، وَلْيُعْـطِ مِنْهُ الْفَقِيرَ وَالْغَارِمَ، وَلْيَصْبِرْ نَفْسَهُ عَلَى الْحُقُوقِ وَالنَّوَائِبِ، ابْتِغَاءَ الثَّوَابِ، فَإِنَّ فَوْزاً بِهذِهِ الْخِصَالِ شَرَفُ مَكَارِمِ الدُّنْيَا، وَدَرْكُ فَضَائِلِ الْآخِرَةِ؛ إنْ شَاءَ اللَّهُ».

الشرح والتفسير

عرض الإمام عليه السـلام بالـذم الشديـد لصانع المعروف فى غير أهله كما ورد ذلك فى المقطع الأول من الخطبـهٔ والـذى كان يمثل الجـانب السـلبى من القضيـهٔ، أمّـا فى هـذا القسم فقـد تعرض إلى جانبهـا الإيجـابى فبيّن الموارد الطبيعـهٔ التى تسـتحق الانفاق والبـذل والعطاء، حذراً من استغلال البعض لما مرّ معنا سابقاً فى العبارات، فيعتمد البخل وعدم الانفاق فقال:

«فَمَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلْيَصِلْ بِهِ الْقَرَابَةَ، وَلْيُحْسِنْ مِنْهُ الضِّيَافَةَ، وَلْيُفُكَّ بِهِ الْأَسِيرَ وَالْعَانِىَ ۶۴۸]، وَلْيُعْطِ مِنْهُ الْفَقِيرَ وَالْغَارِمَ ۶۴۹]».

فقد أشار الإمام عليه السـلام إلى سـتهٔ موارد للانفاق والبذل وفى مقدمتها القرابهٔ من ذوى الحاجهٔ، فمما لا شك فيه أنّ هؤلاء مقدمون على غيرهم، وهذا ما ورد فى الخبر المروى عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه و آله أَيُّ الصَّدَقَةِ أَفضَلُ؟ فقال صلى الله عليه و آله: عَلَى ذِى الرَّحِمِ الكَاشِحِ»[۶۵۰]

، ثم ركز الإمام على قضيهٔ الضيافهٔ وهى الأمر الذى يؤدّى إلى إشاعهٔ أجواء المودّهٔ

نفحات الولايهٔ، ج۵، ص: ۳۷۴

والمحبّـهٔ بين الأصـدقاء ويزيل الأحقاد، كما يوطـد العلاقات العاطفيـهٔ والاجتماعيهٔ وقد أولى الإسـلام هذه المسألهٔ الإنسانيهٔ والأخلاقيهٔ أهميّهٔ قصوى حتى ورد فى الخبر أنّ الإمام الصادق عليه السلام سأل أحد أصحابه:

«أَتُحِبُّ إخوانَكَ يا حُسَين؟ قُلتُ: نَعم، قَالَ: تَنفَعُ فُقَرائَهُم؟

قُلتُ: نَعم، قَالَ: إِنَّهُ يَحُقُّ عَلَيكَ أنْ تُحِبَّ مَنْ يُحِبُّ اللَّهَ، أَمَا وَاللَّهِ لاتَنْفَعُ مِنهُم حَتّى تُحِبَّهُ، أَتَـدعُوهُم إِلى مَنزِلِكَ؟ قُلتُ: نَعم، مَا أَكُلُ إِلّا وَمَعِى مِنْهُم الرَّجُلانِ والثَّلاثَهُ وَالأَقَلُّ وَالأَكثَرُ، فَقالَ أَبُوعَبدِاللَّهِ عليه السلام: أَمَ إِنَّ فَضْلَهُم عَلَيكَ أَعظَمُ مِنْ فَضلِكَ عَلَيهِم، فَقُلتُ: فِداكَ أَطعِمُهُم طَعـامِى وَأُوطِئُهم رَحلِى وَيَكُونُ عَلَىَّ فَضْـلُهُم عَلَىَّ أَعظَمُ؟ قَالَ: نَعم، إِنَّهُم إذا دَخَلُوا مَنزِلَكَ دَخَلُوا بِمَغفِرَتِكَ وَمَغفِرَةِ عِيالِكَ، وإِذا خَرَجُوا مِنْ مَنزِلِكَ خَرَجوا بِذُنُوبِكَ وَذُنُوبِ عِيالِكَ»[۶۵۱].

ولمّا كان دفع الحقوق الواجبهٔ والمستحبهٔ وتعويض الخسائر شاقاً على النفس فقد أكد الإمام عليه السلام على الصبر والتحمل فقال:

«وَلْيَصْبِرْ نَفْسَهُ عَلَى الْحُقُوقِ وَالنَّوَائِبِ ۶۵۲]، ابْتِغَاءَ

الثَّوَابِ».

وبناءاً على هـذا فالتعبير بالحقوق يشـمل الواجبـهٔ والمسـتحبهٔ، والنوائب جمع نائبـهٔ والحادثـهٔ الأليمـهٔ، وتشـير هنا إلى جميع الأمور التى تتضمن الخسارهٔ الماليهٔ، سواء كان من جانب ظلم الظلمهٔ وحكّام الجور، أو الحوادث غير المتوقعهٔ التى تصيب الإنسان طيلهٔ حياته.

والعبارهٔ

«ابتغاء الثواب»

إشارهٔ إلى أنّ الصبر تجاه كل هذا البذل وصرفه فى الموارد المذكورهٔ لابدّ أن يكون للّه‌تعالى ليحصل الأجر والثواب.

وإختتم كلامه بالإشارهٔ إلى الآثار العظيمهٔ لهذا البذل فقال عليه السلام:

«فَإِنَّ فَوْزاً بِهذِهِ الْخِصَالِ شَرَفُ مَكَارِمِ الدُّنْيَا، وَدَرْكُ فَضَائِلِ الْآخِرَةِ؛ إنْ شَاءَ اللَّهُ»

، فالحقّ أنّ البذل فی الموارد الستة المذکورة یؤدّی إلی حسن سمعة الإنسان فی المجتمع، کما یوجب فوزه فی الحیاة الآخرة، وأفضل شاهد علی ذلک ما روی عن الإمام الحسین علیه السلام أنّه قال:

«مَنْ جَادَ سَادَ»[۶۵۳]

، وقد أصبحت هذه

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۳۷۵

العبارة مثل یضرب لتأکید المعنی المذکور، وکذلک ما روی عن أمیرالمؤمنین علیه السلام أنّه قال:

«وَأَحسن إلی مَنْ شِئتَ تَکُنْ أَمِیرَهُ»[۶۵۴]

، بل یؤید ذلک ما نلمسه فی حیاتنا الیومیة، وهذا علی مستوی الدنیا.

أمّا من حیث الآخرة فانّ البذل من أهم أسباب النجاة ولاسیّما إعانة المحتاجین، فقد قال الإمام الصادق علیه السلام:

«أَوَّلُ مَنْ یَدخُلُ الجَنَّةَ المَعرُوفُ»[۶۵۵].

والتعبیر ب

«فوزاً»

بصیغة النکرة یفید حقیقة فی أنّ هذا البذل وإن کان قلیلًا فانّه یوجب عزّة الدنیا ورفعة الآخرة.

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۳۷۷

الخطبة[۶۵۶] المأة والثلاثة والاربعون

اشارة

وَمِنْ خُطبَةٍ لَهُ علیه السلام

فی الاستسقاء

وفیه تنبیه العباد علی وجوب استغاثة رحمة اللَّه إذا حبس عنهم رحمة المطر

نظرة إلی الخطبة

الخطبة کما ورد فی عنوانها بشأن الاستسقاء والتضرع إلی اللَّه سبحانه فی طلب نزول الأمطار، وهی الخطبة الثانیة من خطب نهج البلاغة فی باب الاستسقاء (الخطبة الاولی رقم ۱۵۵)، وتتألف هذه الخطبة فی الواقع من ثلاثة أقسام:

القسم الأول: یشیر إلی هذه الحقیقة فی أنّ السماء والأرض مطیعة لأمر اللَّه فان شاء أخرج برکاتهما إلی الناس، وبناءاً علی هذا فانّ الذی ینبغی التوجه إلی قبل عالم الأسباب هو ذات مسبب الأسباب.

القسم الثانی: ناظر إلی هذا المطلب وهو أنّ أعمال السوء والذنوب والمعاصی تؤدّی إلی إغلاق أبواب الخیر والبرکة بأمر اللَّه تبارک وتعالی، ومفاتحها الاستغفار من الذنوب والإنابة إلی اللَّه تعالی.

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۳۷۸

القسم الثالث: یعرض إلی رفع الإمام علیه السلام یده بالتوسل إلی اللَّه سبحانه فی مراسم صلاة الاستسقاء حیث یطلب نزول المطر بعبارات دقیقة رائعة عمیقة المعنی، والأمطار المفعمة بالبرکة والتی تروی الأرض وتسقی الأشجار والثمار وتسرّ الناس.

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۳۷۹

القسم الأول: درس في التوحيد والأخلاق

«أَلَا وَإِنَّ الْأَرْضَ الَّتِى تُقِلُّكُمْ تحملكم، وَالسَّمَاءَ الَّتِى تُظِلُّكُمْ مُطِيعَتَانِ لِرَبِّكُمْ، وَمَا أَصْبَحَتَا تَجُودَانِ لَكُمْ بِبَرَكَتِهِمَا تَوَجُّعاً لَكُمْ، وَلَا زُلْفَةً إِلَيكُمْ، وَلَا لِخَيْرٍ تَرْجُوَانِهِ مِنْكُمْ، وَلكِنْ أُمِرَتَا بِمَنَافِعِكُمْ فَأَطَاعَتَا، وَأُقِيمَتَا عَلَى حُدُودِ مَصَالِحِكُمْ فَقَامَتَا».

الشرح والتفسير

من الوصايا الإسلامية التي وردت بصورة موسعة في الكتب الفقهية الوصيّة بصلاة الاستسقاء، حيث يقبل فيها الناس على اللَّه تبارك وتعالى ويتوبون إليه من ذنوبهم معاصيهم ويسألونه نزول المطر، وقد حدث هذا الأمر كراراً ومراراً في الإتيان بهذه الصلاة ونزول الرحمة الإلهيّة، ويبدو أنّ الإمام عليه السلام قد دعى الناس حين الاستسقاء، ومن هنا فقد خطب بهذه الخطبة المليئة بدروس التوحيد والتهذيب والتربية، فقد قال عليه السلام بادىء الأمر بهدف إعداد الناس وإحياء روح التوحيد فيهم والتوجه إلى اللَّه تعالى الذى يمثل مصدر الخير والبركة والعطاء:

«أَلَا وَإِنَّ الْأَرْضَ الَّتِى تُقِلُّكُمْ ۶۵۷] تحملكم، وَالسَّمَاءَ الَّتِى تُظِلُّكُمْ مُطِيعَتَانِ لِرَبِّكُمْ».

ثم قال عليه السلام:

«وَمَا أَصْبَحَتَا تَجُودَانِ لَكُمْ بِبَرَكَتِهِمَا تَوَجُّعاً لَكُمْ، وَلَا زُلْفَةً إِلَيكُمْ، وَلَا لِخَيْرٍ تَرْجُوَانِهِ مِنْكُمْ، وَلكِنْ أُمِرَتَا بِمَنَافِعِكُمْ فَأَطَاعَتَا، وَأُقِيمَتَا عَلَى حُدُودِ مَصَالِحِكُمْ فَقَامَتَا»

، والتعبير بالسماء إشارة إلى الغيوم المحلية، لأنّ العرب تستعمل السماء بمعنى الجانب العلوى،

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۸۰

فتطلقه أحياناً على موضع النجوم فتقول نجوم السماء، وتطلقه أحياناً أخرى على موضع الشمس والقمر، وأخيراً على موضع السحب والغيوم وحتى الموضع الذى يضم الغصون المرتفعة للأشجار، ومن ذلك الآية القرآنية: «أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى السَّمَاءِ»[۶۵۸].

هذا الكلام يشتمل على درس مهم في التوحيد والأخلاق، فقد قال الإمام عليه السلام من جانب أنّ اللَّه أمر السماء والأرض بمنافعكم، وكأنّ السماء أشبه بالأب والأرض بالام اللذان يتحدان لتزويد الإنسان بما يحتاجه من غذاء وشراب ولباس ودواء ومركب دون التمييز بين المطيع والعاصى والمؤمن والكافر، لأنّهما مظهر رحمانية الحق.

الطريف في الأمر أنّ المائدة الإلهيّة لا تنضب فالأجيال متعاقبة في الذهاب والإياب وهما قائمان على خدمتهم، ومن جانب آخر فانّ السماء والأرض ورغم تقديمها لكل هذه الخدمات فهما لا يرجوان أى عوض من الإنسان، بل يخدمان بكل إخلاص، وهذا درس مهم للإنسان يشدّه إلى خدمة الآخرين بعيداً عن الأجر والثواب.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۸۱

القسم الثانى: الذنب وقلّة البركة

اشارة

«إِنَّ اللَّهَ يَبْتَلِى عِبَادَهُ عِنْدَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ بِنَقْصِ الثَّمَرَاتِ، وَحَبْسِ الْبَرَكَاتِ، وَإِغْلَاقِ خَزَائِنِ الْخَيْرَاتِ، لِيَتُوبَ تَائِبٌ، وَيُقْلِعَ مُقْلِعٌ، وَيَتَذَكَّرَ مُتَذَكِّرٌ، وَيَزْدَجِرَ مُزْدَجِرٌ. وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الاسْتِغْفَارَ سَبَباً لِدُرُورِ الرِّزْقِ وَرَحْمَةِ الْخَلْقِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: (اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً. يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً. وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً) فَرَحِمَ اللَّهُ امْرَءاً اسْتَقْبَلَ تَوْبَتَهُ، وَاسْتَقَالَ خَطِيئَتَهُ، وَبَادَرَ مَنِيَّتَهُ!».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة إلى نقطة مهمّة من أجل إعداد الناس لصلاة الاستسقاء فقال:

«إِنَّ اللَّهَ يَبْتَلِي عِبَادَهُ عِنْدَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ بِنَقْصِ الثَّمَرَاتِ، وَحَبْسِ الْبَرَكَاتِ، وَإِغْلَاقِ خَزَائِنِ الْخَيْرَاتِ، لِيَتُوبَ تَائِبٌ، وَيُقْلِعَ مُقْلِعٌ، وَيَتَذَكَّرَ مُتَذَكِّرٌ، وَيَزْدَجِرَ مُزْدَجِرٌ».

ثم إعتمد الإمام عليه السلام بعد ذلك أسلوب الطبيب الماهر الذى يصف العلاج بعد تشخيص المرض فقال:

«وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الاسْتِغْفَارَ سَبَباً لِدُرُورِ[۶۵۹] الرِّزْقِ وَرَحْمَةِ الْخَلْقِ،

فَقَالَ سُبْحَانَهُ: «اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً. يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً. وَيُمْدِدْكُمْ

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۳۸۲

بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً»».

وأخيراً يخلص إلى نتيجة:

«فَرَحِمَ اللَّهُ امْرَءاً اسْتَقْبَلَ تَوْبَتَهُ، وَاسْتَقَالَ ۶۶۰] خَطِيئَتَهُ،

وَبَادَرَ مَنِيَّتَهُ!».

نعم، حين تغلق أبواب الرحمة الإلهيّة بفعل كثرة الذنوب فليس هنالك من سبيل لفتحها سوى الاستغفار والتوبة والنصوح.

والجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام وبهدف إثبات هذا الأمر قد استدلّ بأنسب أية قرآنية، وهى الآية التى وردت على لسان نبى اللَّه نوح عليه السلام حين خاطب قومه باستغفار اللَّه والتوبة إليه والذى يؤدّى إلى نزول البركات والخيرات ومضاعفة الأرصدة المادية والمعنوية وتقوية الوجود الإنسانى وتحسين الأوضاع الاقتصادية والزراعية.

والعبارة

وَبَادَرَ مَنِيَّتَهُ!»

، إشارة إلى أنّ التوبة لا- تقتصر على بلوغ الرفاه المادى فى الحياة الدنيا، بل الهدف الأهم من ذلك النجاة فى الآخرة، وذلك لأنّ الموت إن سبق التوبة فلا سبيل للتدارك، وإن كان العكس وسبقت التوبة والأعمال الصالحة الموت، كان مفتاح النجاة بيده فى الدار الآخرة.

جانب من فلسفة البلاء

لقد قيل الكثير فى فلسفة البلاء، والذى يستفاد من أغلب الآيات القرآنية والروايات الإسلامية هو أنّ الذنوب والمعاصى تشكل أحد علل الآفات والحوداث الصعبة فى الحياة البشرية، حيث تحدث عدّة آيات عن التلازم بين هذين الأمرين، بل يستفاد من بعض الروايات والأخبار الترابط الوثيق بين نوع الذنب والبلاء الذى يترتب عليه، على سبيل المثال فانّ الزنا وعدم العفة وشرب الخمر والتطفيف والربا وقطع الرحم كل ذلك يؤدّى إلى سلب نعمة معينة كما أشار إلى ذلك الحديث النبوى الشريف، من ذلك روى أبى حمزة عن الإمام الباقر أنّه قال:

«وَجَدنا فِى كِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه و آله: إذا ظَهَرَ الزِّنا مِنْ بَعدِى كَثُرَ مَوتُ

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۳۸۳

الفُجأة، وإذا طَففَ المِكيالَ وَالمَيزانَ أَخَذَهُم اللَّهُ بِالسِّنِينِ وَالنَّقصِ إِذا مَنَعُوا الزَّكاةَ مَنَعَتْ الأَضُ بَرَكَتَها مِنَ الزَّرعِ وَالثِّمارِ وَالمَعادِنِ كُلُّها، إذا جَارُوا فِى الأحكَامِ تَعاونُوا عَلَى الظُّلمِ والعُدوانِ، إذا نَقَضُوا العَهدَ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيهِم عَدُوَّهُم، إذا قَطَعُوا الأَرحامَ جُعِلتْ الأَموالُ فِى أَيدِى الأشرارِ إذا لَم يَأمرُوا بالمَعرُوفِ وَلم يَنهُوا عَنِ المُنكَرِ وَلَم يَتَّبِعُوا الأخيارَ مِن أَهلِ بَيتِى سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيهِم شِرارَهمُ فَيَدعُوا خِيارَهُم فَلا يُستَجابُ لَهُم»[۶۶۱]

والدليل العقلى يؤكد هذا الأمر على أنّ هناك إرتباط بين الذنب وقطع النعم، فالفيض اللّه يتوقف على الاستعداد والاستحقاق، فان قارف الإنسان الذنب وأفصح عن عدم استعداده كان من الطبيعى أن يقطع عن نفسه الفيض الإلهى.

أضف إلى ذلك فالذى يستفاد من الآيات القرآنية أنّ هناك هدفاً مهمّاً آخر يتمثل بايقاظ الغافلين وإعادتهم إلى اللّه تبارك وتعالى، حتى صرّحت بعض الآيات بأنّ البلاء يعمّ الأقوام المشركة حين بعث الأنبياء والرسل لهدايتها من أجل تمهيد السبيل أمامهم لقبول الدعوة ومن ذلك الآية ۹۴ من سورة الأعراف التى قالت: «وَمَا أَرْسَلْنَا فِی قَرْیَةٍ مِنْ نَبِیٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ یَضَّرَّعُونَ».

وهكذا فانّ القضية التربوية تشكل أحد الأهداف المهمّة للبلاء والحوداث الأليمة، على كل حال فانّ مفتاح الأبواب الموصدة وإخماد جذوة أمواج البلاء إنّما يكمن فى العودة إلى اللّه سبحانه كما صرّح بذلك القرآن الكريم إذ قال: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَیْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا یَكْسِبُونَ»[۶۶۲].

وهكذا سائر الآيات، وورد فى الخبر أنّ شخصاً قال لأميرالمؤمنين على عليه السلام لقد أسرفت فى المعاصى فادعوا اللّه أن يغفر لى، قال على عليه السلام: عليك بالاستغفار، وقال الآخر: مزارعنا تشكو من قلّة الماء، فادعوا اللّه أن يرسل علينا المطر، فقال عليه السلام: عليك بالاستغفار، وشكى الثالث من الفقر فأشار عليه الإمام عليه السلام بالاستغفار، وشكى الرابع العقم وكان له مال كثير فأشار عليه الإمام بالاستغفار، وشكى له الخامس من قلّة ثمار البستان فنصحه عليه السلام بالاستغفار، وشكى

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۸۴

السادس من جفاف الآبار وعيون الماء فقال له عليه السلام عليك بالاستغفار، فتعجب ابن عباس من إشارته على الجميع بالاستغفار وقد كان لكل مشكلته التى تختلف عن غيره، فقال عليه السلام أولم تسمع إلى القرآن والآيات ۱۰، ۱۱، ۱۲ من سورة نوح إذ قال: «وَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِیقَةِ لَأَسْقَیْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً* فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً* یُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَیْكُمْ مِدْرَاراً* وَیُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِینَ وَیَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَیَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً»[۶۶۳].

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۸۵

القسم الثالث: إلهى أمطرنا مطراً مباركاً

اشارة

«اللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنَا إِلَیْكَ مِنْ تَحْتِ الْأَسْتَارِ وَالْأَكْنَانِ، وَبَعْدَ عَجِیجِ الْبَهَائِمِ وَالْوِلْدَانِ، رَاغِبِینَ فِی رَحْمَتِكَ، وَرَاجِینَ فَضْلَ نِعْمَتِكَ، وَخَائِفِینَ مِنْ عَذَابِكَ وَنِقْمَتِكَ. اللَّهُمَّ فَاسْقِنَا غَیْثَكَ، وَلَا تَجْعَلْنَا مِنَ الْقَانِطِینَ، وَلَا تُهْلِكْنَا بِالسِّنِینَ، وَلَا تُؤَاخِذْنَا (بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا) یَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِینَ. اللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنَا إِلَیْكَ نَشْكُو إِلَیْكَ مَا لَایَخْفَى عَلَیْكَ، حِینَ أَلْجَأَتْنَا الْمَضَایِقُ الْوَعْرَةُ، وَأَجَاءَتْنَا الْمَقَاحِطُ الْمُجْدِبَةُ، وَأَعْیَتْنَا الْمَطَالِبُ الْمُتَعَسِّرَةُ، وَتَلَاحَمَتْ عَلَیْنَا الْفِتَنُ المحن الْمُسْتَصْعِبَةُ. اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ أَلَّا تَرُدَّنَا خَائِبِینَ، وَلَا تَقْلِبَنَا وَاجِمِینَ، وَلَا تُخَاطِبَنَا بِذُنُوبِنَا، وَلَا تُقَایِسَنَا تناقشنا بِأَعْمَالِنَا. اللَّهُمَّ انْشُرْ عَلَیْنَا غَیْثَكَ وَبَرَكَتَكَ، وَرِزْقَكَ وَرَحْمَتَكَ؛ وَاسْقِنَا سُقْیَا نَاقِعَةً نافعة مُرْوِیَةً مُعْشِبَةً، تُنْبِتُ بِهَا مَا قَدْ فَاتَ، وَتُحْیِی بِهَا مَا قَد مَاتَ. نَافِعَةَ الْحَیَا، كَثِیرَةَ الْمُجْتَنَى تُرْوِی بِهَا الْقِیعَانَ، وَتُسِیلُ الْبُطْنَانَ، وَتَسْتَوْرِقُ الْأَشْجَارَ، وَتُرْخِصُ الْأَسْعَارَ؛ «إِنَّكَ عَلَى مَا تَشَاءُ قَدِیرٌ»».

الشرح والتفسير

بعد أن مهد الإمام عليه السلام قلوب الناس ودعاهم إلى التوبة من الذنوب والإنابة إلى اللّه سبحانه فى هذه الخطبة التى خطبها بمناسبة صلاة الاستسقاء، إلتفت إلى الحق تبارك وتعالى فتوسل إليه بعبارات وهو يسأله اللطف والرحمة، كما فرض عدّة مطالب من خلال

خمس عبارات يستهلها بالقول اللّهم، فقد قال بادىء ذى بدء:

«اللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنَا إِلَيْکَ مِنْ تَحْتِ الْأَسْتَارِ

نفحات الولايهٔ، ج۵، ص: ۳۸۶

وَالْأَکْنَانِ ۶۶۴]، وَبَعْدَ عَجِيجِ الْبَهَائِمِ وَالْوِلْدَانِ، رَاغِبِينَ فِی رَحْمَتِکَ، وَرَاجِينَ فَضْلَ نِعْمَتِکَ، وَخَائِفِينَ مِنْ عَذَابِکَ وَنِقْمَتِکَ».

إشارهٔ إلى أنّ خروجنا من المنازل وقدومنا إلى الصحراء من أجل أداء صلاهٔ الاستسقاء دليل على إسرافنا على أنفسنا، فان كنّا من عبادك الخاطئين فما ذنب هذه الماشيهٔ والأطفال العطاشى، وليس لنا من دافع فى هذا الخروج سوى طلب رحمتك وفضلك وكرمك وقد أقبلنا عليك وأتينا إليك واستجرنا بك من عذابك وعقوبتك، وقد صرّحت الروايات الإسلاميهٔ الواردهٔ فى باب آداب صلاهٔ الاستسقاء بحمل حتى الرضع من الأطفال والهيم العطاشى إلى الصحراء، بل وردت الوصيّهٔ بتفريق الأطفال عن امهاتهم لترق القلوب لبكاء الأطفال ويزداد الإقبال على اللّه تبارك وتعالى ۶۶۵].

ولا يخفى ما لهذا المنظر من عظيم الأثر فى إثارهٔ عواطف الناس وحضور قلوبهم وجريان دموعهم والذى يؤدّى إلى استجابهٔ الدعاء، إلى جانب كونه سبب المزيد من لطف اللّه ورحمته.

ثم طرح طلبه الرئيسى فقال عليه السلام:

«اللَّهُمَّ فَاسْقِنَا غَيْثَکَ، وَلَا تَجْعَلْنَا مِنَ الْقَانِطِينَ، وَلَا تُهْلِکْنَا بِالسِّنِينَ ۶۶۶]، وَلَا تُؤَاخِذْنَا «بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا» يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ»

، أى وإن فعل فريق من الجهّال ما يوجب قطع الفيض الإلهى عنهم، ولكن عاملنا بكرمك وفضلك ولا تعاملنا بعدلك، فلا طاقهٔ لنا بعدلك وليس لنا سوى عفوك ورحمتك، ولما كان شرط استجابهٔ الدعاء فى إذعان الفرد بعجزه وأنّ اللّه على كل شىء قدير فقد قال عليه السلام:

«اللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنَا إِلَيْکَ نَشْکُو إِلَيْکَ مَا لَايَخْفَى عَلَيْکَ، حِينَ أَلْجَأَتْنَا الْمَضَايِقُ الْوَعْرَةُ[۶۶۷]، وَأَجَاءَتْنَا[۶۶۸] الْمَقَاحِطُ[۶۶۹] الْمُجْدِبَةُ[۶۷۰]، وَأَعْيَتْنَا الْمَطَالِبُ الْمُتَعَسِّرَةُ، وَتَلَاحَمَتْ ۶۷۱] عَلَيْنَا الْفِتَنُ المحن الْمُسْتَصْعِبَةُ».

نفحات الولايهٔ، ج۵، ص: ۳۸۷

فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارات إلى مسألهٔ وهى إننا إن عددنا حاجاتنا ومشاكلنا الواحدهٔ بعد الأخرى لا على أساس إنّك لا تعلمها، بل لأنّك تحبّ أن يطرح العباد مشاكلهم بألسنتهم ويقرون بعجزهم وسعهٔ حاجاتهم، ثم أشار إلى أربع مشاكل تشترك مع بعضها من جهات وتشترك فى أخرى وهى: صعوبات الحياهٔ والجدب والقحط و الرغبات التى يتعذر نيلها فى الشرائط العاديهٔ، وأخيراً الفتن الصعبهٔ والمزعجهٔ، وهى المشاكل التى لا يرجى حلّها إلّا من اللّه تبارك وتعالى، ورد فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ حَاجَتَکَ وَما تُرِيدُ وَلَكِنَّهُ يُحِبُّ أن تَبُثَّ إِلَيهِ الحَوائِجَ»[۶۷۲].

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه فقال:

«اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُکَ أَلَّا تَرُدَّنَا خَائِبِينَ، وَلَا تَقْلِبَنَا وَاجِمِينَ ۶۷۳]، وَلَا تُخَاطِبَنَا بِذُنُوبِنَا، وَلَا تُقَايِسَنَا تناقشنا بِأَعْمَالِنَا».

فليس هنالك من سبيل للنجاهٔ إن عاملتنا على أساس أعمالنا، فنسألك أن بحملنا على لطفك وكرمك وألّا نرجع خائبين من بابك، والطبع فانّ هذه الأدعيهٔ وإن اشتملت على الطلبات المؤكدهٔ من اللّه تبارك وتعالى، فهى تنطوى على الدروس العميقهٔ المعنى للسامعين ليقضوا على آثار ذنوبهم وشناعهٔ أعمالهم فيسارعوا لإصلاح أنفسهم، وتشتمل أغلب الأدعيهٔ التى تردنا عن المعصومين عليه السلام على هذه الأمور التربويهٔ.

وأخيراً طرح طلبه النهائى قائلًا:

«اللَّهُمَّ انْشُرْ عَلَيْنَا غَيْثَكَ وَبَرَكَتَكَ، وَرِزْقَكَ وَرَحْمَتَكَ؛ وَاسْقِنَا سُقْيَا نَاقِعَةً نافعة مُرْوِيَةً مُعْشِبَةً[۶۷۴]، تُنْبِتُ بِهَا مَا قَدْ فَاتَ، وَتُحْيِي بِهَا مَا قَد مَاتَ. نَافِعَةَ الْحَيَا[۶۷۵]، كَثِيرَةَ الْمُجْتَنَى تُرْوِى بِهَا الْقِيعَانَ ۶۷۶]، وَتُسِيلُ الْبُطْنَانَ، وَتَسْتَوْرِقُ الْأَشْجَارَ، وَتُرْخِصُ الْأَسْعَارَ؛ «إِنَّکَ عَلَى مَا تَشَاءُ قَدِيرٌ»[۶۷۷].

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۸۸

سل اللّه كل شىء

تحدثنا باسهاب فى ذيل الخطبة ۱۵۵ عن صلاة الاستسقاء وآدابها، ونخوض هنا فى الإجابة عن سؤال وهو لم شرح الإمام عليه السلام الصفات المذكورة فى المطر حين استغاثته باللّه سبحانه فى نزوله (حيث ذكر فى هذه الخطبة تسع صفات وفى الخطبة السابقة عشرين صفة) والحال اللّه عليم بكل هذه الصفات ولا داعى من شرحها؟

وللإجابة عن هذا السؤال لابدّ من الالتفات إلى أنّ شرح الطلبات بجميع جزئياتها وبالنظر إلى طلب الحاجات من اللّه تعالى، تفيد هذا المعنى وهو ضرورة سؤال الناس من اللّه عزّ اسمه عن جميع وحاجاتهم وطلباتهم، وذلك لأنّ هذه الأدعية تفيد مدى حاجة الناس، وهذا بدوره يضاعف من عشق الناس للّهسبحانه، ومن جانب أخر لابدّ أن يعلموا كم هو حيوى المطر النافع وأى بركات وخيرات فيه.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۸۹

الخطبة[۶۷۸] المأة والرابعة والاربعون

اشارة

وَمِنْ خُطبَةٍ لهُ عليه السلام

مبعث الرسل

نظرة إلى الخطبة

تحدث الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة عن ثلاثة محاور هى:

المحور الأول: الذى بيّن فيه بعض الأمورالمهمّة بشأن مبعث الأنبياء ورسالاتهم.

المحور الثانى: الذى تطرق فيه إلى فضائل أهل البيت عليه السلام وأفضليتهم على من سواهم.

المحور الثالث: الذى يتضمن إشارات عميقة المعنى إلى نهج الضالين وعاقبة أمرهم

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۹۱

القسم الأول: فلسفة الإمتحان الإلهى

«بَعَثَ اللَّهُ رُسُلَهُ بِمَا خَصَّهُمْ بِهِ مِنْ وَحْيِهِ، وَجَعَلَهُمْ حُجَّةً لَهُ عَلَى خَلْقِهِ، لِئَلَّا تَجِبَ الْحُجَّةُ لَهُمْ بِتَرْكِ الْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ، فَدَعَاهُمْ بِلِسَانِ الصِّدْقِ إِلَى سَبِيلِ الْحَقِّ. أَلَا إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ كَشَفَ الْخَلْقَ كَشْفَةً؛ لَاأَنَّهُ جَهِلَ مَا أَخْفَوْهُ مِنْ مَصُونِ أَسْرَارِهِمْ وَمَكْنُونِ ضَمَائِرِهِمْ؛ وَلكِنْ «لِيَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» فَيَكُونَ الثَّوَابُ جَزَاءً، وَالْعِقَابُ بَوَاءً».

الشرح والتفسير

يعتقد جمع من شرّاح نهج البلاغة أنّ دافع الإمام عليه السلام من هذه الخطبة بيان الرد القاطع على المغرضين الذين ينكرون فضائل

الإمام عليه السلام، والطبع فانّ جانباً من الخطبة قد عالج هذا الأمر، وإن إشتملت سائر الأقسام على إبعاد كلية.

وعلى كل حال فقد أشار الإمام عليه السلام فى المقطع الأول من هذه الخطبة إلى أمرين: هما فلسفة بعثة الأنبياء وفلسفة الامتحان الإلهى، فقال عليه السلام:

«بَعَثَ اللَّهُ رُسُلَهُ بِمَا خَصَّهُمْ بِهِ مِنْ وَحْيِهِ، وَجَعَلَهُمْ حُجَّةً لَهُ عَلَى خَلْقِهِ، لِئَلَّا تَجِبَ الْحُجَّةُ لَهُمْ بِتَرْكِ الْإِعْذَارِ[۶۷۹] إِلَيْهِمْ، فَدَعَاهُمْ بِلِسَانِ الصِّدْقِ إِلَى سَبِيلِ الْحَقِّ».

فهذه العبارة تشير إلى نقطة مهمّة وردت كراراً فى الآيات القرآنية وهى عدم مؤاخذة اللَّه سبحانه العباد دون بعث الرسل وإبلاغهم أوامره ونواهيه سبحانه عن طريق الوحى، فقد جاء

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۹۲

فى الآية ۱۵ و ۱۶ من سورة الاسراء: «وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا* وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً»، هنا يطرح هذا السؤال وهو عدم انسجام ما ورد فى هذه الخطبة والآيات القرآنية الواردة بهذا الشأن ومبدأ استقلال حكم القتل، فالحجة تتم على الإنسان من خلال العقل الذى يحكم بحسن وقبح الأشياء (كإدراكه لحسن العدل وقبح الظلم) وعليه فهو يستحق العقاب أو الثواب حتى دون بعث الأنبياء والرسل، ونقول فى الإجابة عن هذا السؤال صحيح أنّ هناك استحقاقاً للثواب والعقاب وإرادة الحق تبارك وتعالى ومن باب اللطف بالعباد واقتضت عدم مؤاخذة العباد وعقابهم ما لم تويد المستقلات العقلية بواجبات الشرع ومحرماته التى تعين عن طريق الوحى.

ومن هنا تتضح عدم الحاجة للإجابة التى ذكرها بعض شرّاح نهج البلاغة حيث صرّحوا بأنّ هذه الآية فى حكم العموم الذى يخصص فى المستقلات العقلية.

وبعبارة أخرى: إنّ اللَّه تعالى لا يعاقب شخصاً دون بعث الأنبياء ونزول الوحى سوى فى المستقلات العقلية من قبيل قبح الظلم والجور والسرقة وقتل النفس، ثم خاض الإمام عليه السلام فى مطلب آخر فى إطار مواصلة لكلامه والذى يتمثل بفلسفة الإمتحان الإلهى فقال:

«أَلَا إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ كَشَفَ الْخَلْقَ كَشْفَةً؛ لَاأَنَّهُ جَهِلَ مَا أَخْفَوْهُ مِنْ مَصُونِ أَسْرَارِهِمْ وَمَكْنُونِ ضَمَائِرِهِمْ؛ وَلكِنْ «لِيَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» فَيَكُونَ الثَّوَابُ جَزَاءً، وَالْعِقَابُ بَوَاءً[۶۸۰]».

فقد كشف الإمام عليه السلام بهذه العبارة اللثام عن مسألة مهمّة حيث لا معنى لمفهوم الامتحان بالنسبة للَّهبالشكل الذى تعارف على العباد، فالهدف من اختبار العباد لرفع الجهل والإبهام، لمعرفة الأشياء و التعرف على الأشخاص، وليس لمثل هذه الأمور من مفهوم لمن كان الغيب والشهادة والظاهر والباطن عنده سواء، بل هدف البلاء الإلهى هو أن يظهر الإنسان ما يبطنه لتتحقق مسألة استحقاق الثواب والعقاب.

وبعبارة أوضح: لا يمكن إثابة الفرد أو معاقبته على ما يضمره من نيّات حسنة أو سيئة، بل يترتب الثواب والعقاب على ما يصدر منه من أعمال وأفعال تفرزها النيّات، وهذا ما بيّنه

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۹۳

الإمام عليه السلام فى إحدى قصار كلمات فى تفسير للآية القرآنية:

«وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ...»[۶۸۱]، معنى أن يختبرهم بالأموال والأولاد ... «وَإِنْ كَانَ سُبْحَانَهُ أَعْلَمَ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَلكِنْ لِتَظْهَرَ الْأَفْعَالُ الَّتى بِهَا يُسْتَحَقُّ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ»[۶۸۲].

فلم يرد فى الفقه ولا- فى دستور أى بلد التصريح بعقاب شخص بسبب نيّة القتل أو السرقة، وكما لا يثاب بسبب نيّته الحسنة فى الخدمة، وإن شمل مثل هؤلاء- الأفراد بنوع من التكريم تفضلًا بسبب تلك النيّات وقد تظافرت الروايات التى صرّحت بجزاء الخير تفضلًا منه سبحانه كونه أرحم الجميع، لكنّه لايعاقب على نيّة الشرّ كما ورد فى الحديث:

«مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ یَعْمَلها کُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً ... وَمَنْ هَمَّ بِسَیِّئَةٍ لَم تُکتَبْ عَلَیهِ»[۶۸۳].

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۳۹۵

القسم الثانی: منزلة الولایة

اشارة

«أَیْنَ الَّذِینَ زَعَمُوا أَنَّهُمُ الرَّاسِخُونَ فِی الْعِلْمِ دُونَنَا، کَذِباً وَبَغْیاً عَلَیْنَا، أَنْ رَفَعَنَا اللَّهُ وَوَضَعَهُمْ، وَأَعْطَانَا وَحَرَمَهُمْ، وَأَدْخَلَنَا وَأَخْرَجَهُمْ. بِنَا یُسْتَعْطَی الْهُدَی، وَیُسْتَجْلَی الْعَمَی إِنَّ الْأَئِمَّةَ مِنْ قُرَیْشٍ غُرِسُوا فِی هذَا الْبَطْنِ مِنْ هَاشِمٍ؛ لَاتَصْلُحُ عَلَی سِوَاهُمْ، وَلَا تَصْلُحُ الْوُلَاةُ مِنْ غَیْرِهِمْ».

الشرح والتفسیر

خاض الإمام علیه السلام فی هذا المقطع من الخطبة فی الرد علی التخرصات فی مجال العلم والمعرفة الإسلامیة تجاه أهل البیت علیهم السلام ویقدمهم علی أنهم أعلم من غیرهم بکذبهم، وأنّ الساسة المحترفین آنذاک کانوا یثیرون تلک التخرصات بهدف النیل من مسألة خلافة وإمامة أهل البیت علیهم السلام فقال:

«أَیْنَ الَّذِینَ زَعَمُوا أَنَّهُمُ الرَّاسِخُونَ فِی الْعِلْمِ دُونَنَا، کَذِباً وَبَغْیاً عَلَیْنَا».

وأضاف علیه السلام أینهم اولئک لیروا کیف رفعنا اللَّه تعالی وفضلنا وأعطانا ووضعهم وحرمهم وأدخلنا فی سعة رحمته وأخرجهم منها:

«أَنْ رَفَعَنَا اللَّهُ وَوَضَعَهُمْ، وَأَعْطَانَا وَحَرَمَهُمْ، وَأَدْخَلَنَا وَأَخْرَجَهُمْ».

فی إشارة إلی أنّ إتّباع أهل البیت علیهم السلام فی معارفهم والإسلامیة ووقوفهم علی القرآن والوحی والسنّة النبویة الشریفة لیس بالشیء الخفی علی أحد، فهم کهف الامة الذی کان یلوذ به حتی الخلفاء فی ما یعترضهم من مشاکل وصعوبات، وهذا من البدیهیات التی لا یختلف علیها إثنان، وأمّا اولئک الذین تدفعهم القضایا السیاسیة والحب والبغض الناشیء من العلاقات المادیة بانکار هذه الحقیقة فإنّما یفضحون أنفسهم.

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۳۹۶

ثم قال علیه السلام: «

بِنَا یُسْتَعْطَی الْهُدَی، وَیُسْتَجْلَی الْعَمَی ،

والشواهد التاریخیة المستفیضة والأحادیث النبویة القطعیة إنّما تؤید هذا الکلام، وهذا ما ستنعرض له فی البحث القادم.

وأخیراً إختتم الإمام علیه السلام هذا المقطع من الخطبة بالإشارة إلی الحدیث النبوی الشریف بشأن اقتصار الإمام علی قریش وبنی هاشم فقال:

«إِنَّ الْأَئِمَّةَ مِنْ قُرَیْشٍ غُرِسُوا فِی هذَا الْبَطْنِ مِنْ هَاشِمٍ؛ لَاتَصْلُحُ عَلَی سِوَاهُمْ، وَلَا تَصْلُحُ الْوُلَاةُ مِنْ غَیْرِهِمْ».

فالإمام بإشارته إلی الحدیث النبوی المعروف:

«إِنَّ الْأَئِمَّةَ مِنْ قُرَیْشٍ»

، ومن ثم حصرها فی بنی هاشم أوضح بأنّ أدعیاء الخلافة من غیر بنی هاشم لا یستحقون هذا المقام ولابدّ من التحری عن بنی هاشم فی کل زمان للعثور علی الإمام الحق.

قبسات من علم علی علیه السلام

لقـد عمـد تجّار السـياسة بهـدف نيل أهـدافهم وتحقيق مآربهم إلى إنكار أوضح المسائل أحياناً أو المرور عليها من خلال التوجيهات الجوفاء وأحد مصاديق ذلك منح بعض الصـحابة الأفضـلية على على عليه السلام حتى قدموا عليه تلميذه فى التفسير والذى كان يفخر بذلك هو ابن عباس ۶۸۴]، وزيد بن ثابت فى العلم بأحكام الميراث وأبى بن كعب فى القراءة، ولم ينسبوا للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله حديثاً بهذا الشأن، فى حين تظافرت مصادر الفريقين (الشيعة والسنّة) التى تؤكد أعلميّة على عليه السلام على سائر الصحابة قاطبة بما لا يمكن إنكارها ومن ذلك:

۱- حـديث الثقلين وهو من أشـهر الأحـاديث التى روتها مصادر العامّـة- وقـد استشـهدنا به سابقاً[۶۸۵]- بالكتـاب وأهل البيت عليهم السلام الذين لا يفترقون عنه والكل يعلم بأنّ القرآن هو مصدر جميع العلوم المعارف.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۹۷

۲- الحديث المعروف

«أقضاكُم عليّاً»[۶۸۶]

، هو الشاهـد الآخر على هـذا الأمر، وذلك لأنّ القضاء واصدار الأحكام الإسـلامية يتطلب إحاطة علمية بأصول الإسـلام وفروعه، ومن كان الأعلم كان هو الأقضى.

۳- الحديث المروى عن على عليه السلام أنّه قال:

«عَلَّمَنِى رَسُولُ اللَّهِ أَلفَ بَابٍ كُلُّ بَابٍ يَفْتَحُ (منه) أَلفَ بَابٍ»[۶۸۷]

، وهو دليل آخر يكشف بوضوح أن ليس بين الامّة من يماثله فى العلم والمعرفة وذلك لأنّ هذا الحديث لم يرد فى شخص سواه.

۴- قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى تفسير الآية: « «وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ»[۶۸۸] إنّما هو على»[۶۸۹].

لابدّ من الإلتفات هنا إلى أنّه طبق الآية ۴۰ من سورة النمل فقد تمكن آصف بن برخيا:

«الَّذِى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنْ الْكِتَابِ ...»، من الإتيان بعرش بلقيس من اليمن إلى الشام، فما بالك بقدرة من لديه علم بكل الكتاب.

۵- الكلام المشهور لعلى عليه السلام حين قال:

«سَلُونِى قَبلَ أنْ تَفقِدُونِى»

والذى صرّح كبار علماء العامّة أنّ شخصاً غير على عليه السلام لم يقل ذلك إلّاافتضح ۶۹۰].

۶- العارفون بتاريخ الإسـلام فى عصـر الخلفاء يعلمون أنّ عليّاً عليه السـلام كان الكهف العلمى الحصـين للُامة حتى قال الخليفة الثانى كراراً ومراراً

: «لولا على لهلك عمر»

، وقال فى عبارة اخرى:

«اللّهمّ لاتُبقِنِى لِمعضلَةٍ لَيسَ لَها ابن أَبِى طالبٍ»

، وقال:

«لا أَبقَانِى اللَّهُ بِأَرضٍ لَستَ فِيها (يا) أَبا الحَسن»[۶۹۱].

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۹۸

وهـذا المطلب على درجـة من الوضوح حتى أصبح المثل يضـرب به بين الناس، فكلما عصيت قضـية على أحد ولم يكن هنالك من يحلّها قالوا:

«قَضِيةٌ وَلا أَبَا حَسَنٍ لَها»[۶۹۲].

روایهٔ أنّ الأئمّهٔ من قریش

نشیر فی الخطبهٔ إلی هـذه النقطـهٔ وهی أنّ الأئمّـهٔ من قریش ومن بنی هاشم ولیس للآخرین صـلاحیهٔ الخلافـهٔ والإمامهٔ وینسـجم هذا الکلام مع عدّهٔ روایات التی وردت فی أشهر مصادر العامّهٔ ومنها:

۱- روی عن جابر بن سمرهٔ فی صحیح مسلم أنّه قال: سمعت رسول اللّه صلی الله علیه و آله قال:

«لا یَزالُ الإسلامُ عَزیزاً إلی إثنی عَشَرَ خَلِیفهٔ- ثُم قال کلمهٔ لم أفهمها- فقلتُ لأبِی مَا قَالَ؟ قال: فقال: کُلُّهُم مِن قُرَیش»[۶۹۳]

، وقد وردت هذه الروایات بعبارات مختلفهٔ.

والجدیر بالذکر إننا نقرأ فی أحد طرق هذا الحدیث فی صحیح مسلم أنّ جابراً قال فی ذیل الحدیث

«فَقَالَ صلی الله علیه و آله کَلِمهً أَصَمنِیها النَّاسُ فَقُلتُ لأَبِی مَا قَالَ؟ قَالَ: کُلُّهُم مِن قُرَیشٍ»

، کما ورد عنه صلی الله علیه و آله أنّه قال:

«لا یَزالُ الدِّینُ قَائِماً حَتّی تَقُومَ السَّاعَهُٔ أو یَکُونَ عَلَیکُم إثنا عَشَرَ خَلِیفَهً کَلُّهُم مِن قُرَیشٍ».

۲-

جاء فی صحیح البخاری عن جابر قال: سمعت رسول اللّه صلی الله علیه و آله قال:

«یَکُونُ إثنی عَشَرَ أَمِیراً فَقَالَ کَلِمَهً لَم أسمَعها فقال: أَبِی أَنّه قَالَ: کَلُّهُم مِن قُرَیشٍ»[۶۹۴].

۳- وورد مثل هذا المضمون فی صحیح الترمذی مع اختلاف طفیف وقال فیه:

«هذا حِدیثٌ حسَنٌ صَحیحٌ»[۶۹۵].

۴- کما ورد نفس هذا المضمون فی صحیح أبی داود ویفید تعبیر الحدیث أنّ النبی صلی الله علیه و آله قاله فی جماعهٔ، حیث جاء فی الخبر أنّ النبی صلی الله علیه و آله حین قال:

«لا یَزالُ الإسلامُ عَزیزاً إلی إثنی عَشَرَ خَلِیفهٍ کَبَّرَ النَّاسُ بِأَعلَی أَصواتِهِم»[۶۹۶].

نفحات الولایهٔ، ج۵، ص: ۳۹۹

۴- کما ورد الحدیث فی عدّهٔ موارد فی مسند أحمد بن حنبل ۶۹۷].

وقد ذهب بعض المحققین إلی أنّ عدد طرقه فی مسند أحمد ۳۴ طریق ۶۹۸].

لقد أسهب علماء العامّهٔ بشأن تفسیر الأحادیث المذکورهٔ والتی وردت فی أشهر مصادرهم، إلّاأنّهم لم یقدموا تفسیراً قانعاً حول الإثنی عشـر خلیفـهٔ أو أمیر، وذلک لأنّهم یعتقـدون بعـدم انطباق هذا العدد والخلفاء، ولا یمکن تفسـیره إلّاعلی ضوء اعتقاد أتباع أهل البیت علیهم السلام.

منزلهٔ بنی هاشم فی الإسلام

اشـیر فی الخطبـهٔ إلی منزلـهٔ بنی هاشم فی قریش، والذی أقتبس فی الواقع من کلمات النبی الأکرم صـلی الله علیه و آله، ومن ذلک ما روی عن عائشهٔ فی کتاب «فضائل الصحابهٔ» لأحمد بن حنبل قالت:

قَال رسول اللّه صلی الله علیه و آله:

«قَالَ لِی جِبرَائیلُ یَا مُحَمِّد قَلَّبتُ الأَرضَ مَشَارِقَها وَمَغَارِبَها فَلَم أَجِدْ وُلْدَ أَبٍ خَیْرَاً مِنْ بَنِی هَاشِمٍ»[۶۹۹].

ومن الواضح أنّ المقصود لیس جمیع بنی هاشم، والحدیث یبدو ناظراً إلی الأئمّهٔ المعصومین علیهم السلام.

نفحات الولایهٔ، ج۵، ص: ۴۰۱

القسم الثالث: هؤلاء الجفاة يحرقون الأخضر واليابس

منها: «آثَرُوا عَاجِلًا وَأَخَّرُوا آجِلًا، وَتَرَكُوا صَافِياً وَشَرِبُوا آجِناً؛ كَأَنِّى أَنْظُرُ إِلَى فَاسِقِهِمْ وَقَدْ صَحِبَ الْمُنْكَرَ فَأَلِفَهُ، وَبَسِئَ بِهِ وَوَافَقَهُ، حَتَّى شَابَتْ عَلَيْهِ مَفَارِقُهُ، وَصُبِغَتْ بِهِ خَلَائِقُهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ مُزْبِداً كَالتَّيَّارِ لَايُبَالِى مَا غَرَّقَ، أَوْ كَوَقْعِ النَّارِ فِى الْهَشِيمِ لَايَحْفِلُ مَاحَرَّقَ!».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة إلى الأفراد الذين وقفوا بوجه أئمّة الحق وقد ولوا ظهورهم للحق من أجل الحكومة لبضعة أيّام فقال:

«آثَرُوا عَاجِلًا وَأَخَّرُوا آجِلًا، وَتَرَكُوا صَافِياً وَشَرِبُوا آجِناً[۷۰۰]؛ كَأَنِّى أَنْظُرُ إِلَى فَاسِقِهِمْ وَقَدْ صَحِبَ الْمُنْكَرَ فَأَلِفَهُ، وَبَسِئَ بِهِ [۷۰۱] وَوَافَقَهُ، حَتَّى شَابَتْ عَلَيْهِ مَفَارِقُهُ، وَصُبِغَتْ بِهِ خَلَائِقُهُ [۷۰۲]».

ثم قال مواصلة لكلامه عليه السلام:

«ثُمَّ أَقْبَلَ مُزْبِداً[۷۰۳] كَالتَّيَّارِ[۷۰۴] لَايُبَالِى مَا غَرَّقَ، أَوْ كَوَقْعِ النَّارِ

فِى الْهَشِيمِ ۷۰۵] لَايَحْفِلُ ۷۰۶] مَاحَرَّقَ!».

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۰۲

هنالك خلاف بين شرّاح نهج البلاغة بشأن الضمير وعودته فى هذه العبارات، فقد ذهب البعض إلى أنّ المراد بالخلفاء الأوائل، وذهب البعض الآخر إلى أنّ المراد بعض الصحابة الذين انحرفوا، وقال البعض يراد بها مفهوماً عاماً وأخيراً رآه البعض إشارة إلى بنى امية، ويبدو الاحتمال الأخير أنسبها جميعاً، لأنّهم آثروا الدنيا على الآخرة جهرة وقد تنكروا للحق وسقطوا فى مستنقع الدنيا العفن، وبناءاً على هذا فالمراد بالعبارة

«كَأَنِّى أَنْظُرُ إِلَى فَاسِقِهِم»

، هو عبدالملك بن مروان حيث كان من أقدر عناصر بنى امية، وقد إرتكب الكثير من الجرائم وباشرها بنفسه، وما أبشع الجنايات التى إرتكبها واليه الغاشم الحجاج، فقد كان كالنار الملتهبة التى تحرق الأخضر واليابس ولا يقف أمامها شىء، والعبارة كأنّى انظروا إلى فاسقهم إشارة إلى فرد يظهر فى المستقبل، فلا يمكن تطبيقها على الماضين أو المعاصرين له عليه السلام إلّامع تكلّف.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۰۳

القسم الرابع: دعاة الحق و أتباع الشيطان

«أَيْنَ الْعُقُولُ الْمُسْتَصْبِحَةُ بِمَصَابِيحِ الْهُدَى، وَالْأَبْصَارُ اللَّامِحَةُ إِلَى مَنَارِ التَّقْوَى! أَيْنَ الْقُلُوبُ الَّتِى وُهِبَتْ لِلَّهِ، وَعُوقِدَتْ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ! ازْدَحَمُوا عَلَى الْحُطَامِ، وَتَشَاحُّوا عَلَى الْحَرَامِ، وَرُفِعَ لَهُمْ عَلَمُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَصَرَفُوا عَنِ الْجَنَّةِ وُجُوهَهُمْ، وَأَقْبَلُوا إِلَى النَّارِ بِأَعْمَالِهِمْ؛ وَدَعَاهُمْ رَبُّهُمْ فَنَفَرُوا وَوَلَّوْا، وَدَعَاهُمُ الشَّيْطَانُ فَاسْتَجَابُوا وَأَقْبَلُوا!».

الشرح والتفسير

تحدّث الإمام عليه السلام فى المقطع الأخير من هذه الخطبة عن فئتين: فئة عاقلة ومتقية ومطيعة للحق وأخرى تكالبت على حطام الدنيا وتسابقت مع بعضها من أجل نيل الأموال الحرام فقال:

«أَيْنَ الْعُقُولُ الْمُسْتَصْبِحَةُ بِمَصَابِيحِ الْهُدَى، وَالْأَبْصَارُ اللَّامِحَةُ[۷۰۷] إِلَى مَنَارِ

التَّقْوَى! أَيْنَ الْقُلُوبُ الَّتِى وُهِبَتْ لِلَّهِ، وَعُوقِدَتْ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ!»

، إشارة إلى أنّ جماعة عظيمة من الناس سلكت سبيل المخالفة، وقد قل الصالحون وكأن الإمام عليه السلام يبحث عنهم ليجدهم.

ثم تطرق علیه السلام إلی الفئة الثانیة التی تهافتت علی الدنیا فقال:

«ازْدَحَمُوا عَلَی الْحُطَام ۷۰۸]،

وَتَشَاحُّوا[۷۰۹] عَلَی الْحَرَام، وَرُفِعَ لَهُمْ عَلَمُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَصَرَفُوا عَنِ الْجَنَّةِ وُجُوهَهُمْ،

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۴۰۴

وَأَقْبَلُوا إِلَی النَّارِ بِأَعْمَالِهِمْ؛ وَدَعَاهُمْ رَبُّهُمْ فَنَفَرُوا[۷۱۰] وَوَلَّوْا، وَدَعَاهُمُ الشَّیْطَانُ فَاسْتَجَابُوا وَأَقْبَلُوا!».

یبدو أن الفئتین اللتان أشار إلیهما الإمام علیه السلام فی هذا المقطع من الخطبة، هما تلک الفئتان اللتان ذکرتا سابقاً، فئة سلمت لأئمّة الهدی وانقادت لهم، وأخری تمردت ووقفت بوجههم سعت لإطفاء نورهم، فهی فئة أخلدت إلی الدنیا ولم تهتم بالحلال والحرام وتتسابق فیما بینها من أجل تبعیة الشیطان وطاعته.

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۴۰۵

الخطبة[۷۱۱] المأة والخامسة و الأربعون

اشارة

وَمِنْ خُطبَةٍ لهُ علیه السلام

فناء الدنیا وذم البدع

نظرة إلی الخطبة

الخطبة ناظرة إلی موضوعین:

الموضوع الأول: إشارة إلی تقلب الدنیا وزوال نعمها، حیث یتعرف الإنسان أکثر فأکثر علی حقیقة هذا العالم المتغیر حین یتأمل هذه العبارات التی تضمنت مواعظ توقظ السامع من غفلته.

الموضوع الثانی: حول ذم البدع حیث تتغیب سنة کلّما شاعت بدعة بین الناس.

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۴۰۷

القسم الأول: تضارب نعم الدنیا

«أَیُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا أَنْتُمْ فِی هذِهِ الدُّنْیا غَرَضٌ تَنْتَضِلُ فِیهِ الْمَنَایَا، مَعَ کُلِّ جَرْعَةٍ شَرَقٌ، وَفِی کُلِّ أَکْلَةٍ غَصَصٌ! لَاتَنَالُونَ مِنْهَا نِعْمَةً إِلَّا بِفِرَاقِ أُخْرَی، وَلَا یُعَمَّرُ مُعَمَّرٌ مِنْکُمْ، یَوْماً مِنْ عُمُرِهِ، إِلَّا بِهَدْمِ آخَرَ مِنْ أَجَلِهِ، وَلَا تُجَدَّدُ لَهُ زِیَادَةٌ فِی أَکْلِهِ، إِلَّا بِنَفَادِ مَا قَبْلَهَا مِنْ رِزْقِهِ. وَلَا یَحْیَا لَهُ أَثَرٌ إِلَّا مَاتَ لَهُ أَثَرٌ. وَلَا یَتَجَدَّدُ لَهُ جَدِیدٌ إِلَّا بَعْدَ أَنْ یَخْلَقَ لَهُ جَدِیدٌ. وَلَا تَقُومُ لَهُ نَابِتَةٌ إِلَّا وَتَسْقُطُ مِنْهُ مَحْصُودَةٌ. وَقَدْ مَضَتْ أُصُولٌ نَحْنُ فُرُوعُهَا، فَمَا بَقَاءُ فَرْعٍ بَعْدَ ذَهَابِ أَصْلِهِ!».

الشرح والتفسیر

أشار الإمام علیه السلام فی هذا القسم من الخطبة إلی أفات الدنیا التی تهدد الإنسان من کل ناحیة وقد عکس هذه الآفات بثلاث عبارات عمیقة المعنی فقال:

«أَیُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا أَنْتُمْ فِی هذِهِ الدُّنْیا غَرَضٌ ۷۱۲] تَنْتَضِلُ فِیهِ الْمَنَایَا، مَعَ کُلِّ جَرْعَةٍ شَرَقٌ ۷۱۳]، وَفِی کُلِّ أَکْلَةٍ غَصَصٌ![۷۱۴] لَاتَنَالُونَ

مِنْهَا نِعْمَةً إِلَّا بِفِرَاقِ أَخْرَى»

، فهى تشير من جانب إلى الآفات المميتة التى تشمل الفردية من قبيل أنواع الأمراض وحملات الحيوانات ومنازعة الأشرار والسقوط من الشاهق وإلى ذلك، وكذلك الآفات الجماعية كالزلازل والسيول والقحط والحروب، ومن جانب أخر ذكر اقتران كل نعمة بنقمة وكل نصر ونجاح بهزيمة وفشل، أهونها ما ورد فى عبارة الإمام عليه السلام حين قال:

نفحات الولايهٔ، ج۵، ص: ۴۰۸

«مَعَ كُلِّ جَرْعَةٍ شَرَقٌ، وَفِى كُلِّ أَكْلَةٍ غَصَصٌ! لَاتَنَالُونَ مِنْهَا نِعْمَةً إِلَّا بِفِرَاقِ أُخْرَى»

، فلعله يغص بالطعام ويموت رغم لذّته وشوقه إليه، وأخيراً أشار إلى تنافر النعم الدنيوية المادية فصرّح بتعذر جمعها، فما إن ينال واحدة حتى تفارقه أخرى، مثلًا يحرم من نعمة الولد فيهبه اللّه الولد لكنه يسلبه الهدوء والراحة، أو أنّه فقير لا مال لديه ويعيش ظروفاً صعبة فيهبه اللّه المال، ولكن الحرص على هذا المال وكيفية التصرف به لا تدع له مجالًا للراحة، ليس لديه وسيلة نقلية فهو يعانى من المصاعب وما إن يحصل عليها حتى يعانى من مشاكل جديدة من قبيل إنفاق المال عليها وكيفية المحافظة عليها، وهكذا فهو لا يحصل على نعمة إلى بفراق أخرى.

والعبارة تنتضل بالنظر إلى أنّها تستعمل بشأن الأفراد الذين يشتركون فى مسابقات الرمى فهى تشير إلى آفات الدنيا وكأنّها تتسابق لاستهداف حياة الإنسان، والعبارة منايا جمع منية بمعنى الموت إشارة إلى اختلاف أنواع الوفيات سواء الفردية أو الجماعية والتى اشير إليها فى الخطبة، قد يتصور أحياناً أنّ العبارة «

لَا تَنَالُونَ مِنْهَا ...»

، تعبير آخر عن الجملة

«مَعَ كُلِّ جَرْعَةٍ شَرَقٌ ...»

، والحال العبارتان مختلفتان، فالعبارة مع كل جرعة شرق إشارة إلى أنّ بانتظار كل نعمة آفة كامنة، وأمّا العبارة لا تناولوا منها ... فهى تشير إلى أنّه لو لم يكن هنالك من آفة فانّ النعم لا تجتمع، فلا تنال واحدة إلّابمفارقة أخرى.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بشرح رائع للعبارة السابقة حين قال لا تنالون نعمة إلّابفراق أخرى، فبيّن خمسة نماذج واضحة فى خمس عبارات فقال:

«وَلَا يُعَمَّرُ مُعَمَّرٌ مِنْكُمْ، يَوْماً مِنْ عُمُرِهِ، إِلَّا بِهَدْمِ آخَرَ مِنْ أَجَلِهِ، وَلَا تُجَدَّدُ لَهُ زِيَادَةٌ فِى أَكْلِهِ، إِلَّا بِنَفَادِ مَا قَبْلَهَا مِنْ رِزْقِهِ. وَلَا يَحْيَا لَهُ أَثَرٌ إِلَّا مَاتَ لَهُ أَثَرٌ. وَلَا يَتَجَدَّدُ لَهُ جَدِيدٌ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَخْلَقَ ۷۱۵] لَهُ جَدِيدٌ. وَلَا تَقُومُ لَهُ نَابِتَةٌ

إِلَّا وَتَسْقُطُ مِنْهُ مَحْصُودَةٌ[۷۱۶]».

نعم، للإنسان حيوية خاصة حين الطفولة فان انتقل إلى مرحلة الشباب ودبّ فيه نشاطه تزوال عنه حيوية الطفولة، فان اتّجه نحو مرحلة الشيخوخة وأصبح وجوده مجموعة من

نفحات الولايهٔ، ج۵، ص: ۴۰۹

التجارب والخيرات فقد نشاط الشباب، وهكذا يمنح اللّه الإنسان نعمة الولد ولا تمضى مدّة حتى يفقد أباه ويتعرف على أصدقاء جدد، فى حين يسلب القدماء من أصدقائه، وهكذا يحصل على نعمة ويفقد أخرى، وهذه هى طبيعة الحياة الدنيا والنعم المادية، فهى لا تجتمع لأحد فى أى زمان ومكان فلا تنال نعمة إلى بفراق نعمة أخرى، وهذا بحدّ ذاته إنذار لكافة الناس بعدم التعلق بنعم الدنيا وربط القلب بها، والعبارة

«وَلَا يَحْيَا لَهُ أَثَرٌ ...»

، إشارة إلى أنّ الإنسان إن خلّف بعض الآثار- سواء كانت هذه الآثار علمية أم خيرية ذات النفع العام- فانّه يفقد قطعاً من أجلها طاقة

من حيث الفكر والبدن، والعبارة

«وَلَا تَقُومُ لَهُ نَابِتَةٌ ...»

، يمكن أن تكون إشارة إلى نعمة الولد والحفيد حيث كلما كبر هؤلاء فقدوا بالتدريج قرابتهم الأكبر، كما يمكن أن تكون إشارة إلى كل نمو وتقدم، مثلًا يغرس الإنسان بذور جديدة فى جانب من بستانه فى حين يعانى جانب أخر من ذبول الأشجار وموتها الواحدة بعد الأخرى.

ثم إختتم الإمام عليه السلام كلامه بالقول:

«وَقَدْ مَضَتْ أُصُولٌ نَحْنُ فُرُوعُهَا، فَمَا بَقَاءُ فَرْعٍ بَعْدَ ذَهَابِ أَصْلِهِ!»

، فقد ذهب أباؤنا وأسلافنا وصاروا إلى الزوال فلا ينبغى لنا إنتظار البقاء، لأنّ الفرع الزائد على الأصل ليس بممكن، وبناءاً على هذا سنلحق بهم عاجلًا أم آجلًا.

لقد رسم الإمام عليه السلام صورة واضحة ودقيقة فى هذا القسم من الخطبة عن الدنيا، نعم، فلهذه الدنيا نعيش فيها آفاق تختلف تماماً عن واقعها، أفاق القصور والثروات والنعم والجمال والنشاط ولكن ما إن نقترب منها حين نصطدم بصورتها القبيحة، فالإنسان من جانب- كما أشار الإمام عليه السلام- هو هدف دائم لسهام الآفات والبلاء، بحيث لا يسعه التهكن بمستقبله لما بعد ساعة، ومن جانب أخر فإلى جانب كل نعمة مصيبة وإلى جانب كل وردة شوكة وأخيراً لا ننال نعمة حتى نفقد أخرى، نعيش حياة متواضعة، لكنّها مفعمة بالاستقرار، نتمنى سعة هذه المعيشة، إلّاأننا إن نلنا منيتنا طالعتنا العديد من المشاكل، حفظ المال والثروة بحدّ ذاته مشكلة كبيرة، إلى جانب عين الحسّاد التى تصوب نحوه وأمانى الأشرار بزواله واللصوص الذين يتربصون به، وأحياناً خيانة الزملاء والأصدقاء وهكذا سائر المشاكل التى تصب على رأسه من كل حدب وصوب والتى تقضى على استقراره بصورة تامة، ناهيك عن مختلف الأمراض

نفحات الولايۀ، ج۵، ص: ۴۱۰

التى تعرض للإنسان بفعل الجهاد، إننا خام ما دمنا شباباً فان نضجنا وعجزنا، وآنذاك يسعنا الاستفادة الصحيحة من الأموال بينما أيدينا خالية، فان أصبحنا نملك شيئاً لم يسعنا الاستفادة منه، فهل يمكن التعلق بمثل هذه الدنيا والوثوق بها؟ يقال إنّ أحدهم طلب من ملك أن يجلس على عرشه ساعة ويسلمه مقاليد الحكم ويأتمر بأمره الحرس والغلمان، فأجابه الملك لكنه أمر أن يعلق فوق رأسه بشعرة، فلما جلس على العرش شعر بالفرح الشديد، فوقعت عينه على الخنجر وأنّه معلق بشعرة فارتعش، لأنّه ظن سيقع عليه فى كل لحظة، فلمّا همّ بالهروب قيل له لم تنتهى ساعتك، فجلس خائفاً ينتظر انتهاء المدّة وهو يدعو إلى إنتهائها، ففهم إن كان السلطة من جمال فهى تشتمل على آلاف الأخطار، ولعل هناك من يهم بقتله من أقرب مقربيه كما يفيد التاريخ ذلك، ورغم كل هذه المشاكل فليس هناك من بقاء وخلود فى الحياة الدنيا ليسعى إليها الإنسان ويجهد نفسه من أجلها، وما عليه إلّاالسير نحو الآخرة، وكما قال آخر خلفاء بنى امية

«لَمّا حَلا لَنا الدَّهرُ خَلا مِنّا»[۷۱۷].

نفحات الولايۀ، ج۵، ص: ۴۱۱

القسم الثانى: موت السنن بظهور البدع

منهَا: «وَمَا أُحْدِثَتْ بِدْعَةٌ إِلَّا تُرِكَ بِهَا سُنَّةٌ. فَاتَّقُوا الْبِدَعَ وَالْزَمُوا الْمَهْيَعَ.

إِنَّ عَوَازِمَ الْأُمُورِ أَفْضَلُهَا، وَإِنَّ مُحْدَثَاتِهَا شِرَارُهَا».

الشرح والتفسير

يعالج هذا الكلام من الخطبة قضية مهمّة وهى قبح البدع، وعلى ضوء عدم الإرتباط الواضح بين هذا القسم والذى سبقه فالذى يبدوا

أنّ بين هذين القسمين أقسام حذفها المرحوم السيد الرضى رضى الله عنه، ولابدّ من تغير مفردة البدعة على أساس اللغة والشرع ليتضح لدينا مضمون هذا القسم من الخطبة: فالبدعة لغوياً تعنى كل تجدد والذى يمكنه أن يكون حسناً أو سيئاً، حسب ما صرّح به أرباب اللغة: «البدعة إنشاء أمر على غير مثال سابق».

أمّا المعنى السائد بين الفقهاء العلماء- كما ذكرنا ذلك فى شرح الخطبة السابعة عشرة- إدخال شىء فى الدين أو إخراجه دون قيام دليل معتبر على ذلك، ولما كانت تعاليم الإسلام وأحكامه خالدة ونازلة عن طريق الوحى فكل بدعة كبيرة، وإليها تعود كل فرقة واختلاف أصاب الامة الإسلامية، نعود الآن إلى شرح كلام الإمام عليه السلام فقد قال:

«وَمَا أُحْدِثَتْ بِدْعَةٌ إِلَّا تُرِکَ بِهَا سُنَّةٌ».

ثم نصح باجتناب البدع وضرورة السير على النهج المستقيم فقال عليه السلام:

«فَاتَّقُوا الْبِدَعَ

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۱۲

وَالْزَمُوا الْمَهْيَعَ ۷۱۸]. إِنَّ عَوَازِمَ ۷۱۹] الْأُمُورِ أَفْضَلُهَا، وَإِنَّ مُحْدَثَاتِهَا[۷۲۰] شِرَارُهَا».

فقد اتضحت حقيقة ما قيل فى هذه العبارة فى كيفية ترک سنّة حين ظهور بدعة، وكيف تكون البدعة شرّ الامور، لأنّه لو سمح للأفراد أن ينقصوا من الدين شيئاً أو يضيفوا له شيئاً على ضوء ذوقهم وفكرهم القاصر، لما بقى من أحكام الدين وتعاليمه شيئاً خلال مدّة وجيزة ولإنقلب كل شىء رأساً على عقب، وفقد اعتباره وأصالته، ولإستبدلت التعاليم الأصلية للدين بسلسلة من الأفكار المنحرفة والواهية ولحل السراب محل العين الزلال، طبعاً إن كان التجدد وليد البحث والتحقيق والدقيق فى أدلة أحكام الشرع وكشف حقائق حديثة من خلال الكتاب والسنّة والدليل القاطع للعقل، فليس هذا من البدعة فى شىء فحسب، بل سيكون سبب رفعة الدين وإزدهاره. وبعبارة أخرى: فانّ الكشف شىء جديد، أمّا المكشوف فهو موجود سابقاً فى الدين، أمّا إن كان الذوق الشخصى والاستحسان الظنى هو دعامة وأساس التجدد فليس له من نتائج سوى الظلال ومسخ الصورة الحقيقية الناصعة للدين ويتضح ممّا مرّ معنا عدم صواب ما أورده شرّاح نهج البلاغة للعبارة المذكورة من أن كلّ بدعة خلاف لسنّة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله الذى حرم البدعة، وعليه فالسنّة تترک بظهور البدعة، بل المراد أنّ لكل موضوعه فى الإسلام حكم، وكل بدعة تعارض ذلك الحكم، إذن فبظهور البدع تترک الأحكام الأصلية للدين- كما تبيّن جسامة خطأ ما أورده بعض شرّاح نهج البلاغة مثل ابن أبى الحديد الذى قسم البدع إلى حسنة وسيئة، فاعتبر مثلًا صلاة التراويح (تلك الصلاة المتسحبة التى كان يصليها الناس فرادا على عهد رسول اللّه صلى الله عليه و آله فى ليالى رمضان وقد ابتدع عمر أن تصلى جماعة) من البدع الحسنة،

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۱۳

وذلک لأنّه بهذه البدعة ترک سنّة، وترک سنّة استحباب الإفراد فى الصلاة المستحبة، وعليه فليس لدينا بدعة حسنة، وإن أقررنا البدعة الحسنة كان ذلک الإقرار بأنّ السنّة قد تكون حسنة وقد تكون سيئة، كما اتضح المعنى الذى أراده بعض العلماء للبدعة حين أجروا عليها الأحكام الخمسة من أن بعض البدع واجبة وبعضها محرمة، فانّما أرادوا المعنى اللغوى لا الشرعى باضافة أو طرح أشياء من الدين وأحكامه ومن هنا ورد فى الحديث عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«ألّا وَكُلُّ بِدعَةٍ ضَلالَةٌ، ألا وَكُلُّ ضَلالَةٍ فِى النَّارِ»[۷۲۱].

ومن أراد الوقوف على المزيد بشأن البدعة فليراجع المجلد الأول من هذا الكتاب ذيل الخطبة السابعة عشرة.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۱۵

الخطبة[۷۲۲] المأة والسادسة والأربعون

اشارة

وَمِنْ کلامٍ لهُ علیه السلام

وقد استشاره عمر بن الخطاب فی الشخوص لقتال الفرس بنفسه

نظرة إلی الخطبة

هناک خلاف بین المؤرخین فی أنّ هـذه الاسـتشارة بخصوص الحضور فی معرکـة نهاوند أو القادسـیة، ویری الطبری حسب قول ابن أبی الحدیـد أنّها فی معرکـة نهاونـد، بینما یراها المدائنی فی کتاب «الفتوح» بشأن معرکة القادسـیة[۷۲۳]، وخلاصـة ما ورد فی تاریخ الطبری أنّ عمر حین عزم علی الشـخوص بنفسه لقتال العجم طلب مشورة الصحابة فتقدم طلحة والزبیر وقالا رأیهما، إلّاأنّ عمر استشار علیاً علیه السـلام فأشار علیه السلام بعدم الشخوص بنفسه کما فی الخطبة، قال المرحوم الشیخ المفید رحمه الله فی «الإرشاد»، ورد عن أبی بکر الهذلی أنّ من بین الامور التی نقلت عن أمیرالمؤمنین علی علیه السـلام فی إرشاد الناس لما فیه مصلحتهم ولولا إرشاده لکان فسادهم أنّ فریقاً من أهل همدان والری وإصـفهان ودامغان ونهاوند تکاتبوا بینهم وبعثوا الرسل فرأوا أنّ الإسـلام قد فقد زعیمه (النبی الأکرم صلی الله علیه و آله) وخلفه من لم یستمر، ثم خلفه من طال عمره وقد

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۴۱۶

هجم علی مدننا وإنّه لن یترکنا ما لم نخرجه، فلمّا بلغ عمر الخبر فقدم إلی المسجد وأطلع الصحابة بالخبر، فقال کل رأیه، فأشار علی علیه السـلام (کما ورد فی هذه الخطبة) بما فیه صـلاح الإسـلام والمسـلمین، قال الشـیخ المفید: انظر کیف بیّن الإمام علیه السلام رأیه الصائب فی تلک الظروف الحساسة وأنقذ المسـلمین ۷۲۴]، علی کل حال فانّ هـذه الخطبة تعالج بمجموعها موضوعاً واحداً، وهو أنّ حضور رئیس الدولـة فی الحرب فی بعض الظروف أمر خطیر جـدّاً من شأنه أن یؤدّی إلی مشـکلتین، أحـدهما إتحاد أفراد العدو فیما بینهم وبـذل قصاری جهـدهم من أجل قتله، فیضـطرب الجیش ویختل نظمه، والأخری علی فرض عـدم حـدوث مثل هـذا الخطر فلعل إخلاء الجبهة الداخلیة یشـجع العدو علی الهجوم علی المراکز الأصـلیة للبلاد من کافة الجهات فتنجم من جراء ذلک الأخطار الشدیدة التی تهـدد کیان الإسـلام والمسـلمین، وتشـیر هـذه الخطبـة بوضوح إلی أنّ علیاً علیه السـلام أنّه کان یقف حتی إلی جانب أعدائه إذا اقتضت ذلک مصالح الإسلام والمسلمین حرصاً علی الدین وکیانه.

طبعاً هذا الکلام لا یعنی أنّ رئیس الدولة لا ینبغی أن یشـخص بنفسه قط فی میدان القتال فقد شـخص أمیر المؤمنین علی علیه السـلام بنفسه فی معارک الجمل وصـفین والنهروان، وأعظم من ذلک حضور النبی الأکرم صلی الله علیه و آله فی الغزوات، فالشرائط متفاوتة تماماً بحیث کانت تتطلب عدم حضور الخلیفة الثانی فی المیدان.

والجـدیر بالـذکر أنّ المعارک قـد تقع أحیاناً بالقرب من البلاد الإسـلامیة وفی المناطق القریبـة منه فانّ حضور المعرکة من قبل رئیس الدولـة لا یترتب علیه أیـة مخاطر فی مثل هـذه الظروف، فی حین تبرز مثل هـذه المخاطر فی المناطق البعیـدة وتجاه عدو قوی یمتلک جیشاً کبیراً، وقد تحدثنا فی مثل هذا الأمر فی شرحنا للخطبة ۱۳۴.

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۴۱۷

القسم الأول: الالتصاق بمرکز الدولة

اشارة

«إِنَّ هـذَا الْأَمْرَ لَمْ یَکُنْ نَصْـرُهُ وَلَا خِـذْلَانُهُ بِکَثْرَةٍ وَلَا بِقِلَّةٍ. وَهُوَ دِینُ اللَّهِ الَّذِی أَظْهَرَهُ، وَجُنْـدُهُ الَّذِی أَعَـدَّهُ وَأَمَـدَّهُ، حَتَّی بَلَغَ مَا بَلَغَ، وَطَلَعَ

حَيْثُ طَلَعَ؛ وَنَحْنُ عَلَى مَوْعُودٍ مِنَ اللّهِ، وَاللَّهُ مُنْجِزٌ وَعْدَهُ، وَنَاصِرٌ جُنْدَهُ. وَمَكَانُ الْقَيِّمِ بِالْأَمْرِ مَكَانُ النِّظَامِ مِنَ الْخَرَزِ يَجْمَعُهُ وَيَضُمُّهُ: فَإِنِ انْقَطَعَ النِّظَامُ تَفَرَّقَ الْخَرَزُ وَذَهَبَ، ثُمَّ لَمْ يَجْتَمِعْ بِحَذَافِيرِهِ أَبَداً. وَالْعَرَبُ الْيَوْمَ وَإِنْ كَانُوا قَلِيلًا، فَهُمْ كَثِيرُونَ بِالْإِسْلَامِ، عَزِيزُونَ بِالاجْتَماعِ! فَكُنْ قُطْباً، وَاسْتَدِرِ الرَّحَى بِالْعَرَبِ، وَأَصْلِهِمْ دُونَكَ نَارَ الْحَرْبِ، فَإِنَّكَ إِنْ شَخَصْتَ مِنْ هذِهِ الْأَرْضِ انْتَقَضَتْ عَلَيْكَ الْعَرَبُ مِنْ أَطْرَافِهَا وَأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ مَا تَدَعُ وَرَاءَكَ مِنَ الْعَوْرَاتِ أَهَمَّ إِلَيْكَ مِمَّا بَيْنَ يَدَيْكَ».

الشرح والتفسير

صرّح الإمام عليه السلام في البداية بهدف عدم رعب المسلمين بفعل كثرة جيوش العدو في تلك المعركة القاسية، سيّما ما ذكرته بعض التواريخ من أنّ رأي عثمان حين أشار عليه الخليفة الثاني كان مقبولًا، فقال:

«إِنَّ هذَا الْأَمْرَ لَمْ يَكُنْ نَصْرُهُ وَلَا خِذْلَانُهُ بِكَثْرَةٍ وَلَا بِقِلَّةٍ. وَهُوَ دِينُ اللّهِ الَّذِي أَظْهَرَهُ، وَجُنْدُهُ الَّذِي أَعَدَّهُ وَأَمَدَّهُ، حَتَّى بَلَغَ مَا بَلَغَ، وَطَلَعَ حَيْثُ طَلَعَ»

، في إشارة إلى أننا كنّا دائماً قلّة مقابل العدو في الحروب التي خضناها على عهد رسول اللّه صلى الله عليه و آله، مع ذلك فقد انتصرنا وشملنا اللّه برحمته وعنايته، وقد لمسنا هذا الفضل دائماً، وعليه فلا تخشوا من كثرة العدو وامضوا بعد التوكل على اللّه تعالى.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۱۸

والعبارة هذه تذكّر بنصر المسلمين في بدر والأحزاب وأمثالهما.

ولعل الفارق بين العبارتين بلغ ما بلغ وطلع حيث طلع أنّ العبارة الثانية تخبر عن انتشار الإسلام والأولى عن منتهى منطقة نفوذ الإسلام، كما يحتمل أن تكون العبارة الاولى إشارة إلى المناطق التي نفذ إليها الإسلام، والعبارة الثانية إلى المناطق التي ذاع فيها صيت الإسلام وشع عليها بما يمهد السبيل أمامه وإن لم ينفذ إليها بعد، أو أنّ العبارة الاولى إشارة إلى قوّة الإسلام وقدرته، والثانية إلى سعة الإسلام وانتشاره.

ثم قال عليه السلام مؤكداً ذلك الكلام:

«وَنَحْنُ عَلَى مَوْعُودٍ مِنَ اللّهِ، وَاللَّهُ مُنْجِزٌ وَعْدَهُ، وَنَاصِرٌ جُنْدَهُ»

، إشارة إلى الآية الشريفة: «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ»[۷۲۵]. والآية: «إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ»[۷۲۶].

نعم، فقد وعدنا في ظل الإيمان بالنصر في الدنيا والآخرة وتشهد سائر الآيات القرآنية على هذا المعنى، وما إن فرغ الإمام عليه السلام من بيان هذه المقدمة بهدف الاستقرار الروحي للخليفة والحاضرين حتى تطرق إلى الموضوع الأصلي للمشورة في حضور عمر بنفسه في المعركة فقال:

«وَمَكَانُ الْقَيِّمِ بِالْأَمْرِ مَكَانُ النِّظَامِ ۷۲۷] مِنَ الْخَرَزِ[۷۲۸] يَجْمَعُهُ وَيَضُمُّهُ: فَإِنِ انْقَطَعَ النِّظَامُ تَفَرَّقَ الْخَرَزُ وَذَهَبَ، ثُمَّ لَمْ يَجْتَمِعْ بِحَذَافِيرِهِ ۷۲۹] أَبَداً»،

يا له من تعبير رائع وتشبيه جميل فالقائد والزعيم لبلد بمنزلة خيط المسبحة أو القلادة بفضله رمز الوحدة وإنسجام والأمّة، كما تحمل الزعيم قضية في أن يتحلى بسعة الصدر ووسع الفكر بحيث يستطيع استقطاب كافة الأفراد وصهرهم في كتلة متحدة.

ثم خاض الإمام ثانية في رفع معنوياتهم على أنّ العرب اليوم هم الكثرة رغم قلّتهم وما

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۱۹

ذلك إلّابالإسلام فقهم عزيزون ومقتدرون في ظل اجتماعهم واتفاقهم في ظل هذا الدين:

«وَالْعَرَبُ الْيَوْمَ وَإِنْ كَانُوا قَلِيلًا، فَهُمْ كَثِيرُونَ بِالْإِسْلَامِ، عَزِيزُونَ بِالاجْتَماعِ!».

فخلص من ذلك إلى نتيجة أصلية:

«فَكُنْ قُطْباً، وَاسْتَدِرِ الرَّحَى بِالْعَرَبِ، وَأَصْلِهِمْ ۷۳۰]
دُونَکَ نَارَ الْحَرْبِ».
ثم ذکر دلیل ذلک فقال علیه السلام:
«فَإِنَّکَ إِنْ شَخَصْتَ ۷۳۱] مِنْ هذِهِ الْأَرْضِ انْتَقَضَتْ عَلَیْکَ الْعَرَبُ
مِنْ أَطْرَافِهَا وَأَقْطَارِهَا، حَتَّی یَکُونَ مَا تَدَعُ وَرَاءَکَ مِنَ الْعَوْرَاتِ ۷۳۲] أَهَمَّ إِلَیْکَ مِمَّا بَیْنَ یَدَیْکَ»،
إشارهٔ إلی أنّ الإسلام فی بدایاته لحدّ الآن، وما زال المنافقون وسلیلوا عصر الجاهلیهٔ فی صفوف العرب وهم یتربصون الفرصهٔ لطعن المسلمین من الخلف، فلو انطلق القائد وصحبه الأوفیاء إلی نقطهٔ بعیدهٔ یکون المیدان قد خلی للمفسدین والمنافقین، ولعلهم یسببون بعض الأخطار التی تفوق أخطار العدو الخارجی، أضف إلی لذلک فلو اصطدم الجیش بمشکلهٔ فی الجبهات، کان بإمکان القائد إن استقر فی المرکز أن یعبیء جیشاً جدیداً ویبعث به إلی میدان القتال، بینما ینهار سند الجیش إن حضر بنفسه المیدان.
والجدیر بالذکر أنّ العرب فی العبارهٔ
«وَالْعَرَبُ الْیَوْمَ ...»
تختلف عن العرب فی العبارهٔ
«انْتَقَضَتْ عَلَیْکَ الْعَرَبُ ...»
فالمراد بالاولی المخلصون من المؤمنین، والثانیهٔ المنافقون الذین یظهرون الإیمان، أو المسلمون الضعاف.
نفحات الولایهٔ، ج۵، ص: ۴۲۰

فائدهٔ

ما یستفاد من هذه العبارات دروس مهمّهٔ فی مجال الإدارهٔ والقیادهٔ وتصریف شؤون البلاد:
أولًا: حفظ القائد والزعیم للُامّهٔ لا من منظار شخصی بل کونها قضیهٔ اجتماعیهٔ تعدّ من أهم الواجبات، وذلک لأنّه رمز وحدهٔ الامهٔ وتماسکها، ومن هنا لابدّ من الأخذ بنظر الاعتبار جمیع التدابیر للازمهٔ من أجل حفظه ودفع أی احتمال یمکنه أن یشکل خطراً علیه، سیّما أنّ العدو ومن خلال الاطلاع علی هذا الموضوع یسعی لاستهداف شخص القائد قبل کل شیء، وقد دلت التجربهٔ التاریخیهٔ أنّ أقصر طریق لهزم جماعهٔ یتمثل بدک موقع القیادهٔ واستهداف القائد، ولعلنا نلمس هذا الأمر فی قضیهٔ بنی اسرائیل وقتالهم لجالوت التی عرضها القرآن الکریم حیث استهدف داود شخص جالوت فقتله فانهزم الجیش إثر ذلک.
ثانیاً: علی القائد أن ینظر باحدی عینیه إلی العدو الخارجی وبالاخری إلی الاعداء فی داخل البلاد، حتی ورد فی هذه الخطبهٔ وکما دلّت التجارب التاریخیهٔ الکثیرهٔ علی خطر العدو الداخلی الذی یفوق الخطر الخارجی، وذلک لأنّ الذی یأتی من الخارج معروف، بینما یتمثل العدو الداخلی عادهٔ بالمنافقین الذین یتخفون بین أبناء المجتمع، فانّ سنحت لهم أدنی فرصهٔ سددوا سهام حقدهم وضربوا ضربتهم، إضافهٔ إلی أنّهم علی علم تام بمواقع الخلل فی الداخل وکیفیهٔ التسلل إلی المناطق، ومن هنا عبّر الإمام علیه السلام عنهم وعن أخطارهم المتوقعهٔ بالعورات وعد أخطارهم من أهم الأخطار.
نفحات الولایهٔ، ج۵، ص: ۴۲۱

القسم الثانی: الکثرهٔ لا تسبب النصر

اشارهٔ

«إِنَّ الْأَعَاجِمَ إِنْ يَنْظُرُوا إِلَيْکَ غَداً يَقُولُوا: هذَا أَصْلُ الْعَرَبِ، فَإِذَا اقتطعتموه
[قَطَعْتُمُوهُ
] اسْتَرَحْتُمْ، فَيَكُونُ ذلِکَ أَشَدَّ لِكَلَبِهِمْ عَلَيْکَ، وَطَمَعِهِمْ فِيکَ. فَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ مَسِيرِ الْقَوْمِ إِلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ، هُوَ أَكْرَهُ لِمَسِيرِهِمْ مِنْکَ، وَهُوَ أَقْدَرُ عَلَى تَغْيِيرِ مَا يَكْرَهُ. وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ عَدَدِهِمْ، فَإِنَّا لَمْ نَكُنْ نُقَاتِلُ فِيما مَضَى بِالْكَثْرَةِ، وَإِنَّمَا كُنَّا نُقَاتِلُ بِالنَّصْرِ وَالْمَعُونَةِ!».

الشرح والتفسير

هـذا المقطع من الخطبـة فى الواقع تأييد وتأكيد للقسم الأول، وقد أشار إلى ثلاث نقاط، الأولى: الدليل الذى أقامة الإمام عليه السـلام على عدم حضور الخليفة فى ميدان الحرب فقال:

«إِنَّ الْأَعَاجِمَ إِنْ يَنْظُرُوا إِلَيْکَ غَداً يَقُولُوا: هذَا أَصْلُ الْعَرَبِ، فَإِذَا اقتطعتموه
[قَطَعْتُمُوهُ
] اسْتَرَحْتُمْ، فَيَكُونُ ذلِکَ أَشَدَّ لِكَلَبِهِمْ ۷۳۳] عَلَيْکَ، وَطَمَعِهِمْ فِيکَ».

الثانية:

«فَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ مَسِيرِ الْقَوْمِ إِلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ، هُوَ أَكْرَهُ لِمَسِيرِهِمْ مِنْکَ، وَهُوَ أَقْدَرُ عَلَى تَغْيِيرِ مَا يَكْرَهُ»

، وتشير العبارة إلى أنّ عمر قال سابقاً بأنّ الأعاجم قـد زحفوا نحونا وينوون قتالنا وهـذا يـدلّ على ما يرونه فى أنفسـهم من قوّة، ولعل الأمر كان كـذلک حسب الظاهر وما تفيـده الشواهـد التاريخية، إلّاأنّ الإمام عليه السـلام ذكر بقدرة اللَّه الخاصة من أجل رفع معنوياته وهو الأمر الذى لمسه المسلمون كراراً فى غزواتهم، ومن

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۲۲

الطبيعى أن يتعقد الأمر لو بقى المسلمون فى ديارهم وهجم عليهم العدو فما أمراهم لو توكلوا على اللَّه وتصدوا للعدو خارج بلادهم.

الثالثة: أنّ الخليفة الثانى كان يخشى عدم التكافىء وموازنة القوى بين المسلمين والأعداء، فرد عليه الإمام عليه السلام بالقول:

«وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ عَدَدِهِمْ، فَإِنَّا لَمْ نَكُنْ نُقَاتِلُ فِيما مَضَى بِالْكَثْرَةِ، وَإِنَّمَا كُنَّا نُقَاتِلُ بِالنَّصْرِ وَالْمَعُونَةِ!»،

فقد كان عمر يرى قوّة العدو واقتداره فى أمرين، أحدهما كثرتهم وزيادة عددهم، والآخر حركتهم وهجومهم على بلاد الإسلام.

نفحات الولاية ؛ ج‏۵ ؛ ص۴۲۲

د صرح الإمام عليه السـلام إننا لم نقاتل العدو وننتصر عليهم بهذه القوّة الظاهرية، وقد أيدنا اللَّه بنصره ومدده العينى فى جميع مواقف القتال، وقد انتصـرنا رغم قلّة العدد وكثرة العدو وهجومه علينا، وهكذا شـجعه الإمام عليه السلام على مواجهة العدو، وأكد وأيضاً عدم حضوره شخصاً فى الحرب، واستجاب له عمر وكان النصر حليف المسلمين.

معركة القادسية ونهاوند

وقعت معركتان مهمتان بين المسـلمين والساسانيين على عهد عمر القادسية[۷۳۴] فى عام ۱۴ ه ومعركـة نهاوند عام ۲۱ ه، وقد استشار عمر بشأن حضوره القتال، وقـد مرّ علينا فى الخطبـة أنّ الإمام عليه السـلام منعه من ذلك بعـد ذكره للأدلـة المحكمـة، بينما أشار عليه الآخرون بـالحضور، فقبـل من الإمـام عليه السـلام وبقى فى المدينـة، وذهب بعض المؤرخين إلى أنّ هـذه المشورة كـانت فى معركة نهاونـد، على كـل حـال حيـن عزم عمر على عـدم الحضـور فى القادسـية ولى سـعد بن أبى وقـاص إمرة الجيش، بينمـا نصب يزدجرد الساسانى رستم فرخزاد، فبعث سعد رسوله النعمان بن المقرن إلى يزدجرد، فعنفه حيث لم يتوقع ذلك من العرب آنذاك وقال له لولا

أنّك رسول لقتلتك، ثم أمر بذر التراب على رأسه وطرده من المدائن، وقال له أنّ رستم سيدفن قائد عسكركم فى خندق القادسية، فلما عاد النعمان إلى سعد، فقال سعد، ابشر أن وضعوا التراب على رأسك فاننا سنملك بلدهم، والعجيب أنّ رستم كان يخشى قتال المسلمين رغم تعداد جيشه الذى بلغ

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۲۳

۱۲۰ ألف بينما كان عدد جيش المسلمين بضع وثلاثين ألف.

وأخيراً تقاتل الجيشان، وفى اليوم الأول هجم الساسانيون بفيلهم على المسلمين، ولكن المسلمين تمكنوا من قطع خراطيمها وقد قتل من العدو فى ذلك اليوم ۲۰۰۰ ومن المسلمين ۵۰۰، وفى اليوم الثانى تقدم أبوعبيدة الجراح بجيش من الشام لنصرة سعد بن أبى وقاص فقتل من الساسانيين عشرة آلاف بينما قتل ألفان من المسلمين، وفى اليوم الثالث إشتد القتال واستمر القتال حتى اليوم الرابع فبان الضعف على العدو، فهبت ريح شديدة فهجم المسلمون على خيمة رستم، فحاول الهرب لكنه صرع تحت حوافر الخيل، فانهزم الجيش الساسانى فلما بلغ الخبر عمر أمر بعدم تعقيب العدو وأن تستقر الجيش هناك فبقى سعد هناك فى الكوفة فعلًا فبنى مسجداً وباشر بناء الكوفة، أمّا معركة نهاوند[۷۳۵]، فقد ذكر الطبرى أنّ عمر أراد أنّ يشخص لقتال الجيش الساسانى فى نهاوند فأشار عليه الصحابة حتى خطب الإمام عليه السلام فوافقه عمر وقال هذا هو الصواب.

ثم أمرّ النعمان الذى كان والى البصرة، فواجهة لقتال الفيروزان قائد جيش كسرى فى نهاوند، فان قتل خلفه حذيفة ومن بعده نعيم، كما وجه معه طلحة بن خويلد وعمرو بن معدى كرب العارفين بالقتال ثم أمره بمشورتها، وقد قتل النعمان فى المعركة، فحمل الراية حذيفة حتى قتل الفيروزان ودخل المسلمون نهاوند وحصلوا عن غنائم كثيرة فبعثوا بها إلى عمر، فلما رآى عمر الغنائم بكى فسألوه عن ذلك، قال: أخشى خداع الناس من هذا الثراء.

قال بعض المؤرخين: أنّ هذه المعركة حدثت عام ۲۱ ه لسبع سنوات بعد القادسية وقد انهزم الساسانيون ودخل المسلمون ايران، فما كان من الايرانيين المعروفين بالفطنة إلّاأنّ تعرفوا على الإسلام واعتنقوه فأصبحوا من رواد العلوم الإسلامية.

والجدير بالذكر أنّ مقاومة الايرانيين تركزت فى القادسية ونهاوند، بينما كانوا يستقبلون المسلمين حين دخلوا من سائر المدن، ولم يبدو أية مقاومة، فقد كانوا يعانون من الساسانيين من جانب، ومن جانب آخر رأوا نجاتهم فى الإسلام [۷۳۶].

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۲۵

الخطبة[۷۳۷] المأة والسابعة والأربعون

اشارة

وَمِنْ خُطبَةٍ لَهُ عليه السلام

فى الغاية عن بعثة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، وأهميّة القرآن، والإخبار عن المستقبل

نظرة إلى الخطبة

تتألف هذه الخطبة من عدّة أقسام:

القسم الأول: إشارة إلى أهداف بعثة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله ودور القرآن فى هداية الناس.

القسم الثانى: يخبر فيه الإمام عليه السلام عن الفتن القادمة ويتحدث عن وقت يغرق الناس فيه بالذنوب والمعاصى وينسون القرآن.

القسم الثالث: إنذار الناس والتذكير بعاقبة الأقوام السابقة التى صب عليها البلاء.

القسم الرابع: بين فيه الإمام عليه السلام بعض المواعظ الموثرة والمفيدة وقد دعى الناس إلى إتباع القرآن وأهل البيت عليهم السلام من أجل النجاة من الفساد.

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۴۲۷

القسم الأول: تجلى اللّه لعباده فى القرآن

اشارة

«فَبَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، بِالْحَقِّ لِيُخْرِجَ عِبَادَهُ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ إِلَى عِبَادَتِهِ، وَمِنْ طَاعَةِ الشَّيْطَانِ إِلَى طَاعَتِهِ، بِقُرْآنٍ قَدْ بَيَّنَهُ وَأَحْكَمَهُ، لِيَعْلَمَ الْعِبَادُ رَبَّهُمْ إِذْ جَهِلُوهُ، وَلِيُقِرُّوا بِهِ بَعْدَ إِذْ جَحَدُوهُ، وَلِيُثْبِتُوهُ بَعْدَ إِذْ أَنْكَرُوهُ. فَتَجَلَّى لَهُمْ سُبْحَانَهُ فِى كِتَابِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا رَأَوْهُ، بِمَا أَرَاهُمْ مِنْ قُدْرَتِهِ، وَخَوَّفَهُمْ مِنْ سَطْوَتِهِ، وَكَيْفَ مَحَقَ مَنْ مَحَقَ بِالْمَثُلَاتِ، وَاحْتَصَدَ مَنِ احْتَصَدَ بِالنَّقِمَاتِ!».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام فى هذا القسم من الخطبة- كما ذكر ذلك الشارح البحرانى- إلى بعثة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله ثم شرح أهداف البعثة، ثم أشار إلى الوسيلة التى اعتمدها لتحقيق ذلك الهدف وهى القرآن الكريم فقال: «فَبَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، بِالْحَقِّ لِيُخْرِجَ عِبَادَهُ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ إِلَى عِبَادَتِهِ، وَمِنْ طَاعَةِ الشَّيْطَانِ إِلَى طَاعَتِهِ»، يالها من عبارة بليغة رائعة وقصيرة بشأن الهدف من بعثة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله والتى تستند إلى ركنين:

الأول: ترك عبودية الأصنام والتمسك بالتوحيد فى العبادة، أى عبادة اللّه.

الثانى: التحرر من طاعة الشيطان والاقبال على طاعة اللّه سبحانه وتعالى.

لا شك أنّ طاعة الشيطان نوع من الوثنية، وعليه فهى داخلة فى مفهوم العبارة الاولى يعنى عبادة الأوثان، إلّاأنّ تقابل هاتين العبارتين يفيد أنّ العبادة قد استعملت فى معناها الخاص، والمراد طاعة الشيطان، إتباع أوامره لا عبادته، على كل حال فانّ للأوثان والشيطان فى هاتين

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۴۲۸

العبارتين مفهوم واسع يشمل كل معبود غير اللّه سبحانه وتعالى ويضم شياطين الانس والجن، وبناءاً على هذا يدخل فى مفهوم هذه الجمل التسليم لحكام الظلم والجور وطاعة أوامرهم والاستسلام للاستعمار والاستغلال والانصياع للقوانين غير الشرعية، وهذا هو هدف البعثة والذى يتمثل بالتحرر من كل هذه الأمور.

نقل المرحوم الكلينى فى الكافى العبارات المذكورة بهذه الصيغة:

«إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعالى بَعَثَ مُحَمَّداً صلى الله عليه و آله بِالحَقِّ لِيُخرِجَ عِبَادَهُ مِنْ عِبَادَة عِبَادِهِ إلى عِبَادَتِهِ وَمِنْ عُهُودِ عِبَادِهِ إلى عُهُودِهِ وَمِنْ طَاعَةِ عِبَادِهِ إلى طَاعَتِهِ وَمِنْ وِلايَةِ عِبَادِهِ إلى وَلايَتِهِ»[۷۳۸].

وهكذا بيّن الإمام الهدف الأصلى لبعثة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله والذى تعود إلى سائر الأهداف بهذه العبارات المختصرة وقد أماط كل إبهام.

ثم أشار عليه السلام إلى الوسيلة اللازمة لتحقيق هذا الهدف السامى فقال:

«بِقُرْآنٍ قَدْ بَيَّنَهُ وَأَحْكَمَهُ، لِيَعْلَمَ الْعِبَادُ رَبَّهُمْ إِذْ جَهِلُوهُ، وَلِيُقِرُّوا بِهِ بَعْدَ إِذْ جَحَدُوهُ، وَلِيُثْبِتُوهُ بَعْدَ إِذْ أَنْكَرُوهُ».

لا شك أنّ مشركى العرب كانوا يؤمنون باللّه ويعترفون بوجوده وأنّه خالق السماوات والأرض ويرون الأوثان شفعائهم إليه، ولكن ليس لهذا الاعتقاد الممزوج بالشرك أية قيمة، وقد بعث اللّه نبيّه الأكرم صلى الله عليه و آله ليطهّر أرواحهم وأفكارهم من أدران

الشرك والوثنية ويشدهم نحو التوحيد والعبودية الخالصة، وهذا في الواقع وظيفة كافة الأنبياء والمرسلين في تطهير التوحيد من رواسب الشرك.

وقال عليه السلام في تعريفه للقرآن وآثاره البنّاءة في الفكر والعمل:

«فَتَجَلَّى ۷۳۹] لَهُمْ سُبْحَانَهُ فِي

كِتَابِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا رَأَوْهُ، بِمَا أَرَاهُمْ مِنْ قُدْرَتِهِ».

والعبارة إشارة إلى آيات التوحيد وبيان أسماء اللَّه وصفاته والتي تفعل مثل هذا الفعل في الإنسان حين يتأملها وكأنّه يرى اللَّه سبحانه وتعالى جهرة، نعم يراه ولكن بالبصيرة لا

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۲۹

بالبصر، احتمل البعض أنّ المراد بالكتاب هنا كتاب عالم التكوين المملوء بآيات اللَّه سبحانه بحيث نشاهدها أينما نظرنا[۷۴۰]، ولكن يبدو هذا المعنى مستبعداً بالاستناد إلى العبارة السابقة التي أشير فيها إلى القرآن في العبارة اللاحقة إلى الإنذار الإلهي، والمراد بالكتاب القرآن الكريم، ولما كان تجلي اللَّه بواسطة الآيات القرآنية قد يوهم إمكانية رؤية اللَّه بالعين، فقد صرّح عقيب ذلك مباشرة بأنّ هذا التجلي يحصل دون رؤية بالبصر.

وأشار في العبارة القادمة إلى جانب آخر من آيات القرآن الكريم وهي آيات الإنذار والتخويف، فقال عليه السلام:

«وَخَوَّفَهُمْ مِنْ سَطْوَتِهِ»،

ثم تطرق بعد ذلك إلى القصص الأليمة للأقوام السابقة وما تنطوي عليه من دروس وعبر فقال:

«وَكَيْفَ مَحَقَ ۷۴۱] مَنْ مَحَقَ بِالْمَثُلَاتِ ۷۴۲]،

وَاحْتَصَدَ[۷۴۳] مَنِ احْتَصَدَ بِالنَّقِمَاتِ!».

وأخيراً مازال هناك احتمال في تفسير العبارات المذكورة في أنّ اللَّه تعالى قد تجلى في كتابه بجميع هذه الموارد (آيات القدرة والتخويف من السطوة والقصص الأليمة للأقوام العاصية).

كيفية تجلي اللَّه في القرآن

كما شحن كتاب عالم التكوين بآثار عظمة اللَّه وقدرته في آيات الآفاق والأنفس وفي السماوات والأرض وفي أكثر المنظومات والكرات السماوية وفي أصغر ذرات وجودنا، وكما صور ذلك الشاعر بأنّ كل نبات يخرج من الأرض يهتف وحده لا شريك له، وكذلك الذات الإلهيّة متجلية في القرآن الكريم، حين يتحدث عن آياته في السموات والأرض وحين يستعرض نعم الجنان ونقم النيران وحين يتحدث عن قدرته الباهرة في الخلق وحين يكشف اللثام عن صفات جلاله وجماله ورحمانيته، فذاته ظاهرة متجلية في كل هذه الآيات وقد قال

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۳۰

بعض الأعلام أنّ أغلب المكاشفات تتم حين تلاوة القرآن الكريم والتدبير في مفاهيمه، أجل لا يمكن رؤية اللَّه سبحانه بهذه العين، بينما يمكن رؤيته بعين القلب ومن خلال آياته القرآنية، فما أحرانا بالنظر إلى عالم التكوين والتفكير وفي أسرار الوجود ومن ثم نفتح القرآن الكريم ونطالع آيات التكوين في الكتاب التدوين، حقّاً لو كان لنا مئة ألف عين لشاهدنا مئة ألف تجلي من تجليات الحق تبارك وتعالى.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۳۱

القسم الثانی: لا یبقی من القرآن سوی اسمه

اشارهٔ

«وَإِنَّهُ سَيَأْتِی عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِی زَمَانٌ لَيسَ فِيهِ شَیْءٌ أَخْفَی مِنَ الْحَقِّ، وَلَا أَظْهَرَ مِنَ الْبَاطِلِ، وَلَا أَكْثَرَ مِنَ الْكَذِبِ عَلَی اللَّهِ وَرَسُولِهِ؛ وَلَيسَ عِنْدَ أَهْلِ ذلِكَ الزَّمَانِ سِلْعَةٌ أَبْوَرَ مِنَ الْكِتَابِ إذَا تُلِيَ حَقَّ تِلَاوَتِهِ، وَلَا أَنْفَقَ مِنْهُ إذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ؛ وَلَا فِی الْبِلَادِ شَیْءٌ أَنْكَرَ مِنَ الْمَعْرُوفِ، وَلَا أَعْرَفَ مِنَ الْمُنْكَرِ! فَقَدْ نَبَذَ الْكِتَابَ حَمَلَتُهُ، وَتَنَاسَاهُ حَفَظَتُهُ؛ فَالْكِتَابُ يَوْمَئِذٍ وَأَهْلُهُ طَرِيدَانِ مَنْفِيَّانِ، وَصَاحِبَانِ مُصْطَحِبَانِ، فِی طَرِيقٍ وَاحِدٍ لَايُؤْوِيهِمَا مُؤْوٍ. فَالْكِتَابُ وَأَهْلُهُ فِی ذلِكَ الزَّمَانِ فِی النَّاسِ وَلَيْسَا فِيهِمْ، وَمَعَهُمْ وَلَيْسَا مَعَهُمْ! لِأَنَّ الضَّلَالَةَ لَاتُوَافِقُ الْهُدَی، وَإِن اجْتَمَعَا. فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ عَلَی الْفُرْقَةِ، وَافْتَرَقُوا عَلَی الْجَمَاعَةِ، كَأَنَّهُمْ أَئِمَّةُ الْكِتَابِ وَلَيسَ الْكِتَابُ إِمَامَهُمْ، فَلَمْ يَبْقَ عِنْدَهُمْ مِنْهُ إِلَّا اسْمُهُ، وَلَا يَعْرِفُونَ إِلَّا خَطَّهُ وَزَبْرَهُ. وَمِنْ قَبْلُ مَا مَثَّلُوا بِالصَّالِحِينَ كُلَّ مُثْلَةٍ، وَسَمَّوْا صِدْقَهُمْ عَلَی اللَّهِ فِرْيَةً، وَجَعَلُوا فِی الْحَسَنَةِ عُقُوبَةَ السَّيِّئَةِ».

الشرح والتفسیر

تحدّث الإمام علیه السلام فی القسم المذکور عن ظهور الإسلام والهدف من بعثهٔ النبی الأکرم صلی الله علیه و آله والآثار العظیمهٔ للقرآن فی الهدایهٔ، ثم واصل علیه السلام کلامه فی هذا القسم بالحدیث عن زمان لا یبدو بعیداً وسیشهد تغیراً تاماً فی الأوضاع بما یهدد بالخطر جهود النبی صلی الله علیه و آله فینذر کافهٔ المؤمنین بالالتفات إلی الأخطار التی تتربص بهم، فاستهل علیه السلام کلامه ببیان الوضع فی ذلک الزمان بسبع عبارات قصیرهٔ بلیغهٔ فقال:

«وَإِنَّهُ سَيَأْتِی عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِی زَمَانٌ لَيسَ فِيهِ

نفحات الولایهٔ، ج۵، ص: ۴۳۲

شَیْءٌ أَخْفَی مِنَ الْحَقِّ، وَلَا أَظْهَرَ مِنَ الْبَاطِلِ، وَلَا أَكْثَرَ مِنَ الْكَذِبِ عَلَی اللَّهِ وَرَسُولِهِ»

، کما لیست لدی الناس من سلعهٔ أبور من القرآن الکریم آنذاک إن فسّر وتلی حق تلاوته، بینما یزداد الإقبال علیه إن حرّف عن معناه الحقیقی:

«وَلَيسَ عِنْدَ أَهْلِ ذلِكَ الزَّمَانِ سِلْعَةٌ[۷۴۴] أَبْوَرَ[۷۴۵] مِنَ
الْكِتَابِ إذَا تُلِيَ حَقَّ تِلَاوَتِهِ، وَلَا أَنْفَقَ ۷۴۶] مِنْهُ إذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ؛ وَلَا فِی الْبِلَادِ شَیْءٌ أَنْكَرَ
مِنَ الْمَعْرُوفِ، وَلَا أَعْرَفَ مِنَ الْمُنْكَرِ! فَقَدْ نَبَذَ الْكِتَابَ حَمَلَتُهُ، وَتَنَاسَاهُ ۷۴۷] حَفَظَتُهُ».

نعم، ستظهر غیوم الجاهلیهٔ ثانیهٔ فی سماء الإسلام فتحجب شعاع شمس النبوّهٔ والقرآن فیتغیر کل شیء وتنطمس حقائق الإسلام ویستولی سلیلوا أئمّهٔ الکفر والشرک والوثنیهٔ علی الحکومهٔ الإسلامیهٔ فتعانی الامهٔ من ظلمات الجهل والجور، والسؤال المطروح أی زمان هذا الذی أشار إلیه الإمام علیه السلام؟ هل المراد زمان معین؟ أم الحکومهٔ مفهوم عام ویشمل مختلف الأزمنهٔ حتی زماننا الحاضر؟ هناک خلاف بهذا الشأن بین شرّاح نهج البلاغهٔ، ولکن بالنظر إلی العبارهٔ «سیأتی» التی تفید عادهٔ الإخبار عن المستقبل القریب والتعبیر ب «علیکم» ومن بعدی التی تشیر إلی درک مخاطبیه له، یبدو أنّه إشارهٔ إلی زمان سیطرهٔ بنی امیهٔ ومعاویهٔ ویزید وسائر حکامهم الذین تنطبق علیهم هذه الصفات، نعم، فهؤلاء الذین کتموا الحق وقطعوا رقبهٔ کل من تعصب له، إلی جانب ذلک فقد إتسق سوق الکذابین والوضاعین والمتملقین لبنی امیهٔ ممن اندفع فی مدحهم والثناء علیهم، فقد ظهرت المنکرات فی کل مکان وضاع المعروف.

طبعاً لا ـ ننکر أنّ هذا الأمر حدث ویحدث فی سائر الأزمنهٔ وحتی فی عصرنا، مع ذلک فمراد الإمام علیه السلام من هذه العبارات العصر المظلم لبنی امیهٔ.

ثم خاض الإمام علیه السلام فی وضع القرآن وأصحابه فی ذلک الزمان المظلم وشرح علّهٔ بؤس الناس آنذاک والتی تتمثل بابتعادهم

عن القرآن: «فَالْكِتَابُ يَوْمَئِذٍ وَأَهْلُهُ طَرِيدَانِ [۷۴۸] مَنْفِيَّانِ [۷۴۹]،

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۳۳

وَصَاحِبَانِ مُصْطَحِبَانِ، فِى طَرِيقٍ وَاحِدٍ لَايُؤْوِيهِمَا [۷۵۰] مُؤْوٍ».

ثم أكّد عليه السلام قائلًا:

«فَالْكِتَابُ وَأَهْلُهُ فِى ذلِكَ الزَّمَانِ فِى النَّاسِ وَلَيْسَا فِيهِمْ، وَمَعَهُمْ وَلَيْسَا مَعَهُمْ!»

، فهم يتلون القرآن فى دورهم وعلى منابرهم، ويقبّلونه ويتبركون به، بينما ليس هنالك أدنى أثر لتعاليمه ومفاهيمه فى حياتهم الفردية والاجتماعية، فقد اكتفوا من القرآن بغلافه وتركوا مضمونه، إنهمكوا بالألفاظ وأهملوا المعانى.

ثم خاض عليه السلام فى الدليل قائلًا:

«لِأَنَّ الضَّلَالَةَ لَاتُوَافِقُ الْهُدَى، وَإِنِ اجْتَمَعَا».

نعم، فالضالون فى وادى والهدى وأتباعه فى وادى آخر، وإن كانوا معاً فى الظاهر، والدليل الآخر المهم لشقائهم:

«فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ عَلَى الْفُرْقَةِ، وَافْتَرَقُوا عَلَى الْجَمَاعَةِ، كَأَنَّهُمْ أَئِمَّةُ الْكِتَابِ وَلَيْسَ الْكِتَابُ إِمَامَهُمْ»،

بعبارة أخرى فقد اتفقوا على أن لا يتفقوا، وقد أدّت هذه الفرقة إلى أن يفسّر كل القرآن حسب رغبته، أو بعبارة أخرى فقد أسسوا بنيانهم على التفسير بالرأى، يأخذون ما ينسجم مع رغباتهم من آيات بينما يسعون لتوجيه البعض الآخر من الآيات التى تتعارض وأهوائهم بما يتفق ورغباتهم، فهم يجعلون أنفسهم أئمة القرآن بدلًا من أن يكون القرآن الكريم إمامهم، ولذلك فهم لا ينتفعون بالقرآن، بل يجعلونه الموجّه لضلالهم، فيزدادوا ضلالًا وبعداً عن القرآن الكريم.

ثم رسم صورة واضحة عن مصير القرآن فى ذلك العصر والزمان بعبارة رائعة لا تماثلها عبارة فقال عليه السلام:

«فَلَمْ يَبْقَ عِنْدَهُمْ مِنْهُ إِلَّا اسْمُهُ، وَلَا يَعْرِفُونَ إِلَّا خَطَّهُ وَزَبْرَهُ [۷۵۱]»

، فقد يسطر القرآن بخطوط غاية فى الجمال وتذهب صفحاته وغلافه ويبتدعوا روائع الفن بهذا الخصوص وتتداول الأيدى القرآن ويتلى فى المساجد بمختلف الأصوات بصورة فردية وجماعية، ولكن دون أن يكون هناك أدنى خبر عن مضمونه ومحتواه، بالضبط كالدواء الشافى الذى يوضع فى زجاجة جميلة تترك على الرف دون أن يتناول المرضى منها شيئاً، وهنا يبرز هذا السؤال: هل الصالحون والمؤمنون وأصحاب القرآن صامتون فى ذلك الزمان؟ كأنّ الإمام عليه السلام أجاب فى

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۳۴

العبارة الأخيرة على هذا السؤال فقال:

«وَمِنْ قَبْلُ مَا مَثَّلُوا [۷۵۲] بِالصَّالِحِينَ كُلَّ مُثْلَةٍ، وَسَمَّوْا

صِدْقَهُمْ عَلَى اللَّهِ فِرْيَةً [۷۵۳]، وَجَعَلُوا فِى الْحَسَنَةِ عُقُوبَةَ السَّيِّئَةِ».

فالعبارة إشارة إلى التاريخ الأسود لبنى امية الذين مثلوا بالصالحين من العباد لما رأوهم يشكلون خطراً عليهم، حتى قيل بلغ تعداد من قتلهم معاوية ما يزيد على الأربعين ألف من المهاجرين والأنصار.

ولا نرى من حاجة لاستعراض تلك الفاجعة التى إرتكبها ولده يزيد بحق الحسين عليه السلام وأنصاره فى كربلاء، كما لا يمكن إحصاء من قتلهم عبدالملك بن مروان وعامله الحجاج من أهل العراق والحجاز [۷۵۴]، وهكذا أخمدوا كل دعوة حق وقطعوا كل لسان صدق ومهدوا السبيل لإملاء أفكارهم ورغباتهم.

تأمّلان

۱- أبشع عصور الإسلام

لا شك إنّ عصر حكومة بنى امية من أبشع العصور التى شهدتها الامة الإسلامية، ويشترك حكام بنى امية من معاوية حتى أخرهم الذى يعرف بمروان الحمار فى ثلاث خصال هى: الجلافة والقسوة المتناهية وحبّ الحكومة والذوبان فيها مهما كان الثمن لبلوغها وحسن الثأر والانتقام، ومن هنا فقد ضحوا بكل معانى الحق والعدل والشرف والإنسانية من أجل حكومتهم المقيتة فارتكبوا من الظلم والجور ما لم يرد مثيله فى التاريخ، وقد أذاقوا دعاة الحق

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۳۵

وصحابة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله الأمرّين بين قتل وتشريد وقطع الرأس ونفى وصلب وحصار فى البيت من أجل تلك الحكومة، وهذا ما أشآر إليه الإمام عليه السلام فى عباراته الأخيرة من هذا القسم من الخطبة، إلّاأنّ أهم كهف كانت تلوذ به الامة الإسلامية والذى يشكل أكبر عقبة تعترض طريقهم إنّما هو القرآن، القرآن الذى أعلن الحرب ضد الظلمة، والطغاة وهدد دائماً عروش الغاشمين، وكان المعيار لتمييز الحكومة الإسلامية من الحكومالت الغاصبة والظالمة والكافرة، فما كان من اولئك الطغاة إلّاأن وظفوا أشباه العلماء ووعاظ السلاطين ويهدف إزالة تلك العقبة عن طريقهم بتفسير القرآن حسب أهوائهم، فى أنّ آياته تشهد بحقانية اولئك الغرباء على القرآن والبعيدين عن الحق تبارك وتعالى، كما منعوا من يرون تلاوة القرآن حق تلاوته، وهكذا لم يبق من القرآن سوى اسمه ورسمه فحكم عليه بأن يصبح كالسجين الذى أودع زنزانة إنفرادية مخيفة ليبعد عن أفكار الناس، وهو الأمر الذى أشار إليه الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة.

فقد جاء فى الخبر أنّ معاوية حين قدم المدينة مرّ بمجلس من كبار قريش، فلما رأواه قاموا له خوفاً سوى ابن عباس، فقال له مالك لا تقوم يابن عباس أهى صفين، فقد قتل عثمان مظلوماً (وهذا ما دفعنا للقتال).

فقال ابن عباس: فقد قتل عمر بن الخطاب مظلوماً (لماذا لم تقم لنصرته)، فقال معاوية: إنّ كافراً قتل عمر. قال ابن عباس: فمن هم قتلة عثمان، قال معاوية: المسلمون. قال ابن عباس:

فهذه عليك لا لك.

قال معاوية: لقد أمرنا بعدم ذكر فضائل على وأهل بيته فاحفظ لسانك. قال ابن عباس:، أتمنعنا من قراءة القرآن؟ قال: لا. قال ابن عباس: تمنعنا من تأويله؟ قال معاوية: بلى، لك القراءة دون التأويل، وإن كان ولابدّ فلا تحدث بفضائل أهل البيت.

ثم أمر لابن عباس بمئة ألف درهم (ليمزج الترهيب والترغيب ليتمكن بكل الوسائل من إسكات ابن عباس)[۷۵۵]، ومن أراد المزيد بشأن جنايات بنى امية والتعرف عليهم بدقّة على ضوء القرآن وأخبار العامّة والأعمال التى قاموا بها من أجل مسخ المعارف الإسلامية وتحريفها فليراجع المجلد الثالث من هذا الكتاب.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۳۶

۲- التاريخ يعيد نفسه

ما أورده الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة بشأن العصر المظلم للحكومة الاموية بأنّ لا يبقى من القرآن إلّااسمه لا يقتصر على ذلك الزمان، والمؤسف له أنّ ذلك الأمر قد تكرر فى مختلف النقاط وإن لم يبلغ ما بلغه أبان الحكومة بنى امية، وما زلنا نلمس نماذج ذلك حتى فى عصرنا.

وقد وردت للإمام عليه السلام عبارة أشمل فى قصار كلماته بهذا الخصوص إذ قال:

«يَأتِى عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لايَبقَى فِيهِن مِنَ القُرآنِ إلّا إِسمُهُ وَمِنَ الإِسلام إلّاإِسمُهُ وَمَسَاجِدُهُم يَومَئِذٍ عَامِرَةٌ مِنَ البِنَاءِ خَرابٌ مِنَ الهُدى سُكَّانُها وَعُمَّارُها شِرُّ أَهلِ الأَرضِ مِنهُم تَجرُجُ الفِتنَةُ وَإِلَيهِم تَأوى الخَطِيَئةُ».[۷۵۶]

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۴۳۷

القسم الثالث: أسباب شقاء الإنسان

«وَإِنَّمَا هَلَکَ مَنْ کَانَ قَبْلَکُمْ بِطُولِ آمَالِهِمْ وَتَغَیُّبِ آجَالِهِمْ، حَتَّی نَزَلَ بِهِمُ الْمَوْعُودُ الَّذِی تُرَدُّ عَنْهُ الْمَعْذِرَةُ، وَتُرْفَعُ عَنْهُ التَّوْبَةُ، وَتَحُلُّ مَعَهُ الْقَارِعَةُ وَالنِّقْمَةُ».

الشرح والتفسیر

أنـذر الإمام علیه السـلام الجمیع فی هـذا المقطع من الخطبـة ودعاهم لتأمل تاریخ الامم السابقة ویفکروا فی أسباب بؤسـهم وشـقائهم فیعتبروا بذلک حیث قال:

«وَإِنَّمَا هَلَکَ مَنْ کَانَ قَبْلَکُمْ بِطُولِ آمَالِهِمْ وَتَغَیُّبِ آجَالِهِمْ، حَتَّی نَزَلَ بِهِمُ الْمَوْعُودُ»،

المراد بالهلـک فی قوله إنّمـا هلـک حسب ما ذهب إلی جمع من شـرّاح نهـج البلاغـة الهلاک المعنوی یعنی الضـلالة التی ینتـج عنها العـذاب الاخروی، ولکن لا یبعـد أن تشـمل الهلاک المعنوی والاخروی وکذلک المادی والدنیوی، أی أنّ طول الأمل ونشـیان أجل الحیاة والغرق فی الشـهوات، إنّما یفسـد الآخرة ویحط من قدر وعظمة الإنسان فی الدنیا، وبالتالی تعرضـهم لأنواع العذاب الدنیوی من قبیل طوفان قوم نوح وزلزلة قوم لوط والصواعق السماویة التی أصابت الأقوام الأخری.

نعم، فتغیب الآجال أحـد آثار طول الأمل والـذی یعـد من أعـدی أعـداء سـعادة الإنسان، لأنّه یلقی بحجاب ضـخم علی بصیرة العقل ویجعل الهوی حاکماً علیه ویقذف بالإنسان فی مسـتنقع الذنوب والمعاصـی، وهذا ما ورد عن النبی الأکرم صـلی الله علیه و آله وأمیر المؤمنین علی علیه السلام:

«وَأَمّا طُولِ الأَمَلِ فَیُنسِی الآخِرَةَ»[۷۵۷]

، ویفهم من العبارة:

«حَتّی نَزَلَ بِهِم المَوعُودُ»

، أنّ اولئک

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۴۳۸

الأفراد یفیقون فی تلک اللحظة، أجل یفیقون، ولکن حیث لا ینفعهم ذلک، ولذلک قال الإمام علیه السلام:

«الَّذِی تُرَدُّ عَنْهُ الْمَعْذِرَةُ، وَتُرْفَعُ عَنْهُ التَّوْبَةُ، وَتَحُلُّ مَعَهُ الْقَارِعَةُ[۷۵۸] وَالنِّقْمَةُ[۷۵۹]».

نعم، فمصـدر کـل تلـک الجنایـات والمخالفـات التی ورد الکلام عنها فی القسم السابق من الخطبـة إنّما یکمن فی حبّ الـدنیا وطول الأمل ونسیان الأجل، الأجل الذی لا رجعة فیه ولا یمکن تدارک ما فرط من الإنسان فیه.

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۴۳۹

القسم الرابع: سبیل النجاة

اشارة

«أَیُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ مَنِ اسْتَنْصَحَ اللّهَ وُفِّقَ، وَمَنِ اتَّخَذَ قَوْلَهُ دَلِیلًا هُدِیَ (لِلَّتِی هِیَ أَقْوَمُ)؛ فَإِنَّ جارَ اللّهِ آمِنٌ، وَعَدُوَّهُ خَائِفٌ؛ وَإِنَّهُ لَایَنْبَغِی لِمَنْ عَرَفَ عَظَمَةَ اللّهِ أَنْ یَتَعَظَّمَ، فَإِنَّ رِفْعَةَ الَّذِینَ یَعْلَمُونَ مَا عَظَمَتُهُ أَنْ یَتَوَاضَعُوا لَهُ، وَسَلَامَةَ الَّذِینَ یَعْلَمُونَ مَا قُدْرَتُهُ أَنْ یَسْتَسْلِمُوا لَهُ. فَلَا تَنْفِرُوا مِنَ الْحَقِّ نِفَارَ الصَّحِیحِ مِنَ الْأَجْرَبِ، وَالْبَارِی مِنْ ذِی السَّقَمِ. وَاعْلَمُوا أَنَّکُمْ لَنْ تَعْرِفُوا الرُّشْدَ حَتَّی تَعْرِفُوا الَّذِی تَرَکَهُ، وَلَنْ تَأْخُذُوا

بِمِيثَاقِ الْكِتَابِ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِى نَقَضَهُ، وَلَنْ تَمَسَّكوا بِهِ، حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِى نَبَذَهُ. فَالْتَمِسُوا ذلِكَ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ، فَإِنَّهُمْ عَيْشُ الْعِلْمِ، وَمَوْتُ الْجَهْلِ. هُمُ الَّذِينَ يُخْبِرُكُمْ حُكْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ، وَصَمْتُهُمْ عَنْ مَنْطِقِهِمْ، وَظَاهِرُهُمْ عَنْ بَاطِنِهِمْ؛ لَايُخَالِفُونَ الدِّينَ وَلَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ؛ فَهُوَ بَيْنَهُمْ شَاهِدٌ صَادِقٌ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ».

الشرح والتفسير

تحدّث الإمام عليه السلام فى هذا القسم السابق عن فئة ضالة ومستبدة غيرت جميع الحقائق وإرتكبت أفضع الجرائم، ثم حل أجلها ولم تتب إلى ربّها فسارعت إلى عالم آخر ليصب عليها العذاب، فأبان الإمام عليه السلام فى هذا المقطع سبيل النجاة حتى لا يبتلى الآخرون بذلك المصير الأسود فقال:

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ مَنِ اسْتَنْصَحَ اللَّهَ وُفِّقَ، وَمَنِ اتَّخَذَ قَوْلَهُ دَلِيلًا هُدِىَ (لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ)»

، نعم، هذه هى الخطوة الاولى من أجل الإهتداء إلى الحق والصراط المستقيم ثم استدلّ على ذلك بقوله:

«فَإِنَّ جَارَ اللَّهِ آمِنٌ، وَعَدُوَّهُ خَائِفٌ».

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۴۴۰

وأضاف بعد ذلك بهدف استماع الناس للمواعظ الإلهيّة ويبعدوا عنهم الكبر والغرور ويسلموا لأوامر اللَّه: «وَإِنَّهُ لَايَنْبَغِى لِمَنْ عَرَفَ عَظَمَةَ اللَّهِ أَنْ يَتَعَظَّمَ، فَإِنَّ رِفْعَةَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَا عَظَمَتُهُ أَنْ يَتَوَاضَعُوا لَهُ، وَسَلَامَةَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَا قُدْرَتُهُ أَنْ يَسْتَسْلِمُوا لَهُ»، فى إشارة إلى أنّ اولئك الذين يعيشون الغرور والتكبر غافلون عن عظمة اللَّه سبحانه، والذين يغترون بقدرتهم جاهلون بقدرة اللَّه تعالى، أمّا من عرف اللَّه وقدرته فهو يدرك أنّه لا شيء تجاهه، عليه فلا داعى لهذا الكبر والغرور الفارغ.

ثم قال على سبيل الاستنتاج:

«فَلَا تَنْفِرُوا مِنَ الْحَقِّ نِفَارَ الصَّحِيحِ مِنَ الْأَجْرَبِ، وَالْبَارِى ۷۶۰] مِنْ ذِى السَّقَمِ»

، إشارة إلى أنّ سعادتكم وفلاحكم وسلامتكم فى إتباع الحق، وأنّ النزوع نحو الباطل نوع من أنواع المرض والسقم، لكن من المؤسف هناك من يهرب من الحق وكأنّه يفر من مرض معدى، أو حسب تعبير القرآن الكريم: «كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ* فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ»[۷۶۱].

ثم عرض الإمام عليه السلام فى الخطوة التالية سبيلًا واضحاً بهدف هداية مخاطبيه إلى الحق وإبعادهم عن الباطل فقال:

«وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَنْ تَعْرِفُوا الرُّشْدَ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِى تَرَكَهُ، وَلَنْ تَأْخُذُوا بِمِيثَاقِ الْكِتَابِ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِى نَقَضَهُ، وَلَنْ تَمَسَّكُوا بِهِ، حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِى نَبَذَهُ»،

والواقع هذا هو أحد طرق معرفة الحق والباطل والذى ينطوى تحت القاعدة المعروفة:

«تعرَفُ الأَشياءُ بِأضدَادها»

، فالإنسان يجهل معنى العافية ما لم يمرض ولا يدرك مفهوم الضياء ما لم يرى الظلمة، فقد اعتبر الإمام عليه السلام- فى هذا المقطع من الخطبة كما ورد فى العبارة المذكورة- التعرف على تاركى الحق ومخالفيه كطريق بلوغ الحق، فأشار إلى ثلاث طوائف:

طائفة تركت الحق، وطائفة نقضت ميثاق القرآن، والطائفة الثالثة التى نبذته وراء ظهرها، والفارق بين هذه الطوائف الثلاث واضح، فالبعض يترك الحق دون أن يحضره والبعض الآخر يحقره علاوة على تركه، وأخيراً هناك من ينقض عهود اللَّه ومواثيقه، والذى وردت الإشارة

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۴۴۱

إليه فى الآية القرآنية الشريفة: «أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَايَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ...»[۷۶۲]، والآية صادقة على الآخرين وإن كانت فى الظاهر فى بنى اسرائيل.

نعم، يمكن الظفر بسبيل الحق من خلال معرفة هؤلاء التاركين للحق والناقضين لمواثيق اللَّه والمحقرين لكتاب اللَّه، ومعرفة المبادىء التى تسود حياتهم.

ثم عرض الإمام عليه السلام طريقاً آخر فى آخر قسم من هذه الخطبة من زيادة الاطمئنان بهدف الظفر بالحق وإدراك مفاهيم القرآن الكريم وهو التمسك بأهل البيت من عترة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بفضلهم أحد الثقلين الذين خلفهما النبى فى الامة، فقال عليه السلام:

«فَالْتَمِسُوا ذلِكَ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ، فَإِنَّهُمْ عَيْشُ الْعِلْمِ، وَمَوْتُ الْجَهْلِ. هُمُ الَّذِينَ يُخْبِرُكُمْ حُكْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ، وَصَمْتُهُمْ عَنْ مَنْطِقِهِمْ، وَظَاهِرُهُمْ عَنْ بَاطِنِهِمْ؛ لَايُخَالِفُونَ الدِّينَ وَلَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ؛ فَهُوَ بَيْنَهُمْ شَاهِدٌ صَادِقٌ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ».

فقد وصف الإمام عليه السلام أهل البيت عليهم السلام فى هذه العبارات القصيرة والعميقة المعنى بأوصاف منها:

«فَإِنَّهُمْ عَيْشُ الْعِلْمِ، وَمَوْتُ الْجَهْلِ ...»

، حيث عندهم علم اللَّه تعالى وسنّة النبى صلى الله عليه و آله، فأينما يحلّون يكشفون الظلام بنورهم، وحكمهم (سواء كان الحكم بمعنى القضاء أوالحكم بمعنى كافة وصاياهم وبيانهم للحلول) ينطق عن علمهم، وصمتهم العميق المعنى يفيد منطقهم ومقاصدهم (لأنّ السكوت أبلغ من الكلام فى أغلب الموارد)، وظاهر على قدر من الرزانة والإخلاص والطهر بحيث يعكس طهارة ونقاء باطنهم، من خصائصهم الأخرى أن علمهم لا يختلف مع الدين قط ولا يختلفون فى تفسيرهم لحقائق الدين، ولا غرو فعلومهم تنبع من ذات المصدر، ومن هنا لديهم حقيقة الدين والقرآن وروحهما، فى حديث الثقلين:

«... إِنّهما لَن يَفتَرِقا (العترة والقرآن) مَا إن تَمَسَّكْتُم بِهِما فَلَن تَضِلُّوا ...».

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۴۲

تأمّل: معرفة الأشياء بأضدادها

كثيرة هى طرق معرفة الحق والباطل والمهم أن يعزم الإنسان على معرفة الحق ويتجه قدماً بشجاعة- وإحدى هذه الطرق ما أشار إليه الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة والذى يتمثل بمطالعة الأضداد.

فانّ رأى الإنسان المصير الأسود لجماعة تسبح فى بحر من الأخطاء والزّلات، أدرك ببساط أنّ الطريق الصحيح عكس ذلك، وإن أراد السير على الحق وجب عليه التخلى عن الاصول التى اعتمدتها تلك الجماعة، فيتعلم الأدب من عديميه والعدل الظالمين والطهر من المدنيين.

لعل هناك من يتصور تضارب هذه العبارة مع ما ورد فى عبارة أخرى للإمام عليه السلام قالها للحارث الهمدانى:

«إنّ دِينَ اللَّهِ لا يُعرَفُ بِالرّجالِ بَل بِآيَةِ الحَقِّ فَاعرفْ الحقَّ تَعرِفُ أَهلَهُ»[۷۶۳]

، لكن الطريقان صحيحان، كل فى محلّه، فان عرف الحق بوضوح فى موضع كان لابدّ من معرفة شخصية الأفراد على أساس معياره، فمن كان مع الحق فهو الحسن الصالح ومن كان ضده فهو السيىء الطالح، فهنا نعرف الاشخاص بمعيار الحق. وان كان الأفراد معروفين والحق خفى كان لابدّ من التعرف على الحق والباطل بواسطتهم، على سبيل المثال لو تنازع عمار بن ياسر مع أبى جهل، فاننا ندرك بسهولة أنّ عمّاراً على الحق وأبى جهل على الباطل، وقد يتعذر أحياناً معرفة الأشخاص ومعرفة الحق، فهنا ننظر إلى حاشية وأصدقاء اولئك الأشخاص، فرضاً شككنا فى شخص معاوية ورأينا بطانته وحاشيته جماعة من المنافقين وأصحاب الدنيا كعمرو بن العاص وممن طردهم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ومن تبقى من أقطاب الجاهلية آنذاك يمكننا التعرف عليه.

وزبدة الكلام هناك عدّة طرق لمعرفة الحق والباطل ولابدّ من استفادة ما يناسب كل مورد من طريق.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۴۳

الخطبة[۷۶۴] المأة والثامنة والأربعون

اشارة

وَمِنْ كَلام لَهُ عليه السلام

في ذكر أهل البصرة

نظرة إلى الخطبة

تحدّث الإمام عليه السلام في المقطع الأول من هذه الخطبة عن طلحة والزبير واللذان قد إتحدا في الظاهر واتفقا على قتال على عليه السلام في الجمل، فقد كشف الإمام عليه السلام اللثام عن جانب من أسرارها فقا إنّهما وإن اتحدا ظاهرياً، إلّاأنّ ذلك الاتحاد مرحلى ومؤقت، فان تسلّط أحدهما أسقط الآخر، وأشار عليه السلام في المقطع الثاني إلى فتنة البصرة وأصحاب الجمل، وقد دعى الناس للعمل على إخماد نار هذه الفتنة، كما حذر في الختام من ضرورة مراقبة التحركات المشبوهة لناقضي المواثيق (طلحة والزبير وأعوانهما).

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۴۵

«كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَرْجُو الْأَمْرَ لَهُ، وَيَعْطِفُهُ عَلَيْهِ، دُونَ صَاحِبِهِ، لَايَمُتَّانِ إِلَى اللَّهِ بِحَبْلٍ، وَلَايَمُدَّانِ إِلَيْهِ بِسَبَبٍ. كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَامِلُ ضَبٍّ لِصَاحِبِهِ، وَعَمَّا قَلِيلٍ يُكْشَفُ قِنَاعُهُ بِهِ! وَاللَّهِ لَئِنْ أَصَابُوا الَّذِى يُرِيدُونَ لَيَنْتَزِعَنَّ هذَا نَفْسَ هذَا، وَلَيَأْتِيَنَّ هذَا عَلَى هذَا. قَدْ قَامَتِ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ، فَأَيْنَ الْمُحْتَسِبُونَ! فَقَدْ سُنَّتْ لَهُمُ السُّنَنُ، وَقُدِّمَ لَهُمُ الْخَبَرُ. وَلِكُلِّ ضَلَّةٍ عِلَّةٌ، وَلِكُلِّ نَاكِثٍ شُبْهَةٌ.

وَاللَّهِ لَاأَكُونُ كَمُسْتَمِعِ اللَّدْمِ، يَسْمَعُ النَّاعِيَ وَيَحْضُرُ الْبَاكِيَ، ثُمَّ لَايَعْتَبِرُ!».

الشرح والتفسير

الإتحاد الظاهرى والعداء الباطنى

كشف الإمام عليه السلام في القسم الأول من هذه الخطبة النقاب عن حقيقة في عدم وجود دافع شرعي لطلحة والزبير- اللذان أثارا معركة الجمل- وليس لهما من همّ سوى الدنيا والاستيلاء على الحكومة، ومن هنا فانّ تحقق لهما ما يريدان سعى كل منهما لإزالة الآخر لينفرد بالحكومة فقال:

«كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَرْجُو الْأَمْرَ لَهُ، وَيَعْطِفُهُ عَلَيْهِ، دُونَ صَاحِبِهِ».

ثم استدلّ عليه السلام على ذلك بالقول:

«لَا يَمُتَّانِ ۷۶۵] إِلَى اللَّهِ بِحَبْلٍ، وَلَايَمُدَّانِ إِلَيْهِ بِسَبَبٍ. كُلُ

وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَامِلُ ضَبٍ ۷۶۶] لِصَاحِبِهِ، وَعَمَّا قَلِيلٍ يُكْشَفُ قِنَاعُهُ بِهِ!»

، والضبّ هوالحيوان المعروف، وتعتقد العرب بأنّه خال من العاطفة إلى جانب حماقته حتى أنّه ليأكل فراخه ومن هنا ضرب به المثل في العقوق، وقد استشهد الإمام عليه السلام بذلك المثل في قوله:

«حَامِلُ ضَبٍّ لِصَاحِبِهِ»،

فهي عبارة غاية في الروعة لمدى العداوة والبغضاء التي يخفيها كل منهما لصاحبه.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۴۶

ثم قال عليه السلام:

«وَاللَّهِ لَئِنْ أَصَابُوا الَّذِی یُرِیدُونَ لَیَنْتَزِعَنَّ هذَا نَفْسَ هذَا، وَلَیَأْتِیَنَّ هذَا عَلَی هذَا»

، والطریف أنّ ما أورده الإمام علیه السلام فی العبارة السابقهٔ بشأن طلحهٔ والزبیر یصدق علی جمیع الأفراد الذین یتحدون من أجل نیل السلطهٔ دون أن یکون لهم أی دافع إلهی، فهم متحدون ومتفقون مادامهم لم ینتصروا، فبمجرّد الانتصار یسعی کل واحد منهم للقضاء علی الآخر والتفرد بالسلطهٔ، وشواهد ذلک کثیرهٔ علی مرّ العصور وفی کل زمان ومکان، والحال لو کانت الدوافع إلهیّهٔ لدام الإتحاد وربّما اقترح کل السلطهٔ علی غیره، وقد إتضحت حقیقهٔ کلام الإمام علیه السلام بشأن طلحهٔ والزبیر حتی قبل شروع معرکهٔ الجمل وتنازعهما علی الزعامهٔ، وهذا ما سنتناوله إن شاء اللّه فی البحث القادم، ولما کانت هذه الخطبهٔ قبل معرکهٔ الجمل فقد دعی الإمام الناس إلی الوقوف بوجه ناقضی العهد الذین حملوا رایات معرکهٔ الجمل فقال:

«قَدْ قَامَتِ الْفِئَهُٔ الْبَاغِیَهُٔ، فَأَیْنَ الُمحْتَسِبُونَ ۷۶۷]! فَقَدْ سُنَّتْ لَهُمُ السُّنَنُ، وَقُدِّمَ لَهُمُ الْخَبَرُ».

والعبارهٔ الفئهٔ الباغیهٔ إشارهٔ إلی کل جماعهٔ تقوم بوجه الحق وحکومهٔ العدل، کما یصدق هذا الکلام علی أصحاب الجمل، وعلی أعوان معاویهٔ أیضاً، لأنّهم وقفوا جمیعاً ضد الحق، ومن هنا جاء فی الحدیث النبی الأکرم صلی الله علیه و آله لعمّار الذی استشهد فی صفین وقتله أعوان معاویهٔ:

«یَا عَمّارُ تَقْتُلُکَ الفِئَهُٔ البَاغِیهُٔ»[۷۶۸].

والمفردهٔ «المحتسبون» إشارهٔ إلی الأفراد الذین یجاهدون حسبهٔ للّهولا ینتظرون سوی ثوابه وأجره.

والعبارهٔ

«فَقَدْ سُنَّتْ لَهُمُ السُّنَنُ ...»

، إشارهٔ إلی أنّ سنن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله قد عرضت السبل اللازمهٔ للقیام ضد البغاهٔ والعصاهٔ.

العبارهٔ:

«وَقُدِّمَ لَهُمُ الْخَبَرُ»

، إشارهٔ إلی حدیث النبی الأکرم صلی الله علیه و آله لصحبه:

«تُقاتِلُونَ النّاکِثِینَ والقَاسِطِینَ والمَارِقِینَ»[۷۶۹]

، بناءاً علی هذا وبالنظر إلی اتضاح الضلال بالنسبهٔ لتلک

نفحات الولایهٔ، ج۵، ص: ۴۴۷

الفئهٔ واتضاح سنن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله تجاه مثل هؤلاءالأفراد والنبوءهٔ السریعهٔ التی طرحها النبی الأکرم صلی الله علیه و آله فلم یبق هنالک من مجال للإبهام ولابدّ لکل مؤمن مخلص أن یقف فی وجه الباطل.

ثم قال الإمام علیه السلام:

«وَلِکُلِّ ضَلَّهٍٔ عِلَّهٌٔ، وَلِکُلِّ نَاکِثٍ شُبْهَهٌٔ»

، قطعاً لم یرد الإمام علیه السلام بها الکلام توجیه الأعمال القبیحهٔ والطائشهٔ لطلحهٔ والزبیر، بل یریدالإشارهٔ إلی هذه الحقیقهٔ إلی أن الظلال لیس عبثیاً، وعادهٔ ما تکون علّته اختیاریهٔ، فالعلّهٔ الأصلیهٔ لأغلب الظلال تتمثل فی هوی النفس وحبّ الدنیا والجاه والاستبداد والکبر والغرور والحسد، وهذا المعنی واضح تماماً بالنسبهٔ لطلحهٔ والزبیر.

والعبارهٔ:

«وَلِکُلِّ نَاکِثٍ شُبْهَهٌٔ»

، إشارهٔ إلی أنّ کل ناکث لعهد عادهٔ ما یخلق لنفسه ذریعهٔ لیخدع العوام ویجرهم إلیه، کما تذرع طلحهٔ والزبیر بدم عثمان علی أنّه الخلیفهٔ الذی قتل مظلوماً، فیثیروا طائفهٔ من العوام ضد علی علیه السلام فیتمکنا من تحقیق أهدافهما المغرضهٔ، بینما کانا من العناصر

التی قتلت عثمان، کما مرّ معنا فی الخطبة ۱۳۷ خیث قال الإمام بشأن طلحة والزبیر ومعاویة:

«وَإِنَّهُمْ لَیَطْلُبُونَ حَقّاً هُمْ تَرَکُوهُ، وَدَماً هُمْ سَفَکُوهُ».

والعبارة

«ناکث»

إشارة إلی طلحة والزبیر حیث بایعا علیاً علیه السلام فی البدایة ثم نقضوا البیعة.

ثم إختتم الإمام الخطبة بالإشارة إلی نقطة مهمّة وهی المراقبة وعدم الغفلة عن العدو فقال:

«وَاللّهِ لَاَکُونُ کَمُسْتَمِعِ اللَّدْمِ ۷۷۰]، یَسْمَعُ النَّاعِیَ وَیَحْضُرُ الْبَاکِیَ، ثُمَّ لَایَعْتَبِرُ!»،

إشارة إلی أنّ الزعیم الیقظ لا یسمع أنین المظلومین وتعبئة قوی الشیاطین، وقد مضی شبیه هذا المعنی فی الخطبة السادسة:

«وَاللَّهِ لَا أَکُونُ کالضَّبُع: تَنَامُ عَلَی طُولِ اللَّدْمِ، حَتَّی یَصِلَ إِلَیْها طَالِبُهَا، وَیَخْتِلَهَا رَاصِدُها، وَلکِنّی أَضْرِبُ بِالْمُقْبِلِ إِلَی الْحَقّ الْمُدْبِرَ عَنْهُ».

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۴۴۸

تأمّل: أصدقاء الأمس وأعداء الیوم

العبارة أعلاه تبیّن حقیقة وهی أنّ أصحاب الباطل وإن إتّحدوا فی بادیء الأمر من أجل تحقیق أهدافهم، إلّاأنّهم ما إن ینتصروا ویتمکنوا حتی یسعی کل منهم لإزالة الآخر والتفرد بتناول ثمرة شجرة النجاح والنموذج البارز لذلک الإتحاد طلحة والزبیر فی معرکة الجمل والذی یشکل الموضوع الرئیسی لهذه الخطبة، والطریف فی الأمر أنّ بوادر هذه المنافسة الهدامة قد لاحت حتی قبل شروع المعرکة.

فقد نقل ابن أبی الحدید عن المؤرخین أنّ خلافاً وقع بینهما قبل الجمل بشأن إمامة العسکر، ولمّا إشتد النزاع بینهما تدخلت عائشة فأمرت أن تصلی یوماً محمد بن طلحة وآخر عبداللّه بن الزبیر حتی تنتهی المعرکة[۷۷۱].

من جانب آخر سأل طلحة عائشة أن یسلم علیه الناس بصفته أمیرالمؤمنین، کما سألها الزبیر ذلک، فسلّمت عائشة علیهما بأمیرالمؤمنین، کما اختلفا فی إمرة الجیش فقد أراد طلحة الإمرة، بینما رأی الزبیر نفسه الأجدر بها[۷۷۲]، وکل هذه الامور شواهد حیّة علی ما أخبر به الإمام علیه السلام فی هذه الخطبة حین قال کل واحد منها یرجو الأمر له ویفکر فی القضاء علی صاحبه، فلیس هناک من دافع إلهی، ولا تؤدّی الدوافع النفسانیة سوی إلی الاحتکار دائماً.

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۴۴۹

الخطبة[۷۷۳] المأة والتاسعة والأربعون

اشارة

وَمِنْ کَلامٍ لَهُ علیه السلام

قبل شهادتة علیه السلام

نظرة إلی الخطبة

کما ورد فی أسناد الخطبة فانّ الإمام علیه السلام خطبها حین کان علی أعتاب الشهادة، فقد أوردها علی سبیل الوصیة إلی جانب النصح والمواعظ، والواقع أنّ الخطبة تتألف من ثلاثة أقسام:

القسم الأول: بشأن الموت الذى لا يستطيع أحد الفرار منه ولا يعلم أين ومتى يدركه.

القسم الثانى: وصيّة قصيرة وبليغة عظيمة المضمون تجذب القلوب وتوضح معالم الطريق فى المستقبل.

القسم الثالث: الـدروس التى ينبغى للناس تعلمها من شـهادة الإمام عليه السـلام كما يشـير عليه السـلام إلى هـذه الحقيقة وهى إننى إن رحلت عنكم وخلّفنى غيرى آنذاك ستعرفون، من كنت؟ وماذا أردت؟ وما كانت سرائرى؟

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۵۱

القسم الأول: إستحالة الهروب من الموت

«أَيُّهَا النَّاسُ، كُـلُّ امْرِئٍ لَاقٍ مَا يَفِرُّ مِنْهُ فِى فِرَارِهِ. وَ الْأَجَلُ مَسَاقُ النَّفْسِ؛ وَالْهَرَبُ مِنْهُ مُوَافَاتُهُ. كَمْ أَطْرَدْتُ الْأَيَّامَ أَبْحَثُهَا عَنْ مَكْنُونِ هـذَا الْأَمْرِ، فَأَبَى اللَّهُ إِلَّا إِخْفَاءَهُ. هَيْهَاتَ! عِلْمٌ مَخْزُونٌ!».

الشرح والتفسير

أكـد الإمـام عليه السـلام فى هـذا القسم من الخطبـة أنّ الفرار من الموت مسـتحيل، وأبعـد من ذلك فانّ الإنسان يسـتقبل الموت حين فراره، فقال:

«أَيُّهَا النَّاسُ، كُلُّ امْرِئٍ لَاقٍ مَا يَفِرُّ مِنْهُ فِى فِرَارِهِ. وَ الْأَجَلُ مَسَاقُ ۷۷۴] النَّفْسِ؛ وَالْهَرَبُ مِنْهُ مُوَافَاتُهُ».

هناك عدّة تفاسير لشرّاح نهج البلاغة للعبارة الهرب من الموت موافاته، فقد قال البعض:

المراد من هذه العبارة أنّ الأجل إذا حلّ وجاء أمر اللّه سبحانه برحيل من الدنيا فحتى الدواء يعطى نتيجة معكوسة، فما كان مشـفياً فى الأحوال العادية يصـبح سـبباً للموت، وقيل فى تفسير العبارة أنّ الزمان الذى يصرفه الإنسان من أجل العلاج فى مثل هذه الحالات إنّما يقرّبه من آجله ۷۷۵].

وبعبـارة أخرى، فقـد شوهـد كثيراً وقوع الإنسـان فى مـا يخـافه ويحـذره، ويـدركه مـا هرب منه، وعلى ضوء هـذا التفسـير فـانّ الحكم المذكور حكم غالبى وليس كلى.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۵۲

ثم قال عليه السلام:

«كَمْ أَطْرَدْتُ ۷۷۶] الْأَيَّامَ أَبْحَثُهَا عَنْ مَكْنُونِ هذَا الْأَمْرِ، فَأَبَى اللَّهُ إِلَّا إِخْفَاءَهُ.

هَيْهَاتَ! عِلْمٌ مَخْزُونٌ!».

سؤال

هنـا يبرز هـذا السؤال وهو: كيف قال الإمام بأنّ اللّه وحـده العالم بالآجل ولا يعلمه أحـد[۷۷۷]، بينمـا تظافرت الأخبار التى وردت عن أميرالمؤمنين على عليه السـلام أنّه كـان يعلم بزمـان وفـاته، وكان يعرف قاتله، كما يخبر ولـده على الـدوام فى ليلـة شـهادته، بل أشار بعبـارات مختلفـة إلى زمـان شـهادته حتى خلالـل شـهر رمضان الـذى استشـهد فيه، وقـد ورد فى الكافى أنّ الطيور فى بيت الإمام عليه السلام كانت على علم بشهادته؟

جواب

يعتقد البعض بالاسـتناد إلى بعض الروايات ۷۷۸]، أنّ حالات المعصومين عليهم السـلام وأولياء اللّه تعالى مختلفـة، فأحياناً يعلمون كل شىء بـإرادة اللّه تعالى، وأحياناً أخرى تخفى عليهم بعض المسائل بإرادة اللّه تعالى حتى اللحظات يمكن أن تكون متفاوتـة، فقـد شـم نبى اللّه يعقوب رائحـة قميص يوسف من مساحـة بعيـدة (مصـر) بينمـا لم يراه فى بئر كنعـان، وهناك احتمال أخر ما ذكره الإمام عليه السـلام قانوناً كلياً حول الأجل وخاتمـة حياة جميع الأفراد، إلّاأنّ هـذا القانون الكلى كسائر القوانين الكلية له اسـتثناءات، فما المانع أن

يعلم أولياء اللَّه وباذن اللَّه وتعليمه بلحظة موتهم.

وهناك نقطة أخرى هى: إنّ علوم المعصومين عليهم السلام بالنسبة لمسائل المستقبل على أساس لوح المحو والإثبات وهو قابل للتغيير، أو ما يصلح عليه بالعلم بالمقتضيات، لا العلم بالعلة التامة التى تأبى التغيير، لأنّ ذلك القسم الذى يسمى باللوح المحفوظ مختص باللَّه تبارك وتعالى، مثلًا جاء فى قصة السيد المسيح عليه السلام أنّه أخبر عن موت عروس فى ليلة زفافها، بينما لم يقع ذلك، وذلك لأنّها تصدقت وحالت الصدقة دون وقوع تلك المصيبة.

وسنتناول شرح هذا الموضوع فى محله إن شاء اللَّه.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۵۳

القسم الثانى: وصيّة الإمام عليه السلام

«أَمَّا وَصِيَّتِى: فَاللَّهَ لَاتُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَمُحَمَّداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَلَا تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ. أَقِيمُوا هذَيْنِ الْعَمُودَيْنِ، وَأَوْقِدُوا هذَيْنِ الْمِصْبَاحَيْنِ، وَخَلَاكُمْ ذَمٌّ مَا لَمْ تَشْرُدُوا. حُمِّلَ كُلُّ امْرِئٍ مِنْكُمْ مَجْهُودَهُ، وَخُفِّفَ عَنِ الْجَهَلَةِ.

رَبٌّ رَحِيمٌ، وَدِينٌ قَوِيمٌ، وَإِمَامٌ عَلِيمٌ. أَنَا بِالْأَمْسِ صَاحِبُكُمْ، وَأَنَا الْيَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ، وَغَداً مُفَارِقُكُمْ! غَفَرَ اللَّهُ لِى وَلَكُمْ!».

الشرح والتفسير

بيّن الإمام عليه السلام فى القسم من الخطبة وصيّته وقد صبّ الإمام عليه السلام فيها عصارة روحه وفكره فى تلك اللحظة الحساسة والصعبة التى يوشك فيها على الرحيل فقال:

«أَمَّا وَصِيَّتِى: فَاللَّهَ لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَمُحَمَّداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَلَا تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ. أَقِيمُوا هذَيْنِ الْعَمُودَيْنِ، وَأَوْقِدُوا هذَيْنِ الْمِصْبَاحَيْنِ، وَخَلَاكُمْ ذَمٌّ ۷۷۹] مَا لَمْ تَشْرُدُوا».

والمراد بالشرك هنا المعنى الواسع للكلمة والذى يشمل الشرك فى الذات والصفات وكذلك الشرك فى الأفعال، وبعبارة أخرى، كل ميل لما سوى اللَّه سبحانه سواء فى العقيدة أو العمل، وكذلك اريد بالسنّة معناها الواسع الذى يشمل جميع البرامج العبادية والأخلاقية والسياسية والاجتماعية، والواقع هو أنّ العبارتين قد تضمنتا جميع أسباب سعادة الإنسان،

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۵۴

فالإنسان لم يتعلق بما سوى اللَّه ولا يطلب غير رضاه ولم يحكم هو نفسه وطبّق كافة تعاليم النبى الأكرم صلى الله عليه و آله على كافة الأصعدة والمجالات فهو الإنسان سعيد وموفق، ومن هنا شبّه الإمام هذين الاثنين بعمودى الخيمة إن اقيما فانّ الخيمة ملاذ آمن من الحرارة والبرودة وواقية من أغلب المخاطر، كما شبّهها بمصباحين على جانبى الإنسان وهما يضيئان الفضاء والطريق، ومن البديهى ألا يبقى مجالًا للظلالة مع وجود هذين المصباحين المضيئين.

ولذلك قال الإمام عليه السلام فى مواصلته لكلامه، إعملوا بهذه الوصايا وخلاكم ذم، وسوف لن يكون هناك من خلل ونقص فى دينكم وإيمانكم وحياتكم، ولكنه يشترط ذلك بمواصلة الطريق دون الانحراف، والالتزام بمسار التوحيد والعمل بالسنّة، والواقع هو أنّ جميع أصول الإسلام وفروعه قد جمعت فى هذه العبارة: فالتوحيد يشمل كافة الاصول العقائدية وحفظ سنة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله يشمل جميع التعاليم العلمية والأخلاقية، وإن قال عليه السلام أقيموا هذين العمودين وخلاكم ذم، للدليل السابق، ولما كان إقامة التوحيد وسنّة النبى صلى الله عليه و آله فى جميع الأبعاد ليس ميسراً للجميع وذلك لعدم تساوى القدرات الفكرية والجسمية، فقد قال عليه السلام:

«حُمِّلَ كُلُّ امْرِئٍ مِنْكُمْ مَجْهُودَهُ، وَخُفِّفَ عَنِ الْجَهَلَةِ»

، وهو ذات الأمر الذى اشير إليه كراراً فى الآيات الروايات.

فقد قال القرآن الكريم: «لَايُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا ...»[۷۸۰]، وقال فى موضع آخر:
«لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا ...»[۷۸۱].

وجاء فى الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«يُغْفَرُ لِلجَاهِلِ سَبعُونَ ذَنباً قَبلَ أنْ يُغفَرَ لِلعَالِمِ ذَنبٌ وَاحدٌ»[۷۸۲]

. كما ورد عن الإمام الباقر عليه السلام:

«إِنّما يُداقُ العِبادُ فِى الحِسابِ يَومَ القِيامَةِ عَلَى قَدَرِ مَا آتَاهُم مِنَ العُقُولِ فِى الدُّنيا»[۷۸۳]

، والواقع أنّ هذا هو مقتضى العدالة فى أن تؤخذ القدرات الفكرية والجسمية للأفراد بنظر الاعتبار فى تفويض المسؤوليات والحساب على المخالفات، ومن هنا قال الإمام عليه السلام:

«رَبٌّ رَحِيمٌ، وَدِينٌ قَوِيمٌ، وَإِمَامٌ عَلِيمٌ».

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۵۵

والواقع هو أنّ كافة أسباب السعادة فى ظل هذه الثلاث، فاللّٰه سبحانه رحيم قد فتح كافة أبواب السعادة بوجه الإنسان والدين الذى أتى به نبى الإسلام صلى الله عليه و آله يتمتع برسوخ لا مثيل له، والإمام عليه السلام الذى نصب لإجراء أحكام الدين عادل من جميع الجوانب يمكن أن تكون كلمة الإمام هنا إلى شخص النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أو على عليه السلام أو جميع أئمة الإسلام من النبى الأكرم صلى الله عليه و آله حتى آخر الأئمة الإمام المهدى (سلام اللّٰه عليهم أجمعين)، ومن الطبيعى أنّ مثل هذا الرب والدين والإمام لا يكلّف الإنسان سوى على قدر وسعه.

ثم أشار الإمام عليه السلام فى الختام إلى نقطة مهمّة ليكمل بها القسم الأول والثانى فقال:

«أَنَا بِالْأَمْسِ صَاحِبُكُمْ، وَأَنَا الْيَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ، وَغَداً مُفَارِقُكُمْ! غَفَرَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ!»

، إشارة إلى أنّكم إن جعلتم هذه الأيام الثلاث مع بعضها لعلمتكم مطالب كثيرة، فبالأمس كنت مثلكم، بل زعيمكم وقائدكم حيث صرعت الكثير من على شاكلة عمرو بن عبد ود، لقد فتحت خيبر وقلعت بابها، ودافعت عن رسول للّٰهصلى الله عليه و آله فى ميادين القتال حين تظافرت علينا الأعداء، وكنت أجندل الأبطال فى الجمل وصفين والنهروان، لكننى اليوم لكم عبرة بعد أن رقدت على فراش الموت، وغداً أنا مفارقكم،، سوف ترون مكانى خالياً، أو ليست هذه الأيام الثلاث تكفيكم عبرة لتكشف عن وضع الدنيا وتفاهتها؟ حقاً لم يسمع كلام أبلغ من هذا الكلام وبهذا الاختصار والعمق فى المعنى.

أمّا بشأن المراد من العبارة

«وَغَداً مُفَارِقُكُمْ ...»

، هل هو الإخبار عن شهادته فى ذلك الوقت أم الإخبار عن مستقبل بعيد والذى ورد التعبير عنه فى العبارات المتداولة بقولهم غداً؟ يبدو هنالك خلافاً بين شرّاح نهج البلاغة، ولكن ما يفهم من القرآن المختلفة وسائر كلمات الإمام عليه السلام فى تلك الحادثة الأليمة وقبلها أنّ المراد الخبرالقطعى عن المستقبل القريب، ولا يتنافى ذلك مع العبارة:

«إن تَثبتِ الوطأةُ ...»

، لأنّ مثل هذه التعبيرات تهدف إلى بيان مقاصد خاصة واعتيادية، كما ورد فى القرآن الكريم: «أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ...»[۷۸۴]. والحال يعلم اللّٰه سبحانه أنّ نبيّه صلى الله عليه و آله لا يقتل، فهدف الإمام عليه السلام هنا بيان هذا المطلب، أنّى لو بقيت لعفوت عن ضاربى.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۵۷

القسم الثالث: معرفتى بعد موتى

«إِنْ تَثْبُتِ الْوَطْأَةُ فِى هذِهِ الْمَزَلَّةِ فَذَاكَ. وَإِنْ تَدْحَضِ الْقَدَمُ فَإِنَّا كُنَّا فِى أَفْيَاءِ أَغْصَانٍ، وَمَهَابِّ رِيَاحٍ، وَتَحْتَ ظِلِّ غَمَامٍ، اضْمَحَلَّ فِى الْجَوِّ مُتَلَفِّقُهَا، وَعَفَا فِى الْأَرْضِ مَخَطُّهَا. وَإِنَّمَا كُنْتُ جَاراً جَاوَرَكُمْ بَدَنِى أَيَّاماً، وَسَتُعْقَبُونَ مِنِّى جُثَّةً خَلَاءً: سَاكِنَةً بَعْدَ حَرَاكٍ، وَصَامِتَةً بَعْدَ نُطْقٍ لِيَعِظْكُمْ هُدُوِّى، وَخُفُوتُ إِطْرَاقِى، وَسُكُونُ أَطْرَافِى، فَإِنَّهُ أَوْعَظُ لِلْمُعْتَبِرِينَ مِنَ الْمَنْطِقِ الْبَلِيغِ وَالْقَوْلِ الْمَسْمُوعِ. وَدَاعِى لَكُمْ وَدَاعُ امْرِئٍ مُرْصِدٍ لِلتَّلَاقِى! غَداً تَرَوْنَ أَيَّامِى، وَيُكْشَفُ لَكُمْ عَنْ سَرَائِرِى، وَتَعْرِفُونَنِى بَعْدَ خُلُوِّ مَكَانِى وَقِيَامِ غَيْرِى مَقَامِى».

الشرح والتفسير

شرح الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة مصيره على فراش الشهادة كما بيّن وضع المسلمين بعده فقال:

«إِنْ تَثْبُتِ الْوَطْأَةُ[۷۸۵] فِى هذِهِ الْمَزَلَّةِ[۷۸۶] فَذَاكَ. وَإِنْ تَدْحَضِ ۷۸۷] الْقَدَمُ فَإِنَّا كُنَّا

فِى أَفْيَاءِ[۷۸۸] أَغْصَانٍ، وَمَهَابِ ۷۸۹] رِيَاحٍ، وَتَحْتَ ظِلِّ غَمَامٍ، اضْمَحَلَّ فِى الْجَوِّ مُتَلَفِّقُهَا[۷۹۰]، وَعَفَا[۷۹۱] فِى

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۵۸

الْأَرْضِ مَخَطُّهَا[۷۹۲]».

فتاريخ البشر وتجاربنا اليومية تكشف هذه الحقيقة فى أنّ الحياة كظلال الأشجار والقدرات كظلال الغيوم تمرّ بشرعة وتزول آثارها إلى الأبد، لكن العجيب عدم التفات الإنسان رغم رؤيته لكل هذه الأمور وكأنّه غير مشمول بهذا القانون.

ثم بيّن هذا المعلم الربانى إثر ذلك وبالنظر إلى علمه بمفارقة الدنيا عاجلًا بعض الدروس والعبر التى يمكن للآخرين الاستفادة منها والتى من شأنها إيقاظهم من غفلتهم فقال:

«وَإِنَّمَا كُنْتُ جَاراً جَاوَرَكُمْ بَدَنِى أَيَّاماً، وَسَتُعْقَبُونَ مِنِّى جُثَّةً خَلَاءً[۷۹۳] سَاكِنَةً بَعْدَ حَرَاكٍ ۷۹۴]، وَصَامِتَةً

بَعْدَ نُطْقٍ».

ثم استنتج مباشرة:

«لِيَعِظْكُمْ هُدُوِّى ۷۹۵]، وَخُفُوتُ ۷۹۶] إِطْرَاقِى ۷۹۷]، وَسُكُونُ أَطْرَافِى، فَإِنَّهُ

أَوْعَظُ لِلْمُعْتَبِرِينَ مِنَ الْمَنْطِقِ الْبَلِيغِ وَالْقَوْلِ الْمَسْمُوعِ».

حقّاً أنّ الأمر كذلك فالمتحكمون مهما كانوا فصحاء وبلغاء، والسامعون مهما كانوا صاغين ولكن هناك فارق كبير بين النظر والسماع، فيا لها من عبرة أن ترى ذلك الرجل الشجاع الذى ذاع صيته فى الأرجاء وهو الآن طريح الفراش جثة هامدة لا يقوى حتى على تحريك جفن عينيه، كما لا تقوى شفتاه على الحركة وهذا ما ينطوى على أعظم درس وعبرة حيث يشاهد الإنسان بعينه أفول القوة والقدره فيغرق فى هالة من التفكير، وهل لواعظ القدرة على إبراز هذا التأثير؟

وأخيراً إختتم الوصيّة بتوديع الناس، ذلك الوداع الأليهم فقال:

«وَدَاعِى لَكُمْ وَدَاعُ امْرِئٍ مُرْصِدٍ[۷۹۸] لِلتَّلَاقِى! غَداً تَرَوْنَ أَيَّامِى، وَيُكْشَفُ لَكُمْ عَنْ سَرَائِرِى، وَتَعْرِفُونَنِى بَعْدَ خُلُوِّ

مَكَانِى وَقِيَامِ غَيْرِى مَقَامِى».

نعم، فحين رحل مظهر العدل ذلك الزعيم الشفيق والرؤوف، وحين غادر الناس تلك

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۵۹

الكنوز العلمية التى كانت تجرى على لسان الإمام عليه السلام وحل محلّه جبابرة بنى امية الذى لا يجيدون سوى لغة الظلم والجور ولا يفكرون سوى بأهوائهم وغرائزهم الحيوانية وأراقوا دماء الأبرياء، آنذاك فهم المسلمون من فقدوا، وأية خسارة تكبدوا.

وبناءاً على تقدم فالتعبير بغد لا يثير حسب ظاهر العبارة إلى لعالم البرزخ ولا القيامة (كما ذهب إلى ذلك بعض شرّاح نهج البلاغة)، بل إشارة إلى الأيّام السوداء والمريرة التى مرّت على المسلمين بعد شهادة أميرالمؤمنين على عليه السلام.

والعبارة

«مُرْصِدٍ لِلتَّلَاقِی»

، سواء کانت بمعنی لقاء ملائکة الموت أو اللّه سبحانه فهی تفید عدم تعلق روحه المقدّسة سلام اللّه علیه بهذا العالم المادی الزائل، بل کان متعلقاً بالعالم العلوی والملائکة والذات الإلهیّة المقدّسة، وضربة ابن ملجم کانت المقدمة لذلک الفوز العظیم ولقاء ربّ الکعبة، والشاهد الناصع علی ذلک قوله علیه السلام حین ضرب:

«فُزْتُ وَرَبُّ الکَعبَةِ».

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۴۶۱

الخطبة[۷۹۹] المأة والخمسون

اشارة

وَمِنْ خُطبَةٍ لَهُ علیه السلام

یومی فیها إلی الملاحم ویصف فئة من أهل الضلال

نظرة إلی الخطبة

تتألف الخطبة فی الواقع من ثلاثة أقسام:

القسم الأول: یتحدث عن فئة ظلت الطریق القویم وإتجهت نحو الانحراف، ثم تحدث عن إمامة أهل البیت علیهم السلام الذین یرون الفتن بمصابیح الهدایة وینهضون بهدایة الامة، الإمامة والزعامة التی تذلل الصعاب وتحرر الامم.

القسم الثانی: تحدث عن ضعاف الإیمان الذین یسبحون فی الفتن والظلال إثر إتباع أهواء النفس، فئة أخری راسخة الإیمان وهی تجابه الکفر والشرک وقد نالت القرب الإلهی.

القسم الثالث: الذی أشار إلی الأفراد الذین تراجعوا القهقری بعد رسول اللّه صلی الله علیه و آله وقطعوا أواصر الإیمان وجانبوا أولیاء اللّه سبحانه والتحقوا بأعدائه وقد اقتلعوا اسس الولایة وحولوها إلی غیر موضعها.

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۴۶۳

القسم الأول: إنتظام کل شیء فی ظل وجوده

اشارة

«وَأَخَذُوا یَمِیناً وَشِمَالًا ظَعْناً فِی مَسَالِکِ الْغَیِّ، وَتَرْکاً لِمَذَاهِبِ الرُّشْدِ. فَلَا تَسْتَعْجِلُوا مَا هُوَ کَائِنٌ مُرْصَدٌ، وَلَا تَسْتَبْطِئُوا مَا یَجِیءُ بِهِ الْغَدُ. فَکَمْ مِنْ مُسْتَعْجِلٍ بِمَا إِنْ أَدْرَکَهُ وَدَّ أَنَّهُ لَمْ یُدْرِکْهُ. وَمَا أَقْرَبَ الْیَوْمَ مِنْ تَبَاشِیرِ غَدٍ! یَا قَوْمِ، هذَا إِبَّانُ وُرُودِ کُلِّ مَوْعُودٍ، وَدُنُوٍّ مِنْ طَلْعَةِ مَا لَاتَعْرِفُونَ. أَلَا وَإِنَّ مَنْ أَدْرَکَهَا مِنَّا یَسْرِی فِیهَا بِسِرَاجٍ مُنِیرٍ، وَیَحْذُو فِیهَا عَلَی مِثَالِ الصَّالِحِینَ، لِیَحُلَّ فِیهَا رِبْقاً، وَیُعْتِقَ فِیهَا رِقّاً، وَیَصْدَعَ شَعْباً، وَیَشْعَبَ صَدْعاً، فِی سُتْرَةٍ عَنِ النَّاسِ لَایُبْصِرُ الْقَائِفُ أَثَرَهُ وَلَوْ تَابَعَ نَظَرَهُ. ثُمَّ لَیُشْحَذَنَّ فِیهَا قَوْمٌ شَحْذَ الْقَیْنِ النَّصْلَ تُجْلَی بِالتَّنْزِیلِ أَبْصَارُهُمْ، وَیُرْمَی بِالتَّفْسِیرِ فِی مَسَامِعِهِمْ، وَیُغْبَقُونَ کَأْسَ الْحِکْمَةِ بَعْدَ الصَّبُوحِ!».

الشرح والتفسیر

کما ورد سابقاً فانّ هذه الخطبة بالمجموع تتکهن بحوادث المستقبل وتفید القرائن والعبارات الواردة فیها، أنّ الإمام علیه السلام قد

أشار إلى الحوادث ما قبل ظهور الإمام المهدی علیه السلام ومن ثم قیامه المبارک.

فقد قال الإمام علیه السلام:

«وَأَخَذُوا يَمِيناً وَشِمَالًا ظَعْناً فِی مَسَالِکِ الْغَیِّ، وَتَرْکاً لِمَذَاهِبِ الرُّشْدِ. فَلَا تَسْتَعْجِلُوا مَا هُوَ کَائِنٌ مُرْصَدٌ[۸۰۰]، وَلَا تَسْتَبْطِئُوا مَا يَجِیءُ بِهِ الْغَدُ».

نفحات الولايهٔ، ج۵، ص: ۴۶۴

ثم خاض الإمام علیه السلام فی ذکر الدلیل لترک الاستعجال فقال:

«فَکَمْ مِنْ مُسْتَعْجِلٍ بِمَا إِنْ أَدْرَکَهُ وَدَّ أَنَّهُ لَمْ يُدْرِکْهُ. وَمَا أَقْرَبَ الْيَوْمَ مِنْ تَبَاشِيرِ[۸۰۱] غَدٍ!»

، إشارهٔ إلی الانتصارات الموعودهٔ بعد الفتن (لاسیّما ظهور المهدی علیه السلام الذی وردت الوعود الصریحهٔ فی عصر النبی بشأن بسط العدل والقسط فی کافهٔ أنحاء العالم)، وفی عدم استعجالها وذلک لأنّ لکل شیء زمان وشرائط، وما لم تحصل الشرائط فهی کالثمار الخام وتقطف من الشجرهٔ فلا یؤدّی ذلک سوی إلی الندم.

ثم خاطب الناس قائلًا بأنّ الآن أوان تحقق ما وعدتم به (من ظهور الفتن والبلابل وسلطهٔ الظلمهٔ وزیادهٔ الضغط علی المظلومین):

«يَا قَوْمِ، هذَا إِبَّانُ ۸۰۲] وُرُودِ کُلِّ مَوْعُودٍ، وَدُنُوٍّ مِنْ طَلْعَةِ
مَا لَاتَعْرِفُونَ».

ثم تحدّث بصورهٔ أوضح عن هذا الظهور العظیم فقال:

«أَلَا وَإِنَّ مَنْ أَدْرَکَهَا مِنَّا يَسْرِی فِيهَا بِسِرَاجٍ مُنِيرٍ، وَيَحْذُو[۸۰۳] فِيهَا عَلَی مِثَالِ الصَّالِحِينَ»

، ثم تطرق فی مواصلته لحدیثه إلی برامج ذلک المصلح الکبیر بعبارات قصیرهٔ عمیقهٔ المعنی، فقال:

«لِيَحُلَّ فِيهَا رِبْقاً[۸۰۴]، وَيُعْتِقَ فِيهَا رِقّاً،
وَيَصْدَعَ ۸۰۵] شَعْباً[۸۰۶]، وَيَشْعَبَ صَدْعاً، فِی سُتْرَةٍ عَنِ النَّاسِ لَايُبْصِرُ الْقَائِفُ ۸۰۷] أَثَرَهُ وَلَوْ تَابَعَ نَظَرَهُ».

فهذه العبارات تنطبق تماماً علی قضیهٔ ظهور المهدی علیه السلام، لأنّه یقطع أغلال الأسر ویطلق المظلومین ویکسر شوکهٔ الظالمین ویفرق جمعهم، فهو یعیش لسنوات فی الخفاء بحیث یعجز أعظم الباحثین عن العثور علیه، وقد أورد البعض من شرّاح نهج البلاغهٔ عدّهٔ تفاسیر

نفحات الولايهٔ، ج۵، ص: ۴۶۵

للعباره، وحیث لا یجدر الالتفات إلیها فاننا نعزف عن ذکرها.

والجدیر بالذکر أنّ شارح نهج البلاغهٔ ابن أبی الحدید المعروف بتعصبه بالنسبه لأغلب المسائل المرتبطهٔ بالإمامهٔ، صرّح فی شرحه للعبارهٔ المذکورهٔ:

«وَإِنَّ مَنْ أَدْرَکَهَا مِنَّا يَسْرِی فِيهَا بِسِرَاجٍ مُنِيرٍ»،

إلی أنّ المراد بها مهدی آل محمد صلی الله علیه و آله، کماتری إنطباق سائر الصفات المذکورهٔ علیه، وإن کان اعتقاد العامّهٔ بالنسبهٔ للإمام المهدی علیه السلام أنّه یولد فی آخر الزمان ۸۰۸].

ثم أشار فی ختام هذا المقطع من الخطبهٔ إلی أصحاب الإمام المهدی علیه السلام وأوصافهم:

«ثُمَّ لَيُشْحَذَنَّ ۸۰۹] فِيهَا قَوْمٌ شَحْذَ الْقَيْنِ ۸۱۰] النَّصْلَ تُجْلَی بِالتَّنْزِيلِ أَبْصَارُهُمْ، وَيُرْمَی بِالتَّفْسِيرِ
فِی مَسَامِعِهِمْ، وَيُغْبَقُونَ ۸۱۱] کَأْسَ الْحِکْمَةِ بَعْدَ الصَّبُوحِ!».

ویستفاد من العبارات إلی أنّ أصحاب الإمام المهدی علیه السلام هم من الرجال الشجعان والعلماء الذین أعدوا سلفاً وعملیهٔ بنائهم

مستمرة متواصلة، وقلوبهم نابضة بآيات القرآن وتفسير كلمات ا سبحانه، وهم دائموا التعلم صباح مساء ويزدادون إستعداداً وتأهباً، ولكن من هذا الذى أعدهم مسبقاً؟ هل حصل ذلک بأنفسهم أو لديهم بعض الأساتذة الذين أمروا باعدادهم؟ أم لإرتباطهم بإمامهم ومعلمهم الغائب؟ القضية ليست واضحة لدينا بالضبط، ولكن على كل حال أنّهم أفراد أعدوا للمساعدة فى هذه الثورة العظيمة حتى وصفهم ابن أبى الحديد بالعرفاء، فممن جمع فيهم الزهد والحكمة والشجاعة فهم أصحاب ولى اللّه الذى إصطفاه ۸۱۲].

ويفهم ممّا مرّ معنا فى هذا القسم من الخطبة أنّالإمام عليه السلام قد بشّر المسلمين بفجر مضيىء بعد تلک الظلمات، وهو الفجر الذى يأتى به ولده الميمون المهدى (عج) وبشروق شمس جماله تنجاب الظلمات.

نفحات الولايهٔ، ج۵، ص: ۴۶۶

تأمّل: قطعيهٔ قيام المهدى الموعود عليه السلام

وردت فى هذه الخطبة الشريفة فى الفصل الشابق- كسائر خطب نهج البلاغة- البشارة بظهور الإمام المهدى عليه السلام، البشارة التى وصلتنا من خلال الروايات المتواترة عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله، ومن هنا إتفق علماء الإسلام من الفريقين على هذا الأمر، ولم يشذ سوى النزر اليسير الذين يعانون من انحراف فكرى، حتى سطر أبرز علماء العامّة كتباً تحت عنوان تواتر روايات المهدى عليه السلام ۸۱۳].

ويستفاد من هذه الخطبة كأغلب روايات النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وأئمة أهل البيت عليهم السلام أمران:

الأول: أنّ هذا الظهور المقدّس بهدف إزالة بساط الظلم ونشر التوحيد والعدل سيكون فى زمان يعم فيه الفساد العالم، أى يملّ الناس الظلم والجور وتغلق طرق الصلاح وتثبت جميع المدارس والقوانين البشرية فشلها وهزيمتها، وهذا ما يضاعف من استقبال تلک الحكومة الإلهيّة.

الثانى: أنّ أصحاب المهدى عليه السلام وبهدف إجراء هذا المشروع العالمى الإنسانى العظيم هم من الأفراد الشجعان والعلماء والحلماء والرهن لإمتثال الأوامر.

ونختتم هذا البحث بحديث عن الصحابى المعروف أبى سعيد الخدرى فى مسند أحمد بن حنبل قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله:

«لاـ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتّى تَمتَلأـ الأَرضُ ظُلمَاً وَعُدواناً، قال: ثُمَّ يَخرُجُ رَجلٌ مِنْ عِترَتِى أو مِن أَهلِ بَيتِى يَملأُها قِسطَاً وَعَدلًا كَمَال مُلِئَتْ ظُلماً وَعُدواناً»[۸۱۴].

كما ورد مثل هذا المعنى باختلاف طفيف فى سنن أبى داود[۸۱۵].

نفحات الولايهٔ، ج۵، ص: ۴۶۷

القسم الثانى: خصائص أنصار النبى صلى الله عليه و آله

منهَا: «وَطَالَ الْأَمَدُ بِهِمْ لِيَسْتَكْمِلُوا الْخِزْىَ، وَيَسْتَوْجِبُوا الْغِيَرَ؛ حَتَّى إِذَا اخْلَوْلَقَ الْأَجَلُ، وَاسْتَرَاحَ قَوْمٌ إِلَى الْفِتَنِ، وَأَشَالُوا عَنْ لَقَاحِ حَرْبِهِمْ، لَمْ يَمُنُّوا عَلَى اللّهِ بِالصَّبْرِ، وَلَمْ يَسْتَعْظِمُوا بَذْلَ أَنْفُسِهِمْ فِى الْحَقِّ؛ حَتَّى إِذَا وَافَقَ وَارِدُ الْقَضَاءِ انْقِطَاعَ مُدَّةِ الْبَلَاءِ، حَمَلُوا بَصَائِرَهُمْ عَلَى أَسْيَافِهِمْ، وَدَانُوا لِرَبِّهِمْ بِأَمْرِ وَاعِظِهِمْ».

الشرح والتفسير

اختلف شرّاح نهج البلاغة فى هذا القسم من الخطبة وذلک لأنّ الضمائر التى وردت فى هذا القسم والأوصاف لا تبد منسجمة، ومن هنا قال بعض الشرّاح بوجود تقدير فى العبارات، واعتقدوا بأنّ عدم الإنسجام هذا يرتبط إختيار السيد الرضى رضى الله عنه، فلعل عدم

الإنسجام هذا يزول لو نقل المرحوم جميع الخطبة، على كل حال ما يبدو مناسباً فى تفسير هذا القسم هو أنّ الإمام عليه السلام نظر إلى ناس العصر الجاهلى ومن ثم عصر الظهور النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، فقسم أهل ذلك الزمان إلى ثلاث طوائف: الضالون، وضعاف الإيمان، والمؤمنون الشجعان الأشداء، فقال بشأن الطائفة الأولى:

«وَطَالَ الْأَمَدُ بِهِمْ لِيَسْتَكْمِلُوا الْخِزْىَ، وَيَسْتَوْجِبُوا الْغِيَرَ[۸۱۶]».

نعم، فأحياناً يترك اللّه الأفراد الذين يصرون على سلوك سبيل العصيان والطغيان ليبلغوا قمة الفضحية فيستوجبوا العقاب الإلهى.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۶۸

وقد أشارت الآشارت القرآنية إلى هذه الطائفة فى عدّة موارد واصطلحت على عقابهم بالاستدراج. ثم تحدّث عن الطائفة الثانية والثالثة فقال:

«حَتَّى إِذَا اخْلَوْلَقَ ۸۱۷] الْأَجَلُ،

وَاسْتَرَاحَ قَوْمٌ إِلَى الْفِتَنِ، وَأَشَالُوا[۸۱۸] عَنْ لَقَاحِ ۸۱۹] حَرْبِهِمْ، لَمْ يَمُنُّوا عَلَى اللَّهِ بِالصَّبْرِ، وَلَمْ

يَسْتَعْظِمُوا بَذْلَ أَنْفُسِهِمْ فِي الْحَقِّ؛ حَتَّى إِذَا وَافَقَ وَارِدُ الْقَضَاءِ انْقِطَاعَ مُدَّةِ الْبَلَاءِ، حَمَلُوا بَصَائِرَهُمْ عَلَى أَسْيَافِهِمْ، وَدَانُوا لِرَبِّهِمْ بِأَمْرِ وَاعِظِهِمْ».

وهكذا ميّز هذه الطوائف الثلاث التى لا يخلو مجتمع من نظائرها، وكل تسلك طريقها، وقد قسمهم جمع من شرّاح نهج البلاغة إلى قسمين، والعبارة:

«وَاسْتَرَاحَ قَوْمٌ إِلَى الْفِتَنِ ...»

، اعتبروها إشارة إلى الصالحين الذين يتخذون جانب الصمت والتقية تجاه بعض الفتن فى زمان معين حتى يحين موعد القيام، والعبارة:

«لَمْ يَمُنُّوا ...»

معطوفة عليها.

وكما أشرنا سابقاً فقد اختلف شرّاح نهج البلاغة بشأن هؤلاء القوم ومن هم اولئك الأفراد ومتى ينهضون ومن هو زعيمهم وفى أى وقت يظهر.

ذهب البعض إلى أنّ ذلك هو زمان بنى امية الذين يتسلطون بادىء الأمر على كافة البلاد الإسلامية ويطردون الأخيار الصالحين من الساحة ويختفون أصوات المظلومين، ولكن لا تمرّ مدّة حتى تقوم طائفة ضدهم وتطيح بسلطانهم وتقذف بهم فى مزبلة التاريخ.

ويرى البعض الآخر أنّهم أنصار الإمام المهدى عليه السلام الذين ينهضون بالأمر بعد كل ذلك الفساد والظلم والإبتعاد عن اللّه سبحانه بأمر من إمامهم فيملأون الأرض قسطاً وعدلًا بعد أنّ تملأ ظلماً وجوراً، ولكن بالنظر إلى ما سيرد فى المقطع الآخر يبدو أنّها إشارة إلى ناس يعيشون فى الجاهلية وقد سلكوا سبيل الفساد، ثم نهض عليهم ثلة من الصالحين التى تهب لنصرة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فتصحى بما لها ونفسها حتى ينتشر الإسلام فى كل مكان.

والعبارة:

«حَمَلُوا بَصَائِرَهُمْ عَلَى أَسْيَافِهِمْ ...»

، تعبير غاية فى الروعة تشير إلى أنّ الجهاد الإسلامى لابدّ أن يبتنى على العلم والجهاد الثقافى مقدم على الجهاد العسكرى.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۶۹

القسم الثالث: العودة إلى القيم الجاهلية

اشارة

«حَتَّی إِذَا قَبَضَ اللَّهُ رَسُولَهُ صَلَّی اللَّهُ عَلَیْهِ وَآلِهِ، رَجَعَ قَوْمٌ عَلَی الْأَعْقَابِ، وَغَالَتْهُمُ السُّبُلُ، وَاتَّكَلُوا عَلَی الْوَلَائِجِ، وَوَصَلُوا غَیْرَ الرَّحِمِ، وَهَجَرُوا السَّبَبَ الَّذِی أُمِرُوا بِمَوَدَّتِهِ، وَنَقَلُوا الْبِنَاءَ عَنْ رَصِّ أَسَاسِهِ، فَبَنَوْهُ فِی غَیْرِ مَوْضِعِهِ. مَعَادِنُ كُلِّ خَطِیئَةٍ، وَأَبْوَابُ كُلِّ ضَارِبٍ فِی غَمْرَةٍ. قَدْ مَارُوا فِی الْحَیْرَةِ، وَذَهَلُوا فِی السَّكْرَةِ عَلَی سُنَّةٍ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ: مِنْ مُنْقَطِعٍ إِلَی الدُّنْیَا رَاكِنٍ، أَوْ مُفَارِقٍ لِلدِّینِ مُبَایِنٍ».

الشرح والتفسیر

واصل الإمام علیه السلام بحثه السابق عن العصر الجاهلی ومن ثم زمان قیام رسول اللَّه صلی الله علیه و آله وإنبثاق الدعوة الإسلامیة، لیتحدث هنا عن العصر الذی یعقب النبی الأكرم صلی الله علیه و آله حیث رسم صورة واضحة عنه وأزاح الستار لیكشف الحقائق فقال:

«حَتَّی إِذَا قَبَضَ اللَّهُ رَسُولَهُ صَلَّی اللَّهُ عَلَیْهِ وَآلِهِ، رَجَعَ قَوْمٌ عَلَی الْأَعْقَابِ، وَغَالَتْهُمْ ۸۲۰] السُّبُلُ، وَاتَّكَلُوا عَلَی الْوَلَائِجِ ۸۲۱]، وَوَصَلُوا غَیْرَ الرَّحِمِ، وَهَجَرُوا السَّبَبَ الَّذِی أُمِرُوا بِمَوَدَّتِهِ».

المراد من العبارة:

«رَجَعَ قَوْمٌ عَلَی الْأَعْقَابِ»

، العودة إلی الجاهلیة وإحیاء سنن ذلک الزمان والذی ظهر للأسف فی المجتمع الإسلامی بعد رسول اللَّه صلی الله علیه و آله، فقد استحوذ الطالحون علی

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۴۷۰

مختلف المناصب وأقصی الصالحون وبرز حبّ الدنیا وأصبح بین المال العائد لجمیع المسلمین تحت تصرف طبقة معینة.

والعبارة:

«وَغَالَتْهُمُ السُّبُلُ»

، إشارة إلی اختلاف الآراء الذی ظهر بعد النبی الأكرم صلی الله علیه و آله وقد فسّر العدید من الأفراد محكمات الإسلام علی ضوء میولهم ومنافعهم الشخصیة، وهذا ما أدّی إلی ضلالة الكثیر من الناس، وهی الضلالة التی عبّر عنها الإمام بالهلكة.

والمراد بالعبارة:

«وَاتَّكَلُوا عَلَی الْوَلَائِجِ»

أنّ جماعة من المسلمین قد إختارت المنافقین بطانة لها.

والعبارة:

«وَصَلُوا غَیْرَ الرَّحِمِ»

، إشارة إلی الآیة الشریفة:

«قُلْ لَاأَسْأَلُكُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِی الْقُرْبَی ...»[۸۲۲].

والعبارة:

«وَهَجَرُوا السَّبَبَ الَّذِی أُمِرُوا بِمَوَدَّتِهِ»

، تأكید آخر علی هذا المعنی فی أنّهم مأمورون بمودة أهل البیت علیهم السلام واتّباع منهجهم، وإلّا أنّهم تركوهم واتبعوا غیرهم.

ثم خاض الإمام علیه السلام بصراحة أبعد بشأن الخلافة وتغییر أساسها فقال:

«وَنَقَلُوا الْبِنَاءَ عَنْ رَصِ ۸۲۳] أَسَاسِهِ، فَبَنَوْهُ فِی غَیْرِ مَوْضِعِهِ»،

رغم أنّ النبی الأكرم صلی الله علیه و آله عین خلیفته مراراً صراحة وكنایة فقال، تمسكوا بالقرآن والعترة، لكنّهم هدّموا هذا البنیان

ونقلوه إلی موضع هش آخر.

ثم تطرق الإمام علیه السلام فی ختام الخطبهٔ إلی صفات العامل الأصلی وراء ذلک التغییر فقال:

«مَعَادِنُ کُلِّ خَطِیئَهٍٔ، وَأَبْوَابُ کُلِّ ضَارِبٍ فِی غَمْرَهٍٔ[۸۲۴]. قَدْ مَارُوا[۸۲۵] فِی الْحَیْرَهِٔ، وَذَهَلُوا فِی السَّکْرَهِٔ عَلَی سُنَّهٍٔ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ: مِنْ مُنْقَطِعٍ إِلَی الدُّنْیَا رَاکِنٍ، أَوْ مُفَارِقٍ لِلدِّینِ مُبَایِنٍ».

فقد بیّن الإمام علیه السلام هذه الصفات الخمس لهم لیشیر إلی انحراف أفکارهم وأعمالهم من

نفحات الولایهٔ، ج۵، ص: ۴۷۱

الجذور، فهم أفراد فاسدون ومفسدون ومغرورون وغافلون وغارقون فی الدنیا ومجانبون لدین الحق، وقد شبّههم الإمام علیه السلام بآل فرعون، وأحدی صفات آل فرعون أنّهم قسموا المجتمع إلی قسمین: الأقباط والأسباط، أو بعبارهٔ أخری آل فرعون وبنی اسرائیل، وقد تمتع الفریق الأول بکافهٔ الامتیازات فی البلاد (مصر) ومرغوا انوف الفریق الثانی بالتراب، فکانوا یقتلون رجالهم ویسبون نسائهم وملأوا الأرض فساداً:

«إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِی الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِیَعاً یَسْتَضْعِفُ طَائِفَهًٔ مِنْهُمْ یُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَیَسْتَحْیِی نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ کَانَ مِنْ الْمُفْسِدِینَ»[۸۲۶].

فقد اعتمد خط النفاق الجاهلی بعد رسول اللَّه صلی الله علیه و آله ذات السنهٔ الفرعونیهٔ، فقد اقتصرت کافهٔ إمتیازات البلاد الإسلامیهٔ علی بنی امیهٔ ولم یکن نصیب شیعهٔ علی علیه السلام سوی القتل «تحت کل حجر ومدر» والتشرید والحبس والتعذیب، وقد ملؤا العالم الإسلامی بالفساد.

والعبارهٔ:

«مُنْقَطِعٍ إِلَی الدُّنْیَا ...»

؛ إشارهٔ إلی أنّ طائفهٔ منهم قد أقبلت علانیهٔ علی الدنیا، فقد طاولت قصورهم عنان السماء، کما ذکر ترفهم وبذخهم بحیاهٔ کسری والقیصر، ویبدون أنّ من بین حاشیتهم ممن لا یبدی علاقهٔ ظاهریهٔ بالدنیا لکنه باع دینه بدنیا غیره ووضع له الأحادیث التی تصّرح بفضله ونسبها إلی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله ووجه أعماله القبیحهٔ، ومصداق ذلک واضح للجمیع.

تأمّل: مصیر جاحدوا الولایهٔ

تعدّ هذه الخطبهٔ من أقوی الخطب التی تدافع عن ولایهٔ أهل البیت علیهم السلام، وإن مرّ علیها بعض شرّاح نهج البلاغهٔ مرور الکرام، فقد أعلن الإمام علیه السلام صراحهٔ وجود حرکهٔ رجعیهٔ بعد رحیل رسول اللَّه صلی الله علیه و آله، وأساسها إسقاط ولایهٔ أهل البیت علیهم السلام وضرب الوصایا المؤکدهٔ للنبی

نفحات الولایهٔ، ج۵، ص: ۴۷۲

الأکرم صلی الله علیه و آله بهذا الخصوص، وأفضل محمل لها یتمثل ب «الاجتهاد مقابل النص» وعدم اعتبارهم وصایا النبی الأکرم صلی الله علیه و آله لمصلحهٔ المسلمین، ولکن علی کل حال فانّ مؤججی نیران تلک المعرکهٔ هی العناصر المعروفهٔ فی الجاهلیهٔ وخصوم الدعوهٔ کأبی سفیان وأعوانه الذین نفذوا تدریجیاً إلی الخلافهٔ الإسلامیهٔ وتقدموا إلی الصفوف الأمامیهٔ بعد أن کانوا من المؤخرین، فسیطروا علی کل شیء وإرتکبوا من المفضائع ما لیس له مثیل فی التاریخ أو قل مثیله، لکن الخطبهٔ تشیر بصورهٔ دقیقهٔ إلی نهجهم ومسارهم وبالتالی عاقبتهم.

والجدیر بالذکر أنّ ابن أبی الحدید المعروف بتعصبه فی مسألهٔ خلافهٔ النبی الأکرم صلی الله علیه و آله والخلفاء الأوائل قد اعترض صراحهٔ لیقول بأنّ الإمام علیه السلام قصد بهذه الخطبهٔ مسألهٔ الخلافهٔ والإمامهٔ غیر أنّه سعی بتکلف لیراها مختصهٔ بزمان بنی امیهٔ، ثم یفصل العبارهٔ:

«حَتَّی إِذَا قَبَضَ اللَّهُ رَسُولَهُ صَلَّی اللَّهُ عَلَیْهِ وَآلِهِ»

عن

«رَجَعَ قَوْمٌ عَلَی الْأَعْقَابِ»،

ویفسّرها لما بعد أربعین سنة[۸۲۷]، وهو الضعف الذی لا یخفی علی أحد، وذلک لأنّ صریح کلام الإمام علیه السلام هو أنّ هذه الحرکة علی الأعقاب قد بدأت مباشرة بعد رحیل النبی الأکرم صلی الله علیه و آله، والتاریخ یشهد بأنّ الجنایات بنی امیة جذور فی عصر الخلفاء والطریف فی الأمر أنّ هذه الإشارة وردت فی «صحیح البخاری» الذی یعتبر من المصادر الروائیة المعتبرة لدی العامّة فی أنّ النبی الأکرم صلی الله علیه و آله أخبر عن الحوادث الألیمة من بعده، حیث قال:

«یَرِدُ عَلَیَّ الحَوضَ رِجَالٌ مِنْ أَصحَابِی فَیُحَلَّئو عَنْهُ فَأَقُولُ: یَا رَبِّ أَصحَابِی، فَیَقُولُ، إِنَّکَ لاعِلمَ لَکَ بِما أَحدَثُوا بَعدَکَ إِنَّهُم إرتَدُّوا عَلَی أَدبَارِهِم القَهقَری [۸۲۸]

. والعبارة إرتدوا جدیرة بالتأمل.

والجدیر بالذکر أنّه وردت عدّة روایات بهذا الخصوص وفی هذا الباب فی صحیح البخاری والتی تدلّ جمیعاً علی قلق النبی الأکرم صلی الله علیه و آله بعد رحیله من أعمال طائفة من أصحابه، وهذا شاهد بیّن علی ما ورد فی هذه الخطبة بشأن الأحداث الألیمة بعد رحیل النبی صلی الله علیه و آله، والواقع هو أنّ النبی الأکرم صلی الله علیه و آله أراد بهذا البیان تحذیر أصحابه فی أن یراقبوا أنفسهم وأنّهم

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۴۷۳

مؤاخذون یوم القیامة علی أی خلاف یصدر منهم فیسعوا لأن لا یکونوا من تلک الطائفة.

حسن الختام

انتهی المجلد الخامس من هذا الکتاب بالخطبة المأة والخمسین وهی نهایة رائعة حیث تتحدث عن ولایة أهل البیت علیهم السلام فی أیّام الولایة، الولایة بفضلها الصراط المستقیم وسبیل النجاة والمانعة من کل انحراف وزلل.

اللّهم ثبتنا علی ولایتهم، واحشرنا بولایتهم، واجعلنا من أتباع منهجهم، إنّک حمید مجید، وبالإجابة جدیر وعلی کل شیء قدیر.

نهایة المجلد الخامس

محرم الحرام ۱۴۲۴

---

[۱] (۱) سند الخطبة: نقل هذه الخطبة طائفة من الأعلام ممن عاشوا قبل وبعد المرحوم السید الرضی ومنهم: ابن شعبة الحرّانی فی« تحف العقول»، وابن طلحة الشافعی فی« مطالب السؤول»، ومحمد بن عمران المرزبانی فی« الموفق»، کما فسّر ابن أثیر ما صعب من مفرداتها فی کتابه« النهایة»، إلّا أنّ هناک اختلافاً فی نقله مع بعض عبارات هذه الخطبة(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۱۴۴) وقال ابن أبی الحدید حین شرحه لهذه الخطبة: نقل هذه الخطبة أیضاً أبو عثمان الجاحظ فی کتاب« البیان والتبیین»(شرح نهج البلاغة لابن أبی الحدید ۷/ ۲۳۶).

[۲] (۱)« راقت»: من مادة« ورق» علی وزن ذوق بمعنی المسرة والإعجاب.

[۳] (۲) سورة آل عمران/ ۱۸۵؛ الحديد/ ۲۰.

[۴] (۳) سورة الإنسان/ ۲۷.

[۵] (۴) سورة آل عمران/ ۱۴.

[۶] (۱) سورة الحِجْر/ ۳.

[۷] (۲)« حبرة»: من مادة« حبر» باالفتح السرور والنعمة.

[۸] (۳)« حائلة»: من مادة« حول» على وزن قول المتغيرة.

[۹] (۴)« نافدة»: من مادة« نفاد» بمعنى الفناء والعدم والزوال.

[۱۰] (۵)« بائدة»: من مادة« بيد» على وزن صيد هالكة.

[۱۱] (۶)« غوالة»: من مادة« غول» على وزن قول الهلكة المباغتة.

[۱۲] (۷)« هشيماً»: من مادة« هشم» بمعنى كسر الأشياء ومن هنا تطلق على النبت اليابس المكسّر.

[۱۳] (۸) سورة الكهف/ ۴۵.

[۱۴] (۱)« منحت»: من مادة« منح» على وزن مدح بمعنى العطاء.

[۱۵] (۱)« تطلّه»: من مادة« طل» على وزن تل المطر الخفيف ويقابله الوابل المطر الشديد.

[۱۶] (۲)« ديمة»: من مادة« دوام» مطر دوم فى سكون لا رعد ولا برق معه.

[۱۷] (۳)« هتنت»: من مادة« هتن» على وزن حتم بمعنى إنصبت.

[۱۸] (۴)« مزنة» قطعة من السحاب الممطر.

[۱۹] (۵)« اعذوذب»: من مادة« عذب» الفرات الزلال.

[۲۰] (۶)« احلولى»: من مادة« حلو» الطعم المعروف.

[۲۱] (۷)« أوبى»: من مادة« وبى المرض والهلكة.

[۲۲] (۸)« غضارة»: من مادة« غضر» على وزن نذر كثرة النعم، وسعة العيش.

[۲۳] (۹)« أرهقت»: من مادة« رهق» على وزن شفق ألبسته بالقوّة والقهر.

[۲۴] (۱۰)« قوادم»: جمع« قادمة» الواحدة من الريشات فى مقدم جناح الطائر، وهى زلقة عادة.

[۲۵] (۱)« يوبق»: فى الأصل من مادة« وبوق» على وزن نبوغ، بمعنى الهلكة، وعليه فيوبقه يعنى يهلكه.

[۲۶] (۱)« أبهة»: بمعنى العظمة وقد اشتقت من مادة« أبه» بمعنين الفطنة حيث توصل ممن يتصف بها من الأفرادإلى المجد والعظمة.

[۲۷] (۱) الطبرى ۵/ ۳۰۵.

[۲۸] (۲)« دول»: بضم الدال وفتح الواو المشددة المتحول، الشىء الذى يتحول من يد إلى أخرى، ولما كانت حالالحكومات كذلك، فقد اصطلح عليها بالدول أيضاً.

[۲۹] (۳)« رنق»: صفة مشبهة من مادة« رنق» بمعنى الكدر.

[۳۰] (۴)« اجاجم»: شديد الملوحة تلدغ حرارته الفم.

[۳۱] (۵)« صبر»: جمع« صبرة» على وزن كلمة أو جمع صبر على وزن فقر عصارة شجرة مرّة، كما يطلق أحياناً على نفس الشجرة.

[۳۲] (۶)« سمام»: جمع« سم» المواد التى إذا خالطت بدن الإنسان أفسدته وأهلكته.

[۳۳] (۷)« رمام»: جمع« رمة» بالضم القطعة البالية من العظم أو الحبل.

[۳۴] (۸)« موفور»: من مادة« وفور» الكثير من الشىء.

[۳۵] (۹)« منکوب»: من مادة« نکبة» بمعنى المصاب.

[۳۶] (۱۰)« محروب»: من مادة« حرب» القتال والحرب.

[۳۷] (۱)« عدید»: بمعنى« العدد»، کما ورد بمعنى الشبیه والمثیل وأرید بها المعنى الأول فی عبارة الخطبة.

[۳۸] (۲)« أکثف»: تفضیل« کثیف» بمعنى الکثیر.

[۳۹] (۳)« سخت»: من مادة« السخاوة» بمعنى العطاء.

[۴۰] (۴)« أرهقت»: من مادة« إرهاق» ستر الشیء بالقوّة، أرهقتهم بمعنى غشیتهم.

[۴۱] (۵)« قوادح»: جمع« قادحة» بمعنى الآفة.

[۴۲] (۶)« أوهقت»: من مادة« وهق» حلقة توضع على رقبة الحیوان.

[۴۳] (۱)« قوارع»: جمع« قارعة» بمعنى المحن والدواهی.

[۴۴] (۲)« ضعضعت»: من مادة« ضعضعة» بمعنى الذلة والهوان، کما تأتی بمعنى الإبادة.

[۴۵] (۳)« عفرت»: من مادة« التعفیر» کبتهم على مناخرهم فی العفر وهو التراب.

[۴۶] (۴)« المناسم»: جمع« منسم» بکسر المیم وهو مقدم خف البعیر.

[۴۷] (۵)« ریب المنون»: الریب الشک الذی یکشف عنه الغطاء آخر لأمر ویبلغ الیقین، والمنون یعنی الموت، وریب المنون الموت المحتمل ویراد بها أحیاناً مکاره الدهر التی تکون فی البدایة مشکوکة ثم یحصل بها الیقین.

[۴۸] (۶)« أخلد»: من مادة« إخلاد» وأصلها من الخلود، والعبارة أخلد إلیها بمعنى الرکون، أی أنّ أصحاب الدنیا قد أبدوا منتهى الرغبة بالدنیا وکأنّهم التصقوا بها.

[۴۹] (۱)« ضنک»: بمعنى« الضیق» والشدّة وهی مفردة تستعمل بصیغة المفرد دائماً.

[۵۰] (۱) اصول الکافی ۲/ ۱۲۸.

[۵۱] (۲) المصدر السابق/ ۳۱۹.

[۵۲] (۱)« ظاعنون»: من مادة« ظعن» على وزن دفن بمعنى السفر والرحیل.

[۵۳] (۱) سورة العنکبوت/ ۵۷.

[۵۴] (۲) سورة الرحمن/ ۲۷- ۲۸.

[۵۵] (۳) سورة الحجر/ ۹۹.

[۵۶] (۴) سورة فصلت/ ۱۵.

[۵۷] (۵)« رکبانا»: صرّح بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ العرب إعتادت الاصطلاح بالرکبان على من یرکب مختاراً وله التصرف فی مرکوبه، فان نزلوا سموا ضیفان، أمّا الموتى الذین یحملون إلى قبورهم فلا یدعون رکباناً ولا ضیفان.

[۵۸] (۶)« الاجداث»: جمع« جدث» على وزن قفص بمعنى القبور.

[۵۹] (۷) سورة القمر/ ۱۹- ۲۰.

[۶۰] (۱)« صفیح»: وردت هنا بمعنى وجه الأرض، من مادة« صفح» على وزن مدح.

[۶۱] (۲)« أجنان»: جمع« جنن» على وزن کفن بمعنى القبر، وأصلها بمعنى التغطیة والستر، ولما کان القبر یستر بدن المیت فقد اطلق علیه الجنن.

[۶۲] (۳)« رفات»: بمعنى کل شیء بالی ومتعفن، کما یراد بها العظام المندقة المحطومة والمتنافرة.

[۶۳] (۴)« ضیماً»: له مفهوم المصدر واسم المصدر ویعنی الظلم.

[۶۴] (۵)« مندبة»: من مادة« ندبة» بمعنى البكاء.

[۶۵] (۶)« جيدوا»: من مادة« جود» على وزن قوم مبنى للمجهول بمعنى مُطروا.

[۶۶] (۷)« جيرة»: جمع« جار» وغالباً ما تجمع جيران.

[۶۷] (۱) منها البراعة ۸/ ۲۵، وردت هذه الأشعار فى حاشية بحار الانوار بعنوان مناجاة للإمام السجاد عليه السلام نقلًا عن البداية والنهاية، لابن كثير(بحار الانوار ۴۶/ ۴۸).

[۶۸] (۱) اختلفت أقوال شرّاح نهج البلاغة لهذه العبارة، ويبدو الأنسب هو ما أوردناه سابقاً.

[۶۹] (۲) سورة طه/ ۵۵.

[۷۰] (۳) سورة الانبياء/ ۱۰۴.

[۷۱] (۱) بحار الانوار ۶/ ۲۶۸.

[۷۲] (۱) سند الخطبة: ورد فى مصادر نهج البلاغة أنّه نقلها« على بن محمد الليثى» صاحب كتاب« عيون الحكم والمواعظ» مع فارق قليل، وقال ابن ميثم البحرانى حين شرحه لهذه الخطبة أنّها جزء من خطبة طويلة أوردها الإمام على عليه السلام بشأن توحيد اللَّه سبحانه وتعالى وتنزيهه. ويفيد هذا الكلام أنّه نقل هذه الخطبة من مصدر آخر غير نهج البلاغة(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۲۴۴).

[۷۳] (۲) كتاب« تمام نهج البلاغة»، ص ۶۵.

[۷۴] (۱) سورة الزمر/ ۴۲.

[۷۵] (۱) وردت إشارة لهذا المعنى فى رواية عن على عليه السلام(بحار الانوار ۶/ ۱۴۲، ح ۶).

[۷۶] (۱) من لا يحضره الفقيه ۱/ ۸۰، ح ۱۲.

[۷۷] (۱) سند الخطبة:

ذكر البعض هذه الخطبة كل من الزمخشرى فى أوائل كتاب« ربيع الأبرار» والآمدى فى كتاب« غرر الحكم» باختلاف طفيف يفيد أنّه نقلها من مصدر آخر غير نهج البلاغة(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۲۴۷).

[۷۸] (۱) وردت هذه العبارة فى سائر النسخ بهذه الصيغة« دار هانت على ربّها»، بينما يبدو أنّها وردت خطأ فى نسخة صبحى الصالح والتى أقتبست منها هذه النسخة بهذه الصيغة« دارها هانت».

[۷۹] (۲)« لم يصفها»: من مادة« الاصفاء» بمعنى الاختصاص إشارة إلى تفاهة نعم الدنيا بحيث منحها اللَّه الجميع.

[۸۰] (۳)« لم يضن»: من مادة« الضن» بمعنى البخل.

[۸۱] (۴)« عتيد»: من مادة« عتاد» على وزن جواب بمعنى حاضر وتأتى بمعنى الإدخار.

[۸۲] (۱) قرأها أغلب شرّاح نهج البلاغة مبنية للمجهول بينما قرأها البعض الآخر مبنيّة للمعلوم ففهموا من العبارة شبيه ما ذكر، والحال يتبيّن من الرجوع إلى المتون اللغوية أن للإغتباط معنى آخر هو السرور وحمد اللَّه وشكره على نعمة(انظر لسان العرب والقاموس وسائر المصادر اللغوية).

[۸۳] (۱)« لا توازرون»: من مادة« موازرة» بمعنى التعاون والمساعدة.

[۸۴] (۱)« زوى»: من مادة« زىّ» على وزن حىّ بمعنى الجمع والأخذ والإبعاد والمراد بها فى العبارة الفقدان والإبعاد حيث وردت بصيغة الفعل المجهول مقرونة بالفعل عن.

[۸۵] (۱)« لعقة»: من مادة« لعق» على وزن فرق بمعنى لحس الشىء وتطلق اللعقة على القليل من الطعام الذى يجعله الإنسان بأصبعه أو ملعقة صغيرة على لسانه ويبتلعه بسرعة، وهى كناية عن الشىء المختصر.

[۸۶] (۱) سند الخطبة:

ورد قسم مهم من هـذه الخطبـة فی کتاب« تحف العقول» الـذی يحتمل تأليفه قبل نهج البلاغة، وقد نقل الزمخشـری مقطعها الأول فی أوائـل کتـابه« ربيع الابـرار» والقسم الآخـر فی أوائل المجلـد الثانی من ذلک الکتاب، ويتضـح من الفرق بين نقله ونقل السـيد الرضـی قدس سره أنّه إقتبسها من مصدر آخر غير نهج البلاغة، کما نقلها مع اختلاف طفيف القاضی القضاعی(وهو من علماء القرن الخامس ومن مقربی أحد خلفاء الدولة الفاطمية فی مصـر) فی کتابه« دسـتور معالم الحکم» والمرحوم الشـيخ الطوسی فی الآمالی(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۲۵۲).

[۸۷] (۱) مصادر نهج البلاغة ۲/ ۲۵۲.

[۸۸] (۱)« بطاء»: جمع« بطيئة» ضد السريعة.

[۸۹] (۱) ثواب الأعمال،(حيث نقل شـرح نهـج البلاغة، للعلّامة الخوئی ۸/ ۵۷) وهـذا هو الحـديث الأول الذی ورد فی کتاب ثواب الأعمال.

[۹۰] (۱) سورة يوسف/ ۵۳.

[۹۱] (۱) سورة البقرة/ ۱۷۹.

[۹۲] (۱) سورة يوسف/ ۲۳.

[۹۳] (۲)« حمت»: من مادة« حماية» بمعنی المنع، ولذلک يقال الحامی للذی يمنع عن الآخرين الخصوم والأعداء.

[۹۴] (۳)« هواجر»: جمع« هاجرة» وسط النهار فی الجو الحار.

[۹۵] (۱) أعظم الفضائل« نصب»: بمعنی العناء والتعب.

[۹۶] (۲)« الریّ»: بمعنی الارتواء من الماء.

[۹۷] (۳) نهج البلاغة، الخطبة ۱۹۳(همّام).

[۹۸] (۱)« توسی»: من مادة« اسو» بمعنی علاج الجرح.

[۹۹] (۲)« ينقع»: من مادة« نقع» علی وزن نفع بمعنی إرواء وارتواء.

[۱۰۰] (۱) بحار الانوار ۶/ ۱۳۲.

[۱۰۱] (۲)« زلّ»: من مادة« زل» علی وزن حل بمعنی الانزلاق والسقوط.

[۱۰۲] (۳)« ریّ»: بمعنی الارتواء.

[۱۰۳] (۱) بحار الانوار ۷/ ۱۶۶.

[۱۰۴] (۱) بحار الانوار ۷۵/ ۲۳۸.

[۱۰۵] (۱) نهج البلاغة، الکلمات القصار ۳۲.

[۱۰۶] (۲) بحار الانوار ۸/ ۱۹۱، ح ۱۶۸.

[۱۰۷] (۱) سورة البقرة/ ۲۶۱.

[۱۰۸] (۲) سورة التوبة/ ۱۱۱.

[۱۰۹] (۳) سورة آل عمران/ ۷۷.

[۱۱۰] (۱) الواقع أنّ العبارة« إنّ الـذی أمرتم به ..» إشارة إلی الأحکام التکليفية الخمسة، والعبارة« ما أحل لکم ...» ناظرةإلی الأحکام الوضعية، وعليه فلا داعی لأنّ نعتبر العبارتين مترادفتين للتأکيد کما ذهب إلی ذلک بعض شرّاح نهج البلاغة.

[۱۱۱] (۲) سورة الحج/ ۷۸.

[۱۱۲] (۳) بحار الانوار ۲۲/ ۲۶۴.

[۱۱۳] (۴) سورة النحل/ ۱۱۴– ۱۱۵.

[۱۱۴] (۱) يعتقد بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ« طلبه» فى العبارة المذكورة ليست نائب فاعل للمضمون ونائب الفاعل هو« الرزق» التى وردت فى العبارات السابقة، وإلّا أدنى تأمل يكشف أنّ هذا المطلب ينقض نسق العبارتين المذكورتين(المضمون لكم ... المفروض عليكم) والحال يقتضى الانسجام بين هاتين العبارتين أن يكون كل من« طلب» و« عمل» نائب فاعل أحدهما للمضمون والآخرى للمفروض، وعليه يصبح معنى الجملة« لا ينبغى أن تولون الأهميّة للشىء الذى ضمنه لكم اللّه وتغفلون عمّا وجب عليكم من عمل» بعبارة أخرى فانّ الطلب هنا بمعنى تحصيل وإعداد الرزق من جانب اللّه تعالى.

[۱۱۵] (۲)« دخل»: يعنى الفساد فى مثل هذه الأمور ودخل على وزن دعل بمعنى الأمور الفاسدة التى تتسلل داخل‌الإنسان فتؤثر على عقله.

[۱۱۶] (۳) اصول الكافى ۱/ ۳۰.

[۱۱۷] (۱)« بغتة»: من مادة« بغت» على وزن وقت يعنى الشىء الذى يحدث فجأة.

[۱۱۸] (۲) بحار الانوار ۷۵/ ۱۶.

[۱۱۹] (۱) سورة آل عمران/ ۱۰۲.

[۱۲۰] (۱) سورة القصص/ ۷۷.

[۱۲۱] (۲) وسائل الشيعة ۱۲/ ۱۹.

[۱۲۲] (۱) بحار الانوار ۷/ ۱۴۰.

[۱۲۳] (۲) المصدر السابق.

[۱۲۴] (۳) المصدر السابق ۴۰/ ۳۲۷.

[۱۲۵] (۱) سند الخطبة:

رواها قبل السيد الرضى المرحوم الشيخ الصدوق فى كتابه« من لا- يحضره الفقيه» فى آداب صلاة الاستسقاء مع اختلاف كبير وإضافات تدلّ على أنّ ما نقله السيد الرضى فى نهج البلاغة هو بعض ما اختاره من تلك الخطبة« من لا يحضره الفقيه ۲/ ۲۳۵» كما نقلها المرحوم الشيخ الطوسى فى« التهذيب ج ۲، ص ۱۵۱» وفى« المصباح المتهجد» فى آداب صلاة الاستسقاء مع اختلاف وما ورد فى نقل السيد الرضى فى نهج البلاغة ممّا يدلّ على وجود مصدر آخر اعتمده الشيخ، ونقلها من علماء العامّة الزمخشرى فى« ربيع الابرار» وابن الأثير فى« النهاية»(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۲۵۶).

[۱۲۶] (۱)« انصاحت»: من مادة« صوح» على وزن صوم بمعنى الانشقاق وقيل بمعنى الجفاف والتشقق والزوال‌الملازمة لبعضها البعض الآخر.

[۱۲۷] (۲)« اغبرت»: من مادة« غبار» وهى هنا إشارة إلى الجدب الذى يؤدّى إلى جفاف الأرض.

[۱۲۸] (۳)« هامت»: من مادة« هيم» على وزن حيف بمعنى الحيرة وتستعمل أحياناً بشأن الإنسان أو الحيوان الذى لا يدرى أين يذهب من شدّة العطش.

[۱۲۹] (۴)« مرابض»: جمع« مربض» موضع الماشية ومبرك الغنم.

[۱۳۰] (۵)« عجت»: من مادة« عجيج» بمعنى الصراخ والصياح بأعلى الصوت.

[۱۳۱] (۱)« ثكالى»: جمع« ثكلى» المرأة التى مات إبنها.

[۱۳۲] (۲)« آنة»: من مادة« أنين» وعادة ما تطلق على الشاة التى تتألم.

[۱۳۳] (۳)« حانة»: من مادة« حنين» التى تطلق على الجمل حين يتألم.

[۱۳۴] (۴)« موالج»: جمع« مولج» مدخل الشيء.

[۱۳۵] (۵)« اعتكرت»: من مادة« عكر» على وزن مكر بمعنى الهجوم.

[۱۳۶] (۶)« سنين»: اسم جمع السنوات، لكنّها ترد عادة في العبارات كالعبارة المذكورة بمعنى القحط والجفاف(ورد معنيان لسنين في قاموس اللغة أحدهما بمعنى السنة والآخر بمعنى الجفاف والقحط).

[۱۳۷] (۷)« أخلفتنا»: من مادة« خلاف» بمعنى المخالفة.

[۱۳۸] (۸)« مخايل»: جمع« مخيلة» على وزن قبيلة بمعنى الغيوم التي يأمل الإنسان بنزول المطر منها لكنّها ليست بماطرة.

[۱۳۹] (۹)« جود»: لفتح الجيم جمع« جائد» المطر الكثير والجود بالضم بمعنى السخاء والهبة.

[۱۴۰] (۱)« مبتئس»: من مادة« بؤس» على وزن قرص الفقر وشدة الحاجة.

[۱۴۱] (۲)« البلاغ»: بمعنى الكفاية وحل المشكلة.

[۱۴۲] (۳)« سوام»: وسائمة الحيوان الذي يرعى في الصحراء.

[۱۴۳] (۴) سورة نوح/ ۱۰- ۱۱.

[۱۴۴] (۵) سورة الأعراف/ ۹۶.

[۱۴۵] (۱)« منبعق»: من مادة« انبعاق» بمعنى انشقاق ولما كانت الغيوم حين نزول المطر تبدو منشقة وتجري منهاالأمطار فقد استخدمت هذه المفردة بشأن نزول المطر.

[۱۴۶] (۲)« مغدق»: من مادة« غدق» على وزن شفق الماء الوفير وتستعمل كناية بشأن السنوات المفعمة بالخير والبركة.

[۱۴۷] (۳)« مونق»: من مادة« أنق» على وزن شفق بمعنى السرور والاعجاب بالشيء.

[۱۴۸] (۴)« سحّ»: بمعنى انسياب الماء الوفير وبصورة مستمرة.

[۱۴۹] (۵)« وابل»: المطر الشديد الضخم القطر.

[۱۵۰] (۱)« مريع»: من مادة« مرع» على وزن كثيف النبات.

[۱۵۱] (۲)« ثامر»: بمعنى ذو ثمر.

[۱۵۲] (۳)« ناصر»: بمعنى ذو نضرة.

[۱۵۳] (۴)« تنعش»: من مادة« نعش» على وزن فرش بمعنى الإثارة و اقامة.

[۱۵۴] (۵)« نجاد»: من مادة« نجود» على وزن سجود ما ارتفع من الأرض حيث تصطلح العرب بالنجد على الأرض المرتفعة.

[۱۵۵] (۶)« وهاد»: جمع« وهدة» على وزن غفلة ما انخفض من الأرض.

[۱۵۶] (۷)« يخصب»: من مادة« خصب» على وزن فكر كثير النبات.

[۱۵۷] (۸)« جناب»: ناحية الدار أو المدينة.

[۱۵۸] (۹)« تندى»: من مادة« نداوة» الرطوبة و هي هنا كناية عن الجود والسخاء.

[۱۵۹] (۱۰)« أقاصي»: جمع« أقصى» النقطة البعيدة.

[۱۶۰] (۱۱)« ضواحي»: جمع« ضاحية» المنطقة الخارجة عن المدينة.

[۱۶۱] (۱۲)« مرملة»: من مادة« إرمال» الفقر ونفاد المتاع والزاد.

[۱۶۲] (۱)« مخضلة»: من مادة« خضل» على وزن عمل البلل والرطوبة وتستخدم كناية للسنوات المليئة بالأمطارونزول البركة.

[۱۶۳] (۲)« هاطلة»: من مادة« هطل» على وزن سطل السيول والقطرات الضخمة.

[۱۶۴] (۳)« الودق»: حبات المطر، كما تطلق على ذرات الماء الصغيرة التي تتعلق كغبار في الجو حين نزول المطر، والمعنى الأول هنا

أنسب.

[۱۶۵] (۴)« يحفز»: من مادة« حفز» على وزن نبض الدفع بشدّة.

[۱۶۶] (۵)« خلّب»: بمعنى خارع من مادة« الخلّابة» وهى هنا إشارة إلى الغيوم ذات البرق والرعد الخالية من المطر.

[۱۶۷] (۶)« جهام»: بالفتح السحاب الذى لا مطر فيه.

[۱۶۸] (۷)« قزع»: القطع الصغيرة المتفرقة من السحب.

[۱۶۹] (۸)« رباب»: السحاب الأبيض(الذى لا مطر فيه).

[۱۷۰] (۹)« شفان»: الرياح الباردة أو الجو البارد المقرون بالرطوبة(لسان العرب ومعجم دهخدا) وأصلها شفون على وزن فنون النظر بطرف العين أو النظرة باعتراض، ولعل اطلاقها هنا على الرياح الشديدة لأنّها تسبب انزعاج الطرف المقابل.

[۱۷۱] (۱۰)« ذهاب»: جمع« ذهبة» بالكسر الأمطار القليلة.

[۱۷۲] (۱۱)« امراع»: بمعنى كثير البركة.

[۱۷۳] (۱۲)« مجدب»: من مادة الجفاف بسبب قطع الماء ويقال مجدب لمن اصيب بالجفاف والقحط.

[۱۷۴] (۱)« المسنت»: هو المقحط.

[۱۷۵] (۲) إقتباس من الآية الشريفة:« وَهُوَ الَّذِی یُنَزِّلُ الْغَیْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَیَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِیُّ الْحَمِیدُ»(سورة الشورى/ ۴۸).

[۱۷۶] (۱) ذكرت آداب صلاة الاستسقاء فى أغلب المصادر الفقهية وكتب الحديث ومنها جواهر الكلام ۱۲/ ۱۲۷ وتحرير الوسيلة للإمام الخمينى، ج ۱ و ج ۵، ص ۱۶۲ من وسائل الشيعة.

[۱۷۷] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۷/ ۲۷۲؛ بحار الانوار ۸۸/ ۳۲۹.

[۱۷۸] (۲) سورة الاعراف/ ۹۴.

[۱۷۹] (۱) سورة الروم/ ۴۱.

[۱۸۰] (۲) بحار الانوار ۷۶/ ۲۱، ح ۱۳.

[۱۸۱] (۳) وسائل الشيعة ۱۳/ ۲۵۶.

[۱۸۲] (۱) سند الخطبة:

تتضمن الخطبة إشارة إلى موضوع خلافة الحجاج للكوفة وما إرتكب فيها من جرائم، وقد نقل أغلب المؤرخين والمحدّثين هذا الجانب من الخطبة ومنهم ابن عبد ربه فى العقد الفريد، والمسعودى فى مروج الذهب، والأزهرى فى تهذيب اللغة، وابن الفقيه فى كتاب البلدان، وابن أثير فى النهاية، والديلمى فى الإرشاد(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۲۵۹).

[۱۸۳] (۱) سورة النساء/ ۴۱.

[۱۸۴] (۱)« وانٍ»: من مادة« ونى» على وزن وحى بمعنى الضعف والتثاقل، ويقال الوانى لمن يتباطىء فى الأعمال.

[۱۸۵] (۲)« معذر»: من مادة« عذر» تقال لمن يعتذر ولا يثبت له عذر.

[۱۸۶] (۱)« طوى»: من مادة« طى» بمعنى الكتمان والاخفاء واريد بها هنا الكتمان.

[۱۸۷] (۲)« صعدات»: جمع« صعيد» بمعنى بقعة الأرض والتراب والمواضع المرتفعة من الأرض، وهى هنا إشارة إلى الصحراء والجبل والسهل، وصرّح البعض بأنّ صعدات جمع صعد على وزن دهل وصعدات جمع الجموع.

[۱۸۸] (۳)« تلتدمون»: من مادة« لدم» على وزن لفظ بمعنى الضرب وإلتدام بمعنى ضرب النساء صدورهن للنياحة.

[۱۸۹] (۱)« خالف»: من مادة« خلوف» من يخلف فى الأهل والمال حين الخروج إلى السفر أو الحرب، كما وردتبمعنى الفرد الكثير الخلاف، إلّاأنّ المراد هنا هو المعنى الأول.

[۱۹۰] (۲)« تاه»: من مادة« تيه» الحيرة والقلق.

[۱۹۱] (۱)« ميامين»: جمع« ميمون» بمعنى مبارک.

[۱۹۲] (۲)« مراجيح»: جمع« مرجاح» على وزن مثقال ذو حلم.

[۱۹۳] (۳)« متاريک»: جمع« متراک» على وزن مسواک من يترک الشىء تماماً.

[۱۹۴] (۴)« قدم»: من« مادة» قدوم بمعنى السبق، وهى هنا إمّا ظرف بمعنى فى مسار السبق وإمّا معنى جمعى بمعنى السابقون.

[۱۹۵] (۱) نهج البلاغة، الخطبة ۹۷.

[۱۹۶] (۲) المصدر السابق، الخطبة ۷۰.

[۱۹۷] (۳) المصدر السابق، الخطبة ۲۷.

[۱۹۸] (۱)« الذيال»: من ماده« ذيل» آخر كل شىء وتصطلح العرب بالذيال على الشخص الذى تخط ذيال ثوبه علىالأرض، ولما كان هذا العمل يقوم به المتكبرون من الأفراد، فقد أطلقت الذيال على الأفراد الذين يتصفون بالكبر والأنانيه.

[۱۹۹] (۲)« الميّال»: من مادة« ميل» الفرد الطائش.

[۲۰۰] (۳)« وذحة»: كما سيرد فى المتن بعرة الشاة أو بولها والذى يلتصق بصوفها، كما ورد بمعنى الخنفساء، إلّاأنّ ابن أبى الحديد صرّح بأنّ المعنى الثانى لم يرد فى أى من لغات العرب، والحال إذا رجعنا إلى متون اللغة لرأينا أنّ أغلب أرباب اللغة ذكروا هذا المعنى لمفردة الوذحة.

[۲۰۱] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۷/ ۲۷۹.

[۲۰۲] (۲) مروج الذهب ۳/ ۱۲۵.

[۲۰۳] (۱) مروج الذهب ۳۶/ ۱۶۶؛ وتاريخ ابن الجوزى حسب نقل سفينة البحار، وسيرة الأئمة،/ ۲۴۴؛ وشرح نهج البلاغة للمرحوم التسترى ۶/ ۱۲.

[۲۰۴] (۱) سند الخطبة:

ورد فى مصادر نهج البلاغة أنّ أى مصدر غير نهج البلاغة لم يتعرض لنقل هذه الخطبة، ويكتفى بالإشارة إلى كلام ابن أبى الحديد فى آخر هذه الخطبة وقال: جاء فى بعض الروايات« أصل اخوانكم» بدلًا من« أوصل إخوانكم» ويستفاد إجمالًا من هذا الكلام أنّ هناک مصدراً آخر لابن أبى الحديد فى هذه الخطبة.

[۲۰۵] (۲) تمام نهج البلاغة، ص ۶۵۹.

[۲۰۶] (۱) ورد الفعل تكرمون بصيغة الفعل الثلاثى المجرد المعلوم الذى يعنى الإكرام والاحترام، وهى هنا بمعنىانتظار الإكرام.

[۲۰۷] (۱) سند الخطبة:

نقل هذه الخطبة المؤرخ المعروف الطبرى فى كتابه« تاريخ الامم والملوک»، وابن قتيبة الدينورى فى كتاب« الإمام والسياسية»، وابن أبى الحديد الذى قال فى شرح هذه الخطبة، قال على عليه السلام هذا الكلام بعد معركة الجمل، كما نقلها المدائنى، والواقدى فى كتبهما(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۲۶۱).

[۲۰۸] (۱)« جنن»: جمع« جنة» على وزن قوّة الوقاية.

[۲۰۹] (۲)« بطانة»: من مادة« بطن» صاحب السر وخاصة الرجل.

[۲۱۰] (۱) الغدير ۱/ ۳۷۱.

[۲۱۱] (۱) سند الخطبة:

نقلت مصادر أخرى هذه الخطبة وكذلک فسّر ابن الأثير فى« النهاية» بعض المفردات من هذه الخطبة، كما أشار إلى بعض عباراتها.

قال ابن أبی الحدید فی شرح لهذه الخطبة أنّ الإمام خطبها بعد معركة صفین والنهروان بعد غارات أهل الشام علی مناطق البلاد الإسلامیة، وهذا یفید وجود مصدر آخر لابن أبی الحدید غیر الذی إعتمده السید الرضی(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۲۶۳).

[۲۱۲] (۱) هنالک خلاف بین شرّاح نهج البلاغة بشأن هذه الجملة هل هی جملة خبریة تخبر عن وضع جماعةالکوفة الضعیفة والمسلوبة الإرادة علی أنّهم سلکوا سبیلًا لا یدعهم یتوفقون فی حیاتهم أبداً، أم أنّها جملة إنشائیة ونوع من الاشمئزاز، یبدو المعنی الثانی هو الأنسب.

[۲۱۳] (۱)« سددتم»: من مادة« سد» المعروف المعنی ولما کان السد هو البناء المحکم فالتسدید یعنی الإحکاموالترسیخ وسدده وفقه للسداد.

[۲۱۴] (۲)« کتیبة»: طائفة من الجیش قال بعض أرباب اللغة یتراوح عددها من مئة إلی ألف.

[۲۱۵] (۳)« تقلقل»: الحرکة من جانب إلی آخر.

[۲۱۶] (۴)« قدح»: بکسر القاف السهم أو القطعة من الخشب وقیل أیضاً هو السهم قبل أن یراش وینصل.

[۲۱۷] (۵)« جفیر»: الکنانة التی توضع جانب الفرس وتوضع فیها السهام.

[۲۱۸] (۶)« الفراغ»: بمعنی الخالی.

[۲۱۹] (۱)« استحار»: من مادة« تحیر وحیرة» بمعنی التردد والاضطراب وتطلق علی السحب الثقیلة التی لا تدعها الریاح تتحرک فی مسارها وکأنّها تبقی مضطربة مترددة.

[۲۲۰] (۱)« حمّ»: من مادة« حم» علی وزن غم بمعنی قدّر، وعلیه فمفهوم العبارة قد حم لی لو قدر لی مثل هذا الأمر، أو إنّ وفقت لهذا الأمر.

[۲۲۱] (۲) نهج البلاغة، الخطبة ۱۲۶.

[۲۲۲] (۱) للأسف وحسب علمنا فانّ شرّاح نهج البلاغة لم یطرقوا هذا البحث ویردوا علی هذه الأسئلة، وشذ منهم أحد أعلام القرن السادس هو المرحوم البیهقی الذی أجاب عن السؤال الثالث بأنّ الإمام علیه السلام قال: ذلک بغض النظر عن مقام الإمامة، وإلّا فانّ مقام الإمامة یقتضی من الإمام أن یکون بین الناس مهما کانت الشرائط، وبعبارة أخری فانّ الإمام علیه السلام قال لولا مقام الإمامة وکنت حراً فی هذا الأمر لترکتکم.

[۲۲۳] (۲)« حیادین»: من مادة« حید» علی وزن حرف بمعنی الانحراف ویقال الحیّاد، لمن ینحرف کثیراً عن جادةالحق.

[۲۲۴] (۳)« رواغین»: من مادة« روغ» علی وزن ذوق بمعنی الذهاب إلی هذا الطرف وذاک وهی کنایة عن المکر والحیلة، ومن هنا تستخدم هذه المفردة بشأن الثعلب، فیقال(راغ الثعلب).

[۲۲۵] (۱) الغارات ۲/ ۶۲۷.

[۲۲۶] (۱) سند الخطبة:

جاء فی کتاب مصادر نهج البلاغة أنّ سلیم بن قیس الذی عاش قبل السید الرضی نقل القسم الأول من هذه الخطبة فی کتابه، کما وردت سائر أجزائها بصورة متفرقة فی کتاب« غرر الحکم»، ولما کان هناک تفاوت بین بعض عبارتها، فانّ ذلک یعنی أنّها أخذت من کتاب آخر غیر نهج البلاغة، کما قال ابن أبی الحدید فی شرح بعض عبارات هذه الخطبة نقلها جماعة بشکل آخر وهذا یشیر إلی أنّه کان لدیه مصدراً آخر(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۲۶۴).

[۲۲۷] (۱) سورة الأحزاب/ ۲۳.

[۲۲۸] (۱) بحار الانوار ۳۶/ ۳۱۱.

[۲۲۹] (۲) للوقوف علی مصادر هذا الحدیث الشریف راجع کتاب نفحات القرآن ۹/ ۶۲- ۷۱.

[۲۳۰] (۱) سورة الشورى/ ۱۳.

[۲۳۱] (۲) سورة النحل/ ۹۶.

[۲۳۲] (۳) سورة الطارق/ ۹.

[۲۳۳] (۴)« عازب»: من مادة« عزوب» بمعنى الابتعاد وعازب بمعنى بعيد.

[۲۳۴] (۵)« أعوز»: من مادة« عوز» على وزن مرض وعوز الشيء بمعنى لم‌يوجد ويراد به عدم وجودالشيء عندالحاجة.

[۲۳۵] (۱)« صديد»: الماء الساخن، كما ورد بمعنى ماء الجرح الرقيق.

[۲۳۶] (۲) سورة التوبة/ ۸۱.

[۲۳۷] (۳) سورة ق/ ۳۰.

[۲۳۸] (۴) سورة الحاقة/ ۳۰- ۳۲.

[۲۳۹] (۵) سورة إبراهيم/ ۱۶.

[۲۴۰] (۱) سند الخطبة:

وردت هذه الخطبة فى عدّة كتب ألفت قبل المرحوم السيد الرضى مثل كتاب« العقد الفريد» لابن عبد ربّه و« الاختصاص» للشيخ المفيد، والكتب التى الفت بعده« الكتب التى تفيد عباراتها أنّها نقلت الخطبة من مصادر أخرى غير نهج البلاغة» مثل« مطالب السؤال» لمحمد بن طلحة الشافعى، و« الاحتجاج» للطبرسى، و« ربيع الابرار» للزمخشرى مع اختلاف.

[۲۴۱] (۱)« عقدة»: ما حصل عليه« التعاقد» والمراد بها هنا الرأى الصحيح والعهد على الطاعة.

[۲۴۲] (۱)« ضلع»: من مادة« ضلع» على وزن سبب بمعنى الميل نحو الشيء، وتعنى هنا الشبه والمثل.

[۲۴۳] (۱)« داء»: من مادة« دوى» بمعنى المرض الشديد.

[۲۴۴] (۲)« كلت»: من مادة« كلول» على وزن ملول بمعنى الضعف.

[۲۴۵] (۳)« نزعة»: من مادة« نزع» على وزن جمع نازع بمعنى السحب.

[۲۴۶] (۴)« أشطان»: جمع« شطن» على وزن وطن الحبل الطويل الذى يسحب به الماء من البئر.

[۲۴۷] (۵)« ركى»: جمع« ركيّة» البئر.

[۲۴۸] (۶) بحار الانوار ۱۴/ ۳۲۳، ح ۳۶.

[۲۴۹] (۱)« هيجوا»: فعل مجهول من مادة« هيجان» وتعنى هنا أنّهم كانوا يندفعون إلى الجهاد.

[۲۵۰] (۲)« ولهوا»: من مادة« وَلَهَ» على وزن فرح شدّة الشوق أوالحزن.

[۲۵۱] (۳)« لقاح»: من مادة« لقوح» الناقة.

[۲۵۲] (۴)« اغماد»: جمع« غمد» على وزن هند موضع السيف.

[۲۵۳] (۵)« زحف»: تعنى فى الأصل المشى مع الثقل.

[۲۵۴] (۱)« مره»: أمره من مضت عينه أو وجعت.

[۲۵۵] (۲)« خمص»: جمع« أخمص» ضامر البطن.

[۲۵۶] (۳)« ذبل»: جمع« ذابل» الجفاف والتيبس.

[۲۵۷] (۴)« صفر»: جمع« أصفر» شاحب اللون.

[۲۵۸] (۵)« سهر»: البقاء واعياً فى الليل.

[۲۵۹] (۱)« يسنىّ»: من مادة« سناء» بمعنى الضياء وإن استعملت فى باب التفعيل وردت بمعنى يسهّل.

[۲۶۰] (۱) سورة البقرة/ ۱۶۸.

[۲۶۱] (۲) سورة البقرة/ ۲۰۸؛ سورة الانعام/ ۱۴۲؛ سورة نور/ ۲۱.

[۲۶۲] (۳) سورة المائدة/ ۹۱.

[۲۶۳] (۴)« اصدقوا»: من مادة« صدق» على وزن عطف بمعنى الإعراض.

[۲۶۴] (۵) نزغات»: جمع« نزغة» على وزن ضربة وساوس.

[۲۶۵] (۶)« نفثات»: جمع« نفثة» تعنى هنا الوسوسة.

[۲۶۶] (۷)« اعقلوها»: من مادة« عقل» على وزن دغل احبسوها على أنفسكم لا تتركوها فتضيع منكم، والعقل ربط رجل الناقة.

[۲۶۷] (۱) سند الخطبة:

نقل المرحوم الطبرسى فى كتاب الاحتجاج أقصر ممّا ورد فى هذه الخطبة ممّا يدل على أنّه أخذها من مصدر آخر، وقال ابن أبى الحديد إنّ هذا الكلام وإن كان متصلًا لكنّه يتألف فى الواقع من ثلاثة أقسام منفصلة، وقد جرت عادة السيد الرضى على انتخاب الأفصح من الكلمات وحذف سائر الكلمات(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۲۷۱).

[۲۶۸] (۱)« نشد»: من مادة« نشد» بمعنى النداء والسؤال والطلب وهنا بمعنى الاستشهاد.

[۲۶۹] (۲) هل هذه الجملة للسيد الرضى أم كلام رواى الخطبة الذى نقل عنه السيد الرضى، لا يعلم بالضبط، لكن من المسلم به أنّ كلام الإمام عليه السلام أكثر ممّا ورد فى نهج البلاغة وقد اعتاد السيد الرضى على اقتطاف أفصح وأبلغه.

[۲۷۰] (۳)« غيلة»: بمعنى« غدر».

[۲۷۱] (۴)« استقالوا»: من مادة استقالة بمعنى عودة الشيء.

[۲۷۲] (۵)« تنفيس»: بمعنى الكف والحل.

[۲۷۳] (۱) فى ضلال نهج البلاغة، للمرحوم محمد جواد مغنية، ذيل الخطبة التى بحثها ۲/ ۲۲۲.

[۲۷۴] (۱)« مضض»: الألم والحرقة.

[۲۷۵] (۲)« يلمّ»: من مادة« لمّ» على وزن غمّ بمعنى جمع، وتأتى أحياناً بمعنى الجمع والإصلاح.

[۲۷۶] (۳)« شعث»: وردت فى الأصل بمعنى ما يقع عليه الغبار، ثم يطلق على نوع من التشتت والتفرق.

[۲۷۷] (۴) سورة الحجرات/ ۹.

[۲۷۸] (۱) سند الخطبة:

يمكن التعرف على هذا الكلام بصورة متفرقة فى سائر الكتب، ومنها:

۱- الكافى فى باب فضل الجهاد.

۲- العقد الفريد لابن عبد ربه.

۳- الجمل للشيخ المفيد نقلًا عن كتاب الجمل للواقدى.

۴- الإرساد للشيخ المفيد.

۵- تجارب الامم لابن مسكويه طبق نقل تأسيس الشيعة.

۶- الآمالى للشيخ الطوسى.

(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۲۷۳).

[۲۷۹] (۱)« رباطة جأش»: جأش على وزن عرش والرباطة الربط بإحكام، فالمراد بالعبارة قوّة القلب عند لقاء العدو، حيث يراد بالجأش القلب والصدر.

[۲۸۰] (۲)« نجدة»: من مادة« نجد» على وزن مجد، بمعنى الشجاعة.

[۲۸۱] (۱) مرّ علينا بالتفصيل بحث الموت الحتمى والمعلّق فى المجلد الثالث من هذا الكتاب.

[۲۸۲] (۱)« ميتة»: بكسر الميم بمعنى كيفية الموت، والميتة بفتح الميم الشخص الميت(بدلًا من الالتفات هنا إلىميت مذكر ومؤنث ميتة).

[۲۸۳] (۱) مستدرك الوسائل ۱۱/ ۱۳، ح ۲۱.

[۲۸۴] (۲) المصدر السابق، ح ۲.

[۲۸۵] (۱)« كشيش الضباب»: بمعنى الصوت الذى لا يرتفع كثيراً ويطلق على صوت الضفدع، والضب وصوت الناقة.

[۲۸۶] (۱)« ضيم»: بمعنى الظلم.

[۲۸۷] (۲)« متلوم»: من مادة« تلوم» بمعنى الانتظار والتباطىء والتوقف.

[۲۸۸] (۱) سند الخطبة:

نقل هذه الخطبة نصر بن مزاحم المتوفى عام ۲۰۲ ق فى كتاب صفين، كما نقلها المؤرخ المشهور الطبرى فى تاريخه عن أبى مخنف فى حوادث عام ۳۷ ه، كما وردت فى كتاب الجهاد عن الكافى وكتاب الفتوح لابن أعثم الكوفى(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۲۷۷).

[۲۸۹] (۱) سورة الصف/ ۴.

[۲۹۰] (۲) الكافى ۵/ ۳۹، ح ۴.

[۲۹۱] (۱)« الداع»: بمعنى لابس الدرع من مادة درع على وزن فعل.

[۲۹۲] (۲)« الحاسر»: من لا درع له من مادة حسر على وزن عصر بمعنى العرى.

[۲۹۳] (۳)« أضراس»: جمع« ضرس» على وزن حرس الإنسان وردت بمعنى سن العقل.

[۲۹۴] (۴)« أنبى : من مادة« نبو» على وزن عفو بمعنى عدم العمل.

[۲۹۵] (۵)« الهام»: جمع« هامة» على وزن قامة رأس الإنسان أو رأس أى موجود حى.

[۲۹۶] (۶)« التووا»: من مادة« التواء» بمعنى الانعطاف أو الميل لهذا الجانب وذاك.

[۲۹۷] (۷)« أمور»: من مادة« مور» على وزن غور بمعنى الحركة السريعة، كما وردت بمعنين الذهاب الإياب والاضطراب وهذا هو المعنى المراد فى العبارة.

[۲۹۸] (۱) فسرّت هذه المفردة سابقاً.

[۲۹۹] (۲) منتهى الآمال، ج ۱، وقائع العام الهجرى الثانى.

[۳۰۰] (۳)« تخلّوا»: من مادة« تخلية» بمعنى الإخلاء والترك، وعليه فالصحيح فتح الخاء لأنّها من باب التفعيل.

[۳۰۱] (۴)« ذمار»: بكسر الذال ما يلزم الرجل حفظه وحمايته.

[۳۰۲] (۱)« الحقائق»: جمع« حاقة» على وزن جادة النازلة الشديدة.

[۳۰۳] (۲)« حفافى»: مثنى« حفاف» على وزن كتاب بمعنى جانب الشىء وحفافيها هنا إشارة إلى جانبى الراية يمينهاوشمالها.

[۳۰۴] (۳) الكامل لابن الأثير ۲/ ۲۱۹، وتفسير الثعلبى(طبق نقل غاية المرام،/ ۴۶۷) وصحيح مسلم، ج ۴ كتاب الفضائل الصحبة الحديث ۳۲؛ صحيح البخارى ۵/ ۱۷۱ باب غزوة خيبر(طبعاً ذكرت الجملة الأخيرة فقط بشأن على عليه السلام فى صحيح البخارى مسلم).

[۳۰۵] (۱) شرح نهج البلاغة للعلّامة التسترى ۱۳/ ۵۵۸.

[۳۰۶] (۲)« قرن»: الكفؤ وعدل الإنسان فى الشجاعة فى ميدان القتال ويطلق أحياناً القرن على كل كفو، وقد اشتق فىالأصل من قرن

بفتح القاف والاقتران الذى يعنى الاقتراب بين شيئين أو عدة أشياء، ومن هنا يقال للزمان الطويل قرن حيث تكون فيه طائفة من الأجيال مع بعضها.

[۳۰۷] (۳)« آسى»: من مادة« وسى» على وزن مشى بمعنى عاون والمواساة تعنى المعاضدة ومساعدة كل واحد الآخر.

[۳۰۸] (۱)« لهاميم»: جمع« لهموم» على وزن حلقوم الجواد السابق من الإنسان والخيل.

[۳۰۹] (۲)« سنام»: أعلى الجمل ثم اطلق على كل شيء بارز.

[۳۱۰] (۳)« موجدة»: من مادة« وجد» علث وزن نجد بمعنى الغضب، كما ورد بمعنى الحزن والمعنى الأول هو الأنسب هنا.

[۳۱۱] (۴)« محجوز»: من مادة« حجز» بمعنى المنع.

[۳۱۲] (۵) سورة آل عمران/ ۱۵۴.

[۳۱۳] (۶)« رائح»: من مادة« رواح» الاندفاع بسرعة خلف شيء.

[۳۱۴] (۷)« العوالى»: جمع« العالية» تعنى أسنة الرماح، كما تعنى الرمح.

[۳۱۵] (۱) نهج البلاغة، الرسالة ۲۳.

[۳۱۶] (۲) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۸/ ۶ الحديث(الجنّة تحت ظلال السيوف)، كما ورد الحديث فى بحار الانوار ۹۷/ ۱۳.

[۳۱۷] (۱)« افضض»: من مادة« فضّ» على وزن خط بمعنى الهزيمة.

[۳۱۸] (۲)« أبسل»: من مادة« بسل» على وزن نسل بمعنى المنع من الشيء أو القهر والغلبة والإبسال بمعنى التسليم للهلكة والعبارة إشارة إلى هذا المعنى.

[۳۱۹] (۱)« دراك»: من مادة« درك» متتابع متوال وكأن كل واحد منهم يدرك الآخر ويصله، وعليه فانّ طعن الدراكبمعنى السهام التى تطلق تبعاً على العدو.

[۳۲۰] (۲)« يطيح»: من مادة« إطاحة» بمعنى الاسقاط.

[۳۲۱] (۳)« يندر»: من مادة« اندار» بمعنى يسقط، كما يطلق على طرح شيء من الحساب.

[۳۲۲] (۴)« مناسر»: جمع« منسر» على وزن محفل القطعة من الجيش تكون أمام الجيش العظيم ويطلق عليهاالطليعة، ومنسر على وزن منبر بمعنى منقار الطيور.

[۳۲۳] (۵)« كتائب»: جمع« كتيبة» طائفة من الجيش من مئة إلى ألف.

[۳۲۴] (۶)« الحلائب»: جمع« حليبة أو حلوبة» بمعنى الجماعة التى تجتمع على صوب، كما تطلق على الخيّالة.

[۳۲۵] (۷)« الخميس»: بمعنى الجيش الكامل الذى يتألف من خمسة أقسام، المقدّمة والميمنة والميسرة والقلب والساقة.

[۳۲۶] (۸) سيأتى تفسير كلمة« تدعق» فى كلام السيد الرضى.

[۳۲۷] (۹) سيأتى تفسير كلمة« نواحر» فى كلام السيد الرضى.

[۳۲۸] (۱۰)« أعنان»: قال صاحب لسان العرب جمع« عنن» على وزن كفن بمعنى نواحى الشيء وأطرافه.

[۳۲۹] (۱۱)« مسارب»: جمع« مسربة» بمعنى المرعى وكذلك مسارح بمعنى المرعى، إلّاأن بعض شرّاح نهج البلاغة ذهب إلى أنّ المسارب ما يسرب فيه المال والمرعى، والمسارح ما يسرح فيه والفرق بين مسرح ومسرب أنّ السروح إنّما يكون فى أول النهار وليس ذلك بشرط فى السروب.(شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۸/ ۹).

[۳۳۰] (۱) سند الخطبة:

تطرق المؤرخ المعروف الطبرى فى حوادث عام ۳۷ ه إلى هذه الخطبة وشأن صدورها وخلاصته أنّ الإمام عليه السلام أورد هذا الكلام فى الخوارج حين حاججهم ابن عباس، حيث أمر الإمام عليه السلام ابن عباس بالسكوت، ثم حمد اللَّه وأثنى عليه وقال لهم:

« من إمامكم؟ قالوا: ابن الكواء، قال: لم خالفتمونى، قالوا: لقبولك التحكيم فى صفين، فقال: ناشدتكم اللَّه ألم تطالبونى بالكفّ عن القتال حين رفعت المصاحف على أسنة الرماح، فقلت: لكم إنى أعلم بهم منكم، فلا- دين لهم ولا- قرآن، فلم تسمعوا قولى وأبيتم إلّاالتحكيم فقبلت، لكنّى اشترطت عليهم أن يحكموا القرآن وإلّا لا نستجيب لحكمهم؟

قالوا: أمن العدل تحكيم الأفراد فى دماء المسلمين؟ قال عليه السلام: إننا لم نحكم الرجال بل حكمنا القرآن.

ثم أورد الطبرى جانباً من الخطبة، كما نقلها باختلاف طفيف السبط بن الجوزى فى تذكرة الخواص، والمرحوم المفيد فى الإرشاد، والطبرسى فى الاحتجاج.

[۳۳۱] (۱)« مستور»: الشيء الخفى، إلّاأن هذه المفردة وردت مسطورة فى بعض النسخ من مادة سطر وردت صفةللخط فى العبارة وهى أنسب.

[۳۳۲] (۲)« دفتين»: مثنى« دفة» بمعنى جانب كل شيء ويقال دفتين لجانبى الكتاب أو القرآن.

[۳۳۳] (۱) سورة الحجرات/ ۹.

[۳۳۴] (۲) سورة النساء/ ۵۹.

[۳۳۵] (۱) كما ورد فى سند هذه الخطبة.

[۳۳۶] (۲) مسند الإمام الشهيد ۲/ ۴۳، وقد نقل هذا الأمر فى الأصل مقتل الحسين، للمقرّم وقد نقله عن تذكرة الخواص لابن الجوزى(مقتل الحسين/ ۲۳۳).

[۳۳۷] (۱) سورة يوسف/ ۶۷.

[۳۳۸] (۱)« يتثبت»: من مادة« ثبت» بمعنى التحقيق.

[۳۳۹] (۲)« هدنة»: من مادة« هدون» على وزن قرون بمعنى الهدوء والسكون، وتستعمل عادة بمعنى المصالحة بعدالقتال أو وقف اطلاق النار.

[۳۴۰] (۳)« أكظام»: جمع« كظم» على وزن عزم وجمع كظم على وزن قلم بمعنى مخرج النَفَس.

[۳۴۱] (۴) منهاج البراعة، للعلّامة الخوئى ۸/ ۱۸۰.

[۳۴۲] (۵)« كرث»: من مادة« كرث» بمعنى شدّة الغم.

[۳۴۳] (۱) سورة النساء/ ۱۵۰.

[۳۴۴] (۲) شرح نهج البلاغة، للمرحوم التسترى ۱۰/ ۲۶۳؛ تاريخ الطبرى ۴/ ۵۰ طبعة الأعلمى بيروت.

[۳۴۵] (۳)« يتاه»: من مادة« تيه» على وزن قيد بمعنى الحيرة والاضطراب، ويقال التيه للصحراء التى يحتار فيها الإنسان.

[۳۴۶] (۴)« اتيتم»: من مادة« إتيان» لها معانى مختلفة وتعنى هنا الانخداع والتسليم للباطل.

[۳۴۷] (۵)« موزعين»: من مادة« ايزاع» بمعنى التشجيع وإيجاد الرغبة فى شيء وترد بمعنى الإلهام والتوفيق، والمعنى الأول هو ا لمراد بها فى هذه العبارة.

[۳۴۸] (۶)« نكب»: جمع« ناكب» من مادة نكب على وزن نفى الانحراف عن الشيء.

[۳۴۹] (۱)« زوافر»: جمع« زافرة» من مادة على وزن فقر بمعنى الألم والصراخ، ولما كان أعوان الإنسان بصفتهمالمواسين فى الألم والأنين فقد اطلقت مفردة الزافرة على النصير وهذا هو المعنى المراد فى العبارة.

[۳۵۰] (۲)« حشاش»: حمع« حاش» من مادة حش على وزن شك بمعنى إيقاد النار، والمراد بها هنا الأفراد الذين يسددون أولى الضربات للعدو.

[۳۵۱] (۳)« برح»: بفتح الباء الشدّة والغضب.

[۳۵۲] (۴)« نجاء»: ونجوى الهمس فى الاذن والشيء الذى يقال للآخرين سراً.

[۳۵۳] (۱) ورد فى أغلب التواريخ أنّ كتّاب الإمام عليه السلام كتبوا أميرالمؤمنين إلى جانب إسمه، فاعترض عمرو بن‌العاص وقال: لو علمناک أميراً للمؤمنين فلابد أن يكون من يعاديک أميراً للفاسقين، لابدّ من محو هذه الكلمة، فأطرق على عليه السلام وذكر صلح الحديبية فقال:« اللَّه أكبر لقد كتبت محمد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فاعترض الكفّار وطالبوا بمحو رسول اللَّه، فلم أفعل، فأشار عليَّ النبى أن أمحوها ثم محاها بنفسه دفعاً للفتنة، فغضب عمرو بن العاص وقال تشبهنا بالكفّار فلن أبق فى هذا المجلس- فقال عليه السلام: أسأل اللَّه أن يطهر مجلسى من مثلک، ثم استمر الكلام حول كتابة لقب أمير المؤمنين حيث رأى البعض عدم محوها وإن شهرت السيوف، ولكن محيت تلک الكلمة آخر الأمر(انظر تاريخ الطبرى ۴/ ۳۷ والتواريخ الأخرى).

[۳۵۴] (۲) بحار الانوار ۳۲/ ۵۴۲؛ وقد ورد هذا العهد فى تاريخ الطبرى ۴/ ۳۸ مع بعض الاختلاف.

[۳۵۵] (۱) سورة سبأ/ ۲۴.

[۳۵۶] (۱) سورة الأحزاب/ ۲۱.

[۳۵۷] (۲) سورة المائدة/ ۹۰.

[۳۵۸] (۳) الاحتجاج للطبرى ۱/ ۴۴۲،(يتصرف ونقل بالمعنى) ووردت فى مناقب ابن المغازلى/ ۴۰۶ مع اضافة، وبحار الانوار ۳۳/ ۳۷۷ مع اختلاف.

[۳۵۹] (۱) سند الخطبة:

هذه الخطبة جزء من خطبة طويلة للإمام عليه السلام فى تقسيم بيت المال لما اعترض عليه، ويبدو أنّها مرتبطة بالخطبة ۱۴۲، والجزءان من خطبة واحدة، وقد نقلها الكثيرون ممن عاشوا قبل السيد الرضى وبعده ومنهم: ابن قتيبة فى الإمامة السياسة، وابن شعبة فى تحف العقول، والكلينى فى فروع الدين، والشيخ المفيد فى كتاب المجالس، والمرحوم الشيخ الطوسى فى كتاب الآمالى(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۲۸۲).

[۳۶۰] (۱)« أطور»: من مادة« طور» على وزن غور بمعنى حام حول الشيء، والمفردة طور وجمعها أطوار وردت‌بمعنى نوع وحالة وصيغة.

[۳۶۱] (۲)« سمير»: من مادة« سمر» على وزن تمر حديث الليل، وقال البعض أن المعنى الأصلى لهذه المادة هو الاختلاط بالنور والظلمة، ولما كانت أحاديث الليل تتم أحياناً فى ظلّ النور، فقد ستخدمت هذه المفردة بشأن أحاديث الليل، وإن اطلق الأسمر على بعض الأفراد فذلک لأنّ بياض بشرتهم مشوب باللون الغامق.

[۳۶۲] (۳)« أمّ»: من مادة« أم» على ورن غم بمعنى القصد، والعبارة(ما أمّ نجم فى السماء نجماً) كناية عن طلوع النجوم وغروبها متتابعة، وكأنّ كل نجم يقصد متابعة الآخر.

[۳۶۳] (۱)« خدين»: من مادة« خدن» بمعنى الصداقة وخدن على وزن اذن بمعنى الصديق وجمع ذلک أخدان.

[۳۶۴] (۱) مرّت تفاصيل ذلک فى شرحنا للخطبة الشقشقية.

[۳۶۵] (۲) انظر الخطبة ۲۳۲.

[۳۶۶] (۳) ابو عبدالرحمن السلمى من مشاهير التابعين، ولم يكن من الصحابة وقال البعض كان بادىء الأمر من‌خواص أميرالمؤمنين عليه السلام(الكنى والالقاب).

[۳۶۷] (۴) كتاب منتخب ذيل المذيل، ص ۱۴۷ نقلًا عن العلّامة التسترى فى شرحه لنهج البلاغة ۶/ ۴۹۱.

[۳۶۸] (۱) ورد عن معاوية أنّه قال:« واللَّهِ لأستَمِيلنّ بالأموالِ أَهلَ ثُقاتِ عليٍّ ولاقسِمَنَّ فِيهِم المالَ حتّى تَغلِبَ دُنياىَعَلَى آخِرَتِهِ» شرح نهج البلاغة للعلّامة التسترى ۶/ ۴۹۱.

[۳۶۹] (۱) سند الخطبة:

نقل هذه الخطبة المؤرخ المعروف الطبری فی حوادث سنة ۳۷ ه عن أبی مخنف باختلاف طفیف، وابن الأثیر فی کتاب النهایة وأشار إلی المفردة(بجر).(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۲۸۵).

[۳۷۰] (۱)« عواتق»: جمع« عاتق» قسم من الجسم یقع بین الرقبة والکتف.

[۳۷۱] (۱) أصول الکافی ۲/ ۳۸۹، باب وجوه الکفر، ح ۱.

[۳۷۲] (۱) سورة التوبة/ ۶.

[۳۷۳] (۲) سرح ابن أبی الحدید ۲/ ۲۷۹- ۲۸۱.

[۳۷۴] (۳) انظر نفحات الولایة ۲/ ۳۷۷.

[۳۷۵] (۱) وسائل الشیعة ۱۷/ ۳۷۷.

[۳۷۶] (۱) سورة المجادلة/ ۱۹.

[۳۷۷] (۱) سورة الکهف/ ۱۰۳- ۱۰۴.

[۳۷۸] (۲) الاستیعاب ۳/ ۳۶.

[۳۷۹] (۳) شرح نهج البلاغة لمغنیة ۲/ ۲۴۷، کما وردت فی کتاب الغدیر عدّة روایات من المصادر المعتبرة للعامّة بخصوص معرفة المؤمن یحبّ علی علیه السلام والمنافق ببغضه(الغدیر ۳/ ۱۸۳).

[۳۸۰] (۱)« النمط»: هو الطائفة من الناس التی لها هدف واحد، کما تستعمل هذه المفردة أحیاناً بمعنی الاسلوب‌والطریق.

[۳۸۱] (۲) بحار الانوار ۶/ ۱۷۸.

[۳۸۲] (۳)« السواد»: تعنی فی الأصل اللون الأسود، ولما کانت الجماعة الکثیرة والأشجار المتشابکة والکثیرة تبدوسواء من بعید فقد وردت هذه المفردة بهذین المعنیین، وقد جاءت فی هذه الخطبة بمعنی الجماعة.

[۳۸۳] (۴)« شاذ»: من مادة« شذوذ» بمعنی القلّة والندرة ویطلق الشاذ علی من یتخلف عن الجماعة وینفرد لوحده.

[۳۸۴] (۵) شرح نهج البلاغة لابن أبی الحدید ۸/ ۱۲۳.

[۳۸۵] (۱) نهج البلاغة، الکلمات القصار، ۱۰۹.

[۳۸۶] (۱) نهج البلاغة، الخطبة ۲۰۱.

[۳۸۷] (۲) سورة المائدة/ ۱۰۸.

[۳۸۸] (۱) مروج الذهب، طبق نقل سفینة البحار مفردة الخوارج.

[۳۸۹] (۲) قاموس دهخدا، ذیل مفردة الخوارج.

[۳۹۰] (۱) الملل والنحل لآیة اللَّه السبحانی ۵/ ۲۴۲ و ۲۴۹.

[۳۹۱] (۱)« بجر»: بضم الباء الشر والأمر العظیم، کما ورد بمعنی اتساع البطن وملأها.

[۳۹۲] (۲)« ختلت»: من مادة« ختل» علی وزن قتل بمعنی المکر والخداع.

[۳۹۳] (۳)« الصمد»: بمعنی المکان المرتفع، کما یرد بمعنی القصد وعدم الاعتماد وهذا هو المعنی المراد فی العبارة.

[۳۹۴] (۴)« سوء»: مفتوح مفعول سبق الذی ورد فی أول العبارة ومفهوم الجملة قبل أن یبدی هؤلاء الرأی الظالم والفاسد قد اشترطنا علیهم إننا سوف لن نقبل رأیهم إن حاد عن الحق.

[۳۹۵] (۱) ورد شبه هذا المعنی مع إختلاف طفیف فی الخطبة ۱۷۷.

[۳۹۶] (۲) دومة الجندل منطقة قرب تبوک انتخبت کموضع للتحکیم.

[۳۹۷] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبی الحدید ۱۰/ ۵۶ بتصرف.

[۳۹۸] (۱) سند الخطبة:

جاء فی کتاب مصادر نهج البلاغة أنّ هذا الکلام جزء من خطبة طویلة لإمام علیه السلام فی البصرة بعد موقعة الجمل، وقد نقل المرحوم ابن میثم البحرانی فیشرح نهج البلاغة أجزاء منها، والمخاطب هو الأحنف بن قیس من أشراف قومه والمعروف بحکمته وسابقته، وترتبط هذه الخطبة بالخطبة رقم ۱۱۰ التی شرحت سابقاً(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۲۸۸).

[۳۹۹] (۱) المراد بالأحنف بن قیس من أشراف البصرة وأحد صحابة النبی الأکرم صلی الله علیه و آله وورد فی الحدیث أنّ رسولاللّه صلی الله علیه و آله سأل اللّه له المغفرة، فکان یثق بدعائه رغم أنّه رجل شریف وکریم، کما وجهه رسول اللّه صلی الله علیه و آله إلی البصرة لنشر الإسلام، شهد صفین فی عسکر أمیر المؤمنین علی علیه السلام ولم یشهد الجمل بوصیّة منه علیه السلام حیث قال: إن لم أشهد المعرکة فلی أن أمنع عنک ستة آلاف سیف فوافقه علیه السلام.

سفینة البحار مادة حنف واسد الغابة ۱/ ۵۵، وشرح نهج البلاغة لابن أبی الحدید ۲/ ۲۴۹.

[۴۰۰] (۲)« لجب»: بمعنی الصیاح وتطلق أحیاناً علی أصوات الخیل والمقاتلین.

[۴۰۱] (۳)« قعقعة»: الصوت الذی ینبعث من احتکاک الأشیاء الیابسة کالجام الذی ورد فی الخطبة.

[۴۰۲] (۴)« حمحمة»: بمعنی صوت الفرس التی لا تبلغ الصهیل المرتفع.

[۴۰۳] (۵)« نعام»: حویان المعروف.

[۴۰۴] (۱)« کاب»: من مادة« کب» علی وزن خط تعنی فی الأصل طرح الشیء علی وجهه فی الأرض.

[۴۰۵] (۱) نهج البلاغة، الکلمات القصار، الکلمة ۷۷.

[۴۰۶] (۱) بحار الانوار ۶۳/ ۱۹۷.

[۴۰۷] (۲) مروج الذهب ۴/ ۱۲۰.

[۴۰۸] (۳) الکنی والألقاب ۲/ ۴۰۲.

[۴۰۹] (۴) شرح نهج البلاغة لابن أبی الحدید ۸/ ۱۲۸.

[۴۱۰] (۵) المصدر السابق.

[۴۱۱] (۱)« المجان»: جمع« مجن» ومجنة الترس.

[۴۱۲] (۲)« المطرقة»: من مادة« طرق» علی وزن برق بمعنی دق الشیء بالمطرقة أو مطلق الدق، وعلیه فالمطرقة الشیء الذی دقّ بالمطرقة.

[۴۱۳] (۱)« السرقة»: بمعنی الحریر الفاخر أو الحریر الأبیض، وقال أغلب أرباب اللغة أصلها فارسی أخذ من السرّه بمعنی الحسن والخالص.

[۴۱۴] (۲)« الدیباج»: بمعنی القماش الحریری الملون، کما یستعمل أحیاناً بمعنی کل قماش حسن النقش، وأصله فارسی أیضاً.

[۴۱۵] (۳)« یعتقبون»: من مادة« اعتقاب» یحبسون کرائم الخیل ویمنعونها غیرهم.

[۴۱۶] (۴)« اعتاق»: جمع« عتیق» بمعنی کل شیء حسن وقیّم وتستعمل فی الخیل الأصیلة.

[۴۱۷] (۵)« استحرار»: من مادة« حرارة» بمعنی الشدّة والحدّة.

[۴۱۸] (۶)« المفلت»: من مادة« فلت» علی وزن فرد بمعنی الهروب والفرار وتطلق مفردة المفلت علی من ینجو من الشدّة.

[۴۱۹] (۷)« المأسور»: بمعنی الأسیر.

[۴۲۰] (۸) شرح نهج البلاغة ابن أبی الحدید ۸/ ۲۱۸.

[۴۲۱] (۱) شرح نهج البلاغة ابن أبى الحديد ۸/ ۲۱۸- ۲۵۲، وقاموس دهخدا مفرد المغول.

[۴۲۲] (۱) سورة لقمان/ ۳۴.

[۴۲۳] (۲)« يعى»: من مادة« وعى» على وزن سعى بمعنى حفظ الشىء فى القلب، أو بعبارة أخرى التعلم والايداع فى الحافظة.

[۴۲۴] (۳)« تضطم»: من مادة« ضم» بمعنى جمع الشىء.

[۴۲۵] (۴)« جوانح»: جمع« جانحة» الأضلاع تحت الترائب ممّا يلى الصدر.

[۴۲۶] (۱) تفسير نور الثقلين، ووردت أحاديث سبعة أقلّاً فى هذا المضمار فى ذيل الآية الشريفة.

[۴۲۷] (۱) اصول الكافى ۱/ ۲۵۷، ح ۳ من باب« نادر فيه ذكر الغيب».

[۴۲۸] (۱) سند الخطبة:

ورد فى مصادر نهج البلاغة أنّ هذه الخطبة وإن كانت فى رعاية العدل فى الكيل والميزان، لكن لا يرى مطلب بهذا الخصوص فى هذه الخطبة سوى إشارة قال فيها الإمام عليه السلام:« اين المتورعون فى مكاسبهم»، وهذا يدلّ على أنّها جزء من خطبة طويلة أشارت إلى هذه المسألة المهمة، إلّاأنّ المرحوم السيد الرضى كعادته يختار منها ويترك بقيتها، رواها الزمخشرى فى« ربيع الأبرار»، كما ورد قسم منها فى« غرر الحكم»(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۲۹۰).

[۴۲۹] (۲) مكاييل جمع مكيال، والموازين جمع الميزان.

[۴۳۰] (۱)« أثوياء»: جمع« ثوى» على وزن قوى بمعنى الضيف وفى الأصل من مادة« ثواء» بمعنى الإقامة فى مكان.

[۴۳۱] (۲) شرح نهج البلاغة ابن أبى الحديد ۸/ ۲۴۷.

[۴۳۲] (۳)« دائب»: من مادة« دؤوب» على وزن غروب المداوم فى العمل.

[۴۳۳] (۴)« كادح»: من مادة« كدح» على وزن مدح الساعى بجهد ومشقة فى القيام بعمل.

[۴۳۴] (۱)« فريسة»: من مادة« فرس» على وزن قرض بمعنى الصيد.

[۴۳۵] (۲) اصول الكافى ۸/ ۵۵۱.

[۴۳۶] (۳)« طرف»: وردت أحياناً بمعنى العين، وأخرى حركة جفن العين، كما استعملت بمعنى النظر لأنّ الأجفان تتحرك حين النظر.

[۴۳۷] (۴)« يكابد»: من مادة« كبد» بمعنى تحمل المشقة وهذا هو المعنى المراد بها فى العبارة، كما وردت بمعنى الجعل فى المشقة.

[۴۳۸] (۵)« الوفر»: بمعنى الوفير والكثير.

[۴۳۹] (۱)« الوقر»: بمعنى الثقل.

[۴۴۰] (۲)« طرف»: وردت أحياناً بمعنى العين، وأخرى حركة جفن العين، كما استعملت بمعنى النظر لأنّ الأجفان تتحرك حين النظر.

[۴۴۱] (۱)« سمحاء»: جمع« سميح» الشخص الرؤوف وصاحب الكرم، وقيل من يبذل حين وفرة النعمة وضيقها.

[۴۴۲] (۲)« متورع»: من مادة« ورع» بمعنى اجتناب الذنب والشبهة.

[۴۴۳] (۱)« ظعنوا»: من مادة« ظعن» السفر والرحيل.

[۴۴۴] (۲)« المنغصة»: من مادة« نغص» على وزن نقص الكدر وعدم الصفاء ماء الشرب، ثم اطلقت على كدورة العيش ومنه العيش المنغص.

[۴۴۵] (۳) وردت هذه المفردة فى أغلب شروح نهج البلاغة خلقتم التى لا- تختلف كثيراً عن« خُلِّفْتُم» كما لم تذكر إلّافى العبارة إلّابذمهم.

[۴۴۶] (۴)« حثالة»: تعنى فى الأصل راسب الدهن ثم استعملت بشأن الأفراد الأراذل الذين لا شخصية لهم.

[۴۴۷] (۱) بحار الانوار ۶۶/ ۷۲، ح ۲۶.

[۴۴۸] (۲) كنز العمال ۳/ ۶۶، ح ۵۵۲۲.

[۴۴۹] (۱) سند الخطبة:

ذكرها المرحوم الكلينى فى كتاب« روضة الكافى» باختلاف طفيف ويستفاد من ذيلها أن ليس على عليه السلام شيعه إلى الربذة فقط، بل شيعه الإمام الحسن والحسين عليهما السلام وعمار(وعقيل حسب بعض الروايات)، وبعبارات رائعة سيأتى بيانها فى الأبحاث القادمة(الكافى ۸/ ۲۰۶، ح ۲۵)، قال صاحب مصادر نهج البلاغة بعد الإشارة إلى رواية الكافى نقلها ابن أبى الحديد عن كتاب« السقيفة» لأحمد بن عبدالعزيز الجوهرى(مصار نهج البلاغة ۲/ ۲۹۱).

[۴۵۰] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۸/ ۲۵۲.

[۴۵۱] (۱) وعليه تفسير« ما» بالموصولة بمعنى الدين لأنّهم أرادوا أن يستفيدوا من دين أبى ذر لصالح دنياهم، فحالأبو ذر دون ذلك، كما يحتمل أن يكون الدين بصورة مطلقة، إلّاأنّ هناك تقديراً فى العبارة حيث يكون المعنى ما أحوجهم إلى الدين، الدين الذى حذرت عليه من إفسادهم له.

[۴۵۲] (۲)« رتق»: إلتحام شيء بآخر وتعنى فى العبارة إغلاق طرق الخلاص والفرار.

[۴۵۳] (۳) سورة الطلاق/ ۲- ۳.

[۴۵۴] (۱)« قرضت»: من مادة« قرض» تعنى فى الأصل قطع الشيء ومن هنا يقال المقراض للمقص، كما يقالالقرض لما يعطى من مال، ووردت فى العبارة المذكورة بمعنى قطعت منها جزءاً من المال لنفسك، ومهادنة الظالمين.

[۴۵۵] (۲) روت أغلب المصادر« جندب وجنادة» بضم الجيم، وكنيته أبو ذر، حيث كان له ولد بهذا الاسم.

[۴۵۶] (۱) بحار الانوار ۲۲/ ۲۹۸.

[۴۵۷] (۲) سورة التوبة/ ۳۴.

[۴۵۸] (۱) بحار الانوار ۲۲/ ۳۹۸.

[۴۵۹] (۲) ورد فى معجم البلدان أنّ الربذة من القرى الواقعة أطراف المدينة حيث تبعد عنها ثلاثة أميال(حدود ۱۵۰ كيلومتر).

[۴۶۰] (۳) لخصت هذه المطالب من عدّة كتب معروفة كشرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، وشرح المرحوم التسترى، وشرح المرحوم الخوئى، وبحار الانوار.

[۴۶۱] (۴) الأعلام للزركلى، ذيل كلمة جندب.

[۴۶۲] (۱) الغدير ۸/ ۳۴۳.

[۴۶۳] (۲) سورة النور/ ۳۳.

[۴۶۴] (۳) سورة التوبة/ ۳۴.

[۴۶۵] (۴) الغدير ۸/ ۳۱۲ و ۳۶۳.

[۴۶۶] (۱) الأعلام للزركلى ۲/ ۱۴۰.

[۴۶۷] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۸/ ۲۵۷.

[۴۶۸] (۲) اسد الغابة ۱/ ۳۰۱.

[۴۶۹] (۱) الكافى ۸/ ۲۰۸، بتصرف، شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۸/ ۲۵۳.

[۴۷۰] (۱) سند الخطبة:

أشار ابن الجوزى فى« تذكرة الخواص» إلى هذه الخطبة وقال: ابتدأ الإمام هذه الخطبة حين استوى على منبر الكوفة بالقول: الحمد للّهوأومن به ثم خطب الخطبة، وأورد القاضى نعمان الفصل الأخير من الخطبة فى المجلد الثانى من« دعائم الإسلام»، كما أشار إلى

بعضـها ابن أثير فی« النهاية» فی مادة ظار ومادة دعا(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۲۹۵) وتدلّ هذه المصادر علی أنّ الخطبة وردت فی عدّة كتب قبل السيد الرضی.

[۴۷۱] (۱)« أظأر»: من مادة« ظأر» علی وزن ضرب تعنی فی الأصل المراقبة والمواظبة علی الشیء ولما كان عمل القابلة الإرضاع ومراقبة الطفل فقد استعملت هذه المفردة لها.

[۴۷۲] (۲)« المعزی»: بمعنی السخلة فی مقابل الضأن بمعنی الخروف.

[۴۷۳] (۳)« وعوعة»: بمعنی الصراخ والضجة والزئير، وتطلق علی الأموات المتداخلة.

[۴۷۴] (۴)« اطلع»: لها معنی اللازم وهو الطلوع والظهور وكذلك معنی المتعدی، وهنا بالنظر لسرار مفعولها فقد وردت متعدية، والباء فی بكم للاستعانة أو السبب.

[۴۷۵] (۵)« سرار»: من مادة« سر» تعنی فی الأصل آخر ليلة من الشهر« ليلة المحاق التام) ويراد بها شدّة الظلمة.

[۴۷۶] (۱)« منافسة»: تعنی فی الاصل سعی فردين يريد كل منهما الظفر بشیء نفيس يمتلكه الآخر، فالواقع هی مسابقة شريفة بين فردين من أجل بلوغ كمال من الكمالات، ولكن قد تستعمل هذه المفردة فی الموارد السلبية، كما تستعمل بشأن الأفراد الذين يتسابقون من أجل نيل المال والمقام، والمراد بها فی الخطبة المعنی الثانی.

[۴۷۷] (۱) يبدو أنّ هذه المفردة« لَنرِدَ» من مادة وورد قد وردت خطأ فی نسخة نهج البلاغة لصبحی والصحيح لنردبالتشديد من مادة الرد بمعنی الإعادة، كما وردت كذلك فی أغلب نسخ نهج البلاغة.

[۴۷۸] (۲) سورة الجمعة/ ۲.

[۴۷۹] (۳) سورة الحديد/ ۲۵.

[۴۸۰] (۴) سورة الحج/ ۴۱.

[۴۸۱] (۱) ورد شرح إسلام علی عليه السلام وأنّه أول من أسلم فی أغلب مصادر الفريقين والرد علی التخرصات فی المجلد الثالث من هذا الكتاب، والمجلد التاسع، ص ۳۲۶ من نفحات القرآن.

[۴۸۲] (۱)« النهمة»: تعنی فی الأصل الحاجة وشدّة الحب لشیء والمبالغة فی الحرص عليه.

[۴۸۳] (۱)« الجافی»: من مادة« جفاء» تعنی فی الأصل العنف وأخذ الشیء.

[۴۸۴] (۲) سورة آل عمران/ ۱۵۹.

[۴۸۵] (۳)« الحائف»: من مادة« حيف» بمعنی الظلم والجور وتعنی فی الأصل الانحراف فی الحكم التمييز.

[۴۸۶] (۴)« دول»: جمع« دولة» بمعنی المال.

[۴۸۷] (۵)« المقاطع»: جمع« مقطع» بمعنی أخر كل شیء، كما تطلق هذه المفردة أحياناً علی الحدود الإلهيّة التی تنتهی بجرم المجرمين وقد وردت بهذا المعنی فی العبارة، وفی إشارة إلی أنّ القاضی إن كان مرتشياً فانّه لا يأذن باجراء حدود اللّه تعالی.

[۴۸۸] (۱) سند الخطبة:

نقلها بصورة متفرقة الآمدی- من علماء القرن الخامس- فی كتاب« الغرر»، ويفهم من اختلافها مع ما ورد فی نهج البلاغة أنّها كانت فی مصدر آخر غير نهج البلاغة، كما أشار ابن الأثير المتوفی عام ۶۰۶ ه فی« النهاية» إلی جوانب من هذه الخطبة(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۲۹۸).

[۴۸۹] (۱) اللام فی« خفية» بمعنی فی أو بمعنی مع وكذلك اللام فی« لكل سريرة».

[۴۹۰] (۲)« نجيب»: من مادة« نجابة» الإنسان أوالشیء المصطفی والنفيس.

[۴۹۱] (۳)« بعيث»: من مادة« بعثة» بمعنی مبعوث.

[۴۹۲] (۱) اسمع فعل وداعی فاعل وضمیره یعود إلی الموت ومفعوله محذوف وهو جمیع الناس، أی إنّ داعی الموت أوصل صوته لیسمع الجمیع.

[۴۹۳] (۲)« حادی»: من مادة« حداء» من یسوق الجمال بسرعة والعبارة فعل وفاعل ومفعول محذوف کالجملة السابقة.

[۴۹۴] (۱) هذه الأنواع العشرة من التأکید هی:« ان» وضمیر الشأن« إن» اعتبرنا الضمیر فی« أنّه» ضمیر الشأن والجملةالاسمیة والقسم بلفظ الجلالة والجد والألف واللام التی دخلت علیه ولا اللعب والحق ولا الکذب والاستفادة من الحصر فی العبارة(ما هو إلّا ...).

[۴۹۵] (۲)« ازعج»: من مادة« ازعاج» بمعنی الاقتلاع والاخراج.

[۴۹۶] (۱)« مشد»: من مادة« شید» علی وزن بید، لها معنیان: الأول بمعنی الارتفاع والآخر بمعنی الجص ومن هنایطلق علی القصور المرتفعة والعالیة التی تعانق السماء باقصور المشیدة، کما تطلق علی القصور المحکمة لتبقی محصنة من حوادث الدهر(فی مقابل مساکن المستضعفین التی تبنی عادة من الطین).

[۴۹۷] (۱)« برز»: من مادة« بروز» بمعنی الظهور والسبقة، وتوضیح ذلک أنّ هذه المفردة تکون أحیاناً علی هیئة ثلاثی مجرّد(علی وزن ضرب) بمعنی الظهور، وأحیاناً أخری من باب تفعیل(علی وزن صرّف) بمعنی السبقة، وقد استعملت فی العبارة الثانی، وإن وردت بصیغة الثلاثی المجرد فی بعض النسخ.

[۴۹۸] (۲)« مهل»: له معنی الاسم المصدری وتعنی الوفق والمداراة، کما تستعمل بمعنی الفرصة للقیام بالعمل الصالح.

[۴۹۹] (۳)« هبل»: نعنی أحیاناً الهلکة وفقدان الشیء أحیاناً، وأخری بمعنی الغنیمة والاهتبال بمعنی الخدعة، کمایعنی الاغتنام والاستیلاء علی شیء، والمعنی الثانی هوالمراد بالعبارة.

[۵۰۰] (۱)« أوفاز»: جمع« وفز» علی وزن نبض السرعة والعجلة والاستعداد للسفر.

[۵۰۱] (۲)« الزیّال»: بمعنی الفراق والعبارة« قربوا الظهور للزیّال» تعنی أعدوا المراکب للرحیل من الدنیا ولازمةذلک الإتیان بالأعمال الصالحة والتوبة من الذنوب وأداء حقوق المخلوق والخالق.

[۵۰۲] (۱) سند الخطبة:

لم یجد کاتب مصادر نهج البلاغة سنداً آخر لهذه الخطبة، سوی ما قاله ابن أبی الحدید من أنّ ما ورد فی هذه الخطبة جزء اقتطفه السید الرضی من خطبة طویلة، فیراه دلیلًا علی أنّه أصل الخطبة وإن لم یشر إلی سندها، ولکن یحتمل أن یکون کلام ابن أبی الحدید استنباطاً لهذه الخطبة فی نهج البلاغة، لأنّ السید الرضی بیّن من خلال تعبیره« منها ومنها» والذی کرره فی هذه الخطبة أنّه قطعها، کما أنّ عدم إرتباط أجزائها یفید أنّ أصل الخطبة طویل جدّاً، وقد ذکرها الآمدی فی« الغرر» ویحتمل أنّه نقلها من مصدر آخر.

[۵۰۳] (۱)« أزمة»: جمع زمام اللجام.

[۵۰۴] (۲)« مقالید»: قال أغلب أرباب اللغة مقلید وقال البعض الآخر جمع مقلاد بمعنی مفتاح، وقال صاحب« لسانالعرب» أنّ أصلها فارسی کلید الذی یعنی المفتاح، کما قال صاحب« لسان العرب» تأتی أحیاناً بمعنی الخزائن إلّاأنّ المعنی الأول أنسب وأکثر إنسجاماً مع العبارة أزمة فی الجملة السابقة وقذفت فی هذه الجملة.

[۵۰۵] (۳)« غدو»: جمع« غدوة» بمعنی الصباح، و« الآصال» جمع أصل علی وزن رسل وهی جمع من مادة أصل بمعنی العصر وآخر النهار واعتبر بعض أرباب اللغة الآصال والأصل جمع أصیل.

[۵۰۶] (۱) سورة الرحمن/ ۶.

[۵۰۷] (۲)« قدحت»: من مادة« قدح» علی وزن مدح بمعنی ضرب الحجر بالسندان لتولید شعلة النار والتی کانت شائدة سابقاً، ثم وردت بمعنی اشتعلت.

[۵۰۸] (۳)« قضبان»: جمع قضیب بمعنی عضن الشجرة وقضب علی وزن نبط بمعنی الفاکهة.

[۵۰۹] (۴)« يانعة»: من مادة« ينع» على وزن منع بمعنى نضج الفاكهة.

[۵۱۰] (۵) سورة القصص/ ۷۰.

[۵۱۱] (۶) سورة الزمر/ ۶۳.

[۵۱۲] (۷) سورة الحج/ ۱۸.

[۵۱۳] (۱) سورة يس/ ۸۰.

[۵۱۴] (۲) سورة الانعام/ ۱۴۱.

[۵۱۵] (۱)« أظهر»: جمع« ظهر» كل شيء، والتعبير بين أظهركم تعنى في أغلب الموارد الدفاع عن الشيء، وذلك لأنّالأفراد إن أرادوا الدفاع عن منطقة ولوا إليها ظهورهم وإلتفوا حولها واستقبلوا العدو، ثم استعملت هذه المفردة حين يكون الشخص وسط جماعة سواء دافعوا عنه أم لم يدافعوا، وهذا هوالمعنى المراد بها في العبارة.

[۵۱۶] (۲)« يعيي»: من مادة« عي» على وزن حي بمعنى التعب والعجز، وقال الراغب في المفردات تعني في الأصل العجز الذي يعرض لجسم الإنسان إثر كثرة المشي، ثم اطلقت على كل تعب وعجز.

[۵۱۷] (۳) ورد هذا الكلام في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:« هو في كل زمان جديد وعند كل قوم غض إلى يوم القيامة»(بحار الانوار ۲/ ۲۸۰).

[۵۱۸] (۱) سورة آل عمران/ ۱۶۰.

[۵۱۹] (۱)« فترة»: وفتور تعني في الأصل الهدوء والاستقرار وتأتي أحياناً بمعنى الضعف والفتور، وتطلق على الفاصلة بين حركتين أو حادثتين أو انقلابين، ومن هنا عبروا بالفترة عن الفاصلة بين ظهور الانبياء.

[۵۲۰] (۲)« قفي»: من مادة« قفا» بمعنى ظهر، كما ورد بمعنى خلف الشيء في المجيىء.

[۵۲۱] (۳)« العادلين»: جمع« عادل» من مادة عدل على وزن فكر بمعنى المعادل والشبيه والمثيل وإن وردت من مادة عدل على وزن نظم عنت العدالة، ومن مادة العدول بمعنى الانحراف والرجوع عن الشيء، وعليه فالعادل على ثلاثة معاني، وأريد بها المعنى الأول في الخطبة(لابدّ من الالتفات إلى أنّ المعنى الأول يتعدى عادة بالباء والمعنى الثالث بواسطة عن).

[۵۲۲] (۱) سورة البقرة/ ۲۵۶.

[۵۲۳] (۱) سورة الروم/ ۷.

[۵۲۴] (۲) سورة البقرة/ ۱۹۷.

[۵۲۵] (۱) نهج البلاغة، الخطبة ۲۰۴.

[۵۲۶] (۲) بحار الانوار ۴۴/ ۳۸۳.

[۵۲۷] (۳) نهج البلاغة، قصار الكلمات ۴۱۵.

[۵۲۸] (۱) سورة الجمعة/ ۶.

[۵۲۹] (۲) سورة الواقعة/ ۸۸- ۸۹.

[۵۳۰] (۳) شرح نهج البلاغة، لابن ميثم ۳/ ۱۵۷.

[۵۳۱] (۴) بحار الانوار ۶۹/ ۶۹.

[۵۳۲] (۵)« ريّ»: له معنى مصدري هو الارتواء.

[۵۳۳] (۶)« الضمآن»: من مادة« ظمأ» على وزن طمع بمعنى العطش.

[۵۳۴] (۱) نهج البلاغة، قصار الكلمات ۴۶۶.

[۵۳۵] (۲) سورة البقرة/ ۲۶۹.

[۵۳۶] (۳) هذا الاحتمال مختار ابن أبی الحدید والمرحوم الشارح الخوئی ومحمد عبده.

[۵۳۷] (۱) سورة البقرة/ ۱۲۹، ۱۵۱؛ وآل عمران/ ۴۸، ۸۱ و ...

[۵۳۸] (۲) سورة الانعام/ ۱۰۴.

[۵۳۹] (۱) سورة النساء/ ۸۲.

[۵۴۰] (۲)« غل»: من مادة« غلول» أو غلل علی وزن أفول وأجل تعنی فی الأصل النفوذ التدریجی والخفی للماء فی‌جذور الأشجار، ثم اطلق الغل الذی له معنی(الاسم المصدری) علی الخیانة لأنّها تحصل بصورة تدریجیة وخفیة.

[۵۴۱] (۳)« دمن»: جمع« دمنة» علی وزن فتنة بمعنی السرقین، کما یطلق علی الحقد القدیم.

[۵۴۲] (۱)« تاه»: من مادة« تیه» بمعنی الحیرة ومن مادة« توه» علی وزن لوح بمعنی الهلکة، ویبدو المعنی الثانی فی‌العبارة هو الأنسب.

[۵۴۳] (۲)« غرور»: إن قرأ بالضم فهو الخداع والمکر، وإن قرأ بالفتح أفاد الوصف وعنی الشخص الخادع وقد أطلقه القرآن علی الشیطان، وقد ورد بالصیغة الأولی فی النسخة المعروفة لصبحی الصالح، بینما ورد بالصیغة الثانیة فی أغلب النسخ، وتبدو الصیغة الثانیة أنسب علی ضوء تناسق العبارات.

[۵۴۴] (۳) سورة النور/ ۲۱.

[۵۴۵] (۴) سورة النساء/ ۸۳

[۵۴۶] (۱) سند الخطبة:

نقل هذا الکلام عن الإمام علیه السلام باختلاف طفیف ابن الأثیر فی النهایة فی مادة کنف وأبو عبید فی کتاب الأموال(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۳۰۲)

[۵۴۷] (۲) شرح نهج البلاغة لابن میثم البحرانی ۳/ ۱۶۲.

[۵۴۸] (۳) شرح نهج البلاغة، لابن أبی الحدید ۸/ ۲۹۸.

[۵۴۹] (۱) شرح نهج البلاغة، للتستری ۷/ ۴۲۱- ۴۲۳، بتصرف.

[۵۵۰] (۱)« حوزة»: من مادة« حوز» علی وزن موز تعنی الجمع والاتصال والإمتلاک وعادة ما تطلق الحوزة علی کل‌مجموعة.

[۵۵۱] (۲) سورة التوبة/ ۳۳.

[۵۵۲] (۱) العبارة« والذی نصرهم ...» مبتدأ وخبرها« حی لا یموت».

[۵۵۳] (۲)« تنکب»: من مادة« نکب» علی وزن نخل بمعنی الانحراف عن المسیر، وفی هذه العبارة بمعنی الهزیمةوالقتل.

[۵۵۴] (۳)« کانفة»: من مادة« کنف» علی وزن ظرف بمعنی الحفظ، وعلیه کانفة تقال للشخص أو الشیء العاصم الذی یحفظ الأفراد.

[۵۵۵] (۱)« محرب»: من مادة« حرب» بمعنی المقاتل والشجاع.

[۵۵۶] (۲)« احفز»: من مادة« حفز» علی وزن نبض الدافع والسوق الشدید.

[۵۵۷] (۳)« بلاء»: بمعنی الاختبار وأهل البلاء أهل المهارة فی الحرب.

[۵۵۸] (۴)« ردء»: بالکسر من مادة« ردء» علی وزن عبد بمعنی المساعدة وعلیه فردء بمعنی النصیر والعضید والسند.

[۵۵۹] (۵)« مثابة»: من مادة« ثوب» علی وزن قوم بمعنی رجوع الشیء إلی حالته الاولی ومثابة بمعنی المرجع ومن یعاد إلیه.

[۵۶۰] (۱) تحف العقول/ ۳۷۴.

[۵۶۱] (۱) سند الخطبة:

لم ینقل صاحب کتاب مصادر نهج البلاغة من نقل هذه الخطبة سوی أحمد بن أعثم الکوفی فی کتاب الفتوح، لکنّه أورد بعض

التوضيحات بشأن وورد الخطبة عن كتاب شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد.

[۵۶۲] (۱) المغيرة بن الأخنس وأبوه أحد المنافقين وهو غير المغيرة بن شعبة المعروف بنفاقه وعداوته لأهل‌البيت عليهم السلام.

[۵۶۳] (۲) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ۸/ ۳۰۱- ۳۰۲؛ والفتوح لابن أعثم الكوفى ۱/ ۱۶ طبقاً لنقل شرح نهج بالبلاغة للمرحوم التسترى ۹/ ۲۶۱.

[۵۶۴] (۱) يقال إنّ عداء آل المغيرة استمر ضد على عليه السلام حتى شهد ولده عبد اللّه‌المعركة الجمل فقتل فيها(شرح نهج البلاغة للمرحوم التسترى ۹/ ۲۶۶).

[۵۶۵] (۱) سورة ابراهيم/ ۲۶.

[۵۶۶] (۲)« منهض»: من مادة« نهض» القيام من المكان ومنهض من باب إفعال الشخص الذى يساعد غيره لينهض.

[۵۶۷] (۳) سورة محمّد/ ۷.

[۵۶۸] (۴) سورة غافر/ ۵۱.

[۵۶۹] (۵)« نواک»: من مادة« نوا» والكاف ضمير متصل تعنى فى الأصل غاية المسافر بعيدة كانت أم قريبة.

[۵۷۰] (۶) فالعبارة لا أبقى اللّه عليك تطلق حين اللعن ليبعد عن رحمة اللّه، والعبارة إن بقيت تعنى لا رحمك اللّه إن رحمتنى، فهى فى الواقع استخفاف بالمخاطب، فافعل ما شئت إنّك لا تقدر على شيء.

[۵۷۱] (۱) سند الخطبة:

قال المرحوم الشيخ المفيد رحمه الله فى كتاب« الإرشاد» أنّ الإمام على عليه السلام أورد هذا الكلام إمتنع البعض عن بيعة الإمام عليه السلام- حسب رواية الشعبى- ومنهم عبداللّه بن عمر وسعد بن أبي وقاص ومحمد بن مسلمة وحسان بن ثابت واسامة بن زيد، فخطب الإمام عليه السلام لبيان أحقيّة بيعته(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۳۰۶) وهكذا نقل هذه الخطبة الشيخ المفيد فى إرشاده وقد عاش قبل السيد الرضى، وكذلك أشار إليها ابن الأثير فى كتاب« النهاية» فى مادة(فلت).

[۵۷۲] (۱) صحيح‌البخارى ۶/ ۲۵۰۵ طبعة دارالنشر بيروت وصحيح ابن‌جبان ۲/ ۱۴۸، طبع مؤسسةالرسالة.

[۵۷۳] (۲) بحار الانوار ۱۰/ ۲۴۸(نقلًا عن مناقب ابن شهر آشوب).

[۵۷۴] (۱)« خزامة»: بالكسر حلقة من شعر تجعل فى وترة أنف البعير ليشد فيها الزمام ويشهل قياده، وقال البعض‌إن كان جنس الحلقة من النحاس قيل لها البرة وإن كانت من الشعر فهى الخزامة.

[۵۷۵] (۲)« منهل»: من مادة« نهل» على وزن جهل بمعنى الشربة الأولى ويطلق المنهل على الموضع الذى يمكن الاستفادة منه من ماء النهر(لابدّ من الالتفات إلى أنّ سطح ماء أغلب الأنهار أكثر انخفاضاً من الساحل وعادة ما يشقون بعض الأماكن لوصول الماء ليبلغه الناس والحيوانات بسهولة ويقال لمسير هذه الأماكن الشريعة وآخرها المنهل.

[۵۷۶] (۳) سورة الحديد/ ۲۵.

[۵۷۷] (۱) سند الخطبة:

رواها ابن عبد البر من علماء العامّة للقرن الخامس فى كتاب« الاستيعاب» فى شرح سيرة طلحة، كما رواها ابن الأثير من علماء القرن السابع فى« اسد الغابة»، ونقلها المرحوم الشيخ المفيد رحمه الله فى كتاب« الجمل» عن الواقدى، كما فسّر بعض أجزاءها ابن أبى الحديد عن أبى مخنف وكذلك ابن الأثير فى كتاب« العوذ»(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۳۰۹).

[۵۷۸] (۱)« نصف»: بكسر النون وضمها الإنصاف.

[۵۷۹] (۱) أوردنا شرحاً تاماً للعبارة« إنّ معى لبصيرتى» فى هذا الكتاب ۱/ ۴۸۱.

[۵۸۰] (۲)« شغب»: مصدر وبمعنى تهييج الشر والفساد.

[۵۸۱] (۳) منهاج البراعة ۸/ ۳۳۸؛ الاحتجاج ۱/ ۱۶۵.

[۵۸۲] (۱) أورد ابن الأثير فى المجلد الثانى، ص ۳۱۵ عن الكامل شرحاً مفصلًا لقضية نباح كلاب الحوأب وصراخ عائشة وعزمها على الرجوع وشهادة البعض على كذب من قال تلك المنطقة هى الحوأب.

[۵۸۳] (۲) تاريخ دمشق ۳۲/ ۱۷۱، طبعه بيروت؛ كنز العمال ۱۲/ ۲۱۱ طبعة حيدر آباد(مطابق نقل أحقاق الحق ۱۷/ ۱۶۶).

[۵۸۴] (۱)« افرطن»: من مادة« افراط» تعنى فى الأصل تجاوز الحدّ، لكنّها وردت أحياناً بمعنى القيام بالحدّ الأكثر من العمل وقد جاءت بهذا المعنى فى العبارة، يعنى سأملأ حوض المعركة للخصوم(طبعاً المراد حوض المنية) بحيث لا يبقى أمامهم من سبيل للنجاة، وبناءاً على هذا فلا مجال لطرح مثل هذا السؤال أو يمكن للإمام عليه السلام أن يفرط فى شيء.

[۵۸۵] (۲)« ماتح»: من مادة« متح» على وزن مدح بمعنى سحب الماء من الأعلى كسحب الماء من البئر بواسطة الدلو، وعليه فالماتح تطلق على من يطرح الدلو بواسطة الحبل فى البئر ويسحب منه الماء.

[۵۸۶] (۳)« ريّ»: اسم مصدرى ومصدره« رى» على وزن حى والباء للمعية.

[۵۸۷] (۴)« يعبون»: من مادة« عبّ» بمعنى شرب الماء أو مانع أخر دون تنفس.

[۵۸۸] (۵)« حسى»: السهل من الأرض الذى يتجمع فيه الماء.

[۵۸۹] (۱)« العوذ»: بضم العين جمع« عائذ» الإنسان أو الحيوان الذى يلد حديثاً.

[۵۹۰] (۲)« المطافيل»: جمع« مطفل» على وزن مسلم ذات الطفل من الإنسان والوحش، وعليه فالعوذ والمطافيل قريبة المعنى وهما هنا للتأكيد.

[۵۹۱] (۱)« ألبا»: من مادة« تأليب» بمعنى الافساد وإثارة الناس.

[۵۹۲] (۲)« استثبت»: من مادة« ثوب» على وزن صوم بمعنى رجوع الرميض إلى العافية ومفهوم العبارة أنى أردت من طلحة والزبير الرجوع عن انحرافهما.

[۵۹۳] (۳)« استأنيت»: من مادة« أناة» على وزن قناة بمعنى الصبر والانتظار ومفهوم الجملة أنّى كنت أنتظر تأثير اقتراحى عليهما فيعودا إلى رشدهما ويسلكا سبيل العافية والسلامة، لكن من المؤسف ...

[۵۹۴] (۴)« وقاع»: بمعنى الحرب وتستعمل هذه المفردة أحياناً بمعنى المصدر وأخرى الجمع« وقيعة».

[۵۹۵] (۵)« غمطا»: من مادة« غمط» على وزن غصب بمعنى استصغار الشيء وكفران النعمة والعبارة المذكورة إشارةإلى أنّ طلحة والزبير استخفا بما منحتهم من فرصة وكفرا بالنعمة.

[۵۹۶] (۱) السياسة والإمامة ۱/ ۳۸.

[۵۹۷] (۲) شرح نهج البلاغة ابن أبى الحديد ۹/ ۳۶.

[۵۹۸] (۳) فى ظلال نهج البلاغة ۲/ ۲۹۴.

[۵۹۹] (۴) الكامل لابن الأثير ۳/ ۲۰۶؛ تاريخ الطبرى ۳/ ۴۷۷.

[۶۰۰] (۵) ج ۱ شرح الخطبة الثالثة عشرة، ج ۲ شرح الخطبة الثلاثون والحادية والثلاثون ج ۳، ص ۲۰۹- ۳۰۱.

[۶۰۱] (۱) سند الخطبة:

ورد فى مصادر نهج البلاغة أنّه نقل جانباً من هذه الخطبة عن الآمدى فى« غرر الحكم» وقال بالنظر إلى أنّ بعض شرّاح نهج البلاغة اعتبروا القسم الأول إشارة إلى قيام الإمام المهدى عليه السلام فانّ ذلك يدل على أنّهم نقلوا الخطبة من مصدر آخر أشار إلى هذه القيام(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۳۰۲) لكننا لا نعتقد بتوجيه هذا الاستنتاج، ولعلهم استنبطوا ذلك من خلال بعض القرائن الواردة فى الخطبة.

[۶۰۲] (۱) يعطف من مادة عطف على وزن فتح بمعنى الميل والرغبة أو الترغيب بشيء، وقد تستعمل أحياناً بصيغةالمتعدى فتعنى الترغيب، كما تتعدى أحياناً بحرف إلى فتعنى الرغبة فى شيء، وتتعدى أيضاً بحرف على فتعنى الرجوع إلى الشيء وأخيراً تتعدى بحرف عن فتعنى الانصراف عن الشيء.

[۶۰۳] (۱) سورة الجاثية/ ۲۳.

[۶۰۴] (۲) بحار الانوار ۱/ ۱۹.

[۶۰۵] (۱)« نواجذ»: جمع« ناجذ» أقصى الأضراس أو الأنياب، كما فسّر بجميع الأسنان وهذا هو المعنى المراد منهافى العبارة.

[۶۰۶] (۲)« أخلاف»: جمع« خلف» بالكسر بمعنى حلمة ضرع الناقة، كما وردت بمعنى حلمة ضرع سائر الحيوانات كالبقرة والشاة.

[۶۰۷] (۳)« علقم»: برعم شديد المرارة يطلق عليه الحنظل، وتطلق هذه الكلمة على كل شيء مرّ.

[۶۰۸] (۱)« أفاليذ»: جمع« أفلاذ» وهذا جمع« فلذ» على وزن فكر بمعنى كبد الناقة، أو كبد كل إنسان أو حيوان،: وفلذةتعنى قطعة من الكبد، والمراد بها فى هذه العبارة الأشياء النفيسة والكنوز والمعادن الثمينة فى جوف الأرض.

[۶۰۹] (۲) شرح نهج البلاغة لعلّامة الخوئى ۸/ ۳۵۳.

[۶۱۰] (۳) بحار الأنوار ۵۲/ ۳۹۰.

[۶۱۱] (۱)« نعق»: من مادة« نعق» على وزن كعب تعنى فى الأصل صوت الغراب أوالصوت الذى يخرج من الشاة حين يذودها الراعى وتشير هنا إلى زعيق الظالم فى الشام.

[۶۱۲] (۲)« فحص»: من مادة« فحص» على وزن بحث تعنى فى الأصل البحث، كما وردت بمعنى البسط وهذا هو المعنى المراد بها فى الخطبة.

[۶۱۳] (۳)« ضواحى»: جمع« ضاحية» من مادة« ضحو» على وزن سهو بمعنى التعرض للشمس كما تطلق الضواحى على المناطق أطراف المدن.

[۶۱۴] (۴)« كوفان»: اسم آخر للكوفة وتعنى فى الأصل تلال الرمل الحمراء الدائرية.

[۶۱۵] (۱)« ضروس»: من مادة« ضرس» بمعنى عض الشيء والضغط عليه، وتطلق الضروس على الناقة السيئةالخلق التى تعض حالبها.

[۶۱۶] (۲)« فغرت»: من مادة« فغر» على وزن فقر بمعنى فتح الفم، وهى هنا كناية عن الحرص فى الاستيلاء على كل شيء، وافغر اسم فاعل من هذه المادة.

[۶۱۷] (۳)« جولة»: من مادة« جول» على وزن قول بمعنى الحركة والدوران حول مكان، وهى كناية عن السعىوالجهد المتواصل.

[۶۱۸] (۴)« الصولة»: من مادة« صول» على وزن قول بمعنى الحملة فى الحرب أو القفز على شيء.

[۶۱۹] (۵)« ليشردنكم»: من مادة« تشريد» بمعنى النفى والطرد والتفريق.

[۶۲۰] (۱) بحار الانوار ۵۲/ ۱۸۶- ۱۸۷ بتصرف.

[۶۲۱] (۲)« يؤوب»: من مادة« أوب» الرجوع من السفر أو مطلق الرجوع.

[۶۲۲] (۳)« عوازب»: جمع« عازبة» فى الأصل من مادة« عزبة» من لا زوجة له، لكنها وردت أحياناً بمعنى الخفاء والابتعاد، وهذا هو المراد بها فى العبارة.

[۶۲۳] (۴)« أحلام»: جمع حلم بمعنى العقل.

[۶۲۴] (۵)« يسنى»: من مادة« سنو» تعنى فى لأصل رى الأرض من الغيوم، ثم استعملت بمعنى مطلق التسهيل من أجل القيام بعمل.

[۶۲۵] (۱) سند الخطبة:

نقل هذه الخطبة الطبرى فى تاريخه فى شرح حوادث عام ۲۳ ه(عام قتل عمر) وقال ابن أبى الحديد هذا جزء من خطبة خطبها على

علیه السلام فی أصحاب الشوری بعد وفاة عمر، وقد ورد فی الکلمات القصار رقم ۲۲« لنا حق ...» وهو جزء من هـذه الخطبة(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۳۰۲).

[۶۲۶] (۲) نفحات الولایة ۱/ ۲۴۴.

[۶۲۷] (۱) سورة المائدة/ ۵۵.

[۶۲۸] (۲) سورة الدهر/ ۸.

[۶۲۹] (۳) سورة البقرة/ ۲۷۴.

[۶۳۰] (۴)« تنتضـی»: من مادة« نضو» و« نضـی» علی وزن نظم بمعنی سل السیف، أوالخروج من البیت وشحوباللون وما شباه ذلک، والمراد بها فی العبارة المعنی الأول.

[۶۳۱] (۱) شرح نهج البلاغة ابن أبی الحدید ۱۱/ ۱۱.

[۶۳۲] (۱) سند الخطبة:

ذکر الآمـدی فی کتـاب« غرر الحکم» مع فارق وما ورد فی نهـج البلاغـة وهـذا یـدل علی أنّ مصـدره غیر نهـج البلاغـة(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۳۱۴)، کما وردت هذه الخطبة فی بعض المصادر کجزء من خطبة تعرف بالدیباج(کتاب تمام نهج البلاغة).

[۶۳۳] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبی الحدید ۹/ ۱۶۲.

[۶۳۴] (۲) جامع السعادات ۳/ ۳۰۲؛ بحار الانوار ۷۲/ ۲۵۷.

[۶۳۵] (۳) جامع السعادات/ ۳۰۳.

[۶۳۶] (۱) بحار الانوار ۷۵/ ۲۵۹.

[۶۳۷] (۲) جامع السعادات ۳/ ۳۰۵.

[۶۳۸] (۱) للمؤلف.

[۶۳۹] (۱) سند الخطبة:

نقلهـا القاضـی القضـاعی فی کتـاب« دسـتور معـالم الحکم»، کمـا نقـل جزءاً منهـا علی بن هـذیل فی کتـاب« عین الأدب والسـیاسة»، وکذلک المرحوم الصدوق فی« الخصال» وابن عبد ربه فی« العقد الفرید»،(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۳۱۵)

[۶۴۰] (۱)« سـداد»: بمعنی الصـحیح من الکلام والعمل وتسـتعمل هـذه المفردة کمصدر واسم مصدر، ویبدو أنّها قریبةمن مادة سـد بمعنی الجدار المحکم الذی یقام ضد السیول وما شابه ذلک، لأنّ للکلام الحق استحکام خاص.

[۶۴۱] (۱)« یحیل»: من مادة« إحالة» کل تغیر أو حرکة تخرج عن الحق والاستقامة وتحیل إلی الانحراف و الاعوجاج.

[۶۴۲] (۲)« یبور»: من مادة« بوار» تعنی فی الأصل شدّة کساد الشـیء وحیث یبعث ذلک علی الفساد حسـبما ورد فی المثل کسد حیا فسد فقد اطلقت هذه المفردة علی الفساد ومن ثم الهلکة.

[۶۴۳] (۱) بحار الانوار ۷۲/ ۱۹۶.

[۶۴۴] (۱) سند الخطبة:

ذکرها المرحوم الکلینی فی کتاب« الکافی»(مصادر نهـج البلاغة ۲/ ۳۰۲)، والمرحوم الشـیخ المفید والشیخ الطوسی فی الآمالی وابن قتیبـة فی کتاب« الإمامـة والسـیاسة»، والجـدیر بالـذکر أنّه یسـتفاد من بعض المصادر المـذکورة مثل کتب الکافی أنّ هذه الخطبة هی استمرار للخطبة ۱۲۶(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۲۸۲ بتصرف).

[۶۴۵] (۱)« محمدة»: بمعنی الحمد والثناء وهو ضد الذم.

[۶۴۶] (۱) بحار الانوار ۷۴/ ۱۷۸.

[۶۴۷] (۲) منهاج البراعة ۷/ ۴۳۹.

[۶۴۸] (۱)« العانی»: من ماد« عنی» بمعنی الشدّة والتعب، وعدها البعض من شرّاح نهج البلاغة مرادفة لأسیر، ویبدوأنّ معناها واسع یشمل کل إنسان یعیش التعب والإرهاق.

[۶۴۹] (۲)« الغارم»: من مادة« غرامة» من علیه الدیون.

[۶۵۰] (۳) الکافی ۴/ ۱۰.

[۶۵۱] (۱) المصدر السابق ۲/ ۴۰۱، ح ۸.

[۶۵۲] (۲)« النوائب»: جمع« النائبة» تعنی الحوادث الألیمة التی تصیب الإنسان، ولکن فسّرها بعض أرباب اللغةبمطلق الحوادث سواء المطلوبة منها أو غیر مطلوبة.

[۶۵۳] (۳) کشف الغمة ۲/ ۲۴۲.

[۶۵۴] (۱) الإرشاد ۱/ ۳۰۳؛ وبحار الانوار ۷۴/ ۴۳۳.

[۶۵۵] (۲) میزان الحکمة، ۱۲۶۱۱.

[۶۵۶] (۱) سند الخطبة:

وردت هذه الخطبة حسب تصریح صاحب مصادر نهج البلاغة فی کتاب« أعلام النبوة» للدیلمی عن الإمام الصادق علیه السلام عن أمیرالمؤمنین علی علیه السلام، وفی« النهایة» لابن الأثیر فی مادة بطن بمناسبة المفردة بطنان التی وردت فی آخر الخطبة،(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۳۱۹) کما وردت فی بحار الانوار، ج ۸۸ عن« أعلام» النبوة للدیلمی، لکن لم یتضح علی وجه الدقة فی أی قرن عاش الدیلمی مؤلف الکتاب.

[۶۵۷] (۱)« تقلکم»: من مادة« اقلال» بمعنی حمل الشیء وأخذه، ولمّا کان الإنسان یعیش علی الأرض فکأنّها تحملهعلی أکتافها، وقد وردت تحملکم بدلًا من تقلکم فی أغلب شروح نهج البلاغة والتی تفید نفس المعنی.

[۶۵۸] (۱) سورة ابراهیم/ ۲۴.

[۶۵۹] (۱)« درور»: من مادة« درّ» علی وزن جرّ بمعنی تقاطر الحلیب من الثدی، ثم استعملت فی المطر وأمثاله، و« درور الرزق» بمعنی نزول الرزق من اللّه تعالی.

[۶۶۰] (۱)« استقال»: من مادة« إستقالة» بمعنی معونة من وقع علی الأرض للقیام، ثم اطلقت علی فسخ المعاملة أوطلب العفو علی الذنب.

[۶۶۱] (۱) الکافی ۲/ ۳۷۴، ح ۲.

[۶۶۲] (۲) سورة الأعراف/ ۹۶.

[۶۶۳] (۱) تفسیر نهج الصادقین ۱۰/ ۱۹(بتصرف، وقد ورد هذا الحدیث بصورة مختصرة عن الإمام المجتبی علیه السلام)(مجمع البیان ۱۰/ ۳۶۱).

[۶۶۴] (۱)« الأکنان»: جمع« کن» علی وزن« جن» بمعنی واسطة الحفظ والصون ومن هنا تطلق الأکنان علی الغیران.

[۶۶۵] (۲) راجع الخطبة ۱۵۵ بشأن آداب صلاة الاستسقاء.

[۶۶۶] (۳)« السنین»: جمع« سنة» وإن استعملت مع مفردة الهلکة أو الأخذ عنت الجدب والقحط.

[۶۶۷] (۴)« الوعرة»: بالتسکین کنایة عن صعوبة الحیاة.

[۶۶۸] (۵)« أجاءت»: من مادة« مجییء» من باب إفعال بمعنی ألجأته.

[۶۶۹] (۶)« مقاحط»: جمع« مقحطة» من مادة« قحط» بمعنی سنین الجدب.

[۶۷۰] (۷)« مجدبة»: من مادة« جدب» على وزن جعل قلّة النعمة، وعليه المجدبة تطلق على السنين التى يعانى فيهاالناس من الشدّة فىغ أرزاقهم.

[۶۷۱] (۸)« تلاحمت»: من مادة« تلاحم» بمعنى الاتصال.

[۶۷۲] (۱) فى ظلال نهج البلاغة ۲/ ۳۱۹.

[۶۷۳] (۲)« واجم»: من مادة« وجم» على وزن نجم من اشتد حزنه حتى أمسك عن الكلام.

[۶۷۴] (۳)« معشبة»: من مادة« عشب» على وزن شرف نمو النبات.

[۶۷۵] (۴)« الحيا»: بمعنى المطر ووفرة النعمة.

[۶۷۶] (۵)« القيعان»: جمع« قاع وقاعة» الأرض السهلة الواسعة كما تطلق أحياناً على الأرض التى تتجمع فيها المياه.

[۶۷۷] (۶) والجدير بالذكر قد نزلت الآن(حين كتابتى لهذه السطور فى العاشر من رمضان عام ۱۴۲۳ ه) أمطار مفعمة بالبركة والخير بعد جفاف طويل، ويبدو أنّ هذا المطر ينطوى إن شاء اللّه تعالى على جميع الصفات التى ذكرها الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة.

[۶۷۸] (۱) سند الخطبة:

أورد الآمدى جانباً من هذه الخطبة فى كتابه« غرر الحكم» وفيها إضافات لما فى نهج البلاغة مما يدلّ على أنّه استقاها من مصدر أخر غير نهج البلاغة(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۳۲۲).

[۶۷۹] (۱)« الاعذار»: مصدر باب إفعال من مادة« عذر» بمعنى إتمام الحجة.

[۶۸۰] (۱)« بواء»: تعنى فى الأصل العودة والنزول ثم أطلقت على العقوبة المستمرة والمتواصلة وهذا هو المعنى المراد بها فى الخطبة.

[۶۸۱] (۱) سورة الانفال/ ۲۸.

[۶۸۲] (۲) نهج البلاغة، قصار الكلمات ۹۳.

[۶۸۳] (۳) وسائل الشيعة ۱/ ۳۶، من أبواب مقدمة العبادات، الباب ۶، ح ۶.

[۶۸۴] (۱) نقل الدكتور الذهبى فى كتابه« التفسير والمفسرون» عن ابن عباس:« مَا أَخَذتُ مِنْ تَفسِيرِ القُرآنِ إلَّا مِنْعَلىٍّ بنِ أَبِى طَالِبٍ» ج ۱، ص ۸۹، كما روى عن ابن عباس أنّه قال:« وَمَا عِلمِى وَعِلْمُ أَصحَابِ مُحَمَّدٍ فِى عَلْمِ عَلىٍّ إلّا كَقَطرَةٍ فِى سَبعَةِ أَبحُرٍ»(الغدير ۲/ ۴۵ فى شرح ديوان حسان).

[۶۸۵] (۲) ذكرنا أسناد حديث ثقلين فى نفحات القرآن ۹/ ۶۲- ۷۱.

[۶۸۶] (۱) روى هذا الحديث جمع من حفاظ العامّة كابن عبد البر فى« الاستيعاب»، والقاضى فى« الموقف»، وابن أبى الحديد فى« شرح نهج البلاغة»، وابن طلحة الشافعى فى« مطالب السئول»،(الغدير ۳/ ۶۹، وابن عساكر فى(التاريخ المختصر لدمشق ۱۷/ ۳۰۱).

[۶۸۷] (۲) ورد هذا الحديث فى كنزل العمال ۱۳/ ۱۱۴، ح ۳۶۳۷۲.

[۶۸۸] (۳) سورة الرعد/ ۴۳.

[۶۸۹] (۴) انظرو مصادر هذا الحديث فى كتب العامّة فى إحقاق الحق ۳/ ۲۸۰، كما وردت روايات بهذا الخصوص فى شواهد التنزيل للحسكانى ۱/ ۳۰۷- ۳۱۰.

[۶۹۰] (۵) ذكرنا شرح هذا الموضوع فى المجلد الرابع من هذا الكتاب ذيل الخطبة ۹۳.

[۶۹۱] (۶) المرحوم العلّامة الأمينى أورد هذه العبارات بمصادر دقيقة من كتب العامّة(الغدير ۳/ ۹۷) تحت عنوان آراء الصحابة بعلى عليه السلام.

[۶۹۲] (۱) التفسير والمفسرون ۱/ ۸۹.

[۶۹۳] (۲) صحيح مسلم ۳/ ۱۴۵۳؛ طبع بيروت دار التراث العربى.

[۶۹۴] (۳) صحيح البخاری ۳/ ۱۰۱، جزء ۹، طبع دار الجيل بيروت.

[۶۹۵] (۴) صحيح الترمذی ۴/ ۵۰۱ طبع دار التراث الاحياء العربی بيروت.

[۶۹۶] (۵) صحيح أبی داود ۴/ ۱۰۶(كتاب المهدی).

[۶۹۷] (۱) مسند أحمد ۵/ ۸۹- ۹۰- ۱۰۱.

[۶۹۸] (۲) انظر كتاب منتخب الأثر/ ۱۲؛ إحقاق الحق/ ۱۳.

[۶۹۹] (۳) فضائل الصحابة ۲/ ۶۲۸، ح ۱۰۷۳.

[۷۰۰] (۱)« آجن»: من مادة« اجن» على وزن فجر الماء المتغير اللون والطعم والرائحة.

[۷۰۱] (۲)« بسیء به» من مادة بسوء ألفه وإستأنس به.

[۷۰۲] (۳)« خلائق»: أحياناً جمع« خلق» بمعنی المخلوق وأخری جمع« خليقة» بمعنی الخلق والملكة وهذا هو المعنی المراد بها فی العبارة.

[۷۰۳] (۴)« مزبد»: من مادة« زبد» رغوة الماء وما شابه ذلك ومزبد اسم فاعل.

[۷۰۴] (۵)« تيار»: يعنی فی الأصل الموج الشديد الذی يقذف الماء خارج البحر، ويطلق أحياناً علی مطلق الموج.

[۷۰۵] (۶)« الهشيم»: من مادة« هشم» تطلق علی النباتات الجافة المتكسرة.

[۷۰۶] (۷)« يحفل»: من مادة« حفول» بمعنی الاعتناء بالشیء وعليه فلا يحفل تعنی لا يهتم.

[۷۰۷] (۱)« لامحة»: من مادة« لمح» علی وزن لمس تعنی فی الأصل لمعان البرق، ثم جاءت بمعنی النظرة الخاطفة، كما وردت بمعنی النظر إلی الشیء وهذا هو المعنی المراد بها فی العبارة.

[۷۰۸] (۲)« حطام»: الشیء المكسور الفانی الذی لا قيمة له ويقال حطام الدنيا لأموالها بسبب فنائها وزوالها سريعاً.

[۷۰۹] (۳)« تشاحوا»: من مادة تشاح واصلها الشح بمعنی البخل المقرون بالحرص ويقال تشاح حيث يتنازع فردان أو طائفتان من أجل الحصول علی الشیء.

[۷۱۰] (۱)« نفروا»: من مادة« نفر» و« نفور» بمعنی الابتعاد عن الشیء والفرار منه.

[۷۱۱] (۱) سند الخطبة:

أورد ابن شعبة الحرانی فی كتابه« تحف العقول» جانباً من هذه الخطبة ضمن خطبة تعرف باسم الوسيلة، كما ذكرها المرحوم الشيخ المفيد رحمه الله فی كتاب« الإرشاد» مع اختلاف طفيف، كما نقلها المرحوم الشيخ الطوسی فی الأمالی وأشار أبو العتاهية فی أشعاره إلی مضمون بعض عبارات هذه الخطبة ويحتمل أنّه أخذها من كلام الإمام عليه السلام، ووردت أجزاء من هذه الخطبة فی الكلمات القصار فی كلمة رقم ۱۹۱.(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۳۲۳)

[۷۱۲] (۱)« غرض»: الهدف الذی يرمی بالسهام.

[۷۱۳] (۲)« شرق»: له معنی مصدری يعنی الاختناق بالماء.

[۷۱۴] (۳)« غصص»: له معنی مصدری ويعنی الاختناق بالطعام.

[۷۱۵] (۱)« يحلق»: من مادة« خلوق» بمعنی يبلی ويخلق من مادة خلق المراد المعنی الأول فی الخطبة.

[۷۱۶] (۲)« محصودة»: من مادة« حصد و حصاد» علی وزن غصب بمعنی حصاد الشیء.

[۷۱۷] (۱) فی ظلال نهج البلاغة ۴/ ۳۸۹.

[۷۱۸] (۱)« المهيع»: من مادة« هيع» علی وزن رأی بمعنی الطريق الواسع والواضح.

[۷۱۹] (۲)« عوازم»: جمع« عازمة أو عوزم» علی وزن جوهر تعنی فی الأصل المسن من الإنسان أوالحيوان وتطلق علی كل شیء

قديم، وتعنى هنا الأمور التى كانت موجودة منذ زمان النبى وأصالتها ثابتة فى الدين.

[۷۲۰] (۳) وردت حدثات بكسر الدال فى النسخة المعروفة لصبحى الصالح فلها معنى اسم الفاعل، وردت مفتوحة فى أغلب النسخ بمعنى الحدوث وهذا هوالصحيح.

[۷۲۱] (۱) ورد مثل هذا المعنى فى الأمالى للشيخ المفيد رحمه الله، ص ۱۸۸ مع اختلاف طفيف كما ورد فى مصادر العامّة(الموسوعة الفقهية الكويتية ۸/ ۲۴).

[۷۲۲] (۱) سند الخطبة:

روى جانباً من هذه الخطبة أبو حنيفة الدينورى فى كتاب« الأخبار الطوال» وأحمد بن أعثم الكوفى فى كتاب« الفتوح» والطبرى فى تاريخه والمعروف فى حوادث عام ۲۷ ه(الصحيح عام ۲۱ ه كما ورد فى تاريخ الطبرى) وذكرها الشيخ المفيد رحمه الله فى« الإرشاد»(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۳۲۵).

[۷۲۳] (۲) شرح ابن أبى الحديد ۹/ ۹۷.

[۷۲۴] (۱) إرشاد المفيد، ص ۱۲۰ بتصرف.

[۷۲۵] (۱) سورة التوبة/ ۳۳.

[۷۲۶] (۲) سورة غافر/ ۵۱.

[۷۲۷] (۳) وإن كان لهذه المفردة مفهوم كلى لكنّها تعنى هنا السلك ينظم فيه الخرز.

[۷۲۸] (۴)« خرز»: بمعنى حبات السبحة وتكون نفيسة، كما تكون عادية ويصنع منها المسبحة وأصلها« الخرز» على وزن الفرض بمعنى ثقب الجلد أو شيء أخر.

[۷۲۹] (۵)« حذافير»: جمع« حذفور و حذفار» على وزن مضمار بمعنى جانب الشيء وناحيته وحذافير بمعنىجميع الجوانب.

[۷۳۰] (۱)« اصل»: من مادة« صلى» على وزن سعى بمعنى دخول النار أو الاحتراق فيها، وإن استعملت فى بابالأفعال عن القذف فى النار، والعبارة إشارة إلى أنّ الجيش حين ينشغل بالحرب عليك بالابتعاد عنهم حتى لا يتمكن العدو من إصابتك.

[۷۳۱] (۲)« شخصت»: من مادة« شخوص» على وزن خلوص تعنى فى الأصل الخروج من المنزل أو المدينة، ولماكان الإنسان يظهر حين الخروج فقد أطلقت على قامة الإنسان والمرتفعات التى تلوح من بعيد، ويقال للمسافر شاخص حيث يبيّن حين دخوله المدينة، وتطلق هذه المفرادة على كل شيء مرتفع.

[۷۳۲] (۳)« عورات»: جمع« عورة» تعنى فى الأصل العيب والعار ولما كان إظهار الآلة الجنسية مدعاة للعيب والعارفقد اطلقت عليها العرب العورة، ولكن لهذه المفردة معنى أوسع وأشمل وهى النقطة التى يمكن اختراقها وما يخشاه الإنسان ويقلق منه، وحيث كانت حدود كل بلد من المناطق التى يمكن إلحاق الصدر بها والمقلقة فقد استعملت بهذا المجال، إلّاأنّها لا تعنى الحدود خلافاً لما أورده أغلب شرّاح نهج البلاغة، والمراد بها النقاط المضطربة داخل البلد الإسلامى والتى يمكن هجوم المنافقين عليها، والشاهد على ذلك العبارة ما تدع وراءك، لأنّ الجيش حين يتحرك نحو عدو خارجى لا يبقى خلفه سوى الجبهة الداخلية للبلاد.

[۷۳۳] (۱)« كلب»: بمعنى الأذى.

[۷۳۴] (۱) القادسية كانت من المدن الإيرانية الغربية ولم تكن تبعد كثيراً عن الكوفة(ذكر البعض أنّها تبعد تسعين كليومتراً) وهى الآن من مدن العراق.

[۷۳۵] (۱) نهاوند مدينة معروفة غرب ايران وهى الآن تابعة لمحافظة همدان ولا تبعد عنها كثيراً.

[۷۳۶] (۲) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۹/ ۹۶- ۱۰۲؛ وتاريخ الطبرى ۳/ ۲۰۲.

[۷۳۷] (۱) سند الخطبة:

نقلها قبل السيد الرضى باختلاف طفيف المرحوم الكلينى فى كتاب روضة الكافى، وقد اشير فى الخطبة ۲۳۷ إلى جزء من هذه الخطبة كما وردت إشارة إلى جانب منها فى قصار الكلمات، الكلمة ۹۸(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۳۳۱).

[۷۳۸] (۱) الكافى ۸/ ۳۸۶.

[۷۳۹] (۲)« تجلى»: من مادة« تجلى» وأصل جلو على وزن دلو بمعنى الظهور والبروز، وتجلى اللّه بمعنى أنّ آياته‌على درجة من الوضوح وكأنّه يمكن رؤيته من خلالها.

[۷۴۰] (۱) قال الشاعر:

وله فى كل شىء آية‌تدلّ على أنّه واحد [۷۴۱] (۲)« محق»: من مادة« محق» على وزن خلق بمعنى المحو الكامل أو إزالة بركة الشىء.

[۷۴۲] (۳)« المثلات»: جمع« مثلة» على وزن عضلة بمعنى العقوبة.

[۷۴۳] (۴)« احتصد»: من مادة« حصد» بمعنى القطف.

[۷۴۴] (۱)« سلعة»: المتاع والبضاعة.

[۷۴۵] (۲)« أبور»: من مادة« بوار» شدّة كساد الشىء والأرض البائر والبوار الميتة الخالية من النبات.

[۷۴۶] (۳)« أنفق»: فعل تفضيل من مادة« نفاق» لها معانى مختلفة واريد بها هنا غلاء السلعة ورواجها.

[۷۴۷] (۴)« تناسا»: من مادة نسيان.

[۷۴۸] (۵)« طريدان»: مثنى« طريد» من مادة طرد ومعناها معروف.

[۷۴۹] (۶)« منفيان»: من مادة« نفى» بمعنى الابعاد.

[۷۵۰] (۱)« يؤوى»: من مادة« ايواء» بمعنى الملاذ والملجأ.

[۷۵۱] (۲)« زبر»: بالفتح الكتابة(وقد جاء بالمعنى المصدرى واسم المصدر).

[۷۵۲] (۱)« مثلوا»: من مادة« تمثيل» وأصلها« المثلة» بمعنى التنكيل والتشنيع.

[۷۵۳] (۲)« فرية»: من مادة« فرى» على وزن فرد تعنى فى الأصل القطع، ولما كان قطع الشىء يؤدّى إلى فساده غالباً، فهى تطلق على كل خلاف ومنه الكذب والتهمة.

[۷۵۴] (۳) روى ذلك المرحوم العلّامة الحلى فى كتاب« كشف الحق» عن كتاب« الهاوية»(شرح نهج البلاغة للعلّامة‌الخوئى ۹/ ۷۰).

[۷۵۵] (۱) بحار الانوار ۴۴/ ۱۲۴.

[۷۵۶] (۱) بحار الانوار ۴۴/ ۱۲۴.

[۷۵۷] (۱) الخطبة ۴۲؛ بحار الانوار ۷۰/ ۹۱.

[۷۵۸] (۱)« قارعة»: من مادة« قرع» على وزن فرع بمعنى ضرب شىء بآخر وتطلق القارعة على كل حادثة مهمّة ومهلكة.

[۷۵۹] (۲)« النقمة»: تعنى فى الأصل استقباح الشىء بحيث تحصل أحياناً باللسان وأخرى بصورة عقوبة علمية، ومن هنا غالباً ما تستعمل هذه المفردة بمعنى العقوبة.

[۷۶۰] (۱)« البارىء»: من مادة برء على وزن قفل لها معنيان: الأول: بمعنى الخالق والايجاد ومن هنا يقال للّه‌البارىء، والآخر: بمعنى الابتعاد عن الشىء ولذلك تستخدم بمعنى العافية والبعد عن المرض وهذا هو المعنى المراد بها فى عبارة الخطبة.

[۷۶۱] (۲) سورة المدثر/ ۵۰- ۵۱.

[۷۶۲] (۱) سورة الأعراف/ ۱۶۹.

[۷۶۳] (۱) بحار الانوار ۶/ ۱۷۹.

[۷۶۴] (۱) سند الخطبة:

قال ابن أبى الحديد فى شرحه لنهج البلاغة روى هذه الخطبة قبل السيد الرضى أبو مخنف فى كتاب« الجمل»، كما رواها باختلاف« لابدّ من الالتفات إلى أنّ هذا الاختلاف ليس بقليل) المرحوم الشيخ المفيد رحمه الله فى كتاب« الإرشاد»(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۳۳۲)

[۷۶۵] (۱)« يمتان»: من مادة« مت» على وزن خط تعنى فى الأصل سحب الحب وحيث يسبب هذا العمل إقتراب‌الدلو فقد وردت هذه المفردة بمعنى الإقتراب والتقرب وهذا هوالمعنى المراد بها فى الخطبة.

[۷۶۶] (۲)« ضبّ»: لها عدة معانٍ ومنها سحب الماء والحقد والحيوان المعروف.

[۷۶۷] (۱)« المحتسب»: من مادة« حسبة» بمعنى الإتيان بالعمل حسبة للّه‌وإرادة الثواب منه سبحانه، ووردت مفردة المحتسب بمعنى المأمور الذى يكلف من الحكومة للإشراف على إجراء أحكام الدين ولعل ذلك لأنّه يقوم بالعمل للّه، أو أنّ هدفه حساب عمل الناس.

[۷۶۸] (۲) وردت هذه الرواية فى أغلب مصادر العامّة ومنها مسند أحمد بن حنبل وصحيح مسلم وطبقات ابن سعد ومصادر أخرى(انظر إحقاق الحق ۸/ ۴۲۲).

[۷۶۹] (۳) تاريخ بغداد ۱۳/ ۱۸۷ طبع دار الفكر.

[۷۷۰] (۱)« اللدم»: تعنى فى‌الأصل ضرب الشىء بأخر دون شدّة الصوت.

[۷۷۱] (۱) ورد هذا المعنى فى مروج الذهب فى شرح معركة الجمل وأضاف المسعودى ولم يتم تقسيم صلاة الجماعة بهذه البساطة، بل حدث ذلك بعد حوار طويل ونزاع طلحة والزبير(مروج الذهب ۲/ ۳۶۷ طبعة دار المعرفة بيروت).

[۷۷۲] (۲) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۹/ ۱۱۰.

[۷۷۳] (۱) سند الخطبة:

رواها المرحوم الكلينى فى الكافى ۱/ ۲۹۹؛ والمسعودى فى مروج الذهب بصورة مختصرة، وابن عساكر فى كتاب مقتل أميرالمؤمنين، ويتفق الجميع على أنّ الخطبة بعد ضربة ابن ملجم وقبل شهادة الإمام عليه السلام، وقد ذكر صاحب مصادر نهج البلاغة أسناد الخطبة فى قسم الرسائل حيث جاء جانب مهم من هذه الخطبة فى الرسالة رقم ۳۳(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۳۴۷).

[۷۷۴] (۱)« مساق»: مصدر ميمى أو اسم مكان من مادة« سوق» بمعنى الغاية التى يصلها الإنسان، أو بعبارة أخرى آخر الطريق.

[۷۷۵] (۲) شرح نهج البلاغة لابن ميثم البحرانى، ومنهاج البراعة للخوئى.

[۷۷۶] (۱)« اطردت»: من مادة« طرد» بمعنى الاخراج، واطردت الأيّام طويتها واحداً بعد الآخر.

[۷۷۷] (۲) اصول الكافى، ج ۱ باب« أنّ الأئمة يعلمون متى يموتون» الحديث ۴.

[۷۷۸] (۳) المصدر السابق.

[۷۷۹] (۱)« خلاكم الذم»: مثل بين العرب مفهومه ليس هناك من ذم لكم لأنّكم تقومون بوظيفتكم، وقيل أنّ أول من قال هذه العبارة(قصير بن سعد) غلام(خزيمة)(أحد ملوك‌العرب) والذى قتل على يد الزباء، فقال قصير لابن شقشقة الملك خذ بثأر حزيمة، فقال: أنّى لى به وإنّه لأسرع من العقاب، فقال له قصير:(اطلب وخلاك ذم)،(شرح نهج البلاغة للبيهقى من علماء القرن السادس، ص ۲۳۹ ذيل الخطبة التى نبحثها).

[۷۸۰] (۱) سورة البقرة/ ۲۸۶.

[۷۸۱] (۲) سورة الطلاق/ ۷.

[۷۸۲] (۳) اصول الكافى ۱/ ۴۷، ح ۱.

[۷۸۳] (۴) المصدر السابق/ ۱۱.

[۷۸۴] (۱) سورة آل عمران/ ۱۴۴.

[۷۸۵] (۱)« وطأة»: بمعنى محل القدم وتأتى بصيغة كناية بمعنى الضغط الشديد.

[۷۸۶] (۲)« مزلّه»: من مادة« زلل» على وزن ضرر بمعنى محل الزلل.

[۷۸۷] (۳)« تدحض»: من مادة« دحض» على وزن محض بمعنى الزلل أيضاً.

[۷۸۸] (۴)« أفياء»: جمع« فيىء» على وزن شىء بمعنى الظل.

[۷۸۹] (۵)« مهاب»: من مادة هبوب بمعنى حركة الرياح ومهاب جمع مهب محل هبوب الرياح.

[۷۹۰] (۶)« متلفق»: بمعنى القطع المتصلة من مادة لفق على وزن لفظ الجمع.

[۷۹۱] (۷)« عفا»: من مادة« عفو» بمعنى ترك، ولكن ما كان ترك الشىء يؤدّى إلى ذهابه وإندراسه، فقد وردت فى هذه العبارة وأمثالها بمعنى الإندراس.

[۷۹۲] (۱)« مخط»: من مادة« خط» بمعنى محل الخطوط.

[۷۹۳] (۲)« خلاء»: بمعنى خالية.

[۷۹۴] (۳)« حراك»: وحركة لها معنى واحد.

[۷۹۵] (۴)« هدو»: على وزن غلو بمعنى السكون وعدم القدرة على الحركة.

[۷۹۶] (۵)« خفوت»: بمعنى السكون والتوقف عن الحركة.

[۷۹۷] (۶)« اطراق»: خفض العين لضعف الأجفان.

[۷۹۸] (۷)« مرصد»: من مادة« ارصاد» بمعنى الاستعداد والانتظار.

[۷۹۹] (۱) سند الخطبة:

السند الوحيد الذى ورد فى كتاب مصادر نهج البلاغة هو كتاب المسترشد للطبرى الذى نقل أقساماً من أخر هذه الخطبة باختلاف، ويفهم من رواية الطبرى أنّ هذه الخطبة أطول مما نقل المرحوم السيد الرضى وقد إكتفى السيد الرضى رحمه الله حسب طريقته ببعض مقاطعها(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۳۳۷).

[۸۰۰] (۱)« مرصد»: من مادة رصد على وزن« صمد» تعنى فى الأصل مراقبة الشىء، ويطلق المرصد على الشىء الذى يراقب وينتظر.

[۸۰۱] (۱)« تباشير»: بمعنى البشارة وأوائل كل شىء(والذى يشير فى الواقع بوروده) وتباشير الصبح بمعنى أوائله، وذهب البعض إلى أنّ تباشير جمع تبشير، ولكن يستفاد من تعبيرات البعض أنّها مفرد أو جمع لا مفرد له.

[۸۰۲] (۲)« أبان»: بمعنى بداية ووقت كل شىء.

[۸۰۳] (۳)« يحذو»: من مادة حذو على وزن حذف بمعنى الاتباع.

[۸۰۴] (۴)« ربق»: بكسر فسيكون حبل فيه عدّة هرا، كل عروة ربقة تشدّ فيه البهم.

[۸۰۵] (۵)« يصدع»: من مادة« صدع» تعنى فى اللغة مطلق الشق، أو شق الأجسام المحكمة، كما وردت بمعنى الاظهار حيث يظهر باطن الشىء بالشق.

[۸۰۶] (۶)« شعب»: بمعنى جماعة عظيمة من الناس وتستعمل اليوم بمعنى الامة.

[۸۰۷] (۷)« قائف»: من مادة« قوف» على وزن خوف بمعنى البحث عن آثار الشىء، ويقال القائف لمن يتتبع آثار الأشياء أوالأفراد، وهذا هو معنى معرفة القيافة.

[۸۰۸] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۹/ ۱۲۸.

[۸۰۹] (۲)« ليشحذن»: من مادة« شحذ» تعنى فى الأصل حدّ السكين، إلّاأنّها وردت بمعنى حدّ الذكاء والاستعداد.

[۸۱۰] (۳)« القین»: بمعنی الحداد، ولهذه المفردة معنی مصدری یعنی الحدادة والإعداد.

[۸۱۱] (۴)« یغبقون»: من مادة غبوق بمعنی یسقو بالماء فی مقابل صبوح بمعنی یشرب وقت الصباح ومصدرها غبق علی وزن غبن.

[۸۱۲] (۵) شرح نهج البلاغة لابن أبی الحدید ۹/ ۱۲۹.

[۸۱۳] (۱) ومن ذلک کتاب للعالم المعروف الشوکانی تحت عنوان التوضیح فی تواتر ما جاء فی المنتظر(راجع کتاب نفحات القرآن ۱۰/ ۴۲۳).

[۸۱۴] (۲) مسند أحمد ۳/ ۳۶.

[۸۱۵] (۳) سنن أبی داود ۴/ ۱۵۲.

[۸۱۶] (۱)« غیر»: جمع« غیرة» بکسر ففتح بمعنی حوادث الدهر والتغیرات التی توجب تغیر النعم، وقال البعض غیر مفرد ولا جمع.

[۸۱۷] (۱)« اخلولق»: من مادة« خلق» أحد معانیها القدم، وتعنی هنا الانتهاء لأنّ لازمة القدم انتهاء العمر الشیء.

[۸۱۸] (۲)« اشالوا»: من مادة« شول» علی وزن قول تعنی فی الأصل رفع الشیء کرفع الحیوان لذیله، وتعنی هناالکف عن القتال.

[۸۱۹] (۳)« لقاح»: تعنی بدایة الحرب.

[۸۲۰] (۱)« غالتهم»: من مادة« غول» علی وزن قول تعنی فی الأصل الفساد الذی ینفذ فی الشیء بصورة خفیة، ومنهنا یقال غیلة للأغتیال والقتل السری، ووردت هذه المفردة بمعنی الهلکة والتضاد بعوامل خفیة، ولما کانت الضلالة بمعنی الهلکة المعنویة فقد جاءت بهذا المعنی وهو المراد فی العبارة.

[۸۲۱] (۲)« ولائج»: جمع« ولیجة» بمعنی نظیر ومثیل وشبه وخاصة الرجل من أهله.

[۸۲۲] (۱) سورة الشوری/ ۲۳.

[۸۲۳] (۲)« رص»: بمعنی الصاق شیء بآخر ویطلق المرصوص علی کل بناء محکم، ورص العبارة المذکورة بمعنیمرصوص، وعبارة الإمام رص أساسه من قبیل إضافة الصفة علی الموصوف یعنی الأساس المحکم للولایة.

[۸۲۴] (۳)« غمزة»: من مادة غمز علی وزن أمر بمعنی إزالة آثار الشیء، ثم اطلق علی الماء الوفیر الذی یغطی شیئاًویزیل آثاره، وفی الخطبة إشارة إلی الأفراد الذین غطوا فی الغفلة والضلالة.

[۸۲۵] (۴)« ماروا»: من مادة« مور» علی وزن فور بمعنی الحرکة السریعة والاضطراب.

[۸۲۶] (۱) سورة القصص/ ۴.

[۸۲۷] (۱) یمکن الوقوف علی شرح کلام ابن أبی الحدید واعترافاته وتوجیهاته الضعیفة فی شرح نهج البلاغة ۹/ ۱۳۴.

[۸۲۸] (۲) صحیح البخاری ۸/ ۲۱۷، ح ۱۶۵(باب ما جاء فی حوض النبی).

تعریف مرکز

بسم الله الرحمن الرحیم

جاهِدُوا بِأَمْوالِکُمْ وَ أَنْفُسِکُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَیهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْیَا أمْرَنَا... یَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ یُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ کَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخیص بحار الأنوار، للعلاّمة فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشَّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آباذی" – "رَحِمَهُ اللهُ" – کان أحداً من جَهابذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و

بِساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائمیّة "للتحرّی الحاسوبیّ – بأصبَهان، إيرانَ – قد ابتدَأ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عنايةِ سماحة آيةِ الله الحاجّ السيّد حسن الإماميّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجی الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثَّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشَّباب و عموم الناس إلی التَّحَرّی الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فی المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التی يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، علی أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ – فی آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فی أنحاء العالَم – مِن جهةٍ اُخرَی.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائميّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخَرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلميّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائیّ و اليدویّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّی (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَةِ

المكتب الرّئيسیّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائی/"بناية"القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفِّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - في حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا في هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.